

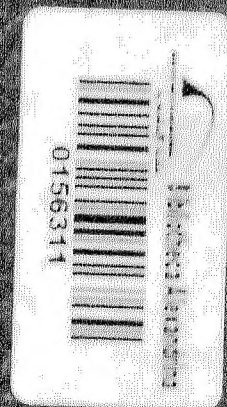
في ظلال نخيل البكاغة

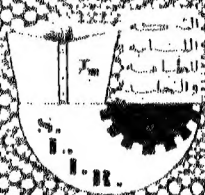
محاولة لفهم جديده

من
محمّد جواد مغنّيّة

للمجلد الرابع

دارالعلم للملایین
بیروت







فِي ظِلَالِ نَجْمِ الْبَلَاغَةِ

مُحَاوَلَاتُ الْفَنَنِ جَدِيدٌ

فِي ظِلَالِ نَجْمِ الْبَلَاغَةِ

مُحَاوَلَةٌ لِنَفْثِهِمْ جَدِيدٌ

شرح

محمد جواد مغنیه

الجزء الرابع

دار العلم للملايين

ص.ب. ١٠٨٥ - بيروت

الطبعة الأولى : ١٩٧٣

الطبعة الثالثة
تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٩

الرسالة

- ٤٢ -

الى مصقلة بن هبيرة :

بَلَّغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ وَأَغَضَبْتَ
إِمَامَكَ : أَنْكَ تَقْسِمُ فِيءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخِيُولُهُمْ
وَأَرِيقَتَ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ فَيَمِنَ اعْتِمَاكَ مِنْ أَغْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِي
فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَيْسَ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَانًا ،
وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا . فَلَا تَسْتَنِ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ
بِمَحَقِّ دِينِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ
قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سِوَاكَ يَرِدُونَ عِنْدِي
عَلَيْهِ وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ .

اللغة :

اعتامك : اختارك . وقبل - بكسر القاف وفتح الباء - عند ، وتأني بمعنى

الطاقة . ويردون : يحضرون المورد . ويصدرون : يرجعون .

الإعراب :

المصدر من انك بدل من أمر ، وميراثاً تمييز ، ومثله أعمالاً ، وسواء خبر إن .

المعنى :

كان الإمام يضع العيون على عماله يراقبون تصرفاتهم ، ويتتبع هو أخبارهم . فإذا بلغه ان أحداً منهم اعتدى على بيت المال ، واستغل وظيفته ، أو أجحف بضعيف ، ومنعه من طلبته — كتب اليه يهدده ويتوعده ، وهذا ما دعا بعض العمال أن يتركوا الإمام ، وينضموا الى معاوية ، ومنهم من كان يطعن عليه لا لشيء إلا استثقلاً للحق .

وفي شرح الخطبة ٤٤ نشير الى ان مصقلة بن هبيرة هرب الى معاوية لأن الإمام طالبه بحق المسلمين ، وكان عاملاً له على بلدة من بلاد العجم تسمى اردشير خرة ، وكان قد بلغ الإمام ان مصقلة — قبل هروبه الى معاوية — كان يحرم المسلمين من أموالهم ، ويؤثر بها أرحامه ، وأبناء قبيلته ، فكتب اليه بذلك ، وقال له من جملة ما قال : ان هذه الأموال حق للمسلمين اكتسبوها بالجد والجهاد ، وأنت أجبر لهم ، وقائم على ما فيه حياتهم ، وعليك ان لا تستهين بشيء منه ، تماماً كما تحرص وتهم بأمنهم والدفاع عنهم ، وان تقسم الأموال بينهم بالحق والعدل لا بالشهوات والأهواء ، فتؤثر أهلك وذويك على حساب الكادحين والمجاهدين .

(ولئن كان ذلك حقاً الخ) .. لآخذنك بما أنت أهل له من العقوبة والتأديب ، فإن القوي عندي ضعیف حتى آخذ الحق منه ، والدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، كما قال في الخطبة ٣٧ (ولا تصلح دنياك بمحق دينك) . كيف تطلب الجاه والمال من طريق البغي والجور ، وتستهين بغضب الله وعذابه ؟ وأي عاقل يطلب الصحة بالسقم ، والنعم بالجحيم ؟.

(ألا وان حق الخ) .. المسلمين في المال تماماً كحقوقهم في الماء يردون عليه ،
ويصدرون عنه على السواء لا فرق بين كبير وصغير ، وأسود وأبيض . ونظرية
الإمام في المال يعرفها الجميع ، وهي كما أعلنها في الخطبة ١٢٤ : « لو كان
المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ » .

الرسالة

- ٤٣ -

الى زياد ابن أبيه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَوِلُ لُبَّكَ وَيَسْتَفِلُ غَرْبَكَ ،
فَاحْذَرُهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ . وَقَدْ كَانَ مِنْ
أَيِّ سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ فَلَتَهُ مِنْ حَدِيدِ النَّفْسِ وَتَوَعُّهُ مِنْ نَوَغَاتِ
الشَّيْطَانِ لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا
كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ وَالنَّوَطِ الْمَذْبَذِبِ .

اللغة :

يستزل : يحمل غيره على الزلل واقتراف الذنوب . واللب : العقل . ويستفل :
يثلم . وغربك : نشاطك وحدتك ، يقال : أخاف عليك غرب الشباب أي حدته .
والغرة - بكسر الغين - الغفلة والسداجة . والغفلة : ما يكون من غير روية

وتذبير . والنزغة : الدعوة والوسوسة والحركة ، ولا تكون إلا بالشر والمفسدة
والواغل : المتطفل . والمدفع - بتشديد الفاء - الممنوع . والنوط : ما يوضع على
ظهر الدابة دون أن يُثبت ويُشدّ بشيء .

المعنى :

أبدأ لا يعرف معاوية اليأس تماماً كالاستعمار ، طمع فيمن اعتزل القتال أن
يقف الى جانبه ، وكتب اليه يستنجد به ضد الإمام كعبدالله بن عمرو وسعد
ابن أبي وقاص ، بل كتب لأشد الناس ولاء وإخلاصاً للإمام كقيس بن سعد
ابن عباد الأنصاري . واذن فلا بدع اذا كتب الى زياد بن أبيه او ابن أمه سمية
وأغراه بما أحب وأراد ، وكان زياد آنذاك والياً على فارس أو بعض أعمالها على
حد تعبير ابن أبي الحديد . ولما علم الإمام بكتاب معاوية أرسل الى زياد هذه
الرسالة :

(وقد عرفت ان معاوية كتب اليك) يُمكنك ويُغريك فلا تتبع خطواته .
انه شيطان الإنس بعينه (وقد كان من أبي سفيان الخ) .. يشير الى كلمة
نفث بها الشيطان على لسان أبي سفيان .. فقد تكلم زياد ، وهو غلام حدث ،
بحضرة عمر ، فأعجب الحاضرون بكلامه ، وقال ابن العاص : لله أبو هذا الغلام
لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : أنا وضعته في رحم
أمه .. وليس من شك ان مثل هذه النفثة الشيطانية لا تثبت بها نسب ولا سبب.

وفي شرح ابن أبي الحديد : « ان زياد هو ابن عبيد ، وقال الناس :
ابن أبيه لخمولى عبيد، ولما استلحقه معاوية قال بأكثر الناس : زياد بن أبي سفيان،
لأنهم يتبعون الملوك ، وليس أتباع الدين إلا كقطرة من البحر المحيط » . وقول
الإمام : (كالأغل المدفع ، والنوط المذبذب) ، معناه ان زياداً لو ألصق بأبي
سفيان يصير مجهول النسب لا يعرف له أصل ، ومذبذباً بين عبيد وأبي سفيان .

العقاد ودهاء العرب :

وللمرحوم العقاد كلام حول زياد والمغيرة بن شعبة وابن العاص في كتابه « معاوية » ومن المفيد أن نلخصه بما يلي :

سارت الأمثال في صدر الإسلام بدهاء معاوية وهؤلاء الثلاثة ، ولعلنا نستطيع القول : ان هؤلاء الثلاثة قد خدعوا معاوية وسخروه لمطالبهم ، لأنهم عرفوا أن مآربهم ودنياهم توجد عند معاوية ، ولا يجدونها عند غيره ، ولو استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلموها له طوعاً ، أما ابن العاص فقد كان يعلم ان الحق لعلي . وما وقف مع معاوية إلا طمعاً بمصر ، وقد صارع معاوية بذلك بلا مواربة ، وقال له : وهو يساومه : أترى ائنا خالفنا علياً لفصلنا منا عليه ! لا والله . ان هي الا الدنيا نتكالب عليها ، وإيمن الحق لتقطعن لي قطعة من دنياك وإلا نابذتك .

وأما المغيرة فقد رضي بولاية الكوفة ، ولما استقر الأمر لمعاوية هان عليه المغيرة ، وهمّ بعزله ، ولما عرف المغيرة ذلك دبر حيلته التي أرغم بها معاوية على إبقائه في منصبه ، وهي وسوسته ليزيد أن يعهد اليه أبوه بالخلافة من بعده ، ولما أخبر يزيد أباه بما قال المغيرة تعجل لقاءه وابتدعه سائلاً : ومن لي بهذا الذي قلته ليزيد ؟ فقال له المغيرة : الأمر سهل ، أنا أكفيك الكوفة ، ويكفيك زياد البصرة ، والشام بيدك ، وبقية الأمصار تبع . فقال له معاوية : ارجع الى عملك .

وأما زياد فكان آخر المبايعين من الدهاء الثلاثة ، ولم يستطع معاوية اقناعه في حياة الإمام ، فقد كتب اليه ، وهو والي للإمام ، ولكن زياداً حين قرأ كتابه قام في الناس خطيباً وقال : العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ، يخونني بقصده اياي ويبني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار . وبعد صلح الإمام الحسن ذهب المغيرة بأمر من معاوية الى زياد ، وسأومه على إلحاقه بأبي سفيان وولاية ما أحب من البلاد ، فاستجاب زياد على هذا

الشرط ، وتمت الصفقة بينه وبين معاوية كما تمت مع المغيرة وابن العاص ..
وهكذا أبناء الدنيا لا يفهمون ولا يتخاطبون إلا بلغة بيع الذم وشرائها .
وختم العقد حديثه عن الثلاثة بقوله : ان أحداً من هؤلاء لم يُغلب على
رأيه بدهاءٍ من معاوية ، وانما أفادوا منه جميعاً فوق ما أفادوه ، واستفاد
منهم .

الرسالة

- ٤٤ -

الى عثمان بن حنيف الانصاري .. فقرة ١ - ٤ :

أَمَا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ
دَعَاكَ إِلَى مَادِيَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ
الْجِفَانُ ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ يَخْفَوُ .
وَحَنِينُهُمْ مَدْعُوٌ . فَأَنْظِرْ إِلَى مَا تَقْضِيهِ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ ، فَمَا أَشْتَبَهُ
عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظَةُ ، وَمَا أَتَقَنَّتْ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَقُلْ مِنْهُ ^(١) . أَلَا
وَأَنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ، أَلَا وَإِنَّ
إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ . أَلَا
وَأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ
وَسَدَادٍ . فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرَأُ ، وَلَا أَدْخُرُ مِنْ
غَنَائِمِهَا وَفَرَا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا ^(٢) . بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا

فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَتُهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ
عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ . وَنِعَمَ الْحَكَمُ اللَّهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ
فَدَكٍ وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظِلْمَتِهِ آثَارُهَا ، وَتَغِيبُ
أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأُوسِعَتْ يَدَا حَافِرِهَا لَأَضْغَطَهَا
الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ ، وَسَدَّ فُرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي
أَرُوضَهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَى
جَوَائِبِ الْمَزَلَقِ^(٣) . وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا
الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمَحِ وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَرْزِ ، وَلَكِنْ هِيَئَاتِ أَنْ
يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشْعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعِمَةِ . وَلَعَلَّ بِالْحِجَارِ أَوْ
الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقَرْصِ وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّعْبِ ، أَوْ أَيْدَتِ
مِيطَانًا وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرَّتْنِي وَأَكْبَادُ حَرَّتْنِي ؟ أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ ؛
وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ^(٤)

اللغة :

الجفان : جمع الجفنة أي القصعة . وعائلهم : فقيرهم . وتقضمه : تأكله
بطرف أسنانك . والمقضم : المأكل . وطيب الوجه من المأكولات : ما كان منها
حللاً . وطمره : ثوبه الباليين . والتبر : فئات الذهب . والوفر : المال الكثير .
والجدث : القبر . والمدر : الطين . والمزلق : موضع الزلق . والجشع : الطمع
وشدة الحرص . واليامة : مدينة من اليمن، وفيها خرج مسيلمة الكذاب . والميطان :

ممتلئ البطن . وغرثى : جائعة . والبطنة : التخمة . والقدر : جلد السخلة واللحم
القديم ، والمراد به هنا الطعام .

الإعراب :

لهي أي الدنيا ، اللام للابتداء ، وفائدتها التوكيد ، والله مبتدأ ، وجملة
نعم الحكم خبر ، والنفس مبتدأ أول ، ومظانها مبتدأ ثانٍ ، وحدث خبره ،
والجملة خبر المبتدأ الأول ، وآمنة حال ، وهيهات اسم فعل بمعنى بعد ، ومبطاناً
حال ، وحسبك مصدر بمعنى كافيك ، وهو مبتدأ ، وداء تمييز ، والمصدر من
أن تبيت خبر .

المعنى :

عثمان بن حنيف - بضم الحاء - صحابي جليل من الأنصار الذين آووا
النبي (ص) وفسدوه بالأرواح ، وهو من قبيلة الأوس . قال ابن عبد البر في
« الاستيعاب » : ذكر العلماء أن عمر بن الخطاب استشار الصحابة في رجل يوجهه
إلى العراق ، فأجمعوا جميعاً على عثمان بن حنيف ، وقالوا : إن تبعته إلى أهم
من ذلك فإن له بصراً وعقلاً ومعرفةً وتجربةً ، فأسرع عمر فولاه مساحة أرض
العراق وضرب الخراج والجزية .. ثم ولاه الإمام علي بن أبي طالب البصرة
حتى نزل بها طلحة والزبير فقال ابن حنيف ما زاد من فضله ، وسكن الكوفة
بعد استشهاد الإمام . وقال ابن أبي الحديد في شرح هذه الرسالة : إنه مات
بها في زمن معاوية .

كتب الإمام إليه ، وهو واليه على البصرة : (أما بعد ، يا ابن حنيف
- إلى - مدعو) . الإمام يحكم باسم الله والإسلام ، وإذن فلا بدع أن يحاسب
عامله على أكل الطيبات من الرزق ، لأنها تحمل وتطيب لغير الحاكم ، أما للحاكم
فهي خبيثة وقبيحة ما دام في الرعية محروم واحد ، لأن الله تعالى قد فرض على
حكام العدل أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس من الرعية ، كما قال الإمام في
الخطبة ٢٠٧ .

وقال العقاد في كتابه « عبقرية الإمام » : « وقد بلغ من حساب الإمام للولادة أنه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها ، فكتب الى عثمان بن حنيف الأنصاري : « فقد بلغني الخ .. واستكثر على شريح قاضيه أن يبني داراً بثمانين ديناراً ، وهو يرزق خمسة درهم ، وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء » .

وقال عبد الكريم الخطيب في كتابه « علي بن أبي طالب » : « سمع الإمام ان عامله على البصرة عثمان بن حنيف قد دعي الى وليمة أعدها له أبناء البصرة ، فثارت لذلك ثائرته ، وأعلنها حرباً على ابن حنيف حتى انه ليكاد يمسك به من حلقومه فيقيئه ما أكل » .

(فانظر الى ما تقضمه الخ) .. المراد بالقضم والمقضم هنا الأكل والمأكول ، وأطلق الإمام عليه هذا الوصف للتنبيه الى ان الغرض من القوت مجرد حفظ الحياة ، والمعنى حتى القوت الضروري لا يحل لك إلا إذا جزمت وأيقنت بأنه حلال زلال ، ويحرم إذا كان فيه أدنى شبهة للحرام .. ومن هنا قال الفقهاء : الأصل في الأموال التحريم حتى يثبت العكس ، وانها لا تحل أبداً إلا من حيث أحلها الله .

(ألا وان لكل مأموم إماماً الخ) .. أنت يا ابن حنيف مرعوس ومأموم ، وأنا رئيسك وإمامك ، وعليك أن تقتدي بي وتهتدي بهديي ، وأنا كما تراني استر جسمي بثوبين خلقين ، وقد رقت مدرعتي حتى استحييت من راقعها (انظر شرح الخطبة ١٥٨ فقرة : مدرعة علي تنص عليه) أما قوتي فقرصان من الشعير بقشره .. وقال بعض أصحاب الإمام لخادمته : ألا تتقون الله في هذا الشيخ ؟ ألا تنخلون هذا الطعام من النخالة ؟ قالت : أمر أن لا ننخل له طعاماً .

(ألا وانكم لا تقدرون على ذلك) لأن لهذا النوع من الزهد أهلاً يأخذون من الدنيا لبطن الأرض لا لبطونهم ، وللآخرة لا للأولى (ولكن أعينوني الخ) . بالكف عما حرم الله ، وبكبح الشهوات عما تطمح اليه .. إن لأجسامكم حقاً عليكم ، ما في ذلك ريب ، فأدوه على وجهه ، ولا تتجاوزوا عن حده .

(فوالله ما كنت من دنياكم الخ) .. إن لي أهلاً وأولاداً ، واني على جمع المال لقادر ، وهذا هو بين يدي أوزعه على المحاويج ، ولا أدخر منه لنفسي وأهلي قليلاً ولا كثيراً .

وهكذا لو نظر المرء الى كل حاكم مخلص لوجده يسمو به العدل والخوف من الله ان يقدر نفسه بضعة الناس من رعيته ، فيكتفي من اللباس بطمرين ، ومن الطعام بقرصين كيلا يتبجح بالفقر فقره كما قال الإمام في الخطبة ٢٥٧ . وفي الحديث : ان رسول الله (ص) ما اتخذ قيصين ولا إزارين - بل قيصاً وإزاراً - ولا زوجين من النعال .

(بلى كانت في أيدينا فذلك الخ) .. وهي قرية في الحجاز كانت لجماعة من اليهود ، فصالحوا رسول الله (ص) عليها ، او على نصفها حسب اختلاف الروايات ، فلحقها النبي بنص الآية الأولى من سورة الأنفال ، ثم وهبها لابنته سيدة النساء ، وتصرفت بها في حياته، ولما انتقل الى الرفيق الأعلى أخذها أبو بكر، وقال : هي للمسلمين ، فأغضى الإمام وتجاهل ، ولم يثرها حرباً عملاً بمبدأه الذي أعلنه في الخطبة ٧٢ : « والله لأُسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة » وعليه يكون المراد بشحت نفوس نفس أبي بكر ومن وافقه وآزره على عمله ، والمراد بسخت عنها نفوس نفس الإمام وفاطمة . وتقدم الكلام عن ذلك بنحو من التفصيل في شرح الخطبة ٢٠٠ على ما وعته الذاكرة .

(وما أصنع بفدك وغير فدك ؟ الخ) .. وهل انتفع بالعقار والأموال ، وأنا محمول على الأعواد ، أو في قبر موحش مظلم يتراكم من فوق التراب أو تسدد عني الحساب حين وقوفي بين يدي الله يسألني عما جمعت وتركت وفعلت؟ وهل من شيء أقسى على الإنسان من أن يكذب ويشقى في جمع الحطام ، ثم يتركه الى غيره لا ينتفع به في قبره ويوم حشره ؟

(وأنما هي نفسي أروضها بالتقوى الخ) .. والتقوى هي دعوة الاسلام والقرآن : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة - النساء » . وقوله : « من نفس واحدة » يرمي الى ان التقوى عند الله أن تساوي نفسك بكل نفس ، ولا ترى لها فضلاً على سواك كائناً من كان إلا بالتقوى، ومعنى ترويض النفس بالتقوى أن تطهرها من كل شائبة كالبغيض والكذب والحسد ، وان تحيي ضميرك بحب الخير للناس ، كل الناس .

(ولو شئت لاهتديت الطريق الخ) .. ان لرسول الله (ص) معجزات شتى، وحاول بعض الباحثين أن يجعل من فقر النبي معجزة كبرى تصاف الى معجزاته الجملة لأن معنى الإعجاز في واقعه أن يفعل الإنسان ما يعجز عنه غيره .. وقد كانت أموال الجزيرة العربية تُجبي لرسول الله (ص) فيوزعها على الناس، ويبيت طاوياً هو وأهل بيته على التمر والماء ، ولا يستطيع هذا إلا من كان رحمة مهداة للناس أجمعين .

وعليه فالإمام رحمة مهداة ، لأن أموال الجزيرة وغيرها كانت تُجبي اليه ، ويوزعها على الناس ، وهو في أشد الحاجة الى بعضها تماماً كما فعل الرسول الكريم (ص) .. هذا ، وهو يرى ذلك واجباً وإلزاماً لا تفضلاً وإحساناً، ويقول: كفى بالمرء قسوة وضراوة أن يتقلب في النعيم ، وحوله أكباد نحن الى لقمة العيش.. وأعظم منه لؤماً وإثماً من يعيش على حساب الآخرين يصنعون له الغنى والترف ويصنع لهم البؤس والفقر .

الشجرة البرية .. فقرة ٥ - ٩ :

أَفْقَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ . فَمَا خُلِقْتُ لِإِشْغَالِي أَكُلِ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَيْمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمَّهَا عَلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا . أَوْ أَتَرَكَ سُدَى أَوْ أَهْمَلَ عَاشِئاً ، أَوْ أَجَرْتُ حَبْلَ الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَغْشَيْتُ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ . وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً ، وَالرَّوَائِجَ الْخَصِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً ، وَالنَّبَاتَاتِ

الْبَدْوِيَّةَ أَقْوَى وَفُودًا وَأَبْطَأَ نُحُودًا^(٥) . وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالصَّنَوِ
 مِنْ الصَّنَوِ وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعَصْدِ . وَاللَّهُ لَوْ تَطَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي
 لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أُمَكَّنْتُ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ،
 وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ وَالْجَنْمِ
 الْمَرْكُوسِ حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ^(٦) . إِلَيْكَ عَنِّي
 يَا دُنْيَا فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ ، قَدْ أُنْسَلْتُ مِنْ تَحَالِيكَ ، وَأَفْلَتُ مِنْ
 حَبَائِلِكَ ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِصِكَ . أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ
 غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِيكَ . أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكَ . هَا هُمْ
 رَهَائِنُ الْقُبُورِ وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ . وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَرِيئًا
 وَقَالِبًا حَسِيًّا لَأَقْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِي وَأُمَمِ
 الْقَيْنِيهِمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكِ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ وَأُورَدْتِهِمْ مَوَارِدَ
 الْبَلَاءِ إِذْ لَا وَرْدَ وَلَا صَدَرَ . هَيْهَاتَ مَنْ وَطِئَ دَحْصَكَ زَلِقَ ،
 وَمَنْ رَكِبَ لُجْجَكَ غَرِقَ ، وَمَنْ أَزُورَ عَنْ حَبَائِلِكَ وَفَّقَ . وَالسَّلَامُ
 مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مَنَاحُهُ وَالْدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ حَاتٍ
 أَنْسِلَاحُهُ^(٧) . أَعَزُّبِي عَنِّي . فَوَاللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَذِلُّنِي ، وَلَا
 أَسْلَسُ لَكَ فَتَقُودِينِي . وَأَيُّمُ اللَّهِ يَمِينًا أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ
 لَأَرْوِضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْفُرَصِ ، إِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ

مَطْعُومًا ، وَتَقْنَعُ بِالْمَلْحِ مَادُومًا ، وَلَا دَعْنَ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ
مَعِينَهَا ، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . اَتَمْتَلِي السَّائِمَةَ مِنْ رَعِيهَا فَتَبْرُكُ ،
وَتَشْبَعُ الرِّيبَضَةَ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرِضُ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ ؟
قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ إِذَا أَقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَيْمَةِ الْهَامِلَةِ ،
وَالسَّائِمَةِ الْمَرْغِيَةِ ^(٨) . طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا ، وَعَرَّكَتْ
بِجَنْبِهَا يُوسَّسَهَا . وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا
أَفْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا فِي مَعْشَرٍ أَسْرَعَ عُيُونُهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ،
وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ . وَهَمَّتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ،
وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَبْنَى حَنِيفٍ وَلْتَكُنْفِكَ أَقْرَاصُكَ
لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ ^(٩) .

اللغة :

الخشوبة : الخشونة . وتقمتمها : تأكل القمامة أي الكناس . وتكثرش :
تملاً كرشها ومعدتها . واعتسف الطريق : سار بلا هداية ودراية . والمتاهة :
مكان الحيرة . والوقود - بفتح الواو - المحروقات، وبضمها مصدر أي الاشتعال .
والصنو : الأخ الشقيق ، والصنوان : فرعان لأصل واحد . والذراع : الساعد
من طرف المرفق الى طرف الاصبع الوسطى . والعضد : من المرفق الى أعلى
الكتف . وتظاهرت على قتالي : تعاونت عليه . والمعكوس : المقلوب . وحب
الحصيد : حب النبات المحصود . والغارب : العنق ، وأعلى الظهر مما يلي العنق ،
وأعلى كل شيء . ومداعب : جمع مدعبة أي دعاية . والورد : الإشراف على

الماء . والصدر : الرجوع عنه . والزلق : لا تثبت فيه الأرجل . وازور :
 انحرف . وانسلاخه : ذهابه . واعزبي : ابعدي . وأسلس : لان . وهش :
 ابتسم وارتاح . والمأدوم : ما يؤكل مع الخبز . والريضة : الغنم المجتمعة في
 مرايضها مع رعاتها . وتربض : تبرك . ويهجع : يسكن . وقرت عينه : بردت .
 والبهيمة الهاملة : المتروكة بلا راع . وعركت بجنبها بؤسها : كناية عن الصبر
 على الأذى . والغمض والكرى : النوم . والهمهمة : الصوت الخفي . وتقشعت :
 انجلت .

الإعراب :

كالبهيمة الكاف بمعنى مثل حالاً من مفعول يشغلي ، ومثلها سدى وعابثاً ،
 وعوداً تمييز ومثله جلوداً ووقوداً وخموداً ، واليك عني «إليك» اسم فعل بمعنى
 ابعدي . ومطعمواً حال ، ومثله مأدوماً ، وطوبى مصدر بمعنى الطيب ، مبتدأ ،
 ولنفس خبر .

المعنى :

(أقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين الخ) .. يسأل الإمام كل
 حاكم : هل الغرض من الحكم الألقاب الفارغة ، والمظاهر الكاذبة ؟ وهل أنت
 مقتنع بينك وبين نفسك بذلك ، أو تستطيع أن تُقنع به واحداً على وجه الأرض ؟
 وجواب الحاكم عن هذا السؤال قولاً وفعلاً هو الذي يحدد حقيقته وشخصيته ،
 ويعد هذا السؤال حدد الإمام وظيفته ومكانته في الحكم ، حددها بالوحدة الإنسانية ،
 ومساواة الحاكم للرعية في كل شيء حتى في مكاره العيش ، ومن البديهة ان هذه
 المساواة تضمن الحرية للجميع ، والتعاون على مصلحة الجميع .

(وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا قوت ابن أبي طالب الخ) .. إن
 البطولة والشجاعة لا تقاس بنوع الطعام ، وإنما تقاس بالصبر والثبات ، وتوطين
 النفس على الموت ، وبقوة الجسم والعصلات ، والمواقف التي سجلها التاريخ للإمام
 في غزوات النبي (ص) وحروبه - تشهد بأنه فارس الاسلام والعرب (ألا وإن

الشجرة البرية أصلب عوداً) من الشجرة الأهلية ، لأن هذه تحيا بالحرث والسماد والماء السائح والتقليم والتطعيم ، وتحيا تلك على الطبيعة لا أثر فيها للصناعة ويد الانسان (والروائع الخضرة) وهي الأعشاب الغضة التي تعجبك بمنظرها (أرق جلوداً) من الأعشاب (والنباتات البدوية أقوى وقوداً) لنفس العلة الموجبة لصلابة الشجرة البرية. والقصد من هذا هو التنبيه الى ان في التقشف والخشونة القوة والصلابة ، وفي الترف والرفاهية الضعف واللين. ومعلوم ان معاوية كان يتقلب في النعيم كالروائع الخضرة .

(وانا من رسول الله كالصنو الخ) .. النبي وعلي من طينة واحدة ، وأصل واحد ، وكان النبي صلب العود ، وعلي سيفه وساعده . وقال المفسرون : إن كلمة « أنفسنا » في آية المباهلة أراد بها سبحانه محمداً وعلياً : « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم — ٦١ آل عمران » . (والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها) . والسر ان الإمام لا يبالي بدخول الموت ، او خرج الموت اليه كما قال في الخطبة ٥٥ ، بل هو آنس به من الطفل بثدي أمه كما قال في الخطبة ٥ . وقال العقاد في آخر كتاب « عبقرية الإمام » : خُلق علي شجاعاً بالغاً في الشجاعة ، والشجاع جريء لا يبالي بالحياة .

(ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها) أي الى رقاب الضالين المضلين من العرب (وسأجهد في أن أظهر الأرض من هذا الشخص) وهو معاوية ، ونعته بالمعكوس لانعكاس عقيدته وفسادها ، وبالمركوس لارتكاسه بالشهوات والمحرمات (حتى تخرج المدرة) القطعة من الطين اليابس ونحوها (من بين حب الحصيد) أي من ثمر الزرع وفاتحه كالخنطة والشعير ، وغيرهما من الحبوب . ويجمل المعنى ان الإمام يريح الانسانية من شر معاوية إن استطاع الى ذلك سبيلاً .

(ألبك عني يا دنيا فحبك على غاربك) لا حاجة لي فبك ، فقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، كما قال في الحكمة رقم ٧٧ (وقد انسلت من محالبك الخ) .. لقد حررت نفسي من ملذات الدنيا وأهوائها ، ووقفتها على الآخرة وجزائها (أين القرون الذين غرهم الخ) .. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . وتقدم مثله مراراً وتكراراً (ومن وطىء دحضك زلق) الخطاب للدنيا ، ودحض الحجة إبطالها ، ودحض الأرض زلقها (والسالم منك) أي من فتن الدنيا وغرورها (لا يبالي ان ضاق به مناخه الخ) .. المناخ - بضم

الحاء - مبرك الإبل ، والمراد به هنا العيش وغيره من شؤون الدنيا ، والعاقل لا يكثر بالدنيا وآلامها ، لأنها الى زوال، والآخرة هي دار القرار . وسبق التفصيل مرات ومرات .

الإمام في جهاد دائم :

(لا اذل لك فتستدليني) . لا أطمع في شأن من شؤون الدنيا، لأن الطامع في وثاق السدل ، ولا أذل إلا لمن كان التذل له عزة ورفعة (ولا أسلس لك فتقوديني) مها بذلت من الثمن (لأروضن نفسي رياضة الخ) .. من تجرباً على الدنيا جرأة علي بن أبي طالب ، واحتقرها هذا الاحتقار فعليه أن يوطن النفس على الحرمان من متعها ، ويستعد لضربات .. ولذا روض الإمام نفسه حتى قنعت وأعطت الدنيا كل ما تريد من التضحيات، وما أخذت منها إلا قرص شعير بنخالته مع ذرات من الملح تبسم له وترحب به .

ويدلنا هذا على ان الإمام كان في صراع وجهاد دائم ومتصل : فن الجهاد الأصغر في ميادين القتال ضد الشرك والبغي الى الجهاد الأكبر في ترويض النفس وكبحها عن الأهواء والرغبات . وفي حديث قدسي : يموت الناس مرة، ويموت من جاهد نفسه وهواء في كل يوم سبعين مرة .

ان آلام الدنيا لا حد لها ولا نهاية، وطريق الخلاص من كل المتاعب والهموم مقفل ومسدود، والعاقل يعرض عن الدنيا، ويهرب منها، ويتوجه ب كله الى الله وحده، ومعنى الهروب من الدنيا أن تهرب من لهوها ولعبها ، من آثامها ومفاسدها ، من السلب والنهب والبغي والفساد ، والدس والنفاق، ومعنى التوجه الى الله أن تنقيه في أقوالك وأعمالك ، وتجاهد بنفسك وأموالك لمصلحة عباده وعباله .. هذه هي رياضة الإمام وفلسفته ومنهجه في حياته وخلافته .

(طوبى لنفس أدت الى ربها فرضها) وهو أن تترك أثراً ينتفع به الناس من بعده ، وعلى الأقل ان تكف الأذى عن الناس ، ولا تفسد في الأرض. قال الرسول الأعظم (ص) : « كف أذاك عن الناس ، فإنه صدقة تتصدق بها على نفسك » . فسلب الشر خير في دين الاسلام (وعركت بجنبها بؤسها) . صبرت في الحق ، وجاهدت في سبيله ، وتحملت من الأشرار الكثير من البلاء والضراء

طلباً لمرضاة الرحمن وراحة الوجدان (وهجرت في الليل غمضها) خوفاً من التقصير في أداء فرضها الذي أشار اليه الإمام بقوله : « طوبى لنفس الخ » .

(حتى اذا غلب الكرى عليها افترشت الخ) .. هذا كناية عن قناعة النفس بما تيسر ، وانها لا تتكلف ما تعسر . وفي الحديث : إن رسول الله (ص) كانت له حصيرة يجلس عليها في النهار ، وينام عليها في الليل حتى أثرت في جنبه .. ولكنه كان يكره الفقر ، ولا يرضى به ، ويتعوذ منه . ومن دعائه : اللهم اني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة .. ومن أن أظلم أو أظلم .. وفي حديث آخر : كاد الفقر يكون كفرة .

(وفي معشر أسهر عيونهم خوف المعاد الخ) .. عاشت هذه النفس الطيبة القانعة مع أهل الله الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً — ١٦ السجدة » أي خوفاً من عذابه ، وطمعاً في ثوابه (فاتق الله يا ابن حنيف وتكفف أقراصك) . هكذا جاء « لتكفف » فيما لدي من نسخ النهج .. ولعلها خطأ من الناسخ ، وان الأصل « لتكفف أقراصك » أي اكتف عن موائد الذين يدعونك بما لديك من أقراص . وبهذا وحده يكون خلاصك من النار . والله أعلم بالصواب ، ومنه نستمد التوفيق .

وبعدُ فإن هذه الرسالة أوضح وأصدق بيان في تحديد نهج الإمام .

الرمزية

- ٤٥ -

الرفق بالرعية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ يَمُنُّ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ وَأَقْمَعُ بِهِ فُخُوءَ
الْأَثِيمِ ، وَأُسَدُّ بِهِ هَآءَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ . فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ،
وَأَخْلِطِ الشَّدَّةَ بِضِغْتِ مِنَ اللَّيْنِ . وَأَرْفُقْ مَا كَانَ الرُّفْقُ أَرْفَقَ .
وَأَعْتَرِمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا يُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ . وَأَخْفِضِ لِلرَّعِيَّةِ
جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ . وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ،
وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَنِيفِكَ ، وَلَا يَنَاسَ
الصُّغَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

أَسْتَظْهِرُ : استعين . وَأَقْمَعُ : أقهر . وَالنَّخُوءُ : الكبر . وَاللَّهَآءُ : لحمه في
سقف الخلق . وَالثَّغْرُ : ما يهجم منه العدو . وَالضِّغْتُ : الخلط . وَآسِ :
ساوٍ واعدل .

الإعراب :

ما كان « ما » مصدر ظرفية ، وأرفقَ بالنصب خبر كان ، وفي بعض النسخ بالرفع ، وهو خطأ ، وآسَ فعل أمر ، ولا يأس عطف على لا يطمع .

المعنى :

لم يشر أحد من الشارحين الى اسم هذا العامل ، ولا مصلحة دينية أو دنيوية في معرفته كي نتكلف البحث عنه . ويظهر أنه من عباد الله الصالحين وذوي البأس والشجاعة لقول الإمام : (فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين الخ) .. وهكذا الإمام الساهر على مصلحة الرعية يتتبع أخبار عماله ، ويكافئ المحسن بالحمد والمعروف ، والمسيء بالذم والوعيد .

(واخط الشدة بضعف من اللين) اعتدل في معاملتك مع الناس ، لا شدة ولا لين ، بل بين بين ، على أن الرفق أسلم من العنف لدينك ودنياك . قال رسول الله (ص) : « الرفق يمن » ما وُضع على شيء إلا زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه . ولا تستعمل العنف إلا للقضاء على العنف ، وحيث لا يغني عنه شيء . وكان بعض الملوك القدامى يجلس للناس وعلى الخائط قطعة كتب فيها بخط عريض : عندنا الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، والمحسن يجازى بإحسانه والمسيء بإساءته ، والأرزاق في حينها ، لا حجاب عن صاحب ثغر ولا طارق ليل .

(واخفض للرعية جناحك) فإن التواضع يزيدك رفعة عند الله والناس (وآس بينهم الخ) .. عليك بالمساواة بين الجميع حتى باللحظة والنظرة ليكون الضعيف على يقين بأنه في حصن حصين بحاكمه ، وإنك تنتصف له ممن يعتدي عليه كائناً من كان .. وفي الوقت نفسه يقف القوي عند حده ولا يطمع منك في المحاباة على حساب المستضعفين . وتقدم مثله بالحرف الواحد في أول الرسالة ٢٦ .

الرسالة

- ٤٦ -

حين ضربته ابن ملجم :

أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَنْ لَا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتُكُمَا ، وَلَا تَأْسَفَا
عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُيِيَ عَنْكُمَا . وَقُولَا بِالْحَقِّ . وَأَعْمَلَا لِلْأَجْرِ . وَكُونَا
لِلظَّالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا . أَوْصِيَكُمْ وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ
بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي
سَمِعْتُ جَدُّكَمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ
مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ» . وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْأَيْتَامِ فَلَا تَغْبُوا أَفْوَاهَهُمْ
وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ . وَاللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا
ذَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ . وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرَآنِ لَا
يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ . وَاللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .
وَاللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تُخْلَوْهُ مَا بَقِيْتُمْ فَإِنَّهُ إِنْ تَرَكْتُمْ لَمْ تُنَاطَرُوا .

وَاللّٰهُ اَللهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اَللهِ . وَعَلَيْكُمْ
بِالتَّوَّاصِلِ وَالتَّبَادُلِ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ . لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُؤَلَّ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا
يُسْتَجَابُ لَكُمْ . يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ
خَوْضًا تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي .
أَنْظَرُوا إِذَا أَنَا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَأَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَتِهِ ، وَلَا
يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اَللهِ صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ :
« إِيَّاكُمْ وَالْمَثَلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ » .

اللغة :

لا تبغيا : لا تريدان . وزُوي : منع . وذات بينكم : حالكم ، وقال ابن
أبي الحديد : ولا تغبوا أفواههم : اطعموهم في كل يوم ، وليس في يوم
دون يوم ، من أغب فلان أي زار يوماً ، وترك يوماً . ولم تُناظروا : لم ينظر
إيكم باحترام . والتبادُل : العطاء . والتقاطع والتدابير بمعنى . والمثلة : التشويه .

الإعراب :

وجميع مفعول معه لأوصيكم ، ويجوز عطف جميع على ضمير التثنية المنصوب
بأوصيكم ، والله نصب على التحذير . وإيّاكم مفعول لفعل محذوف وجوباً أي إيّاكم
احذَر ، واحذر التدابير على اضمحار حرف الجر أي من التدابير .

المعنى :

(أوصيكم بتقوى الله) . الخطاب للإمامين : الحسن والحسين (ع) وهذه

الوصية قالها حين اغتاله اللعين ابن ملجم ، كسبا جاء في آخرها (وان لا تبغيا الدنيا الخ) .. أي دنيا الحرام . قال رسول الله (ص) : من قال : قبح الله الدنيا قالت الدنيا له : قبح الله أعصانا لربه . (ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما) لأن الأسف لا يرجع ما فات ، ولأن فوات المطلوب في بعض الأحيان يكون خيراً من نيله وإصابته ، ولماذا الآلام والحسرات على ما أنت عنه في غنى؟ . (وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً) فإن كلاً من هذين فرض وحث ، فعون المظلوم معروف يجب الأمر والعمل به ، والظلم منكسر يجب تركه والنهي عنه ، ومن أعان ظالماً أو رضي بفعله فهو شريك له .. إن الظلم سيئة لا تقبل معه حسنة ، وترك الظلم حسنة لا تضر معه سيئة بالنص الصريح عن النبي حيث قال : من أصبح لا يهتم بظلم أحد غفر الله ما اجترم . رواه الكليني في «أصول الكافي» . وتحدثنا مرات عن الظلم . أنظر شرح الخطبة ١٧٤ فقرة « لا اسلام مع ظلم » .

(وصلاح ذات بينكم الخ) .. وصلاح ذات البين أن تصلح بين قوم تفاسدوا وتباعدوا ، وتجعل قلوبهم واحدة ، وكلمتهم متحدة .. وهذا العمل أفضل عند الله من جميع الصلاة والصيام وكل ما كان ويكون من ركوع وسجود ، وتهليل وتكبير ، لأن العبادة أمر خاص بين الانسان وخالقه ، أما النزاع والخصام فأثره عام. حيث يؤدي حتماً الى المظالم والمفاسد ، وضعف المجتمع وانحطاطه ، وفشله وتخلفه ، وتغلب الغزاة والطامعين على البلاد وتحكمهم بأرواح العباد ومقدراتهم . وهل من شيء أدل على ذلك من أوضاعنا الشيعة نحن العرب التي جرأت عدونا وعدو الانسانية أن يحتل جزءاً كبيراً من أرضنا في منطقة استراتيجية ، يهدد كياننا وحاضرنا ومستقبلنا ؟ .. وغريبة الغرائب أن لا يوجد في هذا العصر عربي قوي يُصلح ويجمع الشمل ! . ولا سر - فيما نتصور - إلا ان مركز القيادة بيد الذين لا يستجيون لكتاب ولا سنة ولا عقل وضمير إلا لأهوائهم وأغراضهم .

(الله الله في القرآن) . تقدم في العديد من الخطب، منها الخطبة ١٨ و ١٠٨ و ١٧٤ وغيرها (والصلاة) تقدم في الخطبة ١٩٧ وغيرها (الله الله في بيت ربكم) تقدم في الخطبة ٢٧ وكثير غيرها (ولا تركوا الأمر بالمعروف الخ) .. تقدم في الخطبة ١٥٤ وغيرها .

(لا تقتلن بي إلا قاتلي الخ) .. قال عبد الكريم الخطيب في آخر كتابه

« علي بن أبي طالب » : « سئل الإمام في أمر ابن ملجم ؟ فقال : ان اعش فالأمر لي ، وان أصب فالأمر لكم ، فإن أثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وان تعفوا أقرب للتقوى .. أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه » . وقال جورج جرداق : « لما قال له طبيبه اعهد يا أمير المؤمنين فإن الضربة قد بلغت أم الرأس - لم يتأفف ولم يتشكك ، بل أسلم أمره الى الله ، ثم أملى على الحسين : لا تثار فتنة بسبب قتلي ، ولا يهرق دم ، وان تعفوا أقرب للتقوى » . ومات في الأرض عظيم ، وقام في الناس من تعاضموا . فإذا هنا انسان يموت فيعلو ، وإذا هناك أناس يعيشون فيصغرون .

أما العقاد فقال في كتاب « عبقرية الإمام » : « وُلد في الكعبة ، وضرب في المسجد ، فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة بينها من تلك البداية ، وتلك النهاية » يريد ان حياة الإمام منذ النفس الأول حتى النفس الأخير هي لله وفي الله وحده .

الرسالة

- ٤٧ -

أيضاً الى معاوية :

وَلَا بُدَّ الْبَغْيِ وَالزُّورَ يُذِيعَانِ بِالْمَرْءِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُنْدِيَانِ
خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْيبُهُ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ
فَوَاتُهُ . وَقَدْ رَأَى أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَوَّلُوا عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ .
فَاحْذَرْ يَوْمًا يَغْشِيْطُ فِيهِ مَنْ أَحَدَ عَاقِبَةِ عَمَلِهِ ، وَيَنْدِمُ مَنْ أَمَكَنَ
الشَّيْطَانُ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَازِبْهُ . وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ
مِنْ أَهْلِهِ . وَلَسْنَا إِلَيْكَ أَجْبَنًا ، وَلَكِنَّا أَجْبَنَّا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ .
وَالسَّلَامُ .

اللغة :

يذيعان بالمرء : يفضحانه ، وفي بعض النسخ يوتغان أي يهلكان . وتأولوا :

فسروا ، وقال الشيخ محمد عبده: المراد هنا تطاولوا ، وقال ابن أبي الحديد :
حلفوا من الألية وهي اليمين . ويغتبط : يفرح .

الإعراب :

جملة يغتبط صفة ليوم ، وإياك مفعول مقدم لأجبتنا ، والجملة خبر لسنّا .

المعنى :

(وان البغي والزور الخ) .. الإمام يخاطب معاوية بلغة الدين والأخلاق ،
والعقل والضمير ، وهو لا يفهم ولا يسمع إلا لغة المنفعة والتمسك بالكرسي ..
الإمام يقول له : الظلم والكذب يؤديان بك الى الفضيحة أمام الله والناس ، وهو
يقول : ثم ماذا ؟ اني أبحث عن الحكم لا عما يقول ويريد الله والناس .. ومعاوية
يعلم أنه متى استتب له الأمر ساق الناس كالأغنام بأمواله وعطاياه .. وقد رأينا
رأي العين كيف يصفق الانتهازيون والرعاع ويهتفون للطغاة .. وكلما ازداد الطاغية
عتواً ازداد عدد المصفقين والهاةفين ! وقد أعلن الإمام ذلك بقوله : « هيج وعاع
أتباع كل ناعق » .

(وقد علمتَ انك غير مدرك ما قُضي فواته) وهو الطلب بدم عثمان ، فإنه
ذهب بموته ، وانك تستر به كذباً ونفاقاً (وقد رام أقوام امرأ بغير الحق فتأولوا
على الله فأكلتهم) . الأقوام هم أصحاب الجمل ، طلبوا الخلافة وتذرعوا بدم
عثمان كذباً وافتراء تماماً كما فعل معاوية ، وقد أكلهم سبحانه ، لأن مقاصدهم
تكشفت للناس ، وافتضحوا عند الجميع بالعار والصغار .

(فاحذر يوماً يغتبط فيه السخ) .. ان لك ولكل إنسان يوماً يُجزي فيه
المحسن بالحسن ، والذين أساءوا بما عملوا (وقد دعوتنا الى حكم القرآن الخ) ..
ونحن نستجيب لدعوته في كل حين وأياً كان الداعي ، أما أنت فلست منه في
شيء كي نستجيب لك . قال عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب « صيد الخاطر »

ص ٣٨٥ : كيف يحل لمسلم أن يظن في أمير المؤمنين علي فعل ما لا يجوز ..
انما قاتل بالدليل المضطر له الى القتال ، فكان علي الحق ، ولا يختلف العلماء ان
علياً لم يقاتل أحداً إلا والحق معه ، كيف وقد قال رسول الله (ص) : « اللهم أدِر
الحق مع عليٍّ كيفما دار » .

الرسالة

- ٤٨ -

الدنيا مشغلة :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً
إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا وَلَهْجاً بِهَا ، وَلَكِنْ يَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ
فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا . وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ وَنَقْضُ مَا
أُبْرِمَ وَلَوْ أَعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

المشغلة : ما يُشغل . ولهجاً : ولعاً . ونقض : هدم وحل . وأبرم : أحكم .

المعنى :

من كانت الدنيا كل هم واهتمامه أعمته عن غيرها ، وأصيب بداء الطمع والولع
بها ، وكلما أصاب منها شيئاً ازداد لهفةً على الغائب .. وفي ذلك يقول الإمام :
منهم من لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال . والدليل أصحاب الملايين في هذا العصر .
انهم يحاولون جاهدين أن يوجهوا كل شيء الى زيادة الأرباح ، وكل ما في الدنيا

الى شركة مساهمة ، ولو عمَّ الخراب والدمار شرق الأرض وغربها ، ولم تتسع الأرض لأطاعهم فصعدوا الى القمر بحثاً عن المال وتحقيق الآمال .

والنتيجة (فراق ما جمع - الطامع - ونقض ما أبرم) بالموت أو الآفات ، كما قال الإمام : لكل امرئ في ماله شريكان : الوارث والحوادث . وقال : من طلب الدنيا طلبه الموت ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها (ولو اعتبرت بما مضى) من عمرك وأيام حياتك ، وأنتك الآن لا تحس بشيء مما كنت فيه (حفظت ما بقي) من أيامك القليلة وتبت الى الله، وأحسن وأصلحت .

الرسالة

- ٤٩ -

لا سر دونكم إلا في حرب :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَاحِقِ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَنْ لَا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ وَلَا طَوْلٌ خَصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُورًا مِنْ عِبَادِهِ وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ . أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَنْ لَا أُحْتَجَزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أُطَوِّيَ دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ . وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أَقْفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِي عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ وَلِيَّ عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ ، وَأَنْ لَا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تُقَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ . فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا

عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ يَمِّنِ أَعْوَجَ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْطِمْ لَهُ
الْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ فِيهَا عِنْدِي رُخْصَةً . فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ ،
وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ .

اللغة :

المسالح : مواضع السلاح أي الثغور . والطَّوْل : القدرة والغنى والفضل والعطاء .
واحتجز : اكنم ومنع . ومقطع الحق : ما يقطع به الباطل . ولا تنكصوا عن
دعوة : لا تتأخروا عنها . والغمرات : الشدائد .

الإعراب :

المصدر من أن لا يغيره خبر ان حقاً ، ودنواً تمييز ، والمصدر من أن لا
أحتجز ، اسم ان لكم ، فإن أنتم لم تستقيموا « ان » الشرطية دخلت على فعل
محذوف يفسره الفعل الموجود أي فإن لم تستقيموا أنتم لم تستقيموا .

المعنى :

كتب الإمام هذه الرسالة الى قادة الجيش وأمرائه ، وابتدأها بقوله : (فإن
حقاً على الوالي الخ) .. الولاية تكليف لا تشريف ، وخدمة لا سيادة ، فإن
كان للوالي من فضل فهو في إخلاصه وحسن تدبيره للرعية ، وفي تقديره لنفسه
بأضعف الضعفاء منها ، ودفع الظلم والأذى عنها .

(وان لكم عندي ان لا أحتجز الخ) .. أنتم اخواني أتعاون معكم على خير
الاسلام والمسلمين ، ولا أخفي عنكم أي سر إلا اذا دعت الحاجة والمصلحة الى
الخفاء والكتمان كخطة الحرب والقتال خزاناً أن تتسرب الى العدو ، فتعرضوا

أنتم والبلاد للخطر والهلاك .. وهكذا فعل الرسول الأعظم (ص) من قبل :
أرسل أول سرية مسلحة لاعتراض قوافل قريش بقيادة عبدالله بن جحش الأسدي
وكتب كتاباً سلمه له ، وأمره أن لا يفتحه إلا بعد ليلتين من بداية انطلاقه للقيام
بمهمته .. ويدلنا هذا ان التكمم والتمويه في التخطيط والعمليات الحربية ليس من
مبتكرات الغرب ، وان المسلمين هم السابقون الأولون الى ذلك .

(ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم) على أحد الحصين المترافعين لدي ..
وأيضاً يدل هذا على ان الاسلام سبق الشرائع الوضعية في حكمه بأن القاضي لا
يجوز له أن ييدي رأيه في الدعوى التي ينظرها إلا بعد انتهاء المرافعة وعند إعلان
الحكم . وان للطرف الآخر أن يطعن في الحاكم وحكمه اذا كان قد أبدى رأيه
من قبل (ولا أؤخر لكم حقاً) مادياً كان كالراتب والعطاء ، أو أدبياً كال تقدير
والرتبة (ولا أقف دون مقطعه) بل أبت به بلا تأخير ومماثلة (وان تكونوا
عندي في الحق سواء) بلا تفاضل ومحابة لقوي أو قريب .

(فإذا فعلت ذلك) أي أدت لكل ذي حق حقه كاملاً ومعجلاً (وجبت
لله عليكم النعمة) وأية نعمة أعظم من نعمة الحاكم العادل الذي يأمنه البريء ،
ونخافه المجرم ، ويقوى به الضعيف المحق ، ويضعف القوي المبطل ؟ (ولي
عليكم الطاعة) لأن طاعة الحاكم العادل هي طاعة الله ، لا لذات الحاكم وكرسي
الحكم (وان لا تنكصوا عن دعوة) لأن دعوتي ، والحال هذه ، هي دعوة
الله والحق (ولا تفرطوا في صلاح) وهو الجهاد وصيانة الحدود من العدو .
(وان تخوضوا الغمرات الى الحق) وهو الدفاع عن البلاد ، والاستماتة في
سبيلها

(فإن أنتم لم تستقيموا الخ) .. هذا تهديد ووعد لمن يُقصر ويتهاون في
الجهاد وواجبات الجندية ، وان الإمام يأخذه بأقسى العقوبات وأشدّها ، لأنه
يُعرض الأرواح والأموال للخطر والهلاك (خذوا هذا الخ) .. وهو الحق
والعدل من الإمام ، وأعطوه النصيحة والطاعة ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويعيش
الناس في هناء وأمان .

وبعد ، فإن الإمام العادل هو الذي يقهر هواه ، ويحب الناس ، كل الناس ،
ويخلص لهم ، ولا يرى لنفسه وذويه أي امتياز ، بل يقدرها بأضعف الضعفاء

منهم ، ويأخذ من قويمهم لضعيفهم ، ومن غنيهم لفقيرهم ، ويساوي بين الجميع في الحقوق والواجبات ، ولا يعاقب أحداً إلا بما ظهر منه ، وثبت عليه .. ومضى قوافرت هذه الخلال في الحاكم وجب على الرعية أن تسمع له وتطيع وإلا فلها بل عليها أن تتمرّد وتثور أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر .

الرسالة

- ٥٠ -

إلى أصحاب الخراج :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُخْرِزُهَا . وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَائِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلْبِهِ . فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . وَأَصْبِرُوا لِجَوَائِبِهِمْ فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرِّعْيَةِ وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ وَشُفَرَاءُ الْأُمَّةِ . وَلَا تَحْسِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلْبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْفَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا يَمْلِكُ دِرْهَمٍ ، وَلَا تَمَسَّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهِدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا

فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُغْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ
أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ فَيَكُونُ شَوْكَةً عَلَيْهِ . وَلَا
تَدْخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا الْجَنْبَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ
مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً . وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا أُسْتَوْجِبَ عَلَيْكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجِهْدِنَا ،
وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

اللغة :

يحجزها : يحفظها . والسفراء : الرسل والممثلون . وتحسموا : تمنعوا ، وفي
بعض النسخ لا تحسموا أي لا تغضبوا . ويعتملون عليها : يضطربون في العمل
عليها كبقرة الفلاحة . والشوكة : القوة . وأبلوا : أدوا .

الإعراب :

مصلٍ ولا معاهد بدل من الناس ، والمصدر من أن يدع فاعل ينبغي ،
والمصدر من أن نشكره مفعول اصطنع لأن المعنى انه تعالى طلب منا أن نصنع
له الشكر بالجهد والكد .

المعنى :

كتب الإمام الى جباة الأموال : (أما بعد ، فلئن من يحذر ما هو صائر
إليه الخ) . من نظر بعين العقل الى عاقبة الفعل قبل أن يقدم عليه ، وتدبره
على حقيقته - نال خيره ونجا من شره ، ومن فعل بلا فكر وروية فقد عرض
نفسه للمهالك (واعلموا ان ما كلفتم به يسير ، وان ثوابه كثير) لأن المال به

عمارة الدنيا ، وصيانة الدين وقوته .. وإذن مهما عانيتم أيها الجبابة من المتاعب فما هي بشيء بالقياس الى مرضاة الله وثوابه شريطة أن تقوموا بالواجب على الوجه الأكمل .

(ولو لم يكن فيما نهى الله عنه الخ) .. لو افترض انه لا ذم ولا عقاب على ترك القبيح ، ولكن في تركه مدح وثناء ، لو افترض هذا لكان الترك أولى وأفضل ، فكيف إذا كان العقاب على فعل القبيح مؤكداً ومحقق ؟ وقريب من هذا قول الإمام في كلماته القصار : لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب أن لا يعصى شكراً لنعمه (فإنكم خزان الرعية الخ) .. تجتمع في الجبابة صفات ثلاث : الأولى أنهم يجمعون الأموال من الرعية لتنفق في مصالحها . الثانية أنهم وكلاء من قبل الأمة . الثالثة أنهم رسل الأئمة .. وكل واحدة من هذه الثلاث تستدعي الأمانة والإخلاص ، ومنى انتفت الأمانة عن الجبابة فسدت الأوضاع ، ودبّ الضعف والوهن في كيان الرعية .

(ولا تحسموا أحداً عن حاجته) . لكل انسان حاجة في الحياة الدنيا، ولكل حاجة سبيل ، فإن كنتم السبيل الى إدراك حاجة محتاج فكونوا له عوناً على سدها وقضاها . وفي الحديث : إن رسول الله (ص) أكثر سروراً بقضاء حاجة المحتاج اذا وصلت اليه - من صاحب الحاجة نفسه (ولا تبين للناس في الخراج كسوة الخ) .. لا ضريبة على ما يحتاج اليه الانسان من غذاء وكساء ومسكن وأثاث وآلة وحيوان ، وأيضاً لا تجوز مصادرة شيء من ذلك لوفاء ضريبة سابقة، وبمهل المعسر الى ميسرة . هذا ما فهمناه من ظاهر الكلام وإطلاقه ، أما فقهاء الإمامية فإنهم يوجبون على المدين للناس أن يبيع جميع ما يملك لوفاء ديونه إلا دار السكنى وقوت يوم وليلة له ولعيله ، وثيابه وثيابهم وما يحتاج اليه من كتب العلم ان كان من أهله . وأدلة وجوب الوفاء عامة تشمل الدين لبيت المال وغيره ، ولا بد للتخصيص من دليل .

(ولا تضربن أحداً الخ) .. يجب الرفق في تحصيل المال ، ولا تجوز القسوة بحال لا ضرباً ولا شتماً ولا شيء يؤذي ويسيء ، والمراد بالمصلي أهل القبلة ، وبالمعاهد أهل الذمة والمشرک اذا دخل بلاد الاسلام بإذن وعهد (إلا أن تجددوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الاسلام الخ) .. أجل ، اذا دخل بلاد المسلمين غريب عنها وعن الاسلام ، وكان معه أي شيء يستعمل في الحرب ،

واشتبهتم في أمره لقيام القرائن على الريب - إذا كان هذا جاز لكم أن تصادروا ما يكون سبباً للتخريب وقوة العدو .. وعلى هذا كل الشعوب والدول قديماً وحديثاً. (ولا تدّخروا أنفسكم نصيحة الخ) .. تناصحوا بالحق ، وتواصوا بالتقوى أنتم والجنود والرعية ، وأدوا ما عليكم من واجبات لله ، وأطيعوه واشكروه بالجهاد ونصرة الحق .

وبعد ، فإن جباية الأموال مهنة صعبة تحتاج الى الصبر والمرونة ، والإخلاص والأمانة ، والعلم بالحقوق المالية الشرعية ، ما هي ؟ ومنى تجب ؟ وعلى من ؟ وكيف تؤخذ ممن هي عليه اذا امتنع أو عجز ؟ وكانت هذه الأموال وجبايتها سبباً أو من الأسباب الموجبة لحروب الردة في عهد أبي بكر .

الرسالة

- ٥١ -

أوقات الصلاة :

أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعِزِّ
وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ يَبْيَضُّ حَيْثُ فِي عِضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ
فِيهَا فَرَسَخَانِ . وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ
وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ . وَصَلُّوا بِهِمُ
الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ . وَصَلُّوا بِهِمُ صَلَاةَ أَضْعَافِهِمْ وَلَا
تَكُونُوا فِتْنَانِينَ .

اللغة :

تفيء : تميل الى جهة الغرب ، ويُعرف ذلك إذا حدث الظل للشيء المعتدل
المنصوب في أرض مسطحة . ومربض العز : مرقدها ، والمعنى إذا بلغ ظل الشيء
مقدار مرقد عز فقد دخل وقت صلاة الظهر في جميع البلدان دون استثناء ، لأن
في بعضها يدخل هذا الوقت قبل أن يبلغ الظل هذا المقدار ، وفي بعضها الآخر
لا يدخل إلا إذا بلغ الظل مقدار مرقد عز - هكذا يقال - وببيضاء حية :

لم تصفر بعد . والمراد بعضو النهار جزء منه ، ومقداره أن يسير الإنسان سيرا معتادا ومعتدلا فرسخين ، والفرسخ ٥٧٦٠ مترا . والشفق : الحمرة في الأفق بعد غروب الشمس . وفتانين : مثيرين للفتنة بأسباب منها تطويل الصلاة الموجب لنفرة الناس بخاصة الضعفاء .

الإعراب :

الظهر مفعول مطلق لصلّوا، لأن المعنى صلوا صلاة الظهر ، وحية صفة ليضاء .

المعنى :

(فصلوا بالناس الظهر الخ) .. ابتدأ بصلاة الظهر تبعاً للآية ٧٨ من سورة الإسراء : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل » والمراد بالدلوك هنا الزوال ، وفي الحديث : ان الظهر أول ما فرض من الصلاة في الإسلام ، ثم رُتب عليها غيرها . وأشرنا في فقرة اللغة الى المراد من مريض العنز (وصلوا بهم العصر الخ) .. قبل أن تصفر الشمس ، وهذا الوقت للاستحباب ، لأن وقت العصر يمتد الى غسق الليل بنص الآية ٧٨ من سورة الإسراء (وصلوا بهم المغرب الخ) .. عند غروب الشمس (وصلوا بهم العشاء الخ) .. بعد ذهاب الحمرة من الأفق . وأيضاً هذا للاستحباب حيث تجوز الصلاة بعد الغروب بمقدار صلاة ثلاث ركعات (وصلوا بهم الغداة الخ) .. بعد طلوع الفجر . والتفصيل في كتب الفقه .

الرسالة

- ٥٢ -

عهد الأشر .. فقرة ١ - ٢ :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ
فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ : جَبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ،
وَأَسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا . أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ،
وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ : مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعُدُ
أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ
يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ جَلَّ أَسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ
بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ . وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنْ
الشَّهَوَاتِ وَيَزِعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ بِالشُّوءِ إِلَّا مَا
رَحِمَ اللَّهُ ^(١) . ثُمَّ أَعْلَمَ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ
عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلِ وَجَوْرِ . وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ

فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ
مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ . وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ
عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ .
فَأَمْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ
الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ ^(٢) .

اللغة :

يكسر نفسه : يقهرها . ووَزَعَ : منع . والجمحات : من جمع الفرس
بصاحبه إذا تمرد عليه .

الإعراب :

جباية وما بعدها بدل اشتمال من مصر ، والمصدر من ان ينصر الله مجرور
بالباء المحلوفة أي أمره بنصر الله سبحانه .

المعنى :

هذه الرسالة تلقاها مالك الأشتر من الإمام حين ولاه على مصر ، وتُعرف
بعهد الأشتر ، وأخذ هذا العهد حظاً كبيراً من اهتمام العلماء العرب وغير العرب
قديماً وحديثاً ، ومنهم مستشرقون ، ونقل المؤلفون وكتّاب المقالات العديد من
فصوله ، أما الذين شرحوه باللغة العربية وغيرها فكثيرون، وذكر السيد الشهرستاني
أسماء عشرة منهم في أول كتاب « الراعي والرعية » للأستاذ الفكيكي ، وما
لدي من الشروح إلا الراعي والرعية بالإضافة الى ابن أبي الحديد وميّم .

وكان الأشتر من زعماء العرب وفرسانهم وأكياسهم ، ومن رؤوس الشيعة
الموالين لأهل البيت ، وكان الإمام يعتمد عليه ويدخره للمهمات ، وقال فيه من

جملة ما قال : « كان لنا ناصحاً ، وعلى عدونا شديداً » كما في الرسالة ٣٣ ، وقال في الرسالة ١٣ : « ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته » . ويكشف هذا التقرير ان الأشر كان يجمع بين العلم والعقل والإخلاص ، بالإضافة الى الشجاعة والفروسية .

وليس من قصدي أن أطيل وأفيض في شرح هذا العهد اليتيم ، كما هي عادتي في كل ما كتبت خوفاً من ملل القارئ وسأمة .. ولكني أحاول جاهداً أن أبرز المعاني الأساسية والمزايا الهامة ، ومدى تأثيرها في الحياة . وخير الكلام ما قلّ لفظه ، وكثرت فوائده .

ابتدأ الإمام هذا العهد بتحديد السلطة التي أسندها للأشر ، وهي أربعة أمور : الأول : (جباية الأموال) وهي من الوظائف المالية . الثاني : (جهاد العدو) الشؤون الحربية . الثالث : (استصلاح حال المواطنين) ويشمل الأمن والثقافة والصحة ووظائف الدولة والخدمات ، وما الى ذلك من الشؤون الاجتماعية . الرابع : (عمارة البلاد) وتعمم الزراعة والصناعة والتجارة والإسكان والمواصلات .

ثم أمره بما يجب على كل حاكم في كل العصور (أمره بتقوى الله وإيثار طاعته الخ) .. العلم بلا تقوى لا يحل مشكلات الحياة ، بل يزيدها تعقيداً .. وماذا فعل العلم بإنسان القرن العشرين ؟.. لقد غيّر العالم القديم ، ما في ذلك ريب ، وهبط بالانسان على سطح القمر .. ولكنه أودى بحياة الملايين ، وروّع الأمنين ، ونهب أقوات الضعفاء ، وشرّد ملايين الأطفال والنساء ، وبات يهدد بأسلحته كوكبنا هذا الذي نسكنه بالخراب والدمار .. ويستحيل أن تعمر البلاد ، ويسعد أهلها ، وترى الانسانية شيئاً من الخير إلا بالإخلاص والتقوى .

(اني قد وجهتك الى بلاد الخ) .. كل بلد رأى من حكامه شراً وخيراً ، ولكن معظم الحكام والزعماء من الأشرار ، وأما الأخيار فأقل من القليل (وان الناس ينظرون - الى - تقول فيهم) . لا سلطان للملوك والأمراء على نوايا الناس وأرواحهم ، ولا على ألسنتهم وأفكارهم .. وهم ينطقون بمظالم الحاكم وعيوبه ، وبالأمر كنت يا مالك تعيب وتنتقد بعض الولاة ، فاجتهد ما استطعت في أن لا تدع سبيلاً عليك للقالة والملامة .

(ولأنما يستدل على الصالحين الخ) ..المقياس الصحيح لعدل الحاكم رضا الضعفاء عنه الذين لا عم لهم ولا خال إلا العدل والحق (فاملك هواك وشح بنفسك) اردعها عن الشر ان أحبته ومالت اليه ، وادفعها الى الخير ان كرهته وصدت عنه ، وبهذا وحده تنتصف منها ، وتسلك بها طريق النجاة والأمان .

كل الناس من ثواب .. فقرة ٣ - ٥ :

وَأَشِيرُ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ . وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخُ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرُ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَنْدِ وَالْخَطَا فَأَعْطِيهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ . وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ وَأَبْتَلَاكَ بِهِمْ^(٣) . وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدِينُ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُثُوبِهِ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنَدُوحَةً ، وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرٌ فَأَطَاعُ فَإِنَّ ذَلِكَ إِذْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ . وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبْهَةً أَوْ خَيْلَةً فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَايَنُ

إِلَيْكَ مِنْ طِلَاحِكَ ، وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرَبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا
عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ^(١) . إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَالنَّشْبَةَ بِهِ
فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُيَبِّئُ كُلَّ مُخْتَالٍ . أَنْصِفِ اللَّهَ
وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى
مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ
خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَذْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً
حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ
نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ دَعْوَةِ الْمُضْطَّهِدِينَ وَهُوَ
لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ^(٢) .

اللغة :

سبعاً ضارياً : جريئاً على الافتراس . واستكفاك : طلب منك أن تصلح
شؤونهم بأمره . وتبجح : تفرح . والمندوحة : السعة والفسحة . والأبهة :
الكبرياء . والمخيلة : العجب . ويطامن : يسكن ويخفف . وطماحك : جماحك .
وغربك : حدثك . ويفيء : يرجع . وعزب : غاب . والمساماة : المبالاة في
السمو . وجبروته : قدرته وعظمته . وأدحض : أبطل .

الإعراب :

ما أنت فيه «ما» فاعل أحدث ، وأنت فيه مبتدأ وخبر ، والجملة صلة «ما»
وأبهة مفعول ، وإياك مفعول لفعل محذوف أي إياك احذر .

محبة الحاكم للرعية

(وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة الخ) .. محبة الحاكم لرعيته ضرورة تماماً كالعدل ، وأي حاكم يُلزم نفسه بالمحبة والعدل - فإنه يجعل من رعيته أصدقاء له وأحباء حتى ولو كان على غير دينهم ، وبهذا تستقيم له الأمور ، ويعم الأمن والهدوء بلا جيوش وجنود ، لأن كل واحد من رعية السائس العادل هو قوة له وعدة ، وجندي يحافظ ويدافع . وقد أثنى سبحانه على نبيه الكريم بقوله : «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم - ١٢٨ التوبة » . وأي حاكم لا ينفذ له أمر إلا بالقوة فهو من الخاسرين ذليلاً وآخرة .

(فلأنهم صنفان : إما أخ لك الخ) .. على الانسان أن لا يعتدي ويسيء الى أخيه الانسان بشيء ، وان ينصفه من نفسه ، ويكون عوناً له على ظالمه سواء أكان على دينه أم على دين الشيطان . قال الإمام جعفر الصادق (ع) لشيعة : ردوا الأمانة الى أهلها وان كانوا مجوساً . وقال له أحد أصحابه وأتباعه : وقع لي مال عند يهودي ، فكأبرني عليه وحلف ، ثم وقع له عندي مال فهل آخذه عوضاً عن مالي وأجده وأحلف عليه ، كما صنع ؟ فقال الإمام : اذا خانك فلا تخنه ، ولا تدخل فيما عنته عليه .

المسلم والدول الإسلامية :

وبهذه المناسبة نشير الى أن الأوائل من حكام المسلمين كانوا يعاملون أي مسلم يدخل بلادهم معاملة المواطن الأصيل في جميع الحقوق والواجبات بصرف النظر عن بلده وجنسه ولغته ، فلا يُسأل عن الإذن والجواز ، ولا يُمنع من الإقامة والتجارة ، فكان المسلم الهندي والتركي والعربي والفارسي ينتقل بملء إرادته حيث شاء من البلاد الإسلامية ودولها ، ويتمتع بجميع الحقوق السياسية والمدنية والطبيعية.. وأيضاً عليه واجبات متساوية مع المواطن الأصيل ، وللحاكم أن يجبره على حمل السلاح والدفاع عن الرعايا المسلمين ما دام في بلادهم (نظام الحكم الإسلامي لمحمود حلمي) .

(يفرض الزلل - الى - عفوه وصفحه) . كل الناس يخطئون ، ومن الذي

تخلو صحيفته من هفوة ؟ ما دام يعيش مع الناس ، ويحتك بهم .. حتى الذي يعيش معتزلاً قد يخطئ ويقصر بحق خالقه ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح عن يطلب منه العفو والصفح . قال ، عز من قائل : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً - ٥٣ الزمر » . فجدد بالعباد أن يعفو عن أساء اليه . والعامل يعامل الناس كأنه لا عدو له فيهم ولا حاسد ، وليس من شك ان الغلبة للحليم .

(فلنك فوقهم) كأمير (ووالي الأمر عليك فوقك) لأنه اختارك وعينك (والله فوق من ولاك) لأن الكل في قبضته ، فأنا وأنت والرعية جميعاً متساوون في العبودية لله والافتقار الى رحمته وعنايته . فلماذا التكبر ؟ وعلى من ؟ (واستكفأك أمرهم وابتلاك بهم) . الخلق أمانة الخالق عند الحاكم بمتحنه سبحانه بهم ، فإن ساسهم بالحسنى كافأه بأحسن منها ، وإلا حقت عليه كلمة العذاب .

(ولا تنصب نفسك لحرب الله - الى - مندوحة) . لا تحدث نفسك بمعصية الله ، فيحل عليك غضبه وعذابه ، ولا طاقة لك على دفعه وتحمله .. وأيضاً لا غنى لك بمال أو جاه عن عفو الله ورحمته ، وان عفوت عن أساء إليك فلا تقدم على ما فعلت ، فإن العفو خير وفضل .. وأيضاً لا تفرح إذا شفيت غيظك من عدوك ، واذكر قوله تعالى : « وان تعفوا أقرب للتقوى ٢٣٧ البقرة » . ولا تعتدي على مخلوق حتى ولو كان بمثل ما اعتدى عليك ، ان لم يكن العفو تشجيعاً له على الشر والعدوان .

(ولا تقولن : اني مؤمر الخ) .. أي أمير ، والمراد بالإدغال الإفساد ، وبالمتهكة الضعف : وبالعير - بكسر الغين - نواب الدهر ، والمعنى لا تغتر بمنصب الرياسة ، وتقول : أنا الأمير الأمر الناهي ، وما على الناس إلا أن يسمعو ويطيعوا ، لأن هذا غرور يفسد القلب ، ويضعف الدين ، ويلقي بصاحبه الى التهلكة .

(واذا حدث لك - الى - عقلك) . اذا نفخ الشيطان في أنفك من الكبر ، ووسوس في خيالك انك شامخ وعريض « تحكي انتفاخاً صورة الأسد » كما قال الشاعر الساخر ، اذا حدث لك شيء من هذا فاستعد بالله من الشيطان ، وتذكر عظمة الله التي لا يدانيها شيء ، وانك في قبضته لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً

إلا ما شاء الله .. وعندئذ يكف الشيطان ، ويذهب لشأنه ، وترجع أنت الى رشذك وعقلك .. ونكتشف من هذه الموعظة البالغة ان السبيل الوحيد الى رياضة النفس على التواضع - ان يكون عقل العبد أبداً ودائماً مع الله في قدرته وسلطانه وانه لا دواء لمرض القلوب إلا معرفة الله سبحانه في كماله وجلاله .

(اياك ومساماة الله الخ) .. دع التعظيم فإنه جهل وسفه .. والعظمة لله وحده ، ومن تطاول اليها أذله وأخزاه ، ومن وضع نفسه دون منزلتها رفعه الله والناس فوق ما يستحق (أنصف الناس من نفسك الخ) .. كل من يعترف بالحق ويعمل به ، له كان أم عليه - فقد أنصف الناس من نفسه وأهله وأصدقائه (فلذلك إلا تفعل الخ) .. الله عادل ، ما في ذلك شك ، واذن فمن ظلم وجار فقد عاند الله بالذات ، واستحق منه المقت والهوان دنيا وآخرة .

رضا الرعية .. فقرة ٦ - ٧ :

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمَّهَا فِي الْعَدْلِ وَاجْتَمَعَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ ، فَإِنْ سُخِطَ الْعَامَّةُ يُخَفِّفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ سُخِطَ الْخَاصَّةُ يُعْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَوْتَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَى لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلُ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأُ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنَعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلَامَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صَغُوكَ لَهُمْ وَمَمْلُوكَ مَعَهُمْ^(٦) . وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَوْهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبَهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا . فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

تَطْيِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ . فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ
مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا نُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ رِعِيَّتِكَ . أَطْلِقْ عَنِ
النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ . وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَثَرٍ . وَتَغَابَ عَنْ
كُلِّ مَا لَا يَبْصُرُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعِرٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ
وَأِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ^(٧) .

اللغة :

الإجحاف : النقص الفاحش . والإلحاف : الإلحاح . الملمات : الشدائد .
وجاع المسلمين : جاعتهم . واشتأهم : أبغضهم . والوتر : الحقد . وتغاب
تجاهل وتغافل . والساعي : الهمام .

الإعراب :

مؤونة تمييز ، ومثلها معونة وشكراً وعدراً وصبراً ، ومن أهل الخاصة متعلق
بأثقل ، والعامية خبر عماد الدين وما عطف عليه ، وتغاب فعل أمر مبني على
حذف حرف العلة .

المعنى :

(وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق) . المراد بالأوسط هنا المعتدل ،
ومعنى الاعتدال في استعمال الحق أن لا يطغى سلطان حق على سلطان حق آخر ،
وان يمارس الإنسان حقه في حدود المحافظة على حقوق الآخرين ، فللراعي
— مثلاً — حق الطاعة على الرعية ، ولكن في حدود مصالحهم وما يعود عليهم
بالنفع والخير ، وأيضاً على الراعي أن يستجيب لمطالب الرعية ، ولكن في نطاق

الاحتفاظ بهيبة الحكم وسيادته بحيث لا يكون مغلوباً على أمره . وبهذا يحصل التوازن بين الحقين في غير عنف وتعسف .

الديمقراطية :

(وأعمها في العدل) أي على الراعي قبل كل شيء أن يعمل لمصلحة الجميع بلا استثناء ، فإن تعدلر عليه أخذ بالأهم الأعم ، وهو مصلحة الأكثرية (فإن سخط العامة يُجحف برضا الخاصة) إذا طلبت الأقلية من الحاكم أن يقدق عليها الامتيازات التي تمكنها من رقاب الأكثرية واستغلالهم - فعليه أن يرفض ولا يستجيب ، أما من الوجهة الدينية فواضح لمكان الظلم والجور ، وأما من الوجهة السياسية فلأن سخط العامة يهز كيان الدولة بالاضرابات والمظاهرات، وربما بالثورة المسلحة ، ورضا الخاصة لا يجدي شيئاً في هذه الحال ، والعنف يزيد النار اشتعالاً . أما سخط الأقلية فلا يترتب عليه أي محذور ، ومن أجل هذا فهو مغفور ، بل مشكور في جانب رضا العامة ، وهذا ما أراده الإمام بقوله : (وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة) .

وقال المشتري الفرنسي الشهير « مونتسكيو » في كتابه « روح الشرائع » الذي ترك أثراً بالغاً في عالم التشريع حتى يومنا هذا، وترجم الى جميع اللغات الأوروبية، وكثير غيرها ، منها العربية ، قال : تنقسم الحكومات الى أنواع : الحكومة المستبدة ، وهي التي يحكمها فرد واحد بلا قانون ونظام ، ويحمل الجميع على إرادته وأهوائه . والحكومة الملكية ، ويحكم فيها واحد ، ولكن وفق قوانين مقررة ثابتة . والحكومة الارستقراطية ، ويحكم فيها فريق خاص . والحكومة الديمقراطية ، ويحكمها الشعب .

وهذه الحكومة الديمقراطية تنشدها جميع الشعوب ، ويؤمن بها كل فيلسوف ومشتري يهدف الى الخير والصالح العام ، ويتغنى بها الأدباء والشعراء الأحرار ، ونصت عليها في المادة الأولى للدساتير التي وضعتها المجالس النيابية في الشرق والغرب ، وهي بالدات التي عناها الإمام بقوله : (فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة) . ومعنى هذا في واقعه ان الحاكم وكيل عن الجماعة لتأمين غاياتها وأهدافها ، وممثل للسلطة لا مالك لها ، وانه يبقى في الحكم ما دام أميناً ومخلصاً .

التسلط الطبقي :

ثم أشار الإمام الى مساوئ الخاصة، وهم الذين يتسلطون على غيرهم بالوراثة أو الجاه أو المال، وكان الناس من قبل يسمونهم أو هم يسمون أنفسهم بالأشراف والنبلاء ، أشار الإمام الى مساوئهم بقوله : (وليس أحد من الرعية أثقل الخ).. أبداً لا شيء عند هذه الفئة إلا إرهاب الحاكم بمطالبهم وأطماعهم التي لا يحدها شيء، أما الرعية في نظرهم فعييد يساقون الى مهاوي البؤس والمذلة ، ليعملوا ليل نهار كي يتدفق الذهب الأسود ، ويتقاسموه مع الشركات والاحتكارات التي يستمدون منها وجودهم ونفوذهم .. ولا شيء أثقل على قلوبهم من كلمة العدل والمساواة. وعندنا منهم الكثير ! ودعوتهم اليوم - بلسان أذنانهم - أن يقف العرب مع اسرائيل تحت مظلة الولايات المتحدة، لأنها هي وحدها تؤمن للعرب الأمن وتطهرهم من القوى الوطنية والعناصر الثورية .

الاسلام دين الجاهل :

ثم أشار الإمام الى محاسن الاكثريّة بقوله : (وانما عماد الدين وجماع المسلمين الخ) .. العنصر البشري ضرورة طبيعية لوجود الدين ، لأنه من مظاهر الحياة ، ولا يمكن أن يوجد او يفهم في ذاته مستقلاً عن الانسان .. هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لو انحصر الدين بالفئة المترفة لجعلوه تبعاً لأهوائهم : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن - ٧١ المؤمنون » . والتربة الخصبة للإسلام هي الفئة المستضعفة التي لا تستطيع الحياة إلا في ظل الحق والعدل والمساواة ، ومن هنا كانت هذه المبادئ مُلهاً العليا وأمنيتها القصوى ، والإسلام هو الضامن والكفيل لهذه الأمنية ، واذن هو دينها وإيمانها من حيث تريد او لا تريد ، وهذه الفئة هي الأكثر الأغلب في كل شعب ، وبهذا نجد تفسير قول الإمام : إن العامة من الأمة هي عماد الدين وجماع المسلمين .

ويحدثنا التاريخ ان الكثير من المجازر والمظالم قام بها الأشراف باسم الدين ، وانهم أحرقوا ألوف الرجال والنساء ، وهم أحياء ، وان الله بزعمهم أعطاهم مفتاح ملكوت السموات والأرض ليحلوا ما يريدون ، ويربطوا ما يشاءون .. وهذا ما دعا ماركس ان يقول : « الدين افیون الشعوب » . وقال جماعة من

فلاسفة العصور الوسطى : « يجب فصل الحق عن الدين ، وتجريده من كل سلطان ، ليستمد الحق سلطانه من الطبيعة وحدها ، ويتخلص من سلطان الدين الذي اتخذت منه الطبقة المتسلطة طغيانهم وإنفاذ حكمهم زاعمين انه مستمد من عند الله » .

واذا تجرد الدين عن الحق، والقيم يصبح كارثة على العالم والانسانية تماماً كالصهيونية والنازية وعدوانية أمريكا... ولا سر لهذا الفهم من ماركس وأمثاله إلا فظائع الخاصة الذين أشار اليهم الإمام بقوله: «وان سخط الخاصة يفتقر مع رضا العامة » . ولو أدرك ماركس ومن اليه الاسلام كما هو في كتاب الله وما ثبت عن نبيه لقالوا : هو الدين الوحيد الذي يحقق أهداف الجماهير ، ويعبر عن أمانيتهم ورغباتهم، وأنهم يدينون به ، ويخلصون له من حيث لا يشعرون .. لقد جرد الاسلام الفئات والأفراد من كل امتياز، ومن حق السيطرة والاستعلاء ، وأبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقاً مقدسة على غيرهم ، ووضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات . قال سبحانه لنبيه الكريم : « انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر - ٢٢ الغاشية » . وقال له أيضاً : « ما عليك من حسابهم من شيء - ٥٢ الأنعام » . وأيضاً : « وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل - ١٠٧ الأنعام » . واذا لم يكن لمحمد من سبيل على مخلوق فكيف بسواه ؟.

ومن الأوصاف التي نعت بها الإمام العامة - أي الأكثرية الغالبة - أنهم العدة والقوة ضد الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً .. وهذا غاية المديح .. وقد يظن ظان ان هذا الوصف يؤيد المبدأ القائل بجمعية الصراع بين الطبقات ، وثورة العمال على رب العمل لينتزعوا منه ملكية أدوات الانتاج .

ونقول في جوابه : إن هذا المبدأ او هذا القول ثبت خطأه بعد أن تنازل رب العمل عن كبريائه، واستجاب لمطالب العمال من زيادة الأجور وتحديد ساعات العمل والتعويض والضمان وتعطيل يومين في الأسبوع - في بعض البلاد - وما الى ذلك مما يرضي العمال ويجعل منهم حراساً لأدوات الانتاج وصاحبها .

ونعطف على قول الإمام : العامة القوة والعدة ضد الطغاة ، نعطف عليه أنهم العمود الفقري للأمة ، ويستحيل أن تنهض وتدافع عن نفسها بغيرهم ، وعليهم يقوم الانتاج والاقتصاد ، وجميع شؤون الحياة ، ومنهم الأدباء والفنانون والعلماء

والأطباء والموظفون .. فإهمالهم لإهمال للأمة والوطن والدولة .

(وليكن أبعد رعبك منك الخ) .. الذي ينتقص الناس ويتحرى العورات والعثرات .. وهذه خلة السفهاء والأخساء ، ومن يصغي اليهم فهو مثلهم (فإن في الناس عيوباً الخ) .. لا تبحث عنها ، وإن بلغك شيء منها فتغاب وتجاهل ، بل الأولى بك أن تدفع التهمة عن المتهم بمثل « لم يثبت هذا ، ولعل له مبرراً لم تطلع عليه » والله هو الذي يحاسب ويعاقب (فإن الساعي غاش) لأنه يلقي العداوة والبغضاء بين من سعى به ، ومن سعى إليه (وإن تشبه بالناصحين) تصنعاً ورياء ، فكم من خائن تستر بثوب أمين ، وغادر تمثّل بالصالحين .

كن مع الصادقين .. فقرة ٨ - ٩ :

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ ،
وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصًا يُزِينُ لَكَ الشَّرَّ
بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ
بِاللَّهِ . إِنَّ شَرَّ وَذَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا وَمَنْ
شَرَّكُهُمْ فِي الْأَثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ وَالْإِخْوَانُ
الظَّالِمَةِ ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ يَمْنُ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَتَفَاضِهِمْ ،
وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ يَمْنُ لَمْ يُعَاوَنَ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا
آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ . أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَوْثِقَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ،
وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا ، وَأَقْلُّ لَغَيْرِكَ إِنْفَاقًا نَاتِحِذُ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِلْخَلَوَاتِكَ
وَحَفَلَاتِكَ^(٨) ، ثُمَّ لَيْسَ أَثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ يُبْرُ الْحَقُّ لَكَ ، وَأَقْلُهُمْ
مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَقْعَا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ

حَيْثُ وَقَعَ ، وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ ، ثُمَّ رَضُّهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجَّحُوكَ بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُخْدِثُ الزَّهْوَ وَتُذْنِي مِنَ الْعِزَّةِ . وَلَا يَكُونُ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ ، وَتَذْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ . وَالزِّمُّ كُلُّهُ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ . وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرِعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤَوَّنَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ قِبَلَهُمْ . فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ . وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ ^(٩) .

اللغة :

المراد بالفضل هنا النوال . والبطانة : الخاصة . والآصار والأوزار بمعنى .
والمؤونة : الثقل والشدة . وإلفاً : حباً . ويبجحوك : يفرحوك . والزهو :
العجب . والعزة : الكبر . والترويد والترويض : التعويد . وحسن البلاء :
إحسان . وسوء البلاء : ضده .

الإعراب :

خير الخلف مفعول واجد ، ومؤونة تمييز ، وواقعاً حال مما كره ، وما أَلْزَمَ
« ما » في محل نصب بنزع الخافض ، وبأدعى الباء زائدة ، ونصباً مفعول يقطع .

المشورة :

(ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً الخ) .. ليس المراد بالمشورة هنا النظام الشوري في مقابل الاستبداد والدكتاتورية ، بل مجرد الاستئناس برأي من ترى منه الوعي والنصيحة .. والإمام ينهى عن الأخذ برأي الجبان والبخيل والحريص ، وهذان الاثنان سواء في القبض والإمساك ، ولكن الحريص أكثر جشعاً وشرهاً يكدح ليل نهار في السعي لدنياه ، أما البخيل فقد يكون كسولاً ، والإنسان على وجه العموم ينظر الى الأشياء ويتصورها من خلال ذاته كالنملة ترى لله شاربين كما لها - على ما قيل - وكالصفدة في بثر ترى السماء بحجم فوهة البثر ، ومن هنا وخوفاً من الفقر يأمر البخيل بالإمساك ، والجبان بالاستسلام حرصاً على الحياة ، ويأمر الحريص بالكدح لمجرد الجمع والادخار .

وقد يظن ان العالم الباحث الذي يحلل الأشياء الطبيعية في مختبره هو الوحيد الذي ينظر الى هذه الأشياء نظرة مجردة ونزيهة .. وهذا خطأ ، لأن العالم كأي إنسان يستحيل أن يتجرد عن ذاته .. وكل ما يصدر عنه من حكم وقول إنما يصدر من خلال إدراكه الذاتي وشعوره الشخصي ، والفرق بينه وبين غيره ان شعوره يتولد من الحس والتجربة ، أما شعور غيره كالجبان والبخيل فإنه يتولد من الوهم والخيال ، أو كما قال الإمام من سوء الظن بالله الذي كتب على نفسه الرحمة ، وقال : « ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون - ٨٧ يوسف » .

(ان شر وزرائك من كان للأشرار الخ) .. أكثر الناس يلقون الحاكم بالرياء والتصنع ، ويثنون عليه بما ليس فيه ، وبالنصوص إذا كان من الطغاة والأشرار ، ومن البداة ان الشرير لا يصحبه إلا من كان من فصيلته وعلى شاكلته ، ولذا حذر الإمام من أعوان الأئمة وإخوان الظلمة ، وأوصى عامله أن ينظر الى ماضي أعوانه وأخوانه وتاريخهم ومقاصدهم ، وان يختار من حسنت سيرته وطابت سريره .

(وأنت واجد منهم الخ) .. يقول الإمام لعامله : دع أهل السوابق في المثالب والجرائم حتى ولو بلغوا الغاية من الوعي والدكاء ، فإنهم يخادعون ويضللون ، ويتخلدون من عقولهم وذكاؤهم أداة للصوصية .. عليك بأهل الدين والصلاح ، فإنهم لا يغشون من استنصحتهم ، ولا يرون لهم فضلاً عليه ، لأنهم يعطون كل

إنسان من أنفسهم ما يرغبون في مثله ، وفيهم الكثير من أهل الرأي السليم ، والعقل الحكيم . وتجدر الإشارة الى أن الإمام لا ينهى عن الاستعانة بالمجرم ان كان عنده شيء من الخير والإحسان ، وإنما ينهى عن الوثوق به والاطمئنان الى دينه وضميره .. وما من أحد إلا وفيه خير وشر ، ولا ينبغي أن يمنعنا شره عن الانتفاع بخيره .

(ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بحر الحق لك) . الحق مر وثقيل على أهل الهوى والجهل ، أما أهل العلم والعدل فالحق ضالتهم انى كان ويكون ، ويجهرون به ، ولا يخشون فيه لومة لائم .. فإذا ظفرت بواحد منهم فقرّبه اليك، واستمع له ، وارفع من شأنه (واقلهم مساعدة فيما يكون منك الخ) .. أيضاً قرب إليك من لا يساعدك على باطل لمنفعة عاجلة ومسرّة زائلة ، ولا يُزِن لك فعل ما ينبغي تركه ، وترك ما ينبغي فعله (ثم رضهم) أي عودهم (على أن لا يطروك الخ) .. كما يفعل الانتهازيون من أهل النفاق والرياء .. وليس من شك ان الحاكم الواعي يعلم دخيلتهم وأهدافهم ، وينزلهم في المكان اللائق بهم ، ولا يغتر بتصفيتهم وهتافهم إلا جاهل سخيف ، أو مزيف خائن على شاكلتهم وأخلاقهم .

(ولا يكونن المحسن والمسيء - الى - نفسه) . إن الله سبحانه أمر عباده بالتراحم ورحمهم ، وأمرهم بالجلود وجاد عليهم ، وعاملهم على أساس من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأمرهم أن يقيموا العلاقات فيما بينهم على هذا المبدأ، ولا يرضى منهم إلا بمثل ما أعطاهم وعاملهم.. سبحانه ربنا ما أكرمك وأعظمك ... تعاليت وساويت .

(واعلم انه ليس شيء بأدعى الخ) .. قال رسول الله (ص) : « البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب ، وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك » . وعلى هذا يكون الحاكم أعرف الناس بأن الرعية تحبه وثقّ به ، أو تكرهه ولا تركز اليه، لأن حبهم أو كراهيتهم انعكاس عن سيرته ومعاملته ، فإن كان اليهم من المحسنين أحسن بهم الظن وعلم انهم يحبونه لعلمه بأن الانسان عبد الاحسان ، وان كان من المسيئين أساء بهم الظن وعلم انهم يمتقونه ليقينه بأن الانسان عدو بطبعه لمن أساء اليه .

الناس طبقات .. فقرة ١٠ :

وَلَا تَنْقُضُ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَجْتَمَعَتْ بِهَا
الْأُلُفَّةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ . وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةَ تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ
مَاضِي تِلْكَ السَّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّا . وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ
مِنْهَا . وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمُنَافَقَةِ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ
عَلَيْهِ أَمْرٌ بِإِلَادِكَ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ . وَأَعْلَمُ أَنَّ
الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ
بَعْضٍ . فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ . وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ . وَمِنْهَا قُضَاةُ
الْعَدْلِ . وَمِنْهَا عُمَالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ . وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ
مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ . وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ . وَمِنْهَا
الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِينَةِ وَكُلُّا قَدْ سَمَّى اللَّهُ سَهْمَهُ ،
وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَتَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا تَحْفُوظًا^(١٠) .

اللغة :

السنة : السيرة وطريقة العرف . والمدارسة : المباحثة . والمناقشة : المحادثة
والمجادلة .

الإعراب :

فريضة نصب على المصدرية أي فرض ذلك فريضة ، ومثلها عهداً ، ومحفوظاً صفة للعهد .

العرف والعادة :

(ولا تنقض سنة صالحة الخ) .. والسنة في أصل اللغة الشيء المعروف المألوف تتلقاه جماعة من الناس بالقبول . والبدعة على العكس أي ما لا تعرفه الجماعة ولا تألفه ، وبتعبير السلف كل ما فُعل ابتداءً من غير مثال سابق ، والسنة في اصطلاح أهل الشريعة ما ثبت عن رسول الله (ص) من قول أو فعل أو تقرير ، وبكلمة واحدة هي الحديث ، والمراد بالسنة هنا العرفية لا الشرعية .

وتنقسم السنة العرفية الى نوعين : حسنة ، وهي ما تعود على الناس بالخير والصلاح كحلف الفضول ، وسيئة كوأد البنات . وأشار النبي (ص) الى هذا التقسيم بقوله : « من سن سنة حسنة كان له أجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر من عمل بها . » وقد حذر الإمام عاملة أن يُغير عادة فيها صلاح للناس بجهة من الجهات ، والفقهاء يعبرون عن هذه العادة ببناء العقلاء ، ويقولون : أينما كانت المصلحة فثم شرع الله . وقد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يأخذ بها حيث قال له عز من قائل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین - ١٩٩ الأعراف » . والشاهد في كلمة العرف .

وكانت العادة - أو العرف - وما زالت قوة تسيطر في المجتمعات ، ولها أبلغ الأثر عند الحقوقيين ، وفي اجتهادات المحاكم والفقه الاسلامي بخاصة في إثبات الحقوق التي تستدعيها المعاملات ، كالبيع والشراء والإيجار والدين والرهن والضمان والمضاربة والمزارعة والوصية والوديعة والمهر والنفقة والصلح والشركة .. الى غير ذلك .. وهكذا ظهرت العادة متممة للقواعد الشرعية ، بل اتخذ منها الحقوقيون مصدراً للقوانين الوضعية ، وحولوا الكثير منها الى نصوص تُنفذ بقوة السلاح .. والاسلام يباركها بشرط واحد ، وهو أن تستهدف الخير والمصلحة .

مدارسة العلماء :

(وأكثر مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء) . ليس المراد بالعلم هنا حفظ اللغة وقواعد الصرف والنحو ، ولا معرفة الفقه وأصوله ، ولا الطبيعة والكم ، وأيضاً ليس المراد بالحكمة دراسة الفلسفة وعلم الكلام وتدريسها ، وإنما المراد بالعلم والحكمة ما يخدم الحياة ، ويصلح البلاد ، وأحوال العباد، كما أوضح الإمام ذلك بقوله . (في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك) . ومعنى هذا انه لا علم ولا حكمة حقاً وحقيقة إلا ما يستهدف خير البشرية في أي جانب من جوانب الحياة .

تصنيف المجتمع :

وقبل كل شيء نشير الى ان تصنيف الناس هنا لا يمت بأية صلة الى المال أو الجاه والأنساب أو الدين والمذهب ، وإنما هو على أساس الأعمال والوظائف الاجتماعية التي ورثتها الانسانية جيلاً عن جيل على مدى التاريخ البعيد ، وتفاعل فيها الزمان والمكان، والمشاعر والأفكار .. وهذه الوظائف يبحث عنها علم الاجتماع، والمعروف عند جماعة من الباحثين ان ابن خلدون أول من تفتن لهذا العلم وتكلم عنه . ولكن اخوان الصفا تحدثوا عن المجتمع الطبقي ، والوظائف الاجتماعية في رسائلهم قبل ابن خلدون بأربعة قرون ، وأشار الإمام اليه في عهد الأشر قبل اخوان الصفا بحوالي أربعة قرون .. أجل ، أشار اليه كشاهد أو كوصية لعامل من عماله، وتكلم عنه اخوان الصفا في مقالة أو رسالة ، وتوسع فيه ابن خلدون كعلم ، ثم أهمل من بعده أربعة قرون أو تزيد حتى جاء الفيلسوف الفرنسي «اوجيست كونت» فأحياه من جديد .

(واعلم ان الرعية طبقات الخ) .. لا تستقيم الحياة في أي مجتمع بالغاً ما بلغ من التقدم أو التخلف إلا مع الترابط والتعاون على هدف واحد ، ومصلحة مشتركة بين جميع الأفراد والفئات بحيث يتكون صرح المجتمع من تعاون الجميع ، فكل فرد لبنة ، وكل أسرة جدار ، وكل فئة غرفة ، وبدون هذا التعاون والتماسك تسود الفوضى ويتصدع البناء .. ولهذا التعاون صور ومظاهر ، كالتعاون بين أهل

الفلاحة والصناعة ، وتعاون هاتين الفئتين مع التاجر والمستهلك ، ثم الجميع مع الأطباء والمهندسين، والعلماء والمعلمين، ثم مساهمة كافة المواطنين في تحمل المسؤوليات العامة كالخدمة العسكرية ودفع الضرائب ، ونحو ذلك من الواجبات .

وبعد هذه الإشارة الى تلاحم الطبقات وحاجة بعضها الى بعض - حصرها الإمام أو ذكر منها تسع طبقات ، وهي :

١ - (جنود الله) ونسبهم الإمام الى الله سبحانه ، لأنهم يجاهدون في سبيله دفاعاً عن الدين وعن المسلمين وبلادهم .

٢ - (كتاب العامة والخاصة) . والمراد بكتاب العامة من يحرر الشؤون العامة كالضرائب ونحوها ، والمراد بالخاصة من يحرر للقاضي والوالي وأمير الجيش ، ومن إليهم .

٣ - (قضاة العدل) . قالوا : ان « جون لوك » الانكليزي قسم السلطة الى تشريعية تحفظ مصالح المجتمع بوضع القوانين ، وسلطة لتنفيذ هذه القوانين ، ثم جاء من بعده « مونتسكيو » الفرنسي فأضاف اليهما سلطة ثالثة ، وهي السلطة القضائية ، وطالب بفصلها عن السلطتين ضماناً للحرية ، فارتبط مبدأ فصل السلطات الثلاث باسم « مونتسكيو » ، وأصبح « جون لوك » في خبر كان .

وتقسم الإمام المجتمع الى فئات ، منها الجنود والولاة والقضاء - يومية الى فصل السلطة القضائية عن غيرها ، واستقلالها بذايتها حماية للحقوق من الاعتساف والاعتداء ، ومن المعلوم ان التشريع في الاسلام لله وحده وان الطريق الى معرفته القرآن والسنة .

٤ - (عمال الانصاف والرفق) أي الولاة الذين يعينهم الخليفة لينصفوا الناس ويرفقوا بهم .

٥ - (أهل الجزية .. من أهل الذمة) وهم أهل الكتاب الذين يقبلون شروط المسلمين .

٦ - (الخراج .. من مسلمة الأمة) أي الذين يدفعون الخراج ، وهم المسلمون .

٧ - (التجار) .

٨ - (أهل الصناعات) .

٩ - (الطبقة السفلى) أي الفقراء والمساكين ، وأوضح الإمام ذلك بقوله :
(من ذوي الحاجة والمسكنة) وهم الأرمال والأيتام ، والعاجز عن العمل ، وكل
عامل وفلاح وخدام وكاسب لا يسد دخله نفقته ونفقة عياله .
ولكل واحدة من هذه الفئات حكمها ونصيبها المحدد من الحق في كتاب الله
أو سنة نبيه (ص) . وبعد هذا التصنيف المجمل شرع بالتفصيل فيما يلي :

الجنود حصون الرعية .. فقرة ١١ :

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرِّعْيَةِ ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ،
وَسُبُلُ الْأَمْنِ ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرِّعْيَةُ إِلَّا بِهِمْ . ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ
إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ،
وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ . ثُمَّ لَا
قِوَامَ لَهُذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعَمَالِ وَالْكِتَابِ
لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتِمِنُونَ عَلَيْهِ
مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا . وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ
وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ
أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرْفِقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .
ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ
وَمَعُونَتُهُمْ . وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا
يُصْلِحُهُ ، وَلَيْسَ يُخْرِجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةٍ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا

بِالْإِهْتِمَامِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ، وَتَوَطُّيْنِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ^(١١) .

اللغة :

المعاهد : المعاملات . ومرافقهم : منافعهم . والطبقة السفلى : الشعبية .
ورفدهم : مساعدتهم .

الإعراب :

بإذن الله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هم كائنون بإذن الله، وجميعاً حال ، والذين يحق صفة لأهل الحاجة .

القوة والعدالة :

في المقطع السابق بلا فاصل قال الإمام (ع) : « إن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى عن بعضها ببعض » وهذا المقطع بكامله أي الذي نحن بصددده هو تفسير وبيان لتلاحم الطبقات التسع التي ذكرها في المقطع السابق واحتياج بعضها الى بعض، وشرحنا ذلك بما تقدم، ونعود اليه ثانية مع الإمام (ع).
(فالجنود بإذن الله حصون الرعية الخ).. لا تستقيم الحياة وتطيب إلا بالعدالة ، وهي المساواة في جميع الحقوق والواجبات بين الجميع ، فإذا اختل ميزانها ساد الظلم ، وفسدت الأوضاع .. ومن البدهة انه لا عدالة بلا قوة ، والقوة بلا عدالة استبداد ، ومعنى هذا ان القوة والعدالة عنصران أساسيان للحياة الطيبة والوجود القويم ، والجنود هم مصدر القوة وأساسها ، وبهم يسان الدين والوطن ، ويستتب الأمن والنظام ، أما العدالة فلها مظاهر ، وأهمها عدالة القضاة والولاة ، ويأتي الحديث عنها وعنهم .

وتجدر الإشارة الى ان قوة الدولة كانت تقاس - فيما مضى - بالعنصر البشري

قلّة وكثرة ، أما اليوم وبعد أن تقدم العلم وتطورت الأسلحة - فالأثر الأهم للسلاح ونوعه كالتقنابل النووية والصواريخ الموجهة والطائرات القاذفة المقاتلة، والغواصات والدبابات الحديثة ، والعقل الإلكتروني وغيره من أدوات الكشف والتجسس ، ووسائل النقل والمواصلات برّاً وبحراً وجواً .

الضرائب :

(ثم لا قوام للجند - الى - حاجاتهم) . لا حياة للدولة ، لا للجنود فقط أو لأية هيئة أو فرد إلا بالنفقة الكافية لسد الحاجات ، ومن البداهة انه لا موارد للدولة إلا فرض الضرائب وجبايتها . وقرر الانكليزي الاقتصادي الشهير «آدم سميث» أربعة شروط للضرائب ، وهي :

١ - « أن تُفرض على الناس بنسبة قدرتهم على تحملها » . وهذا الشرط ينطبق على فريضة الخمس والزكاة والجزية في الاسلام .

٢ - « أن تكون الضريبة معينة » . وهذا شرط أساسي في كل شريعة ، لأن عدم التعيين فوضى وعدوان .

٣ - « أن تجبى بالطرق والأوقات التي تسبب أقل ازعاج ممكن للشعب » . وأكد الإمام على هذا الشرط، وشدد فيه على عماله في الكثير من وصاياه ورسائله، من ذلك قوله لأحد الجبابرة في الرسالة ٢٤ : قل لأهل الحلي : هل في أموالكم حق فتؤدوه ؟ فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع . وفي الرسالة ٤٥ : اخفض للرعية جناحك ، وابسط لهم وجهك ، وألن لهم جانبك . وفي الرسالة ٥٠ : لا تبيعن للناس في الخراج كسوة .. ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم .. الى غير ذلك .

٤ - « يجب أن تنظم الضرائب بحيث لا تكلف الشعب إلا ما هو ضروري لخزينة الدولة » . وقال جماعة من فقهاء المسلمين : اذا لم تغ الحقوق المنصوص عليها في القرآن والسنة - فللخليفة أن يفرض على الأغنياء بقدر ما هو ضروري لبيت مال المسلمين ، لأنها تحمي الأموال والأزواج ، وتؤمن العيش لكل بائس وعاجز ، وقال آخرون : يقتضئ الإمام على بيت المال . وفي رأينا ان هذا الفرع يدخل في باب الجهاد الذي يجب على كل قادر وجوباً كفاً ان قام به

بعض الأغنياء سقط عن الكل وإلا نفذ الإمام حسبما تستدعيه الظروف . واتفقت المذاهب الإسلامية كلمة واحدة « على ان الضرورة تقدر بقدرها » .
 (ثم لا قوام لهذين الصنفين الخ) وهما الجنود وأهل الحراج ، وتكلمنا عنها بما ترى، أما القضاة والعمال أي الولاة والتجار والكتاب والطبقة الدنيا — الشعبية — فسيتم عرض لهم الإمام في هذا العهد ، ونشرح أقواله هناك بما يناسبها ان شاء الله (وفي الله لكل سعة) لا تستقيم حياة المجتمع إلا بتعاون فئاته بكاملها ، وفي نفس الوقت لا حول ولا قوة لفئة أو فرد إلا بالله ، وهو تعالى يمد الجميع بلطفه وفضله (ولكل على الوالي حق الخ) .. الوالي مسؤول عن كل فئة وكل فرد، ويأتي الكلام عن نوع هذه المسؤولية، ولا يخرج منها ويتحرر أمام الله إلا بالجهد والصبر والإخلاص والاستعانة به تعالى .

رؤساء الجيش .. فقرة ١٢ - ١٤ :

قَوْلٌ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَبِيًّا ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا يَمْنُ يُنْطِيءُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيَسْتَرْجِعُ إِلَى الْعَذْرِ ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعْفَاءِ وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ . وَيَمْنُ لَا يُثْبِرُهُ الْعُنفُ وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضُّعْفُ . ثُمَّ أَلْصِقْ بِذَوِي الْأَنْحَسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ . ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَّاحَةِ ، فَأَيُّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ . ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدَيْهِمَا ، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوِيَّتُهُمْ بِهِ . وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ . وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ أَتْكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ

بِهِ . وَلِلْجَسِيمِ مَوْعِياً لَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ ^(١٢) . وَلَيْكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ
جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعْوَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ بِمَا
يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِهِمْ حَتَّى يَكُونَ هُمُومُهُمَا
وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ . فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَغْطِبُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ .
وَإِنَّ أَفْضَلَ قَرَّةِ عَيْنِ الْوَلَاةِ أَسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ
الرَّعِيَّةِ . وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ ، وَلَا تَصِحُّ
فَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وِلَاةِ أُمُورِهِمْ . وَقَلَّةُ أَسْتِثْقَالِ دَوْلِهِمْ ،
وَتَرْكُ اسْتِثْبَاطِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ . فَانْسَحْ فِي أَمَالِهِمْ ، وَوَاصِلٍ فِي
حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَتَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ . فَإِنَّ كَثْرَةَ
الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ وَتُخَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ^(١٣) .
ثُمَّ أَعْرِفْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَتَى ، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ أَمْرٍ إِلَى
غَيْرِهِ ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَايِهِ ، وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ
أَمْرٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَايِهِ مَا كَانَ صَغِيراً ، وَلَا صُنْعَةُ أَمْرٍ
إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَايِهِ مَا كَانَ عَظِماً . وَأَرْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِيهِ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادُهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

والرُّسُولِ ، . قَالَرُدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ
الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمَفْرَقَةِ^(١٤) .

اللغة :

أَتَقَامُ جَيِّباً : كناية عن الإخلاص والنزاهة . وينبو: يتجافى ويشتد . والنجدة
والشجاعة بمعنى ، وكذلك السخاء والسماحة . وججاع - بكسر الجيم - جامع .
وشعب - بضم الشين - جمع شعبة أي الطائفة من الشيء . والعرف : المعروف .
وتفاقم الخطب : صار عظيماً . وآثر : أفضل . وحيطتهم : حفظهم وتعهدهم .
وذوو البلاء : الذين اختبروا وعرفوا بجليل الأعمال . ويضلعك : يثقلك ويصعب
عليك حله وحمله . ومحكم الكتاب : نصه الصريح . والسنة الجامعة: الثابتة بالإجماع ،
وضدها المفرقة .

الإعراب :

جَيِّباً تمييز ، ومثله حلماً ، واتكالا مفعول من أجله لتدع ، وما كان صغيراً
« ما » مفعول تُعَظِّم .

قادة الجيش :

في مقطع سابق فقرة رقم ١٠ ، قال الإمام : ان الرعية طبقات لا غنى لبعضها
عن بعض ، وذكر منها تسعاً ، وفي المقطع الذي يليه فقرة رقم ١١ ، بيّن
الإمام : لماذا لا يصلح بعض الطبقات إلا ببعض ، وفي المقطع الذي نحن الآن
بصدده تعرض الإمام لإحدى الطبقات أو الفئات ، وهم الجنود وقادتهم ، وذكر
الشروط التي ينبغي أن تتوافر في كل قائد قال :

(فول من جنودك الخ . اختر لرئاسة الجيش الناصح لأمرته ومهمته، والمخلص
لدينه وضميره ، والحليم الذي يملك نفسه ، ويكظم غيظه ، ويقبل العذر، ويرحم

الضعيف ، ويشند على القوي كي لا يطمع في جوره ونحيزه (ومن لا يثبره العنف) أي يصبر على الكلمة القاسية والحركة النابية، ويتمهل حتى يتدبر العواقب، فيعمل بموجبها ، شأن العاقل الحكيم . (ولا يقعد به الضعف) إذا سكت لا يسكت عن عجز بل لحكمة وروية ، وبكلمة يلين من غير ضعف ، ويقوى من غير عنف .

وبعد ، فإن قيادة الجيش عبء ثقل وخطير للغاية ، لأن مصير الأمة بكيانها وجميع مقدراتها منوط بالجيش وقائده ، فأدنى خطأ منه يعود على الجميع بالخطب الفادح .. ومن أجل هذا يضحي المواطن بثمرة كده وجده طوال السنين في سبيل جيشه تماماً كما يضحي من أجل أهله وعياله ، ويرضى عن طيب نفس بأضخم الميزانيات والتفقات للجيش وراحته .. فإذا لم تتوافر العبقريّة السياسية للقائد — ذهب كل شيء مع الريح .. وبالتالي فإن أعظم القادة على الإطلاق هو الذي يعرف متى يحجم ومتى يقدم ، ولا يثير حرباً إلا لضرورة قاهرة ، ولا يستعمل العنف إلا مرغماً ، وللقضاء على العنف والإرهاب والجريمة ، لأن الحرب والقسوة شر بطبيعتها تماماً كالكي بالنار ، وهو آخر الدواء .

(ثم ألصق بدوي المروءات — الى — العرف) . قرب اليك أهل السوابق الحسنة الذين عرفهم الناس من قبل ومن بعد بمكارم الأخلاق كالصدق والشجاعة والكرم .. وفي هذا العصر تعتمد الجهات الرسمية على صحيفة السوابق وخلوها من السيئات ، وتطلبها كشرط للحصول على وظيفة أو سفر أو ما إلى ذلك . ومنذ سنوات كتب الاستاذ عبد الوهاب حمودة مقالا بعنوان « الآراء الاجتماعية في نهج البلاغة » نشرته مجلة « رسالة الإسلام » ، ثم أدرجته دار هذه المجلة في كتاب « دعوة التقريب » ونقل الكاتب قول الإمام : « ثم ألصق بدوي المروءات والأحساب الخ » .. وعلق عليه بما يلي :

« ان نعمة البيوتات والأحساب قد تبدو شاذة ، ولكن ينبغي أن لا نرتاع لها ولنكمل استماعنا بأنشودة الإمام الحبيبة ، فإن وصيته بدوي الأحساب لا تنافي الديمقراطية فهو لم يدع الى تمييزهم ، وانما دعا الى الانتفاع بما عندهم ، وكثيراً ما يتسق نبل الأخلاق مع نبل الدم ، ثم ان الإمام أتبع ذلك بقوله : والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والسماحة . وهؤلاء يكونون من هذه الطبقة كما

يكونون من تلك دون تمييز . وعليه يكون ذكر البيوتات والأحساب وسيلة ، والعدل هو الهدف والغاية .

(ثم تفقد من أمورهم الخ) .. اسهر على مصلحة الجند ، وأمن لهم العيش الكافي ، وأشعرهم بالأفعال لا بالأقوال فقط أنهم موضع عنايتك واهتمامك (ولا يتفاقم في نفسك شيء قويتهم به) ابدل كل ما تملك من طاقة لتقوية الجندي ورفع معنوياته كفرض واجب عليك ، لا كمتفضل ومحسن (ولا تحقرن لطفاً تعاهدتم به الخ) .. لا تزهّد في معروف تسديه الى الجند وان قلّ .. ومقياس الخبر والمعروف عند الإمام أن يكون مرضياً ومقبولاً عند الله ، وفي ذلك يقول : « وكيف يقل ما يتقبل ؟ » .

(ولا تدع تفقد لطيف أمورهم الخ) .. الجسم والخطير بالنسبة الى الجيش السلاح والإعاشة ، واللطيف اليسير كالحلوى أو الفاكهة تهدي اليهم بمناسبة الأعياد وغيرها ، والإمام يوصي عامله أن يهتم بهذا وذاك، ولا يترك اليسير لوفرة الخطير، فاليسير كمال نافع ، والخطير لسد حاجة لا غنى عنها .. قيل لبعض المؤلفين: الى كم تكتب ؟. فقال : لعل الكلمة التي تنفني لم أكتبها بعد .

(وليكن أثر رؤوس جنودك - الى - قلوبهم عليك) . اذا أراد القائد أن يسمع له الجيش ويعطوه الولاء والطاعة فعليه أن يحسن اليهم ، والى ما يعملون ، ويكفيهم جميع ما أهمهم كي ينصرفوا الى الجهاد لا يشغلهم عنه أي شاغل ، وأي قائد يؤدي هذا الواجب مع جنوده فهو أهل للتعظيم والتكريم . قال رسول الله (ص) : « خيركم خيركم لأهله » والجند بمنزلة الولد والأهل لقائدهم .

(وإن أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل الخ) .. العدل صفة الله وإرادته وبه بعث الأنبياء والمرسلين ، وهو أمنية الأكثرية في كل شعب، ومن كل طائفة ودين ، فأبي حاكم حكم بالعدل ، وسأوى بين الناس في الحقوق والواجبات وأحاطهم بعنايته ورعايته - فإن الرعية أي الأكثرية تخلص له وتنقاد ، وتعطيه الطاعة الولاء ، وان ورث السلطان عن الآباء ، وأي حاكم يحابي ويجور، ويؤثر فريقاً على فريق فهو عدو الرعية تأباه وتمرد عليه ، وان انتخب بالإجماع ، لإرادة الرعية منوطة بالعدل ، فحيثما يكون فثم لإرادة الأكثرية ، وحيثما يوجد الظلم والجور فثم سخط العامة والأمة .

أما الانتخابات في كثير من البلدان فلأنها تجري في ظل العنف والتزوير والرشوة والحيانة ، وما دمج الأحزاب أيام الاقتراع لكسب الأصوات - إلا مساومة علنية لاغتصاب السلطة وتوزيعها على المتحالفين ..! وقول الإمام : « موده الرعية .. وسلامة صدورهم .. وقلة استئفال دولهم - أي دول الولاة - وترك استبطاء انقطاع مدتهم » معناه ان الولاة متى عدلوا أحبهم الناس وأخلصوا لهم ، ولا يستقلون حكمهم ، ويستبطلون زوال دولتهم .. بل يتمنون أن تطول وتدوم . (فافسح في آمالهم) . اعمل جاهداً كي تحقق للرعية ما تبتغيه من الأمن والرخاء (وواصل الثناء عليهم) أي على من كان أهلاً للثناء (وتعدد ما أبلى ذوو البلاء الخ) .. اذا رأيت من جندي بادرة شجاعة ونشاط، أو نزاهة وإخلاصاً في عمله - فأعطه من الشكر والتقدير ما ترغب لنفسك في مثله ليهتز البطل الأريحي، وعسى أن ينشط الجبان الكسول .. وهذا ما جرت عليه سنة الحكومات تمنح الأوسمة والرتب لكل جندي يقوم بعمل بطولي .

(ولا تضيفن - الى - غاية بلائه) . لا تحملنك مكانة الرجل على أن تنسب اليه ما ليس فيه من الحسنات ، أو ترى الصغيرة منها كبيرة . وأيضاً لا تمنعنك ضعة انسان على أن تبخسه حقه وفضله . وبكلمة : أنظر الى القول لا الى القائل والى الفعل لا الى الفاعل ، واذا أحسن أكثر من جندي فاذكر كل واحد منهم بعمله على حدة ، فإن ذلك أدعى لفبطته وسروره .. وهذه الملاحظة من الإمام باللغة الدقة .

(واردد الى الله ورسوله ما يضلحك الخ) .. اذا اشتبه عليك حكم من الحلال والحرام فارجع الى الآيات الواضحة الصريحة في كتاب الله ، وما ثبت بطريق القطع عن رسول الله (ص) فإن اختلفت فذاك، وإلا فاتق الشبهات خشية الوقوع في المحرمات .

القضاة .. فقرة ١٥ :

ثُمَّ اخْتَرَ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ يَمْنُ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُنْحِكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَتَّأْدَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا

يُخَصِّرُ مِنَ الْفِيءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا
يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ ، وَأَوْقَفُهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَآخِذُهُمْ
بِالْحُجَجِ ، وَأَقْلَبُهُمْ تَبَرُّمًا بِمِرَاجِعَةِ الْخُصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشُفِ
الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ . ثُمَّ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَافٌ
وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَافٌ . وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ . ثُمَّ أَكْثَرُ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ،
وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَيَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ،
وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِئَامَنَ
بِذَلِكَ أَغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ
هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ،
وَتُطَلَّبُ بِهِ الدُّنْيَا (١٥) .

اللغة :

لا تمحكه : لا تغضبه ، وأصل المحك اللجاج ، وهو يؤدي إلى الغضب .
ولا يمحصر من الفيء : لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق ، كما قال الشيخ
محمد عبده ، وقال غيره : لا يعيا في النطق ، والأول أنسب . ولا يزدهيه :
من الزهر . والمراد بالاغتيال هنا الوشاية .

الإعراب :

تبرماً تمييز ، وليأمن منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق
بأعطه .

القضاء :

نحدث الإمام في المقطع السابق عن الجنود ، ويتحدث الآن في هذا المقطع عن القضاء والقضاة ، وأشرنا في الفقرة العاشرة الى ان الإمام سبق « مونتسكيو » الى استقلال السلطة القضائية وفصلها عن السلطين : التشريعية والتنفيذية ، حماية لحقوق الناس من الاعتداء والاعتساف ، وتنحصر مهمة القاضي في تطبيق القوانين المقررة على الوقائع والحوادث الخاصة .

ولا يحق للقاضي - في عصرنا - أن يُنفذ أو يشرع ، لأن لكل منها هيئته الخاصة به ، بل قال كثير من الفقهاء والحقوقيين : لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه الشخصي دفْعاً للتهمة . وعلى أية حال فإن المشرع قد أطلق الحرية للقاضي في البحث عن الموضوع ، وأعطاه سلطة واسعة في تقدير الواقعة التي بين يديه ، وبإمكان القاضي التقدير أن يكيف الواقعة بما يتفق مع الحق والنص معاً بلا تمحُّل وتعسف . وسلام على من قال : « البر ما اطمأن اليه القلب .. وإن أفنأك الناس وأفتوك » ونعطف نحن القانون على الناس أخذاً بروح النص ، وبتعبرنا نحن الفقهاء عملاً بتنقيح المناط .

(ثم اختر للحكم - أي للقضاء - بين الناس أفضل رعيتهك) . الغاية من القضاء فصل الخصومات والمنازعات بإعطاء كل ذي حق حقه ، ولا فصل الى هذه الغاية إلا اذا تكاملت في القاضي الصفات التي أشار اليها الإمام فيما يلي :

١ - ان يُختار القاضي بالتميين لا بالانتخاب العام ، وعلى هذا معظم الدول . ولا يتنافى التعيين مع استقلال القضاة عن الحاكم الذي يختارهم حيث ينصرف كل فريق بعد التعيين الى مهمته واختصاصه ، ولا يتدخل في شؤون الآخر ، وفي الولايات المتحدة يختارون القضاة عن طريق الانتخاب ، وبهذا الأسلوب يُعيِّن القضاة الشعبيون بالاتحاد السوفياتي ، وكذلك في تشيكوسلوفاكيا ، وهذه الطريقة تؤدي الى العديسد من المشاكل ، منها ان أكثر المواطنين يجهلون أو لا يقدرّون الكفاءة العلمية والخلقية في القاضي المنتخب ، ومنها ان الانتخابات تجري - غالباً - في ظل الترهيب والترغيب والخضوع للنزعات والأحزاب ، ومنها ان القاضي بشر غير معصوم عن الميل مع من وثق به وأدلى له بصوته ، والتحامل أو الانحراف عن غيره .. وما الى ذلك . من المساوىء .

٢ - أن يكون القاضي (ممن لا تضيق به الأمور) أي يجب أن يكون عالماً مجتهداً يستخرج الأحكام من مصادرها ، ويطبقها على مواردنا .

٣ - (لا تمحكه الخصوم) . وفي تفسيره أقوال أرجحها أن يكون القاضي واسع الصدر ، يتحمل ما يجري ويحدث عادة بين الخصوم من المهاترات ، شريطة أن لا تمس هبة القاضي والقضاء .

٤ - (لا يتأدى في الزلة - أي الخطأ - ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه) اذا أخطأ ، ثم عرف الصواب فعليه أن يرجع إليه ، ولا يصير على خطأه ، فإن الرجوع عن الخطأ فضيلة .

٥ - (لا تشرف نفسه على الطمع) أن يكون عفيفاً لا يقضي بالهوى ، ولا يقبل الرشى ، ويقول الإمام جعفر الصادق (ع) : أن يكون صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه .

٦ - (لا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه) . لا يعلن الحكم النهائي إلا بعد التحري والوقوف على جهات الدعوى بأكملها ، والبحث عما يتصل بالحادثة حكماً وموضوعاً . وهذه هي طريقة العلماء ، فإنهم لا يتنبئون بشيء إلا بعد الاستقراء التام ، والملاحظات الدقيقة والوثوق بما يقولون .

٧ - (أوقفهم في الشبهات) . ليس المراد بالوقوف هنا الإحجام عن الحكم ، لأن القاضي ملزم بفصل الخصومات والبت بإعلان الحكم النهائي المطلق عن كل قيد ، وإلا انتقض الغرض من القضاء ، وأيضاً ليس المراد به العمل بالاحتياط ، لأنه ممكن في العبادات والكفارات ، أما في الخصومات فتعذر - في الغالب - لتضارب الحقوق المتنازع عليها بالسلب والإيجاب .. اللهم إلا أن يبدل الجهد في الصلح ، وإنما المراد بالوقوف هنا الرجوع الى أصل صحيح مع النص .

وقد حدد الحقوقيون هذا الأصل بالرجوع الى اجتهادات المحاكم العليا في نظائر الحادثة المتنازع عليها ، وإلا فإلى العرف والتقاليد التي ألفها المتعاملون في بلادهم منذ سنين ، فإن لم توجد عمل بمبادئ قانون الطبيعة ، وقواعد العدالة ، كما يراها القاضي ، ويسمى هذا بالاستحسان في اصطلاح الأصوليين .

أما فقهاء المسلمين فإن لديهم قواعد وأصولاً شرعية مقررّة، وهي كثيرة بكثرة الموارد، منها قاعدة درء الحدود بالشبهات، وعليها اعتمدت القوانين الحديثة حيث تقول:

يجب عند الشك تفسير القانون لصالح المتهم ، لأن كل انسان بريء حتى تثبت ادانته ، وان تجريم البريء أكثر فساداً من تبرئة المجرم ، ومنها اليد والاستصحاب بإبقاء ما كان على ما كان حتى يثبت العكس ، ومنها قاعدة الأهم والمهم ، وأصالة الصحة في المعاملات والسلامة في الأعيان ، والأخذ بالقدر المتيقن ، والضرورات تبيح المحظورات ، والضرورة تقدر بقدرها ، ومنها القرعة وقاعدة العدل والإنصاف ، وأصالة تأخر الحادث واحترام الأموال .. وما الى ذلك من الأصول والقواعد التي تحدثوا عنها في مئات الصفحات .

٨ - (آخذهم بالحجج) كالإقرار والشهود واليمين والقرائن القطعية التي تنشأ من السير في الدعوى وملابساتها .

٩ - (أقلهم تبرأً بمراجعة الخصم) أي يفسح المجال للخصم لبدلي بكل ما لديه ، ويستمع اليه القاضي بصدر رحب ، وخلق كريم .

١٠ - (أصبرهم على تكشف الأمور) دؤوب في البحث والتتبع لا يعرف الكسل والملل .

١١ - (أصرمهم عند اتضاح الحكم) . متى اتضح الحق فلا أمل في غيره ، ولا قضاء إلا به ، ولا مضي إلا عليه مهما تكن الظروف والعواقب حتى ولو كانت قصاً للسان ، وقطعاً للرأس .

١٢ - (لا يزدهيه الإطراء) لا يطرب للمديح إلا جاهل كفيف ، وأحمق سخيف حيث لا كبير ولا صغير إلا بعد العرض على الله .

١٣ - (لا يستميله إغراء) أبداً .. لا يكون ولن يكون مع القوي على الضعيف ، ومع الغني على الفقير ، بل يأخذ لهذا من ذاك ، ليستقيم ميزان الحق والعدل .

(اولئك) الذين تكاملت فيهم هذه الصفات (قليل) بلا ريب ، ومع هذا فعلى الحاكم أن يتحرى ويبحث عنهم ، ويقدم من هو أعرف بالشرعية وأصول المحاكمات ، وأصلب في الحق ، وأكثر تفتناً لأهداف الخصوم وخداعهم ، (ثم أكثر تعاقد قضائه) أي قضاء القاضي ، يشير بهذا الى مبدأ التفتيش العدلي ، ووجوب إشعار القاضي - وإن توافرت فيه الشروط - بأنه مراقب ومحاسب على

تصرفاته وأحكامه .. وفي كل حكومة عصرية نظام للتفتيش ، ودائرة خاصة به .
 (افسح له في البلد) . سمع النبي (ص) رجلاً يقول : اللهم اني أسألك
 الصبر . فقال له : « لقد سألت الله البلاء ، فاسأله العافية » . ومن العافية أن
 يكون لديك نفقة كافية ، وكان الإمام يقول في دعائه : « اللهم ارزقني رزقاً
 حلالاً يكفيني .. ولا تبتلني بفقر أشقى به » . وأعظم أنواع الشقاء معصية الله ،
 والفقر يؤدي إليها ، قال نبي الرحمة (ص) : « كاد الفقر يكون كفرة » أي
 يجر الى الكفر . ورؤي هذا الحديث عن كتاب « الجامع الصغير » للسيوطي .

ومن هنا أمر الإمام بتأمين وسائل الحياة الكريمة للقضاة وللجند أيضاً كما تقدم
 كي لا يكون لواحد منهم عذر يتعلل به ، والى هذا أشار الإمام بقوله : « ما
 يزيل علته » . وعليه العديد من الحكومات . ويقال : ان القاضي في بعض
 البلدان الغربية لا يحدد راتبه ، وان الحكومة تقوم بجميع تكاليفه ونفقاته بالغة ما
 بلغت .. ومن طلب أكثر من حاجته وحاجة عياله فإن الكون بما فيه لا يرويه
 ولا يكفيه .

(واعطه من المنزلة الخ) .. ارفع من شأن القاضي العالم العفيف تقديراً للعلم
 والخلق الكريم ، لا للذات الشخص ومنصبه (وليأمن بذلك اغتيال الرجال له
 عندك) . إذا رأى الناس منك الاحترام والإكبار للقاضي هابوه وأطاعوه ،
 وكفوا ألسنتهم عن السعاية ضده عندك (فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي
 الأشرار الخ) .. قال ابن أبي الحديد : « هذه إشارة الى قضاة عثمان وحكامه ،
 وأنهم لم يكونوا يقضون بالحق ، بل بالهوى لطلب الدنيا » .

وبعد ، فلا عدالة بلا قوة ، والقوة بلا عدالة فساد واستبداد ، والقضاة للعدل
 والجند للقوة ، يدافع هؤلاء عن الكيان ، وأولئك عن الحقوق ، وكل منهما
 جزء متمم للآخر ، ولا تستقيم الحياة الكريمة إلا بهما معاً ، وأي نقص وخلل
 في واحد منهما فهو نقص في حياة الشعب والأمة ، ولكي ننقي هذا الخلل والفساد
 فعلينا أن نوفر وسائل العيش الكافي الوافي لكل قاضٍ وجندي ، ولا يحق لأي
 مواطن أن يستمتع بالرفاهية على حساب الأمة وحياتها وقوتها .

العمال .. فقرة ١٦ :

ثُمَّ أَنْظَرُ فِي أُمُورِ عَمَالِكَ فَاسْتَغْلِبْتُهُمْ اخْتِياراً ، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً
وَأَثَرَةً ، فَإِنَّهَا جَمَاعٌ مِنْ شُعْبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ
التَّجَرِبَةِ وَالْحَيَاةِ مِنْ أَهْلِ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ
الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا ، وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ
إِشْرَاقًا ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا . ثُمَّ أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ
فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنَى لَهُمْ عَنْ تَنَاولِ
مَا نَحَتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ تَلَمَّعُوا
أَمَانَتَكَ . ثُمَّ تَفَقَّدَ أَعْمَالَهُمْ ، وَأَبْعَثَ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ
عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدُودَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِغْمَالِ
الْأَمَانَةِ وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ . وَتَحْفَظُ مِنَ الْأَعْوَانِ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ
بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ أَجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ
أَكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ وَأَخَذْتَهُ بِمَا
أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ
عَارَ التُّهْمَةِ ^(١٦) .

اللغة :

المحاباة : الاختصاص . والأثرة : الاستبداد ، وكلاهما تعسف واعتباط .
والاعراض : ما يصونه الإنسان من نفسه ، وقوم ذوو عرض - بكسر العين -

أي أشراف . وإشراقاً : تطلعاً ، وفي بعض النسخ أشرافاً بالفاء ، وهو غلط .
والأغلب في عواقب الأمور : الأكثر تجربة . وأسبغ : وسع . وثلموا : خانوا .
والحدوة : الحث .

الإعراب :

اختياراً مفعول من أجله ، ومثله محاباة . وأخلاقاً تمييز ، وكذلك أعراضاً
واشراقاً ، وأحد فاعل لفعل محذوف أي فإن بسط أحد منهم ، وشاهدأ حال .

الدولة والشخصية الاعتبارية :

الدولة منظمة أو مؤسسة بشرية تمارس السلطة باسم الشعب لحسابه ومصالحته ،
فهي ، والحال هذه ، وكيلة لا أصيلة ، وممثلة لا مالكة ، ولذا يسمى أفرادها
مأمورين وموظفين ، والنظام الذي يجمع أفراد الدولة ويحدد مهمتها وأهدافها هو
الذي يجعل منها شخصية اعتبارية قابلة للإلزام والالتزام ، والمراد بالشخصية نفس
الأشخاص الذين تتألف منهم المنظمة ، أما الاعتبارية فهي الصفة القانونية هؤلاء
الأشخاص ، لأن القانون من حيث هو لا وجود له في ذاته ولا أثر ، وإنما
وجوده وأثره بوجود الأشخاص الذين يمارسونه ويعملون بموجبه ، ومعنى هذا
أن لكل موظف في الدولة شخصيتين : إحداهما طبيعية من حيث ذاته ، والثانية
قانونية من حيث الوظيفة .

وكل ذي سلطة على شعب أو ناحية من نواحيه أو مدينة من مدنه — لا بد
له من عمال موظفين يستعين بهم في إدارة الشؤون ، وصيانة الحقوق ، وتسهيل
المصالح .. وعن هؤلاء يتحدث الإمام في هذا المقطع بعد حديثه عن الجند والقضاة .

(ثم انظر في أمور عمالك) . الخطاب للأشتر الذي أسند إليه الإمام ولاية
مصر ، ولذا قيل : إن هذا المقطع خاص بعمال العامل وحده أي الوالي المنصوب
من الإمام .. أجل ، إن الخطاب خاص بظاهره ، ولكن المراد به العام ، لأن
الكفاءة التي ذكرها كشرط للاختيار والتوظيف — تعم كل عامل وموظف دون
استثناء .

(فاستعملهم اختياراً ، ولا تولهم محابة وأثرة) . الموظف - كما أشرنا - أجبر عند الأمة ، ومؤتمن على مصالحها ، ومن أجل هذا وجب أن يُختار على أساس الكفاءة لا على أساس الصداقة والقربة .. وهذه الوصية من الإمام لعامله هي لمجرد التوكيد ، أو من باب ليطمئن قلبي ، أو لبيان ما يجب أن يكون عليه العامل بوجه العموم ، لأن أي عامل يكون كفوّاً في واقعه فيختاره الإمام على هذا الأساس - لا بد وأن يختار هو بدوره عمالاً أمناء نصحاء تماماً كما اختير هو ، وأيضاً لا بد وأن يؤدي موظفو العامل واجبهم على الوجه الأكمل لأنهم أكفاء كما هو الفرض .

وفي الخطبة ٢١٤ أشار الإمام الى ذلك بقوله : فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة . وقال ارسطو للاسكندر : « ليس أصلح للناس من أولي الأمر اذا صلحوا ، ولا أفسد لهم منهم اذا فسدوا ، وإن الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد ، وبموضع الرأس من البدن ، والإمام يُصلح من يَأتم به ، أما المؤتم فلا يصلح الإمام » . ولو بحثنا عن السبب الموجب للتخلف وفساد الأوضاع في كل زمان ومكان - لوجدناه في فساد الحكام وإفسادهم ، وضلالهم وأهوائهم .

(فلإنهما رجاء من شعب الجور والخيافة) . وضمير التثنية في « انهما » يعود الى المحابة والأثرة ، وفي بعض النسخ « انهم » بالجمع وهي خطأ . وليس من شك ان المحابة جور ، لأنها تنتهب المراتب من أهلها ، وتسندھا الى الأذئاب والمحاسيب ، وأن الأثرة خيانة ، لأنها من وحي الهوى ومرض القلب .. ومن البدهة عند كافة الناس ان الطريق الى معرفة الكفاءة والمؤهلات هو الاختبار والامتحان . وقديماً قيل : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، وأيضاً من البدهة ان قوام الكفاءة بالمعرفة والأمانة .

(وتوخ منهم - الى المتقدمة) . المراد بالتجربة المعرفة ، وهي الشرط الأول للكفاءة ، أما الشرط الثاني، وهو الأمانة ، فأشار اليه بالحياء ، لأنه يزجر صاحبه عما يشين . وقال رسول الله (ص) : « من ولي من أمور المسلمين شيئاً فولتي رجلاً » وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله .. أما أهل البيوتات فهم وسيلة لا غاية ، كما أشرنا عند الحديث عن الجنود ، والى ذلك يشير الإمام هنا بقوله : (فلإنهم أكرم أخلاقاً الخ) .. هذا بيان للعلّة الباعثة على اختيار

الموظفين من البيوتات ، ومن البدهاة ان الحكم يدور مدار علته وجوداً وعدمأ ، فالذي لا يتصف بالكفاءة لا يجوز اختياره ، وان كان من أهل البيوتات ، ومن نحى بها جاز توظيفه وإن لم يكن من البيوتات .

الإمام ومطالب العمال :

(ثم أسبغ عليهم الأرزاق الخ) .. ضمير « عليهم » يعود الى العمال، وقوله : « قوة لهم .. وغنى لهم .. وحجة عليهم » واضح لا يحتاج الى تفسير ، والذي تجدر اليه الإشارة هو هذا الاهتمام البالغ من الإمام بمطالب العمال والموظفين ، وتحسين أوضاعهم في عصر كان يُنظر فيه الى العمال كمخلوقات غير إنسانية، وأن الفقر والشقاء من القدر والسماء لا من الأرض والجور .

والآن نقرأ ونسمع الكثير عن إضرابات العمال والموظفين في القطاعين : الخاص والعام، في شرق الأرض وغربها يحتجون على الظلم والإجحاف ، ويطالبون بزيادة الأجور وضمان الحقوق ، ويتحملون نتيجة لذلك الكثير من التضحيات كالقتل والضرب وحرمان الأهل والعيال من القوت الضروري أيام الإضراب ، وفوق ذلك كله ان الإجحاف بحق العمال يولد الكراهية والصراع بين طبقات المجتمع وفئاته، ويخلق المشاكل والقلق للحكومة والمواطنين على السواء .

وقد تنبه الإمام الى ذلك قبل غيره بمئات السنين ، وأوصى المسؤولين أن يهتموا بالعمال ، ويسبغوا عليهم الأرزاق تلافياً لكل ضرر وفساد ، ومن قرأ الكتب القديمة من عهد افلاطون الى القرن التاسع عشر - لا يجد كاتباً أو عالماً أوصى بالعمال والعناية بهم كما فعل الإمام . كانت فلسفة افلاطون تعبر عن طبقته ! . وهكذا غيره من الفلاسفة والأدباء .. أما فلسفة الكثير من الفقهاء الأجلاء فهي التسليم الدليل لسلطان الزمان والحقاق ابن الخاقان .. وغريبة الغرائب ان هؤلاء ينسبون أنفسهم الى الإمام ، ويدعون العمل بتعاليمه ، بل ويتكلمون باسمه ! .

(ثم تفقد أعمالهم، وابتعث العيون الخ) .. يشير الإمام بهذا الى مبدأ التفتيش على الموظفين كما هو الشأن بالنسبة الى القضاة ، وتقدم الكلام في ذلك ، ونضيف ان الموظف اذا أيقن أنه مراقب وان أخباره تصل بتمامها الى رئيسه - تحفظ كل التحفظ ،

وإن أساء خاف من العقوبة قبل أن تصل إليه ، كما يفرح المحسن برضا رئيسه قبل أن يصله الثواب .

(وتحفظ من الأعوان الخ) .. أي من الموظفين عندك ، والمعنى لا تترك الى واحد منهم أيّاً كان ، وراقب الجميع بدقة حتى لا يخفى عليك إحسان من أحسن ، وإساءة من أساء ، ولا تترك محسناً بغير جزاء ، ولا تفرّ مسيئاً على جناية ، ومتى ثبتت عليه بإجماع المراقبين والمفتشين فخله بها كما ترى بحكمتك ، شريطة أن لا تخالف نصاً من نصوص الكتاب والسنة ، وشهر به وبجريمته بين الناس وعلى الملأ ، ليكون عبرة لغيره ، ولا تأخذك الرأفة في دين الله .

وتجدر الإشارة الى أن عقوبة الجرائم في الشريعة الإسلامية على أنواع ، منها القصاص ، ومنها الحد ، ومنها التعزير . والحد ما نصّ الشرع على عقوبته ، وتسمى أيضاً العقوبة المقدّرة ؛ والتعزير ما لا نص فيه ، ويترك تقدير العقوبة للحاكم ، وتسمى أيضاً العقوبة المفوضة ، ولا يكون التعزير إلا على الكبائر من الذنوب ، والشرط الأول فيه أن لا يخالف نصاً ولا إجماعاً . والعقوبة التي أشار إليها الإمام هنا من نوع التعزير حيث أوكلها الى اجتهاد الحاكم .

الخراج .. فقرة ١٧ :

وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ . وَلَيْكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ . وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوْ انْقِطَاعَ شَرِبٍ أَوْ بَالَةً أَوْ إِحَالََةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ خَفَّتْ عَنْهُمْ بِمَا

تَرْجُو أَنْ يَصْلَحَ بِهِ أَمْرُهُمْ . وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمُؤُونَةَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَتَزْيِينِ وَلَايَتِكَ ، مَعَ اسْتِجْلَالِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِيفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْهَامِكَ لَهُمْ ، وَالثِّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّذْتَهُمْ مِنْ عَذْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ . فَرُبَّمَا حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ أَحْتَمِلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْأَعْمَرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَلْتَهُ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُغَوِّزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوَلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ^(١٧) .

اللغة :

المراد بالعلة هنا ما يعرض للزرع من الحشرات والأمراض . وانقطاع شرب : تعذر السقي بكل الوسائل . والبالاة : ما يبيل الأرض من وابل أو طل . وإحالة الأرض : تغير حالها عما كانت عليه . والمؤونة : النفقة . وتبجحك : سرورك . ومعتمداً : متخذاً : واجهامك : راحتك .

الإعراب :

قليلاً صفة لمحذوف أي زمنًا قليلاً ، ومعتمداً حال ، وفضل مفعول لمعتمد ، والثقة عطف على فضل ، فرمما «رب» حرف جر و «ما» كافة عن العمل ، وطيبة أنفسهم منصوبة بنزع الخافض أي عن طيبة أنفسهم .

الضرائب :

(وتنفق أمر الخراج بما يصلح أهله) . بعد أن تكلم الإمام عن الجنود والقضاة والعمال انتقل الى الحديث عن الخراج وأهله ، والمراد بتفقد أمر الخراج أن يستوفيه الجباة كاملاً بلا نقصان أو زيادة ، لأن النقصان ظلم بالرعية ، والزيادة ظلم بمن يدفع الخراج ، أما المراد بتفقد أهل الخراج فهو الفرق بهم ، والاستماع لمطالبهم ، والعمل على إصلاح شؤونهم ، وعدم مصادرة شيء من أموالهم من أجل الخراج ، ويأتي المزيد في التوضيح عند الكلام عن عمارة الأرض ، أما كلمة الخراج وبيان المراد منها فيعلم مما يلي :

(فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم الخ) .. أي لا طريق لصلاح المجتمع بشئ فثاته إلا بصلاح أمر الخراج ومن يدفع الخراج ، ويدلنا هذا الشمول لجميع الفئات ، وهذا الإطلاق في الحكم - بأنه لا صلاح إلا بصلاح الخراج وأهله ، كما يدلنا على ان المراد بالخراج هو كل ما يجبي لبيت المال بأي سبب من الأسباب أو اسم من الأسماء ، لأن بيت المال لصالح المجتمع فئات وأفراداً حتى ما ينفق منه على الجند والقضاة لأنهم حراس الوطن والعدالة ، ولذا يطلق عليه مال المسلمين ومال الله ، أي لصالح الخلق . ويؤيد إطلاق الخراج على جميع الضرائب بشئ أنواعها ما جاء في « مجمع البحرين » للطريحي عن بعضهم : « إن اسم الخراج يُطلق على الضريبة والفيء والجزية والغلة ، ومنه قولهم : خراج العراقيين » . وليس هذا ببعيد ، لأن معنى الخراج في اللغة الأجر ، وكل ما تأخذه الدولة هو أجرها على استقامة الحياة .

والضريبة في الاسلام على أنواع : منها الزكاة ، وتسمى أيضاً الفريضة والصدقة الواجبة ، ومنها الخمس ، ويسمى أيضاً الغنيمة ، ومنها ما يوضع على الأرض ، ومنها الجزية على الرؤوس ، ومنها الفيء ، وهو ما أخذ من غير المسلمين مسلماً لا حرباً . قال العلامة الحلبي - من علماء الإمامية - في كتاب « التذكرة باب الجهاد » : « الغنيمة من دار الحرب ما أخذ بالغلبة وإيجاف خيل وركاب ، والفيء ما حصل من غير قتال وإيجاف خيل وركاب » ومثله في كتاب « الأحكام السلطانية » - لسنة - وهذه عبارته : « مال الفيء مأخوذ عفواً ، ومال الغنيمة مأخوذ قهراً » .

هذه هي الضرائب التي يفرضها الإسلام، أو معظمها وأهمها على سبيل الإجمال، والتفصيل في كتب الفقه ، ويجمعها اسم الخراج ، وإن كان أظهر أفراده ضريبة الأرضين . وتجدر الإشارة الى أن الضريبة على السلع والمسافر والعقود المدنية ، وعلى الدعاوي لدى القضاة — لم تكن معروفة من قبل في الدولة الإسلامية .

وكل ضريبة كانت تُتجى لبيت المال فهي لصالح المسلمين حتى سهم النبي (ص) الخاص به كان يعطيه للمعوزين ويقول : ما آمن بالله من بات شعباناً وأخوه جائع .. ولا يستثنى إلا ما يقيم الأود، ولو احتفظ ببعضه لكان من أغنياء العرب . (لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله) . ما من غني أو فقير إلا وينتفع من الضرائب في الدولة العادلة ، سواء أنفقتها على المشاريع العامة كالمدارس والمستشفيات ، والعيون وشق الطرق ، أم على الجند والقضاة وسائر الموظفين حيث لا حياة ولا نظام إلا بوجود الدولة ، قال « مونتسكيو » في روح الشرائع : « ان دخل الدولة هو جزء يدفعه المواطن من ماله لينال السلامة والمتعة بالحياة » . ومعنى هذا ان الدولة عيال على الخراج ، والرعية عيال على الدولة بالنظر الى حاجتها للسلامة والمتعة ، والنتيجة ان كل الناس، دولة وشعباً، عيال على الخراج كما قال الإمام .

(وليكن نظرك في عمارة الأرض الخ) .. لا تستقيم الحياة إلا بتبادل الثقة بين الراعي والرعية ، والسبيل الى ثقة الرعية براعيها هو أن تؤمن وتوقن بأنه يهتم بسياسة الإنتاج وزيادة الثروة ، وتوفير الدخل الكافي لكل فرد — أكثر مما يهتم بسياسة الضرائب وتحصيلها .. ومن البدهة ان المورد الرئيسي للثروة وزيادة الدخل هو الأرض ، بخاصة في ذلك العهد حيث كان الاعتماد قبل كل شيء على الزراعة ، وثروة الأرض الموجودة فيها بالقوة ، ولا تظهر هذه الثروة الى عالم الوجود إلا بالعمل وتوفير الآلة . وأيضاً من البدهة ان زيادة الانتاج وحدها لا تزيد في دخل الفرد ، ولا تسد حاجة كل محتاج إلا مع النظام العادل الذي يحقق المساواة بين الجميع ، وبكلمة: لا عمران إلا بمجتمع يقوم على نظام عادل ، وعليه تكون وصية الإمام لعامله بعمارة الأرض مع استقامة الأمر والحياة هي وصية بمراعاة العدل والعمل لزيادة الإنتاج وتحسينه وتنظيم أسواقه ، وما الى ذلك مما يعود على الجميع بالخير والصلاح .

(ومن طلب الخراج بغير عمارة الخ) .. الضريبة لا تقاس بشهوة الراعي

وإرادته ، بل بالنص مع وجوده ، وإلا فبالصلحة والحاجة الضرورية للدولة ، وقدرة الرعية في نطاق العدل ، ولو اهتم الراعي بسياسة الضرائب فقط ، وأهمل الرعية وعمارة الأرض - لكان تاجراً مستغلاً ولعم الخراب والدمار، وإذا صارت البلاد خراباً وياباً فن أين تُجبي الأموال ؟ وهل يزيد مال الخزينة بفقر الشعب؟ وحكى لنا بعض الشيوخ ان صاحب الأرض في العهد العثماني كان يهرب منها ويتنازل عنها بلا ثمن لمن شاء فراراً من الضرائب الفادحة ، وان العديد من الناس كانوا يؤثرون الفقر والبطالة على العمل في الأرض للغاية نفسها .

(فإن شكوا ثقلًا - الى - رفلك بهم) . ضميرشكوا يعود الى الرعية، والمراد بالثقل ثقل الضريبة ، والمعنى ان للزرع آفات ، كأنقطاع المطر ، وتعفن البذر ، والحشرات والأمراض ، وما إلى ذلك من الأوبئة .. فإذا اشتكت الرعية شيئاً من ذلك الى الراعي فعليه أن يبذل كل جهد في مساعدتهم ، وأن يخفف عنهم الضرائب أو يلغها من الأساس حسباً تستدعيه المصلحة ، وليس من شك ان الرعية تمنح الثقة والولاء لراعيها المخلص . والكثير من الحكومات تخصص مبلغاً من الميزانية لمثل هذه الطوارئ .

(فربما حدث من الأمور الخ) .. إذا أحسن الراعي سيرته مع الرعية كانوا له القوة والعدة على كل أجنبي وطامع ، وان أساء ثاروا عليه ، وطلبوا تنحيته .. فإن كان من عشاق الكراسي استعان بالأجنبي ، وتآمر معه على شعبه ، كما حدث بلبنان سنة ١٩٥٨ ، ومن البدهة ان الأجنبي لا يتدخل إلا لمصلحته .. وقد تنبه الإمام لذلك ، فأوصى عامله أن يحرص بأعماله كل الحرص على ثقة الرعية به وحبيهم له ، ليستجيبوا لدعوته ساعة يشاء ، ويكونوا له حصناً من الأعداء .

(فإن العمران محتمل ما حلتته) . المزارد بالعمران هنا العدل والأمن والخصب، ومتى توافرت هذه العناصر الثلاثة ضحى أهله بالنفس والنفيس في سبيله وسبيل راعيه وحارسه ، وإذا افتقدوا واحداً منها شعروا بالغربة ، وهم في وطنهم ، وقد رأينا من يتعصب لبلد غريب يعيش فيه بأمن وهناء ، ويتجاهل وطنه لأنه لا يوفر له الأمن ولقمة العيش .

(وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها الخ) .. الأرض وسيلة من

وسائل الإنتاج ، ولكن بالعمل ، وتوفير المال لشراء الآلة والبذر والسماد والدواء لمكافحة الأمراض والحشرات ، فإذا احتكرت المال فئة من الفئات ، وتأمر معها الحاكم - خربت الأرض ، ورحل أهلها الى غيرها ، أو عاش أحرارها في السجون ، وغيرهم من الرعايا عبيداً للمترفين الطغاة! وللأحرار ونضال الشعوب تاريخ رائع وطويل .

الكتاب .. فقرة ١٨ :

ثُمَّ أَنْظُرْ فِي حَالِ كُتَابِكَ قَوْلٌ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرُهُمْ ، وَأَخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِيُجُودَ صَالِحُ الْأَخْلَاقِ ، يَمُنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ فَيَجْتَرِي بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأَهُ ، وَلَا تُقْصِرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيْرَادِ مُكَاتَبَاتِ عَمَّا لَكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ وَفِيَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ . وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا أَعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ يَقْدِرُ نَفْسِهِ بِكَوْنِ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلُ . ثُمَّ لَا يَكُنْ أَخْتِيَارَكَ إِثَامُهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَأَسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصْنَعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ، وَلَكِنْ أَخْتَبِرُهُمْ بِمَا وَلُوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ فَأَعِذْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَتَجِبَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَلَيْتَ أَمْرُهُ ، وَأَجْعَلْ لِرَأْسِ

كُلُّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ لَا يَقْمَرُهُ كِبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَنَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا وَمِنْهَا كَانَ فِي كِتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَايِنْتَ عَنْهُ أَلْزِمْتَهُ (١٨) .

اللغة :

مكائلك : خططك الخفية ضد أعدائك . والفراصة - بكسر الفاء - التنبؤ بالخفايا من القرائن . والاستئامة : الركون . وألزمته : لزمك ووجب عليك .

الإعراب :

إياهم مفعول ثانٍ لاختيارك ، وشيء اسم ليس مؤخر ، ووراء خبر مقدم ، وكان في العامة « كَانَ » زائدة ، ويجوز أن تكون أصلاً ، واسمها ضمير مستتر ، وأثراً خبرها ، ووجهاً تمييز .

شروط الوزير :

(ثم انظر في حال كتابك) . سبق الكلام عن الجند والقضاة والعمال . والحديث الآن عن الكتاب . وقال أكثر من شارح : إن المراد بهم الوزراء ، وليس هذا ببعيد ، ويومىء إليه قول الإمام : « مكائلك وأسرارك » فإن السر والكيد ضد العدو لا يُطلع الحاكم أحداً عليه إلا وزرائه وخاصته . وكان الوزير آنذاك مجرد مستشار لإسداء النصيح والإرشاد ، وقد يستعين به الحاكم على تنفيذ بعض رغائبه . ولم تمهد قواعد الوزارة، وتحدد مهمة الوزير إلا في الدولة العباسية، هكذا جاء في كتاب « نظام الحكم الإسلامي » . وقال ابن أبي الحديد في شرحه : « الكاتب الذي يشير إليه الإمام هو الذي يسمى الآن في الاصطلاح وزيراً لتدبير حضرة الأمير ، والنائب عنه في أموره » .

وأشار الإمام الى الشروط التي يجب توافرها في الوزير بقوله :

١ - (فولٌ أمورك خيرهم) . فيما تقدم قال الإمام عن العمال والموظفين :
 « فاستعملهم اختباراً » أي امتحاناً بالإضافة الى شهادة حسن السيرة والسلوك ،
 ويظهر من كلامه هنا عن الوزير انه لا داعي لامتحانه ، والمهم أن يكون خير
 الناس في مجتمعه ، أو من خيارهم ، وكل الدول في الشرق والغرب تُسند الوزارة
 لمرضي السيرة بلا امتحان وسؤال وجواب ، وهذا أحد الطرق التي يثبت بها
 الاجتهاد المطلق عند الإمامية . وقد عرّف الإمام في كلماته القصار رقم ٣٧٤ ،
 عرّف المستكمل لحصال الخير بأنه الذي ينكر المنكر بيده ولسانه وقلبه أي يشعر
 بالأسى لكل ظلم وأذى في أي جزء من أجزاء العالم ، وانه مع المظلومين والمنكوبين
 بروحه وقلبه ، وانه يناضل من أجلهم بما يستطيع معنوياً ومادياً باللسان والقلم ،
 وباليدين والمال : « من كل حسب طاقته » . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها
 - ٢٨٦ البقرة » .

٢ - (واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائذك وأسرارك الخ) .. اذا
 كان لديك سر هام ، أو خطة تكيد بها العدو ، واحتجت في تنفيذها الى معين -
 فاختره من أهل الوعي والفتنة بحيث لا يُخدع ويؤخذ من غير شعور ، ومن
 أهل الدين والوفاء أيضاً ، يفى بالعهد ، ويحافظ على الأمانة ، ويقدر الواجب
 ولا يتهاون فيه ، ويحرص على سمعته وكرامته .

٣ - (ممن لا تبطره الكرامة) إذا أكرمته وجعلته لك أخاً جعلك له سيّداً ،
 فلا يطعم ويغتر بإكرامك ويتجاوز الحدود ، كما هو شأن السفهاء الجاهل .

٤ - (ولا تقصر به الغفلة الخ) .. يؤدي واجبه على أكمل وجه ، ولا
 يتهاون برسالة تأتي اليك من عامل أو من غيره ، وأيضاً لا يتهاون بجوابها ،
 ويحرص كل الحرص على حسن سيرتك وسمعتك بين الناس ، ولا يُعرضك
 للسخط والانتقاد بسوء تصرفه ، كما يفعل الكثير من حواشي الرؤساء ، والأكثر
 من أبناء المراجع والعلماء في هذا العصر (فيما يأخذ لك) أي يحتاج لك بالمنطق
 السليم على عمالك وغيرهم ممن يعترض وينتقد (ويعطي منك) النصيح للعمال
 والموظفين وغيرهم .

٥ - (ولا يضعف عقداً اعتقده لك الخ) .. إذا انتدبته الى مفاوضة خصم
 من خصومك ، وتفاوضا ثم اتفقا بعد النقاش على أشياء معينة ، بعضها لك ،

وبعضها عليك ، إذا كان هذا أبرم الشيء الذي لك على نخصمك وأحكمه من جميع جهاته بحيث لا يدع للخصم منفذاً للنقص والتحرر منه ، أما الشيء الذي عليك لنخصمك فيتبعه بأوصاف وقرائن نجعلك في حل متى أردت التحرر منه تماماً كما يفعل الساسة الدعاة الآن وفي كل عصر .. وهذا بعض الشواهد الكثيرة التي تدمغ وتكذب زعم الزاعمين بأن علياً لا يعرف السياسة .

٦ - (ولا يجهل مبلغ قدر نفسه الخ) .. لا يدعي ما ليس فيه ، ويتوقع الخطأ في رأيه ، ويتقبل الانتقاد ، ويحسن الاستماع ، ويمهل المتكلم حتى ينتهي من حديثه .

٧ - (ثم لا يكن اختيارك لإياهم على فراستك الخ) .. ليست الفراسة طريقاً علمياً أو شرعياً لمعرفة أي شيء حتى ولو كان حقيراً ، فكيف بالمصالح العامة والأمور الهامة ؟ هذا ، الى أن الأشرار يلقون الحكماء بالرياء والتصنع لينزلوهم منزلة الأخيار .. ولكن الحكماء الدكي يدرك واقعهم ويعاملهم بما هم أهل له .

مقياس الحقيقة :

(ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك الخ) .. يختلف مقياس الحقيقة باختلاف طبيعتها ، فالحقيقة الدينية تقاس بالوحي من الله ، والحقيقة الفلسفية تقاس بالفكر والعقل ، والحقيقة العرفية مقياسها أفهام الناس وعاداتهم ، والحقيقة العلمية تقاس بالمشاهدة والتجربة . وكذلك الرجال يُعرف منهم الكفو بما يمارسه من الأعمال ، فالطريق الى العلم بمهارة الطبيب أن يشفي المرضى ، ومهارة مهندس البناء تظهر في العمارة والبنائية ، ولا نعرف خلق الوزير أو الموظف إلا اذا باشر مهنته حيناً كافياً من الدهر ، فإن قام به كما يجب ، وذكره الناس بالخير والأمانة فهو كذلك ، وعلى الحاكم المخلص أن يؤثره على غيره ، ويركن اليه ، وقديماً قيل : ألسنة الناس أقلام الحق .. وقال الإمام : من أصلح سريره أصلح الله علاقته . ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس .

(فإن ذلك دليل على نصيحتك الخ) .. اذا اخترت الأمين المعجرب لمصالح العباد فقد نصحت الله ورسوله ، وأثابك بالحسن وزيادة .

توزيع الأعمال :

(واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم) . هذا كلام مستأنف وعام يشمل كل الأعمال ، ولا يختص بالرسائل وأجوبتها كما فهم ابن أبي الحديد وغيره ، لأن الإمام قال : كل أمر من أمورك ، ولم يقل كل رسالة من رسائله . والمعنى ان أعمال الدولة كثيرة ومتنوعة ، وتحتاج الى الكثير من العمال والموظفين .. ولا تنتظم هذه الأعمال وتستقيم إلا اذا حُصرت وصُنفت الى أقسام وأصناف بلا تداخل بينها واصطدام ، ثم يُسند كل عمل منها الى شخص معين يقوم به ويدور في فلكه ولا يتجاوزه الى غيره ، ويكون وحده المسؤول عنه ، وبهذا التقسيم والتوزيع يمكن ضبط الأعمال واتقانها على الوجه المطلوب .. وقال الإمام في آخر وصيته الطويلة لولده الإمام الحسن : « واجعل لكل انسان من خدمك عملاً تأخذه به ، فإنه أخرى أن لا يتواكلوا في خدمتك » .

وقال الباحثون : ان هذا المبدأ لم تهتد اليه المدنية إلا حديثاً (ومهما كان في كتابك من عيب الخ) .. يجب على الوالي أي يتحرى أخبار العمال والموظفين ، ويحرص كل الحرص على معرفة أعمالهم : هل أحسنوا أم أساءوا ؟ وأن يجزي المسيء بما يستحق ، فإن أهمل الوالي البحث والتفتيش ، أو تغاضى عن الإساءة ، كان مسؤولاً أمام الله ، ومأخوذاً بأشد العقوبات .

التجار وأرباب الصناعة .. لفقرة ١٩ :

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتَّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا : الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِّ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِيَدَيْهِ ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ، وَجَلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ، فِي بَرَكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبِيلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَمِثُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَزُونَ عَلَيْهَا . فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَأَثَمَتُهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى

غَاثَلْتُهُ . وَتَفَقَّدَ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَأَعْلَمَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا وَشُحًّا قَيْيَحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ وَتَحَكُّمًا فِي الْبَيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ . فَاُئْتَمَرَ مِنَ الْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنَعَ مِنْهُ ، وَلَيْكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمَحًا ، بِمَوَازِينَ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ . فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَتَكُلْ بِهِ ، وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ^(١٩) .

اللغة :

اضطرب التاجر بماله : انتقل به من بلد الى بلد . والمترقب ببذنه : المعتمد عليه في الكسب . والمرافق : المنافع . والمباعد والمطارح بمعنى واحد ، أي الأماكن البعيدة . والباقة والغائلة : الشر . وضيقاً : شديداً في معاملته والمبتاع : المشتري .

الإعراب :

مفعول استوص محذوف أي أوص نفسك ، والمقيم وما بعده بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه الضمير في « بهم » ، وبموازين متعلق بمحذوف خبراً ليكون ، ويبيعاً مفعول مطلق للبيع .

الصناعة والتجارة بين القديم والجديد :

ابتدأ الكلام أول ما ابتدأ بالجند ، ثم القضاة ، ثم العمال والموظفين ، ثم

أهل الخراج ، ثم الكتاب أو الوزراء . والحديث الآن عن الفئة السادسة ، وهم التجار وأهل الصناعة .. وكل علاقة بين الفرد والفرد ، أو بين الفرد والجماعة ، أو بين الجماعة والجماعة - فإنها لا تخلو من أحد فرضين : إما روحية لا صلة لها بالاقتصاد ، كحب المؤمن لأخيه المؤمن لمحض الإيمان ، وحب الصديق صديقه لمجرد الصداقة ، وحب الأم لوليدها ، وإما اقتصادية كعلاقة التاجر بالمنتج والمستهلك ، وعلاقة كل الناس بهؤلاء الثلاثة ، لأن الحياة لا تستقيم إلا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ولذا قال الفقهاء : هي فرض كفاية على الجميع .

والأوصاف التي نعت بها الإمام أهل التجارة والصناعة - تدل دلالة قاطعة على أن أكثرهم كانوا من الكادحين لا يبتغون إلا سد الحاجة والعيش بأمان ، ومن أجل هذا كانوا يعرفون الدين والشرعية ، والخير والشر ، والعدل والظلم تماماً كالمستضعفين .. وأيضاً كانوا يشاركون بأموالهم وأنفسهم في الدفاع عن الدين والوطن ، ربما بذل أحدهم معظم ما يملك في هذا السبيل ، كما حدثنا التاريخ .

وليس هذا يبعد عن طبيعة الحياة والأوضاع في ذاك العهد حيث لا آلة إلا المغازل والأنوال البدوية ، وإلى هذا أشار الإمام بقوله : (والمتفرق بيدنه) أي العامل بعرضاته لا بالضغط على الأزرار.. أيضاً لم يكن آنذاك شركات تجارية احتكارية يملك أسهمها أصحاب الملايين ، ويسيطرون على السياسة وأقوات العباد . بل كان التاجر يعرض سلعته في حانوته على المستهلكين ، وإليه أشار الإمام بقوله : (المقيم منهم) أو ينتقل بها من بلد إلى بلد ، وإليه الإشارة بالمضطرب بماله .

وبكلام آخر ان الهوة لم تتسع بين فئات المجتمع - كما هي الحال الآن - إلا بعد أن تقدمت الصناعة وطلعت على مظاهر الحياة ، وتحكمت بها وبالمصانع أصحاب الشركات الاحتكارية ، وأخضعوا الانتاج وكل مجهود لأهوائهم ومكاسبهم ، وحولوا معظمه إلى أسلحة الخراب والدمار ، وفرضوا العجز والفقر على الشعوب المستضعفة ، واحتكروا أقواتها ومقدراتها ، وحاربوا كل ثقافة واعية ، وخنقوا كل صوت للأحرار والحرية في شرق الأرض وغربها .

وفي الأسبوع الأول من كانون الثاني يناير سنة ١٩٧٣ نشرت الصحف تقريراً لـ « أرنت ماير » مدير معهد الصحافة الدولي جاء فيه : « إن ٢٦ دولة في العالم فقط من بين ١٣٢ دولة أعضاء في الأمم المتحدة تتمتع بحرية الصحافة ، لأن

القوى الاقتصادية تُخضع صاحب الصحيفة لإرادتها وإلا أوقفت عنه سبل الاعلانات. وان الصحفي الأمريكي فقد حريته بشكل سريع ومخزن .. وان العديد من الصحف المستقلة آثرت الاختفاء بدلاً من الوقوع في براثن الاحتكارات .

وليس من شك ان الإمام لا يتحدث عن هذا النوع من الشركات وذوي الصناعات حيث لم يكن لهم في عهده عين ولا أثر ، ولأنهم وحوش كاسرة ، وأوبئة مهلكة لا يعترفون بمبدأ أو قانون ، ولا بشيء إلا بالنجاح والأرباح .. والإمام يتحدث عن التجار والصناع الذين هم أداة خير في المجتمع ، ويعترفون بالدين والضمير ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، كما أشرنا .

وبهذا التمهيد يسهل علينا أن نفهم ما أراده الإمام بحديثه التالي عن التجار وذوي الصناعات .

(ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات الخ) .. أولاء يصنعون الكساء والسلاح وأدوات البناء والمنزل وآلات الزراعة وما إليها ، وأولئك ينقلونها الى المحتاجين والمستهلكين ، وعلى الراعي أن يهتم بالفتنين معاً حيث لا غنى للمجتمع عنها ، ويعمل على تحسين الصناعة بما يحقق الخير والرخاء للجميع .. وكلنا يعلم ان الصناعة اليوم هي القوة العظمى في كل ميدان ، وانها المطلب الأول لكل شعب ، لأن التقدم يقاس بها لا بالزراعة ، بل هي المقياس لتطور الزراعة والتجارة ، وزيادة الربح في هذه وغلة الأرض في تلك . فتشجيع الصناعة ، اذن ، تشجيع للانتاج بشئ وسائله .

وما فرضت اليابان نفسها على العالم بعد هزيمتها واستسلامها لأمريكا في الحرب العالمية الثانية - إلا بثورتها الصناعية السلمية ، وكذلك الألمان .. وبالأمر القريب وحين ظهر العجز التجاري الأمريكي ، وأعقبه أزمة الدولار ، التجأت الولايات المتحدة صاغرة الى اليابان ، والفضل للانتاج وصناعة السلم .. والمجتمع الأمريكي مجتمع صناعي تجاري أكثر من اليابان بالقياس الى موارده وإمكاناته ، ولكن سياسة التصنيع الحربي خلقت لأمريكا وللعالم كله أزمات ومشكلات، ولا سبيل للخلاص إلا سياسة السلم في كل ميدان ، وإطلاق الحرية لكل شعب وإنسان بلا تمييز بين قوي وضعيف ، وغني وفقير ، وأسود وأبيض .

(فلينهم مواد المنافع الخ) .. ومن هذه المنافع أن التجار ينقلون سلع البلاد

التي تزيد عن حاجة أهلها الى بلاد أخرى هي في أمس الحاجة إليها .. ويتعذر على البلد المنتج والمستهلك الاجتماع في مكان واحد للبيع والشراء ، وهذا ما أراده الإمام بقوله : (وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها) .. وأيضاً ينقل التجار مع السلع عقيدتهم وثقافتهم ، وعن طريقهم انتشر الإسلام في كثير من الأقطار . قال العقاد في كتاب « الإسلام في القرن العشرين » : « يوجد اليوم في إفريقيا مئة مليون مسلم ، وقريب من هذا العدد في الصومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه في الباكستان، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين . وكل هؤلاء سرت فيهم عقيدة الإسلام بمعزل عن الدول والسياسة » .

(فإنهم سلم لا تخاف الخ) .. ان التجار والصناع من حيث المجموع - لا يثيرون الفتن ، ولا يتآمرون مع أعداء الوطن ، كما تفعل اليوم الرجعية للمحافظة على استغلالها وامتيازاتها .. وقول الإمام : « فإنهم سلم لا تخاف بوائقه » دليل قاطع على ان أهل التجارة والصناعة كانوا في ذلك العهد من الكادحين يعيشون بكد اليمين ، كما قدمنا (وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك) . تتبع أخبار القريب منهم والبعيد ، وأسهر على مصلحة الجميع .

(واعلم مع ذلك ان في كثير منهم الخ) .. ان التجار كسائر الفئات، فيهم الكبير والصغير ، والسلم والضيق ، والجشع والقانع ، والطيب والخبيث، وقد يحاول بعض الأثرياء من ذوي الجشع والطمع - ان يستغل عن طريق غير مشروع كالربا والغش والاحتكار والتحكم بالأسعار ، فإن حدث من أحدهم شيء من هذا فاضرب على يده وعامله بما يستحق .

والاحتكار محرم نصاً وإجماعاً ، ومن الكبائر أيضاً ، ولا يختص بنوع معين خلافاً لجماعة من الفقهاء ، بل يعم كل ما يضطر اليه الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. والحاكم يجبر المحتكر أن يعرض السلعة في الأسواق . ولا يحل التسعير عليه ولا على غيره إلا لضرورة المجتمع ومصلحته ، وللوقاية من استغلال البائع وجشعه . وقال الشهيد الثاني في كتاب « المسالك » : « ان كان المضطر الى الطعام قادراً على المحتكر قاتله ، فإن قُتل المضطر كان مظلوماً ، وان قُتل صاحب الطعام قدمه هدر » . وتكلمنا عن الاحتكار مفصلاً في كتاب « فقه الإمام جعفر الصادق » باب البيع .

(وليكن البيع بيعاً سمحاً) أي فيه تسهيل بالثمن (وبموازين عدل) لا ينتقص من باع ، ولا يتزيد من اشترى (وأسعار لا تُجحف بالفريقين) لا سلطان مطلقاً للإنسان حتى على نفسه وماله .. فكل تصرف في الحق مقيد بعدم الضرر والإجحاف بالآخرين ، وبتعبير الحقوقيين لا تعسف في استعمال الحق (فن قارف حكرة الخ) .. الاحتكار ذنب كبير كما أشرنا ، ومن ارتكب كبيرة من الجرائم عاقبه الحاكم بالعقوبة المنصوص عليها شرعاً ، وإن أعوزته النصوص عزّره بما يرى شريطة أن لا يخالف نصاً في الكتاب والسنة . وإلى هذا الشرط أشار الإمام بقوله : (من غير إسراف) .

وبعد فإن الاسلام يقيم العلاقات بين الناس وينظمها لصالح الجميع بلا استثناء، إن أمكن وإلا قدم صالح الغالبية على الأقلية ، ولهذا المبدأ وغيره من المبادئ الإسلامية قال كثير من الأجانب والمستشرقين : إن الاسلام دين الحياة في كل زمان ومكان . ونقلنا طرفاً من أقوالهم في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » فصل « محمد والقرآن » .

الطبقة السفلى .. فقرة ٢٠ - ٢١ :

ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الدِّينِ لَا حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلَ الْبُؤْسِ وَالزَّمْنَى ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً . وَأَحْفَظُ لِلَّهِ مَا أَسْتَحْفَظُكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَأَجْعَلُ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَقِسْماً مِنْ غُلَّتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَذْنَى . وَكُلُّ قَدْ أَسْتُرِعِيتَ حَقَّهُ فَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ ، وَتَفْقِدَ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ يَمْنُ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْقِرُهُ

الرِّجَالُ ، فَفَرَّغْ لِأَوْلِيكَ ثِقَّتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَّاضِعِ ، فَلْيَرْفَعْ
إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ أَعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ ، فَإِنَّ
هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلُّ فَأَعْذِرْ
إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ^(٢٠) . وَتَعَبَّدْ أَهْلَ الْيَتَمِ وَذَوِي الرِّقَةِ فِي
السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ
ثَقِيلٌ وَأَلْحَقُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ . وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ
فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَوَقَفُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ . وَاجْعَلْ لِذَوِي
الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تَفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسْ لَهُمْ مَجْلِسًا
عَامًّا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ
مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ ، فَإِنِّي
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ
تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعِّعٍ » .
ثُمَّ أَحْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ ، وَنَحْ عَنْكَ الضِّيْقَ وَالْأَنْفَ يَبْسُطُ
اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ .
وَأَعْطِ مَا أُعْطِيتَ هَنِيئًا ، وَأَمْنَعُ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ^(٢١) .

اللغة :

الطبقة السفلى : الجماهير الشعبية والغالبية العظمى التي تتألف من الفقراء والمساكين
كما أوضح الإمام ذلك بقوله : « من المساكين والمحتاجين » . والبؤسى - بضم

الباء - شدة الفقر . والزمنى - بفتح الزاي - جمع زمين أي صاحب عاهة .
والقانع : الراضي بما تيسر من غير مسألة . والمعتر : يتعرض للطاء . والمراد
بصوفي الاسلام المال المشاع لكل مسلم . ولا تصعر خدك : دع الكبر والإعجاب .
وتفتحه العيون : تحتقه وتزدريه . وثقتك : من تثق به . والإعذار : ما يوجب
العدر . والرقه - بكسر الراء - الضعف . وتُعد عنهم جندك : تأمرهم أن لا
يتعرضوا لهم . والمتتبع : العي . وتُقدّس : تطهر . والمراد بالضيق هنا ضيق
الصدر . والأنف - بفتح الألف والنون - الاستنكاف .

الإعراب :

الله الله احذروا أو اتقوا الله ، والثانية للتوكيد ، وغير متتبع حال من
متكلمهم .

فلسفة المساكين :

(ثم الله الله في الطبقة السفلى^١ من الذين لا حيلة لهم الخ) .. لأنهم ليسوا
من الجند والقضاة ، ولا من الموظفين والصناع الذين تقدم عنهم الكلام ، وإنما
يتألفون من الشغيلة المأجورين في الزراعة وبعض الحرف ، ومن المستخدمين في
البيوت ومحلات التجارة ، وسائقي السيارات ، وعمال البناء والمطابع وما أشبه ،
ومن الشيوخ والعجزة والعاطلين عن العمل ، وقد يكون لبعضهم قطعة من الأرض
لا تفي بحاجته ، أو تكون له زاوية يبيع فيها الفجل والكراث ونحوه ، أو يكون
بائعاً للصحف أو أوراق « اليانصيب » ، أو ذا حرفة تافهة كمسح الأحذية أو
ترقيعها ، أو يكون موظفاً للحراسة والكناسة .

كل هؤلاء يشملهم قول الإمام: « الله الله في الطبقة السفلى الذين لا حيلة لهم »

١ وهذه الكلمة ترادف كلمة البناء التحي الشائعة في تبيرات بعض الكتاب ، ويعنون بها ان صلاح المجتمع
لا يكون إلا بصلاح هذه الطبقة لا بالأغنياء والأقوياء ، لأن البناء يبدأ بالأساس لا بالسقف ، ومتى صلح
الأساس صلح السقف وغيره من أجزاء البناء .

وتُطلق عليهم كلمة الجماهير لأنهم الغالبية العظمى والأكثرية في كل الشعوب أو
جلها ، وهم القوة والعدة لكل نبي ومصلح في حل الأزمات وتقدم الحياة، ولولاهم
ما كان للعلماء والعظماء اسم ولا أثر في مدنية وحضارة ، أو شيء ينفع الناس ،
ولا كان للإنسانية هذا التراث الضخم من الصروح والسدود والسرغ والقلاع ،
وما إلى ذلك مما فراه في متاحف الآثار وغيرها .

ومع هذا فهم الطبقة المستغلة المضطهدة من بين طبقات المجتمع ، فالبوليس
يطاردهم ويحرق بهم المخالفات، في حين لا يجراً على غيرهم ، والأغنياء لا يعطونهم
من ثمن الخدمات إلا دون الكفاف، وهم يحرمون من إعانات الإغاثة — ان كانت —
لتذهب الى جيوب المشرفين عليها والموظفين ، وبعد هذا كله يتحملون القسط
الأوفر من كل نكبة وآفة سماوية كانت كالجدب ، أم أرضية كالحرب .

وقد ذكرهم سبحانه في العديد من آياته ، منها توجب لهم الشركة في أموال
الأغنياء : « في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم — ٢٥ المارج » . ومنها
الإحسان اليهم : « وبالوالدين إحساناً وبلي القربى واليتامى والمساكين — ٣٦
النساء » . ومنها توجب الجهاد والثورة من أجلهم : « وما لكم لا تقاتلون في
سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان — ٧٥ النساء » . ولكن
المستضعفين لم ينتظروا أحداً يثور عنهم ويقاوم من أجلهم فثاروا على الظلم بأنفسهم ،
وخاضوا المعارك في كل طرف من أطراف المعمورة ، وانتصروا في كثير من
الثورات ، وبعضها الآخر في طريق النصر ، وان طال ، وأين المفر من التيار
الواثب الغاضب ؟.

أما فلسفة المساكين التي تقول : العدل والحرية للجميع ، وحياة أسعد وأفضل
لكل فرد دون استثناء ، أما هذه الفلسفة فهي رسالة السماء الى الأرض ، ومبدأ
الشرائع والقوانين ، وأمنية كل شعب في شرق الأرض وغربها ، والإمام لا ينطق
بلسانه ، ولا يعبر عن شعوره فقط ، وإنما يعلن إرادة الله والطيبين من عباده
حين يقول : « الله الله في الدين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين .. فإن
هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الإنصاف من غيرهم » لأنهم أبتام وبلا عم وخال.

(واجعل لهم قسماً من بيت مالك) . مشاريع الدولة كثيرة ، وكل مشروع
يحتاج الى تصميم ومبلغ كافٍ من ميزانية الدولة . وقد أمر الإمام أن تكون النفقة

على المحتاجين ومشاريع الدولة، وأن يخصص الوالي لهم قسماً من الميزانية ليكون حقاً مضموناً تماماً كرواتب الجنود والقضاة وسائر الموظفين .. وقد يكون هذا قانوناً في دولة أو أكثر من دول القرن العشرين ، أما في عهد الإمام أي منذ ألف وثلاثمئة سنة أو تزيد — أما في ذلك العهد فلم تعرف هذا دولة ولا فئة أو فرد — فيما نظن — والذي عرفناه وقرأناه أن الولايات المتحدة تضطهد الهنود الحمر وغيرهم من الفقراء والمملوكين ، وتعاملهم معاملة الحشرات والحيوانات !.. وهي أرقى وأغنى دولة في هذا العصر ، ولكن غناها مسخر للشر والدمار .

(وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد) . المراد بصوافي الإسلام هنا الأموال المشاع بين المسلمين كافة ، ولا تختص بسهم النبي (ص) كما فهم ابن أبي الحديد ، وكلمة صوافي مأخوذة من استصفى المال إذا أخذه كله ، أو من صوافي الملوك أي ما يختارونه لأنفسهم ، والمعنى ان سهم الفقراء في ميزانية الدولة لا يحرمهم من الأموال التي هي مشاع بين المسلمين ، وان احتياجاتهم تُسد من هذه وتلك (فإن للأقصى منهم الخ) .. كل المحاييج سواء في مال الله ، لا فرق بين أسود وأبيض ، وبين نسيب وغريب ، وبدوي وحضري، وصحابي وتابعي .

(فلا يشغلك عنهم بطر) واغترار بجاه أو مال (فإنك لا تعذر بتضييعك التافه الخ) .. أنت مطالب ومسؤول عن كل كبيرة وصغيرة في الرعية حتى ولو كانت مثقال ذرة ، وعليك أن تُصلح وتهتم بالجميع ، ولا تشغلك كبار الأمور عن صغارها ، وتقول : أدت الأهم وما عداها لا يهم ، فإن هذا منطق الكسول العاجز .. وقد أكد الإمام هذا المعنى في الكثير من وصاياه وأقواله ، والهدف الأول والأخير هو الاهتمام بحاجة كل محتاج ، وان تكن من التوافه ، فرب تافه في نظر الناس هو مسألة حياة أو موت عند من يحتاج اليه ، فلقمة العيش أو جرعة الماء فيها حياة نفس في كثير من الأحيان . ومن أقوال الإمام وحكمه : « افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً ، فإن صغيره كبير ، وقليله كثير » أي من حيث الأثر والمنفعة ، فإن الأمور تُقاس بنتائجها وآثارها .

(فلا تشخص همك عنهم الخ) .. لا تترفع عن خدمة البائسين ، ولا تبخل بسعيك لحل مشاكلهم ، ويجب أن يتم منك ذلك كواجب عليك لا كمحسن ومتفضل (وتفقد أمور من لا يصل اليك الخ) .. ما أكثر الضعفاء من ذوي

الحاجات الذين لا يجدون عملاً ولا خلاً يشكون اليه ، ولا كريماً يزيح العقبات من طريق وصولهم الى الحكام وذوي الشأن !.. أبداً لا يرون إلا أعيناً تزدريهم ، ولا يسمعون إلا ألسناً تهزأ بهم .. والإمام يُنذر ويحذر الولاة والحكام من إهمال هذه الفئة ، وانه يجر عليهم أسوأ العواقب .. ان عدد البائسين لا يحصى كثرة ، ويستحيل أن يصبروا على الظلم .. ولا بد يوماً أن يحطموا القيود ، ويرفعوا صيحات الغضب في وجوه الحكام الطغاة وأعوانهم .. ثم نصيح الإمام عامله أن يعين أشخاصاً من الأبرار المؤمنين على مصاير الخلق ، يتفرغون للبحث عن أحوال الناس من ذوي الحاجات ، ويصفون لمطالبهم ، ويرفعونها اليه ، ليعمل على انجازها بالمعروف .

وهكذا عاش علي بن أبي طالب (ع) العمر كله مع المساكين، يشعر بالامهم ويوصي بهم ، ويشاركهم في مكاره الدهر ، وبهذا كان وما زال معبود الجماهير، والى آخر يوم .. وقد أثنى النبي (ص) على الإمام لصفته هذه ، وبشره بعلو المنزلة عند الله ، وقال له : « يا علي ان الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب اليه منها ، زينك بالزهد في الدنيا .. ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ، ويرضون بك إماماً » . وقال الاستاذ أحمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار » : « كان علي أوسع شعبية ، وان الجماهير كانت من ورائه » .

(وتعهد أهل اليم وذوي الرقة الخ) .. أوصى الإمام أولاً بكل ذي حاجة ، ثم خص الأيتام والشيوخ العجز، لأنهم أولى بالرعاية ، وبالحصوص من لا يتصدى منهم للناس بالطلب والتسول (وذلك على الولاة ثقيل) قد يهون على الوالي أن يعفو ويحتمل الكلمة الموجهة، ويختار وزراءه وموظفيه من الثقات الأمناء ، اما ان يتفقد الأملة ویتیمها ، والمغمورين من أمثالها ، أما هذا فثقيل وصعب مستصعب على قلبه إلا إذا كان قوياً في إيمانه تهون عليه الصعاب طلباً لمرضاة الله ، وحسن الثواب . ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية ، كما قال الإمام :

(واجعل للذوي الحاجات منك قسماً الخ) .. خصص من وقتك ساعات للمحاويع ، فإن ذلك رحمة من الله ساقها اليك ، وذخر لك في يوم الحساب والجزاء (وتُفقد عنهم جندك وأعوانك الخ) .. افتح جميع أبوابك للذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالحق والعدل ، ولا تجعل بينك وبينهم حجاباً وحراساً ،

لأنهم أفاع وذئاب على الفقراء والمساكين (لن تُقدّس أمة الخ) .. أي لا تظهر من القبائح والردائل إلا إذا كان القوي فيها ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوياً حتى يؤخذ الحق له . وبكلمة ثانية لا خير في أمة يخاف فيها البريثون ، ويأمن المجرمون .

(ثم احتمل الحرق الخ) .. لا تستوحش من كلمة قاسية تسمعها من غليظ جاف ، أو حركة نابية تراها من جاهل أرعن ، فإنك في مركز القوة ، وهو في مركز الضعف.. هذا ، الى ان الخلق الكريم يزيد صاحبه عزاً عند الله والناس (واعط ما أعطيت هيناً) بلا منّ وأذى (وامنع في إجمال واعذار) اذا منعت حاجة عن سائلها لسبب أو لآخر فكن لطيفاً ، كما تكون كريماً في العطاء ، واعتذر بحجة تخفف من وطأة المنع .

حاجات الناس وفرائض الله .. فقرة ٢٢ - ٢٣ :

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا . مِنْهَا إِجَابَةُ عَمَلِكَ بِمَا يَغْنَى عَنْهُ كُتَابُكَ . وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ إِذَا تَخَرَّجَ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ . وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَأَجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ . وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةٍ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ . وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضِيعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ

الْحَاجَةُ . وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى
 الْيَمَنِ كَيْفَ أَصْلِي بِهِمْ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ . كَصَلَاةِ أَوْصِيَانِهِمْ وَكُنْ
 بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » ، (٢٢) . وَأَمَّا بَعْدُ فَلَا تُطَوِّلَنَّ أَوْحِيَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ،
 فَإِنَّ أَوْحِيَابَ الْوَلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقَلَّةٌ عِلْمُ
 بِالْأُمُورِ . وَأَلَا أَوْحِيَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا أَوْحِيَابُوا دُونَهُ ،
 فَيَصْغُرُ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ وَيَخْسُنُ
 الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا
 تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ
 بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا
 أَمْرٌو سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ فَفِيمَ أَوْحِيَابَكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ
 تَعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسَدِّدُهُ ، أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفُّ
 النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ
 النَّاسِ إِلَيْكَ بِمَا لَا مَوْثِقَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةٍ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ
 إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ (٢٣) .

اللغة :

يعيا : يعجز . وصدر عن الشيء : رجع ، وإلى الشيء صار ، وصدر منه
 الشيء : حصل وحدث . وتخرج : من الخرج ، وهو الضيق . وأجزل :
 أعظم أو أكثر . والشعبة : الطائفة . والسِمَات : العلامات .

الإعراب :

أمور مبتدأ ، والخبر محذوف أي هناك أمور ، وما فيه « ما » موصول اسم إن لكل يوم و « فيه » صلة الموصول ، وكاملاً حال ، وغير مثلوم صفة لكامل ، وبالغاً حال ، وما بلغ مفعول لبالغ ، وكصلاة أضعفهم الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي صل صلاة مثل صلاة أضعفهم .

المعنى :

(ثم أمور من أمورك - الى - أعوانك) . على الوالي مسؤوليات وأعمال هامة لا يسوغ التهاون بها ، والروغان عنها ، ويحتاج لإنجازها الى عقل وصبر ، فقد يكون الوالي في شغل شاغل بأمر مهم ، وقبل إنجازها يأتيه ما هو أهم ، وقبل النظر فيه يرد عليه مثله أو أعظم ، فإذا يصنع ؟ وهل من سبيل الا الصبر والروية ؟ ومن الأمور الهامة الرسائل ترد على الوالي من عماله ونوابه في الأقطار، ولو أوكّل أمرها الى غيره كالوزراء والمديرين لضاعت الحقوق ، لأن بعضهم يتضايق ، وآخر يعجز ، وثالث يأنف ويتأفف ، ورابع يماطل ويساوم .. ولا سبيل إلا أن يباشر الوالي بنفسه أو يتعهد ويشرف بيقظة واهتمام .

(وامنص لكل يوم عمله) . لا ترجىء الأمور وتتوان عنها وإلا أفدحتك وتراكت عليك ، ولن تجد زماناً لمباشرتها وإنجازها ، وإن جاءتك مجتمعة فابداً بالأهم (فإن لكل يوم ما فيه) من الأعمال التي تفوت بفواته .. وقد جربت فما وجدت حلاً لمشكلة الوقت أفضل من الترتيب والتنظيم بتوزيع الأعمال على الساعات بلا تداخل وتزاحم ، وسمعت الكثير يحتدرون عن الإهمال بضيق الوقت، ويلقون عليه بالمسؤولية .. والصحيح انهم يسيئون استعماله ، ولا يشعرون بأنه يعمل فيهم ، ولا يعملون فيه .

(واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام) . والمراد بالأقسام الأوقات التي يكون العمل فيها أكثر ثواباً منه في غيرها ، والمعنى ان لكل يوم من الأيام أعماله الخاصة به ، بل لكل جزء من اليوم عمل لا يجوز تأخير عنه كالصلوات الخمس ، فإن لكل فريضة منها وقتاً معيناً ، وهذا الوقت

منه موسع ومنه مضيق على التفصيل المذكور في كتب الفقه ، وتقدمت الإشارة الى أوقات الصلاة في الرسالة ٥١ ، والإمام يوصي بأداء القرينة في أول الوقت ، لأنه أفضل وأكثر ثواباً ، وفي الحديث : لكل صلاة وقتان ، وأولها أفضلها ، وأحبها الى الله .

(وان كانت كلها لله الخ) .. الصلاة والصيام لله .. وأيضاً إغاثة الملهوف لله ، وكل عمل ينفع ولا يضر أحداً فهو لله .. حتى السلبُ بكف الأذى تنزهاً لا عجزاً فهو لله . وفي الحديث : كف الأذى صدقة .. وكظم الغيظ طاعة .. وقضاء الحاجة رحمة وذخر الى يوم القيامة .. وبالنيات يدخل أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار ، وبها يخلدون .

من أقسام الحق :

(وليكن في خاصة ما تُخلص به لله الخ) .. للحق أقسام تختلف تبعاً لاختلاف المعنى الذي يدور عليه التقسيم ، فالحق باعتبار إضافته الى الله والعبد - ينقسم الى ثلاثة أقسام : الأول متمحض لله وحده كالعبادة ، واليها أشار اليها الإمام بقوله : (اقامة فرائضه - تعالى - التي هي له خاصة) . الثاني متمحض للعبد كحق الخيار في الرجوع عن عقد البيع ونحوه لسبب من الأسباب الموجبة . الثالث : فيه الحقان معاً كسرقة المال ، فإنها توجب الحد ، وهو من حق الله ، وتوجب رد المسروق الى أهله عيناً أو بدلاً ، وهو حق العبد .. ومن هذا الباب حق الرعية على الراعي ، فإنه ينسب الى الله لأنه هو الذي أوجبه وأمر به ، وينسب الى عباده لأن فيه خيرهم وصلاحهم .

وبعد أن أوصى الإمام عامله بالحرص على ما افترضه الله عليه لعباده - أمره أن يؤدي ما عليه من الحق الذي هو لله خاصة ، وقال :

(فاعط الله من بدنك - الى - ما بلغ) . الواجب من العبادات على أنواع : منها بدني محض كالصلاة والصيام ، واليها أشار الإمام بكلمة « من بدنك » . ومنها مالي محض كالإخماس والزكوات ، ومنها ما يجمع بين الأمرين كالحج ، لأنه أعمال وبدل أموال ، وعلى المكلف أن يؤدي كل واجب من هذه الثلاثة على وجهه ، وبكامل أجزائه وشروطه مهما بلغت ، لأن الإخلال بشيء منها يجعلها

كأن لم تكن، بدنية كانت أم مادية. وإنما خص الإمام البدنية بالذكر لأن حديثه عن الولاة والحكام ، وهم في الغالب يتكاسلون عن الصلاة ، أو يسرعون بها بحجة ان أوقاتهم أضيق من أن تتسع لها .. فحذرهم الإمام من ذلك .

وتجدر الإشارة الى ان كثير الأشغال يفكر بها ، وهو في صلاته، ويكثر لذلك شكته وسهوه معها تحفظ واحترس ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف وصف .

(واذا قت في صلاتك للناس فلا تكن منفراً) بتطويلها ، وفي الحديث : « إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تكهروا عباد الله الى الله ، فتكونوا كالراكب المنبث لا سفرأ قطع ، ولا ظهرأ أبقى » . والمنبت المنقطع في سفره (ولا مضيعاً) بالحلل والتقصير (فإن في الناس من به العلة) المرض أو الشيخوخة (وله الحاجة) التي لا تتحمل التواني والتأجيل (صل بهم كصلاة أضعفهم الخ) .. تقدم بالحرف في الرسالة ٥١ .

(فلا تطولن احتجاجك - الى - الباطل) . لك أن تحتجب عن الرعية بعض الوقت ، لراحتك أو لإنجاز ما أهمك ، اما ان تحتجب كل الوقت فهذا كبير منك وسوء خلق ، وداعية للجهل بأحوال الرعية ، والاعتماد في اخبارها على أصحاب المآرب والأغراض .. وأيضاً الاحتجاج تحقير وتنفير لأهل الرأي والفضل والمروءة ، وتعظيم لخدمك وحجابك الذين يدخلون عليك ساعة يشاؤون .. وليس من شك ان تحقير الكبير وتعظيم الصغير هو صغار واحتقار لك بالذات، بل جريمة لا تغتفر ، لأنك عاقبت من لم يسئ اليك ، وأغضبت من يريد لك الرضا ، وحللت بينه وبين حاجته ، وهو يتلهف على قضائها .. وهل من شيء أكثر قبحاً من ذلك ؟.

(وإنما الوالي بشر الخ) .. قد يكون الوالي محقاً في احتجاجه ، ولو بعض الحق ، ولكنه في نظر الناس بشر ، وليس بلإله حتى يقولوا : سبحانه ما احتجب عنا عبثاً .. بل يظنون به الظنون (وليست على الحق سمات) ودلائل ظاهرة تشير الى السبب الموجب والمبرر للاحتجاج (تعرف بها ضروب الصدق من الكذب) في العذر عن الغياب وسد الباب .

(وإنما أنت أحد رجلين الخ) .. ان الرجل الطيب يتمنى أن يكون له مكان من الخير عند الله والناس ، ويرى خدمة أي مخلوق نعمة أنعمها الله عليه ..

على العكس من الرجل القلق المتبرم بدوي الحاجات، ومن البدهاة ان الناس يقبلون على الأول ، لأن المورد العذب كثير الزحام ، وينفرون من الثاني تلقائياً لغلظته وجفائه . وعليه فلا موجب لأن يحتجب الوالي عن الرعية سواء أكان سخيّاً ، أم مبتلى بالمنع .

(مع ان أكثر حاجات الناس اليك الخ) .. أصحاب الحاجات يطلبون منك الحق والعدل ، وأنت تملك القوة الكافية لإحقاق الحق وإنصاف المظلوم ، ولا حرج عليك من وقوف الناس بين يديك ، تستمع للمهوف فتغيثه ، أو مظلوم فتنصفه .. وهذا فضل من الله ساقه اليك ، فاشكره بخدمة عباده وعباله ، وكن لهم عوناً وناصراً .

بطانة الوالي وحواشيه .. فقرة ٢٤ - ٢٥ :

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمْ أَسْتِثْشَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةٌ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ، فَالْحَسِمُ مَادَّةٌ أَوْلَيْكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ . وَلَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَاطَتِكَ قَطِيعَةً . وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي أَعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بَيْنَ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شَرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَوَازِنَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونُ مَهْنًا ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَحَيْنُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالزِّمَ الْحَقُّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُخْتَسِيًا ، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ . وَأَبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَنْقُصُ عَلَيْكَ مِنْهُ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ . وَإِنْ ظَنَنْتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا فَأُصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَأَعِدْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِأُصْحَارِكَ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ ،

وَرِيقًا بِرَعِيَّتِكَ ، وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ ^(٢٤) .
وَلَا تَذْفَعَنَّ صَلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضَى ، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ
دَعَاً لِمُجْنُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ . وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ
الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ
بِالْحَزْمِ وَأَتِهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ . وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ
عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَأَرْعَ ذِمَّتَكَ
بِالْأَمَانَةِ ، وَأَجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيتَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ
اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتَتِ آرَائِهِمْ مِنْ
تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ . وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ
الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْعَدْرِ . فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا
تُخَيِّسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تُخْتَلِنَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا
جَاهِلٌ شَقِيٌّ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ
بِرَحْمَتِهِ وَتَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جَوَارِهِ . فَلَا
إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ ^(٢٥) .

اللغة :

خاصة الرجل وبطانته بمعنى واحد . والتناول : التعدي . واحسم : اقطع .
والقطيعة : ما يُقَطَّعُ مِنْ أَرْضِ الْخَرَجِ ، والقطعة - بضم القاف - البقعة من
الأرض ، وبكسرها الحصّة من الشيء . واعتقاد عقدة : امتلاك ضيعة أي الأرض
ذات الغلة . والمغبة : العقابة . والدعة - بفتح الدال - الزاخرة . والذمة : العهد .

والجنة : الوقاية . واستوبلوا : وجدوه ويلاً . ولا تخيسن : لا تتكنن . ولا
تختلن : لا تغدرن . وأفضاه : نشره وأفشاه . ويستفيضون : يلجأون . والإدغال :
الإفساد .

الإعراب :

الحدّر نصب على المصدر أي احذر كل الحدّر ، وشيء اسم ليس ، ومن
فرائض الله متعلق بمحذوف حالاً مقدماً من شيء ، والناس مبتدأ ، وأشدّ خبر ،
والجملة خبر ليس ، واجتماعاً تمييز ، ودون ظرف متعلق بمحذوف حالاً من
المشركين .

المعنى :

(ثم للوالي خاصة - الى - معاملة) . للحاكم أذنان وأتباع يرون سلطانه
سلطاناً لهم ، فيشمخون ويتغطرسون زاعمين بأن لهم أن يصدروا الأوامر ، وان
على الناس أن تسمع وتطيع .. وإذا كان للحاكم شخصية ضعيفة تغلبوا على أمره ،
وانخذلوا مال الله دولاً ، وعباده خولاً ، والصالحين حرباً ، والفساقين حزباً ،
كما قال الإمام ، وملأوا قلوب الرعية عليه حقداً وكراهية ، وحدث له ولهم
ما حدث لعثمان وبطائنه ، والإمام يحذر عامله من الذين يمتنون اليه بسبب من
الأسباب ، ويبين له كيف ينبغي أن يعاملهم ويروضهم على العدل .

(فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال الخ) .. اقلع أسباب الظلم
والغطرس في خاصتك وبطانتك ، اقلعها من الجذور ، وذلك بأن لا تتخذ منهم
مستشاراً لك ، ولا تسند اليه أو الى أحد أنصاره أي منصب ، ولا تمنحه ضيعة
أو قطعة أرض يسيء استعمالها بما يضر الآخرين من المزارعين والمجاورين (في
شرب) أي في ماء يتغلب عليه ويحتكره لأرضه (أو عمل مشترك) كشق طريق
زراعية أو قناة أو بناء حائط يدفع الضرر عن أرض المنطقة .

(يحملون مؤونته على غيرهم) . الضمير في يحملون وفي غيرهم يعود الى
المزارعين المجاورين ، وضمير مؤونته يعود الى العمل المشترك ، والمراد بالغير

الدولة أو أي محسن ، والمعنى ان الطريق الزراعية أو غيرها من المنافع المشتركة - قامت الدولة بنفقاتها على أن يكون النفع عاماً للجميع ، وإذا وهبت أيها الوالي قطعة أرض لخاصتك وبطانتك ، واحتكروا المنافع العامة لمصلحتهم دون الآخرين (فيكون مهناً ذلك لهم) أي لخاصة الوالي (دونك) أي دون الوالي الذي وهب الأرض لخاصته وبطانته .

الديمقراطية عند الإمام :

(والزم من لزمه الخ) .. خذ الحق ممن ثبت عليه كائناً من كان ، ولا تأخذك به لومة لائم، وإذا أوذيت وتضررت في سبيل الحق ونصرتة فاصبر واحتسب عند الله ، فإن للصابر المحتسب حسن العاقبة دنیا وآخرة (وان ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذر الخ) .. صارع الرعية بكل شيء ، ولا تخف عنهم شيئاً ، وإذا اتهموك وظنوا بك الظنون فقدم لهم الدليل على براءتك ، والحجة القاطعة على أمانتك .. وبهذه الصراحة المخلصة تطمئن القلوب اليك وتثق بك ، وبها أيضاً تروض نفسك بالتواضع للحق والعدل .

هذا هو رأي الإمام في الحاكم ، انه أجبر مؤتمن ، وعليه أن يخلص ويتقن العمل ، وإذا اتهمه المستأجر بالتقصير - والمستأجر هنا هو الرعية - وجب على الراعي الأجبر أن يبريء نفسه بالحجة والدليل . وفي الخطبة ٢١٤ طلب الإمام من رعيته أن يجابهوه بقول الحق ، وقال لهم بصراحة : « لا تتحفظوا مني .. ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي .. فلا تكفوا عن مقالة حق .. فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره » . أبدأ لا سلطان إلا للحق وحده يفرضه على الكبير والصغير والحاكم والمحكوم .

هذه هي سياسة علي كحاکم ، يتحمل كل التبعات الثقال وغير الثقال ، وللرعية أن تحاسب وتعارض ، لأن الحق لها تمارسه وتعتصم به ساعة تشاء .. ولا صورة للديمقراطية التي تحلم بها الانسانية - إلا هذه الصورة المشرقة، أما الشعارات الزائفة ، والانقلابات يدبرها عدو الدين والوطن ، والانتخابات تنفق عليها الشركات وحلة الأسهم ، أما هذه فنازية وفاشية لا حرية وديمقراطية .

الشرط الأساسي في الصلح :

(ولا تدفعن صلحاً دعاك اليه عدوك ، والله فيه رضا) . هذا القيد : « الله فيه رضا » هو الشرط الأساسي في الصلح ، لأن السارق والقاتل كليهما يطالب بالصلح والسلام على شرطه ومنطقه ، وهو أن يمارس مهنته بدعة وأمان بلا بأس ووجع رأس .. ومثل هذا الشرط — في وضوحه وبساطته — شروط الاستعمار الجديد ، وتتلخص بوجود حكومة عميلة ، واقتصاد موجه لمصلحته ، وجهاز اداري وعسكري تابع لإرادته .. ويكفي الاستعمار الجديد بذلك ، ويتنازل عن كل شيء سواه .
وأعترف بأنه لولا معرفتي بالاستعمار وشروطه ما فطنت ولا فهمت الهدف الذي رمى اليه الإمام بقوله : « الله فيه رضا »

ومن البدهة ان الصلح الذي فيه الله رضا هو بالذات الصلح الذي فيه خير للناس وصلاح ، من ضمان الأمن والحرية ، وصيانة الحقوق التي تقطع مادة النزاع والقتال ، وتريح الجنود من الحرب ، والشعب من الهم والكرب ، كما أشار الإمام : (فلن في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك) . ويستحيل أن يتحقق شيء من ذلك إلا اذا كان الصلح والسلام على أساس مرضاة الله أي الحق والعدل .

(ولكن الحذر كل الحذر الخ) .. لا تثق وتغتر بعدوك لمجرد حصول الوفاق بينك وبينه ، وان كانت الشروط صالحة ومرضية ، فإن الظالم الطامع يترقب الفرص للوثوب والنكث بالعهد ، فاجعل عينك عليه ، واحترز مما يجوز وقوعه منه ، وعامله بالتحفظ شأن الحازم الحكيم .

(وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة الخ) .. إذا سبق أن قطعت على نفسك عهداً فقد صار وثاقه في عنقك ، ولا مناص لك منه إلا بالوفاء (واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت) . قال رسول الله (ص) : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف ، إذا وعد » ومعنى هذا أن من ارتبط مع عبد من عباد الله — بوعد أو عهد فقد ارتبط مع الله بالذات ، وكما يجب الجهاد بالنفس من أجل الوفاء معه تعالى كذلك يجب هذا الجهاد من أجل الوفاء مع عباد الله .

(فإنه ليس من فرائض الله شيء الخ) .. الواجبات الإلهية كثيرة ، وقد تهاون الناس فيها ، أو في أكثرها إلا الوفاء بالوعد ، فقد انفتحت العقول قديمها

وجديدها على أنه محبوب ومطلوب ، وأن من يخلف به مكروه ومذموم .. اتفقت العقول على ذلك مع اختلافها وتفاوتها في الاستعداد والاتجاه (وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين الخ) .. أي ان المشركين ، وهم دون المسلمين لأنهم بلا كتاب ودين - كانوا يلتزمون الوفاء بالوعد ، ويرون الخلف به قبيحاً ووبلاً ، فكيف بالمسلم الذي له نبي وشريعة ؟ ثم أكد الإمام على التزام الصدق والصراحة والوفاء حتى مع الأعداء ، والابتعاد عن الكذب والخيانة والغدر والخداع لأن كل ذلك سيء وقبيح عقلاً وشرعاً وإجماعاً .

لا مجتمع بلا نظام :

لا بد لكل مجتمع - بالغاً ما بلغ - أن يسير على نظام يُقر به ، ويدافع عنه ، وينضغ لمبادئه بمحض إرادته .. وهذا النظام هو الباعث على التقارب والتعاون بين أفراد المجتمع ، والدرع الواقي من البغي، وهو الذي أنشأ للانسان مدنيته وعمرانه، ولولاه لسادت الفوضى ، وعاش الانسان في خوف مستمر ، وبالحصوص الضعيف حيث يصبح غذاء للقوي بلا رادع أو مستنكر .. اذا عرفت هذا اتضح لك ما أراده الإمام بقوله :

(وقد جعل الله عهده وذمته أمناً .. وحرماً يسكنون الى منعه .. فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه) . إن هذه القيم الانسانية قد جعلها الله سبحانه آمناً وأماناً لحياة الناس ، وكهفاً وضماناً لحقوقهم وحررياتهم ، فهي الرادع للمعتدي ، والملجأ للمعتدى عليه، وقد أوجب سبحانه صيانة هذه المبادئ على كل قادر وجوباً كفائياً ، وهي المراد من الصراط في قوله تعالى : « وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون - ١٢٦ الأنعام » .

اياك والدماء .. فقرة ٢٦ :

وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا تَجُوزُ فِيهِ الْعِلْلُ ، وَلَا تَعُولَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّائِيدِ وَالتَّوَثُّقَةِ ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى

طَلَبِ أَنْفَسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرِ تَرْجُوا أَنْفِرَاجَهُ
وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرِ تَخَافُ تَبِعْتَهُ وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ
فِيهِ طَلِبَةٌ فَلَا تَسْتَقِيلَ فِيهَا ذُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ . إِيَّاكَ وَالْدَّمَاءَ وَسَفْكَهَا
بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لَتَبْعَةٍ وَلَا أُحْرَى
بِرِوَالِ نِعْمَةٍ وَأَنْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
مُبْتَدِيٌّ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَا
تُقَوِّينَ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ
يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ . وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لِأَنَّ
فِيهِ قَوْدَ الْبَدَنِ . وَإِنْ أَتَيْتَ بِخَطَاٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ
سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلَا تَطْمَحَنَّ
بِكَ نَحْوَةَ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ^(٢٦) .

اللغة :

المراد بالعلل هنا الأسباب الموجبة التي يتشبت بها مجري العقد للخلاص منه .
ولحن القول : ما يقبل التوجيه . والتبعة : المسؤولية . والطلبة — بكسر الطاء .
وسكون اللام — المطالبة . والقود — بفتح الواو — القصاص . وأفراط : جاوز
الحد من جانب الزيادة .

الإعراب :

إياك مفعول لفعل محذوف لا يجوز إظهاره ، والتقدير أهدرك ، ولما حلف

الفعل انفصل الضمير ، وقدّر ابن هشام في « أوضح المسالك » - المحذوف بما هو أطول وأشكل .

المعنى :

(ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل) اذا أجريت عقداً من أي نوع كان ، فاختبر للإيجاب والقبول ألفاظاً واضحة في معناها ، صريحة في دلالتها ، يفهم منها أهل العرف انك قصدت المعنى الظاهر ، وألزمت به نفسك ، وغرض الإمام من هذه الوصية الابتعاد عن أسباب النزاع والجدال (ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والثبوت) اذا أكدت قولك بيمين وما أشبه - فلا تعدل عنه متدرعاً بالتورية وإضمار غير ما أظهرت ، فإن هذا رياء ونفاق ، ومن ادعاه في المعاملات تُرد عليه دعواه ، لأن الظواهر العرفية حجة شرعية ، تلغي احتمال الخلاف ، او تلغي أثره إلا في الحدود، لأنها تسقط بالشبهات، لقول الرسول الأعظم (ص) : « ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم .. ولئن يخطيء الإمام في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة » .

(ولا يدعونك ضيق أمر الخ) .. اصدع بالحق ولا تنفر منه ، وان كان مرأ ، فإن الاستهانة به أسوأ مغبة ، وأشد تنكيلاً (وان تحيط بك من الله فيه طلبة) . ضمير «فيه» يعود الى ضيق الأمر ، والمعنى لا مفر لك من العقاب ان استهنت بالحق سواء ضاق عليك أم اتسع، كيف ؟ والى أين المفر والإله الطالب ! . (فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك) ضمير «فيها» يعود الى طلبة ، أي ان الله سبحانه يسألك عن الحق ، ويأخذك به ، ولا يقلبك من العذاب على مخالفة الحق وإهماله لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالأولى بك - اذن - ان تصدع بالحق، وتصبر بشجاعة على طاعته مهما كانت الظروف والتناجج ، وفي بعض النسخ فلا تستقبل بالباء لا بالياء ، وهو خطأ .

(اياك والدماء وسفكها الخ) .. ليس هذا مجرد نهى وبيان لحكم القتل عن عمد ، لأن تحريمه ثابت ومعروف بمنطق الحياة والقطرة ، ويستوي في معرفته العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر ، ولا يحتاج بعد هذا الى توضيح وبيان..أما النصوص

على تحريمه من السماء وأهل الأرض فهي انعكاس وتعبر عما هو كائن بالفعل ،
لا توجيهاً الى ما ينبغي ان يكون .

ويجوز القتل لحماية أرواح الناس ومصالحهم أي ان منطق الحياة الذي حرّم
القتل هو بالذات يُسوِّغ قتل من اعتدى على الحياة، صوناً لها وحراًصاً عليها :
« ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون - ١٧٩ البقرة » . وبكلام
آخر لا يجوز قتل أحد من الناس إلا بحق وعدل ، وذلك بأن يباشر الجاني بملء
ارادته السبب الموجب لقتله بحيث يصدق عليه قوله تعالى: « وما ظلمهم الله ولكن
كانوا أنفسهم يظلمون - ٣٣ النحل » .

ولا شيء أبغض الى الإمام من سفك الدماء إلا لضرورة قصوى، وهي استعمال العنف
للقضاء على العنف، ومن هنا حذر الإمام عامله أن يأخذ الجاني بعقوبة القتل إلا بعد
تقدير الجنائية بميزان العدل ، وانها تستوجب القتل حقناً للدماء ، وصيانة للأموال،
وتحقيقاً للأمن والاستقرار ، وقوله : « بغير حلها » يحمل كل الشروط التي تبرر
القتل وتوجيهه .

(والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد الخ) .. ليس في محكمة الله غداً
قضاء معجل ، وآخر مؤجل ، ولا مضيئاً وموسعاً .. كلا ، انه تعالى يكشف
الخلائق وأعمالهم ويحكم عليها كلمح البصر : « إن الله سريع الحساب - ٤
المائدة » والحكم أيضاً ، وعليه يكون مراد الإمام بقوله : « والله سبحانه مبتدئ »
مجرد الإشارة الى الاهتمام بالدماء واحترامها ، وان سفكها من أكبر الكبائر ،
ومثله الحديث القائل : « أول ما ينظر الله فيه من عمل العبد يوم القيامة
الصلاة » .

للحق سلاح لا تراه العيون :

(فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام) . للوصول الى الحكم أسباب كثيرة ،
منها الوراثة أو النص بولاية العهد ، ومنها الانتخاب، ومنها الثورة وقوة السلاح ،
ومنها الضغوط والمغريات والتأثير على الآراء والأفكار بأساليب تعرفها وتمارسها
الأحزاب والشركات والمنظمات الاقتصادية ، أما رسوخ الحكم واستمراره ، وهناؤه

وازدهاره فله سبب واحد فقط لا غير، وهو رضى الرعية عن الراعي ، والمحكومين عن الحاكم ، ومن البدهاة انهم لا يرضخون عن رضى وطيب نفس إلا لمن يشعر بآلامهم ، ويجتهد في حل مشاكلهم ، ويحرص كل الحرص على سعادتهم وحريرتهم .. وأراد هتلر أن يسيطر بالذبح والنحر فانتحر ، وهذا مصير كل حاكم يرتب حساباته على النار والحديد والسجن والتشريد . كل هذه المعاني ينطوي عليها قول الإمام : (فإن ذلك مما يضعفه - أي يضعف السلطان - ويوهنه ، بل يزيله وينقله) .

وقد يتصرف الطاغية بما يهوى واثقاً بقوته ، مستصغراً قوة الحق وشأنه .. ولكن الحق يملك سلاحاً لا تراه العيون ، والشعوب المغلوبة تجدل من قيودها ما تقاتل به - كما قيل - بل تحقق ذلك بالفعل ورآه كل الناس في فيتنام التي رفضت أن تنحني لأعنف وأشرس وحشية عرفها التاريخ كله ، وتضيق لغات الانسانية مجتمعة أن تترجم عن بشاعتها وفظاعتها .. ألا يدل صمود فيتنام على ان القوة للحق لا لطائرات «ب ٥٢» الأمريكية، وان الايمان بالحق والاعتصام به حتى النفس الأخير - يتفوق على التفجرات النووية ، والصواريخ العابرة للقارات ؟.

(ولا عذر لك عند الله ، ولا عندي في قتل العمد الخ) .. القتل منه عمد، ومنه خطأ محض ، ومنه شبه عمد أو شبه خطأ ، عبر بما شئت ، وحدد الفقهاء العمد بقصد القتل منذ البداية ، ويعبر عنه بالتصميم على القتل ، أو قصد الفعل المؤدي عادة الى القتل ، وإن لم يكن مقصوداً بالذات . وهذا النوع من القتل يوجب القصاص إلا ان يعفو أولياء المقتول . قال تعالى : « ان النفس بالنفس .. فمن تصدق به فهو كفارة له - ٤٥ المائدة » .

(وان ابتليت بخطأ الخ) .. بعد الإشارة الى قتل العمد الموجب للقصاص أشار الى القتل الموجب للدية ، وقسمه الفقهاء الى قسمين : خطأ محض ، وهو ما كان فيه الفاعل مخطئاً في قصده وفعله، كما اذا رمى حيواناً فأصاب انساناً، وشبه الخطأ كما لو ضربه بما لا يوجب القتل عادة ، وبلا قصد القتل فوات - وكلا هذين يوجب الدية دون القصاص ، والى هذا أشار الإمام بقوله : (ان تؤدي الى أولياء المقتول حقهم) وهو الدية . والتفصيل في كتب الفقه .

وتحسن الإشارة الى ان الحقوقيين يبحثون في قتل الخطأ عن السبب الموجب

الموت، وهل كان فعل الجاني سبباً تاماً له أو أنه جزء من السبب ومتمم له؟ وهل كان المعجني عليه مشرفاً على الموت لداء مميت ، والجاني عجل وأجهز ؟ وفقهاء المسلمين يهلون ذلك تبعاً للنص الذي أطلق تحديد الدية من هذه القيود .

من شروط القيادة .. فقرة ٢٧ :

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ . وَإِيَّاكَ وَالْمَنَ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ، أَوْ التَّزْيِيدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُبْعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنَ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزْيِيدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوْ التَّسْقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا ، أَوْ اللِّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوْ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ . فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ . وَإِيَّاكَ وَالْإِسْتِثْنَاءَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أَسْوَةٌ ، وَالتَّغَايِي عَمَّا يُغْنَى بِهِ بِمَا قَدْ وَضَعَ لِلْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ . وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ . أَمْلِكْ حِمَّةَ أَنْفِكَ ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ .

وَأَحْتَرِسَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ ، وَتَأْخِيرِ السَّطَوَةِ حَتَّى
يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى
تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ ^(٢٧) .

اللغة :

التزيد : الزيادة على الحقيقة . ومنّ عليه : عدد ما فعله له . والتسقط :
التهاون . والljاجة : التمادي في عناد . والاستئثار : الاستبداد . والتغابي :
التجاهل . والحمية : الأنفة . والسورة : الحدة . وغرب اللسان : حدة . وبادرة
اللسان : فلتاته .

الإعراب :

مقتاً تمييز ، والمصدر من أن تقولوا فاعل كبر ، وعما قليل « ما » زائدة .

المعنى :

كل ما في هذا المقطع تقدم أكثر من مرة ، ولذا نوجز ما أمكن (وإياك
والعجب بنفسك الخ) .. تعوذ من نفسك كما تتعوذ من الشيطان ، ومتى أعجبك
شيء منها فاعلم أنك وقعت في حباله .. ومن أظهر فضله للناس مقتوه وذمّوه ،
ومن سكت وتواضع ظهر على حقيقته ، واستوفى حقه كاملاً من الاحترام إن
كان له أهلاً (وإياك والمنّ الخ) .. إذا فعلت شيئاً من الخير علم به الجميع ،
وعادت إليك ثماره .. واذن فعلام الإعلان والتبجح والمنّ ؟ . ان المنّ سيئة لا
تنفع معه حسنة ، وان اضطرت ودعتك الحاجة الى التنويه بما فعلت فقل الحق
ولا تزد عليه شيئاً ، لأن الزيادة الكاذبة تُفسد ما أصلحت ، وتهدم ما بنيت .
(وإياك والعجلة الخ) .. لا تعجل فيما لا تخاف عليه الفوت ، ولا تتوان
فيما يفوتك أخذه إن توانيت (أو اللجاجة فيها اذا تنكرت) ضمير « فيها »

يعود الى الأمور ، وكذلك الضمير المستتر في تنكّرت ، والمراد بتنكرت خفيت^١ بدليل قوله بلا فاصل (أو الوهن عنها اذا استوضحت) والمعنى لا تناد في طلب ما تجهل عاقبته ، ولا تتوان عما تعلم منفعتهُ (وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة) أي سواء .. على الحاكم أن لا يرى نفسه سيداً ، والناس عبيداً ، وأن يوفر لهم ما يحتاجون اليه في حياتهم ، ويساوي نفسه وأهله بأضعفهم ، كما قال الإمام في الخطبة ٢٠٧ فإن اتخذ لنفسه شيئاً دون الرعية فهو طاغية ، وعدو لله وللإنسانية .

(والتغابي عما تعنى به - الى - للمظلوم) المراد بـ « عما تُعنى به » عما أنت مسؤول عنه أمام الله والناس ، والمعنى ان حدثت أية مظلمة من موظف او غيره من الرعية ، وعلمتَ بها وتجاهلت فأنت المسؤول عنها ، والمأخوذ بها ، والمفتضح من أجلها دنيا وآخرة (املك حمية أنفك) دع الشموخ والتعالي على الناس لا لشيء إلا لأنك والي (وسورة حدك) املك نفسك عند الغضب (وسطوة يدك) كفها عن الأذى (وغرب لسانك) لا تطلقه يميناً وشمالاً على غير هدى (حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار الخ) .. اهدأ بلا حراك عند الغضب .. ولو اندفعت معه لتغلب الهوى والجهل على عقلك ، وعاقبت من لا ذنب له ، وتكلمت بما يشين ، وتجاوزت الحدود ، وأمكنك عدوك من نفسك ، وتذكر وقوفك بين يدي الله للحساب والجزاء .

القدوة الصالحة .. فقرة ٢٨ :

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتُهُ بِمَا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَنِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهَدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا وَأَسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسْرِعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ أَنْ

يُوقِّفَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاةٌ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مَعَ حُسْنِ الشَّاءِ فِي الْعِبَادِ وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النُّعْمَةِ وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ، وَأَنْ يُخْتَمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . وَالسَّلَامُ^(٢٨) .

اللغة :

يطلق الأثر على الحديث والعادة وبقايا السلف . واستوثقت عليه : أخذت الحجة عليه . وتضعيف الكرامة : من المضاعفة لا من الضعف .

الإعراب :

المصدر من أن تذكر خبر الواجب ، والمصدر من أن يوقفني مفعول أسأل .

المعنى :

(والواجب عليك أن تتذكر الخ) .. بعد أن كتب الإمام لعامله هذا العهد الذي يصلح دستوراً لكل حاكم في كل عصر — أمره أن يحرص على العمل به ، وبكتاب الله وسنة نبيه ، وبكل خبر وأثر ينفع الناس ، وأن يسلك نهج الصالحين ممن مضى وبقي ، فإن الاقتداء بالحق والخير مطلوب ومرغوب ، قال سبحانه : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون — ٤٣ النحل » . (واستوثقت به من الحجة الخ) .. كتبت لك هذا العهد ، وأوضحت لك فيه ما يطلب منك عمله ، ليكون حجة عليك ، وعذراً لي عند الله تعالى .

(وأنا أسأل الله الخ) .. ختم الإمام كلامه بالابتهاال إليه سبحانه ، وسأله برحمته التي وسعت كل شيء ، وقدرته على كل خير أن يوفقه للقيام بحقوقه تعالى

وحقوق عبادته، ويكون محموداً عنده وعندهم ، وأن يحتم حياته بالشهادة في سبيل الله ومرضاته ، وقد استجاب سبحانه لدعاء الإمام حيث استشهد بسيف الغدر ، وهو في محرابه . أما جميل الذكر فلا تمر ثانية من الدهر إلا ويتردد فيها اسم علي بن أبي طالب بالتعظيم والتقدّيس نطقاً وكتابة منذ كان ، وإلى آخر يوم . وفوق ذلك كله ان الملايين من شيعته في كل عصر وجيل يتقربون الى الله بالولاء له وبالثناء عليه لقول الرسول الأعظم (ص) : « حب علي براءة من النار » . نقل هذا الحديث صاحب « فضائل الحمسة » عن كنوز الحقائق للمناوي ص ٦٢ طبعة استامبول سنة ١٢٨٥ هـ . وأيضاً نقل عن كتاب « الرياض النضرة » للمحب الطبري ج ٢ ص ٢١٥ الطبعة الأولى بمطبعة الاتحاد بمصر : ان رسول الله (ص) قال : « حب علي يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب » . وأيضاً ذكر هذا الحديث الخطيب البغدادي في ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ١٣٤٩ هـ بمصر .

وليس من شك ان المراد بالحلب هنا ما يشمل المتابعة بالعمل ، قال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً - ١١٠ الكهف » . وقال رسول الله (ص) : « اعلمي يا فاطمة ، ولا تقولي : أنا بنت محمد ، فلاني لا أغني عنك عند الله شيئاً » . وقال الإمام : « لا تكن ممن يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ، ويبغض المذنبين ، وهو أحدهم » .

الرسالة

- ٥٣ -

الى طلحة والزبير :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كُنْتُمَا - أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ،
وَلَمْ أَبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ، وَإِنُّكُمْ مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ
لَمْ تُبَايَعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ وَلَا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي
طَائِعِينَ فَارْجِعَا وَتَوَبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ
فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِنَّمَا أَرِكُمْ
الْمَعْصِيَةَ ، وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتَابِ .
وَإِنْ دَفَعْتُمَا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ ، كَانَ أَوْسَعَ
عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ . وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي
قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ

الْمَدِينَةِ ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ أَمْرٍ بِقَدْرِ مَا أُحْتَمَلَ . فَارْجِعَا أَهْيَا الشَّيْخَانِ
عَنْ رَأْيِكُمَا فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرٍ كَمَا الْعَارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ
وَالنَّارُ . وَالسَّلَامُ .

اللمعة :

السلطان الغالب : الرهبة . والعرض الحاضر : الرغبة .

الإعراب :

طائعين حال ، وكذا كارهين ، وبأحق الباء الزائدة .

المعنى :

قال الشريف الرضي : « ذكر أبو جعفر الإسكافي في كتاب « المقامات »
ان الإمام أرسل هذه الرسالة الى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخراساني » .
والاسكافي المذكور من شيوخ المعتزلة ، وله سبعون كتاباً ، منها كتاب :
المقامات في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وكان معاصراً للجاحظ ،
والاسكافي نسبة الى بلده اسكاف بين النهروان والبصرة ، أما عمران بن الحصين
فهو من فقهاء الصحابة ، أسلم عام خيبر ، وتوفي بعهد معاوية ، كما جاء في :
الاستيعاب لابن عبد البر .

وتقدم معنا ان الناس ضاقوا بسيرة عثمان حتى الأغنياء منهم برغم ما أغدق
عليهم من بيت المال ، وان طلحة والزبير حرّضا عليه ، وانهما بايعا الإمام مع
من بايع ، ثم انقلبا عليه فجأة ، فأرسل اليهما فيما أرسل يقول : (أما بعد فقد
علمتما - وإن كنتما - اني لم أرد الناس حتى أرادوني الخ) .. طلب الصحابة
وغيرهم من الإمام أن يتولى الخلافة بعد مقتل عثمان فرفض وقال لهم : « دعوني
والتمسوا غيري » كما جاء في الخطبة ٩٠ ، ولما ألحوا قبيل الإمام بشرط واحد ،

وهو أن لا يستأثر دون أحد بدهم كما قال الطبري في تاريخه ج ٥ على ما نُقل عنه .

وقد يبدو هذا الشرط غريباً للوهلة الأولى .. ولكن أراد به أن يفهم الزبير وطلحة انهما اذا بايعاه فلن يؤثرهما على أحد من المسلمين ، لأنه هو لم يؤثر نفسه ، فغيره بطريق أولى (وانكما ممن أرادني وبايعني) على شرط المساواة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات « فاعدا بما بدا ؟ » كما قال الإمام في الخطبة ٣١ (وإن العامة لم تباعني لسلطان غالب ، ولا لعرض حاضر) . كل الناس بايعوا الإمام عن ثقة وإيمان لا رهبة من قوة ، ولا رغبة في عطية . ثم احتج الإمام على طلحة والزبير بما يلي :

(فإن كنتما بايعتماني - الى - إقراركما به) . لماذا أعطيتما العهد لي والبيعة بالخلافة ؟ هل كان ذلك طوعاً منكما أو كرهاً ، ولا فرض ثالث ، فإن كان طوعاً فلا مبرر للنكث ولا دافع إلا معصية الله ، ودواؤها سهل وهو التوبة وطلب العفو (فارجعوا وتوبا الى الله) . وإن كانت البيعة كرهاً - بزعمكما - فمن الذي أكره واضغط ؟ وبأي شيء كان الضغط ؟ وإن ادعيتما التقية في البيعة ، وانكما أسررتما غير ما أظهرتما فما هو الموجب لذلك ؟ وكيف انفردتما دون المسلمين جميعاً بهذا الخوف والاتقاء ، وأنتم في مكان العزة والقوة ؟ وما كان أغناكما عن الحاليين : البيعة والنكث ؟ أما كان الأجدر بكما أن تمجبا عن البيعة منذ البداية ؟ وبعد فإن بيعتي في عنقكما بظاهر القول والفعل ، ولا مقاوم لهذا الظاهر ، وهو امارة شرعية وعرفية ، وحجة بالغة دامغة لي عليكما .

وبالمناسبة ان نقرأ تحلفوا عن بيعة الإمام كعبدالله بن عمر وابن أبي وقاص وحسان بن ثابت ، وما تعرض لهم أحد بسوء ، وقال عمار بن ياسر للإمام : لو دعوتهم الى بيعتك . فقال له الإمام : لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا . وقال الأشتر : لا حق لهم في التخلف . فقال له الإمام : دعهم يعملون برأيهم . وأذن الإمام لطلحة والزبير بالخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن ، وهو على رية بما فوياه ، وقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الغدرة » . ولو شاء لحبسهما ، ولكنه لم يفعل . واذن فأين الضغط والإكراه ، والموجب للتقية ؟ . (وقد زعمتما اني قتلت عثمان) . دافع الإمام عن عثمان ، فيما حرض عليه طلحة والزبير ، ولما قتل بايعا الإمام ، وقالوا له : اعطنا ثمن البيعة ولاية البصرة والكوفة .

فقال : لا أداخن في ديني ، ولا أطلب النصر بالجور ، فخرجنا ثائرين بدم هما
سفكاه كما قال الإمام في الخطبة ١٣٥ . وتكلمنا عن ذلك في الخطبة المذكورة
والخطبة ١٧٢ والرسالة ١ (فبينى وبينكم من تخلف الخ) .. خير الإمام الزبير
وطلحة لالقاء الحجّة عليهما ، خيرهما بين أمرين : إما القضاء والمحاكمة عند من
تخلف عنه وعنهما ، ولا هوى له معه ولا معها ، وإما التوبة والرجوع عن الخطأ.
وإذا كان في الرجوع عن الخطأ عار وشنار في الدنيا فإن عذاب الآخرة أشد
وأخزى .

الرسالة

- ٥٤ -

أيضاً الى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَأَبْتَلَى فِيهَا
أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا ، وَلَا بِالسَّعْيِ
فِيهَا أَمْرُنَا ، وَإِنَّمَا وَضَعْنَا فِيهَا لِنَبْتَلَى بِهَا ، وَقَدْ أَبْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ
وَأَبْتَلَاكَ بِي فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا
بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدَيَّ وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ
أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي . وَأَلْبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلُكُمْ ، وَقَائِمُكُمْ
قَاعِدُكُمْ . فَأَتَقِيَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ . وَنَارَعَ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ .
وَأَصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ فِيهِ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ . وَأَحْذَرْ
أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلٍ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ وَتَقْطَعُ الدَّائِرَ ،
فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةٌ غَيْرَ فَاجِرَةٍ لَنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ
لَا أَزَالُ بِبَاحْتِكَ « حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

اللفظة :

لُنُبْتَلِي : لُنُخْتَبِر . وعدوت : وثبت وتهالكت . بتأويل القرآن : بتحريفه
لتشتري به ثمناً قليلاً . وعصبته : ربطته . وألَّب : حرَّض . والقياد : الزمام .
والقارعة : الداهية . والدابر : الفرع التابع للأصل . والأليّة : اليمين . والباحة :
الساحة .

الإعراب :

لما بعدها متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً لجعل ، وغير فاجرة صفة لأليّة مثل
« اقسم قسماً باراً » .

المعنى :

كتب الإمام العديد من الرسائل الى معاوية والزبير وطلحة، وموضوعها واحد ،
والغاية وحدة المسلمين وجمع كلمتهم ، ولا تختلف تلك الرسائل إلا بالأسلوب ،
أو بإشارة الى مثلبة تدعو الحاجة الى ذكرها ، وتقدم طرف من الرسائل الى
معاوية ، ويأتي بعضها . والتي نحن الآن بصددنا أرسلها الإمام الى معاوية ،
وافتحها بقوله : (أما بعد فإن الله سبحانه جعل الدنيا — الى — خلُقنا) .
خلق سبحانه الانسان للبقاء والخلود في دار الآخرة ، أما الدنيا فهي ممر واختبار
لتظهر النوايا والأفعال التي يُستحق بها الثواب والعقاب . وتقدم الكلام عن ذلك
في الرسالة ٣٠ وصية الإمام لولده الإمام الحسن ، فقرة : لماذا خُلِق الانسان ؟ .
(ولا بالسمي فيها أمرنا الخ) .. أي ما أمرنا بالسمي في الدنيا للدنيا وحدها
بل لها وللآخرة . قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك
من الدنيا — ٧٧ القصص » وقال رسول الله (ص) : « إن الله يبغض العبد
البطال ، ويحب المؤمن المحترف .. ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده » .
وقال الإمام : اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً .
(وقد ابتلاني الله بك) أي بجهدك وردعك عن غيك، ولو أهملت وقصرت
لكنت مسؤولاً أمام الله (وابتلاك بي) حيث أمرك بطاعتي والاستجابة لدعوتي

لك ، فإنها دعوة الحق والعدل ، فإن أعرضتَ ونأيت كنت من الهالكين (فعدوت على الدنيا بتأويل القرآن) . طلب معاوية السلطان تحت راية قبص عثمان ، واتخذ من كتاب الله ذريعة لغرضه ، وقال : جاء في القرآن « من قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً — ٣٣ الإسراء » وأنا ولي دم عثمان ، واذن فأنا السلطان . ولما حكم معاوية وسيطر لم يأخذ واحداً من قتلة عثمان بجريرته ، بل كان يقرب بعضهم ويجيزه بالمال ، كما أشرنا في شرح الرسالة ٣٦ . ورفع معاوية المصاحف بصفتين حيلة وغيلة لما أيقن بالهلاك ، وكان من ثمار هذه الحيلة انشقاق المسلمين ، ووجود الخوارج في كل عصر وجيل .

وهكذا كان تلاعب معاوية بآيات القرآن هو الوسيلة لوصوله الى الحكم واستمراره فيه .. وكان من نتيجة أطاعه توزيع المسلمين الى شيع وأحزاب ١ . قال العقاد في كتاب « معاوية » : « لو حاسب التاريخ معاوية حساباً صحيحاً لما وصفه بغير مفرق الجماعات .. ولو استطاع معاوية أن يجعل من كل رجل في دولته حزباً منابذاً لغيره لفعل » .

(فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني الخ) .. من دم عثمان ، وتقدم في الرسالة ٣٦ احتجاج الإمام على معاوية بقوله : « فأما إكثارك اللجاج على عثمان وقتله فإنك نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلتك حيث كان النصر له (وألَّب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم) يشير الإمام بهذا الى العلماء والخطباء الذين باعوا دينهم لمعاوية كي يكتفوا له الدين والقرآن وفقاً لشهواته وأغراضه . وفي كتاب « الصراع بين الأمويين ومبادئ الاسلام » لنوري جعفر ص ٦٥ طبعة ١٩٦٥ : « ذكر الطبري ان معاوية بذل لسمة بن جندب مئة ألف ليروي نزول الآية ٢٠٤ من سورة البقرة في علي بن أبي طالب ، وهي : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » . وأيضاً يروي نزول الآية ٢٠٧ من سورة البقرة في ابن ملجم ، وهي « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » . فرفض سمة فضاعف له معاوية الرشوة الى أربعمئة ألف فقبضها ، وروى ما أوحى به معاوية » .

بهذا الافتراء وكثير من مثله على الله ورسوله — أزلقت الدنيا وزينتها لمعاوية ، ومن هنا قال أبناؤها : معاوية سياسي وداهية ، وعلي لا يعرف السياسة ، ونحن

نقول معهم : إن علياً أبعد الناس عن سياسة الشيطان وأعداء الرحمن.. أراد معاوية الدنيا وضحتى بالدين من أجلها ، وأراد الإمام الآخرة ومرضاة الله وضحتى بالدنيا وبنفسه ، وقال كلٌّ ما أراد : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - ٢٠ الشورى » .

(فاتق الله في نفسك - الى - الدابر) قال سبحانه وتعالى لإبليس وحزبه : « لأملاّن جهنم منكم أجمعين - ١٨ الأعراف » فقال له إبليس : وأنا أيضاً « لآتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم - ١١٩ النساء » . والإمام يخوف « الشيطان » من نار جهنم في الآخرة ، ومن سوء العاقبة في الدنيا بقطع الأصل والنسل .. ثم ماذا ؟.. (فلإني أولي الخ).. يقسم الإمام لو أمكنته الفرصة من ابن أبي سفيان لجأهده بكل ما يملك من طاقة ، أما النصر في الدنيا فيبذل الله وحده . وفي الرسالة ٣٨ قال الإمام مخاطباً ابن العاص : « فإن يمكن الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما ، وإن تعجزا فما أمامكما شر لكما » .

الرسالة

- ٥٥ -

الى شريح بن هانيء :

أَتَقِيَ اللَّهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ ، وَخَفْتُ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغُرُورَ وَلَا
تَأْمَنُهَا عَلَى حَالٍ . وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِن لَمْ تَرُدِّعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ
مَخَافَةَ مَكْرُوهِ سَمِعْتَ بِكَ الْأَهْوَاءَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ
مَانِعًا رَادِعًا وَلِتَنْزُوتَكَ عِنْدَ الْحَفِظَةِ وَأَقِمَّ قَامِعًا .

اللغة :

النزوة : السرعة . والحفيظة : الغضب . والمراد بالقامع والواقم الرادع القاهر .

الإعراب :

مخافة مفعول من أجله لتردع ، وسمت جواب إن لم تردع .

المعنى :

شريح هذا من الصحابة . قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» : «شريح بن هاني

جاهلي اسلامي ، ويكنى أبا المقداد ، وهو من جلة أصحاب علي . وقال ابن أبي الحديد : كان شريح من جلة أصحاب الإمام (ع) شهد معه المشاهد كلها ، وعاش حتى قتل بسجستان في زمن الحجاج . وقال الشريف الرضي : أرسل الإمام شريحاً هذا على مقدمته الى أهل الشام ، وأوصاه بقوله :

(اتق الله في كل صباح ومساء الخ) .. الأمر بتقوى الله ، والتحذير من الدنيا وغرورها هو المادة الأولى في كل مرسوم يعين به الإمام عاملاً من عماله ، أو قائداً من قادة الجند (واعلم انك إن لم تردع نفسك الخ) .. عالجها بالكبح عن المحرمات ، وروّضها بحلال الله وشريعته ، ولا تركب الشهوات فتجمع بك الى المهلكات .

الرسالة

- ٥٦ -

الى أهل الكوفة :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هَذَا إِذَا ظَالِمًا وَإِذَا مَظْلُومًا ، وَإِذَا
بَاطِلًا وَإِذَا مَبْغِيًّا عَلَيْهِ ، وَإِنِّي أَذْكُرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ
إِلَيَّ فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِنًا أَعَانِي وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا اسْتَغْتَبَنِي .

اللغة :

نفر من الشيء : جزع وابتعد ، والى الشيء : أسرع اليه . واستغتنبي :
طلب مني أن أرضيه بما يريد .

الإعراب :

هذا عطف بيان لحَيِّي ، وظالمًا حال ، والله مفعول ثانٍ لأذكُرُ ، ومن بلغه
مفعول أول ، ولَمَّا بالتشديد بمعنى يد « ألا » .

المعنى :

قال الشريف الرضي : أرسل الإمام هذه الرسالة الى أهل الكوفة حين خرج

من المدينة المنورة متوجهاً الى البصرة لقتال أصحاب الجمل ، والمعنى واضح ،
ويتلخص بأن الإمام رغب اليهم أن يُسرعوا اليه ظالماً كان أم مظلوماً ، فإن كان
ظالماً كفّوه عن الظلم ، وإن كان مظلوماً أنصفوه من الظالم .

وليس هذا شكاً من الإمام في أمره .. كلا ، وألف كلا ، وإنما هو إلقاء
للحجة على الجميع حتى على من يراه ظالماً، وتذكير بقول الرسول الأعظم (ص):
انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً .. ولما قيل له : كيف ننصره ظالماً ؟. قال : « أن
تكفّوه عن الظلم » . ويدلنا هذا ان المجتمع لن يكون اسلامياً بحق إلا اذا كان
انسانياً متماسكاً ومتعاوناً على حياة يسودها الحب والإخاء ، ويغمرها الأمن والصفاء.
ومن هنا صح القول : لا مجتمع اسلامي بحق اليوم في شرق الأرض ولا في غربها:
« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر - ١١٠ آل عمران ».

الرسالة

- ٥٧ -

الى اهل الأمصار :

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا التَّقِينَا وَالْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ
رَبَّنَا وَاحِدٌ وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعَوَتُنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ . لَا نَسْتَزِيدُهُمْ
فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا .
الْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءَةٌ ، فَقُلْنَا
تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَتَسْكِينِ الْعَامَةِ ،
حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ ، فَتَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعُهُ ،
فَقَالُوا بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ
وَوَقَدَتْ نِيرَانَهَا وَحَمِسَتْ . فَلَمَّا ضَرَسْتَنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعْتَ مَخَالِبَهَا
فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأُجِبْنَاهُمْ إِلَى
مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا حَتَّى اسْتَبَانَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ،

وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْمَعْذِرَةُ . فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ
اللَّهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَأَى اللَّهُ عَلَى
قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ عَلَى رَأْسِهِ .

اللغة :

النائرة : العداوة والشحناء ، والنائرة : الضجة والشغب ، ورؤيت بهما ،
والمعنى متقارب . وركدت : تمكنت . ووقدت : التهبت . وحست : اشتدت .
وضرستنا : عضت بنا بأضراسها . والراكس : الراسب أو المنقلب . وران : غطى .
ودائرة السوء : تُري الإنسان ما يسوءه .

الإعراب :

المصدر من إنا التقينا خبر كان ، والقوم عطف على « نا » في التقينا ، أما
القول : لا يجوز العطف على الضمير المتصل إلا مع تأكيده بضمير منفصل ، أما
هذا القول فيرده قوله تعالى : « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ - ١٥ العنكبوت » .
وبإطفاء النائرة متعلق بنداؤ .

المعنى :

قال الشريف الرضي : أرسل الإمام كتاباً الى الأمصار من أهل دولته يخبرهم
بما حدث في صفين جاء فيه : (وكان بدء أمرنا - الى براء) في الساعة التي
التقى الجمع كان ظاهر الحال من أهل الشام أنهم مسلمون ، وإن الاختلاف
بينهم وبين الإمام وأصحابه - ينحصر في دم عثمان لا في شيء من الدين وأصوله .
وليس من شك أن الإمام بريء من دم عثمان ، وإن معاوية يعلم ذلك ، ولكنه
يكابر الحاجة في نفسه . قال ابن أبي الحديد : قول الإمام «الظاهر» يومئ الى
أنه لم يحكم حكماً قاطعاً بإسلام معاوية وأصحابه ، وإنما حكم عليه بالإسلام ظاهراً
لا واقعاً .

الإمام والقصاص من قتلة عثمان :

(فقلنا تعالوا — الى — مواضعه) . قال معاوية للإمام : نريدك أن تقتص من قتلة عثمان . فقال له الإمام : إن إقامة الحد والقصاص إنما تُطلب من الإمام المعترف له ، وأنت تنكر بيعتي وإمامتي ، فكيف تطلب مني ما يُطلب من الإمام ! . فإن كنت صادقاً في طلبك هذا ومخلصاً لعثمان ودم عثمان « فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إليّ أحلك وإياهم على كتاب الله تعالى ، وأما تلك التي تريد — أي الخلافة — فلأنها خدعة الصبي عن السبن في أول الفصال » كما جاء في الرسالة ٦٣ .

هذا أولاً ، وثانياً : ان القصاص من قتلة عثمان لا يدرك الآن ويستجاب ما دامت الفتنة قائمة، فهل — يا معاوية — نعمل يداً واحدة على الأمن والاستقرار، وجمع كلمة المسلمين ، وبذلك يكون الإمام في مركز القوة فيقتص من الجاني، ويقيم الحد على من يستحق ، اما ان تعمل أنت وابن العاص على الشقاق وإيقاظ الفتنة ثم تطالب بالقصاص والقود — فلأنك بهذا تريد للمسلمين السوء والشر .

وصادف ان الإمام تحدث في ذات يوم عن أمر القصاص من قتلة عثمان ، فشهر عشرة آلاف فارس رماحهم ، وقالوا : كلنا قتلة عثمان ، ومن شاء القصاص منا فليأت .. وإلى ذلك أشار الإمام بقوله في الخطبة ١٦٦ : « كيف لي بقوة والقوم — أي قتلة عثمان — على شوكة يملكوننا ولا نملكهم الخ) .. وأحسن من تكلم في هذا الموضوع ، واعتذر عن الإمام بالمنطق القويم والحجة البالغة الدامغة هو العقاد في كتاب « عبقرية الإمام » بعنوان « سياسته » .

(فقالوا : بل ندأويه بالمكابرة الخ) .. دعوناهم الى الوفاق والتعاون على الحق ، فأبوا إلا الحرب ، وأرغمونا على خوضها كارهين، ولما بلغت منهم الغاية وأنهكتهم وأنهكتنا معهم (أجابوا عند ذلك الى الذي دعوناهم اليه الخ) .. أي تراجعوا عن المطالبة بدم عثمان ، ورفعوا المصاحف طالين العدل والإنصاف. ومن البدهة انه لا معنى للعدل هنا إلا ان يدخل معاوية فيما دخل فيه المسلمون ، ثم يحاكم المتهمين بدم عثمان الى الإمام ، وهذه هي دعوة الإمام بالذات، ولذا أجابهم الى طلبهم ، ولم يبق لهم من عذر يتعللون به .

(فن تم على ذلك منهم) أي رضي بالحق ، وأخلص له، ولم يكذب ويخادع

كما فعل معاوية وابن العاص (فهو الذي أنقذه الله من الهلكة). يُخطيء كل من يُطلق الحكم بالغدر والخيانة على أمة بأسرها ، أو على حزب أو جيش بكامله، فإن الكثير من الأتباع يضلّهم القادة والمتبوعون ، ويخفون عنهم الحقائق .

ومن هنا ترك جماعة الحزب الذي آمنوا به من قبل وتعصبوا له ، وتركوه وقاوموه حين ظهرت لهم خيانة القادة وعمالتهم وسوء مقاصدهم تماماً كما يترك الصديق صديقه حين لا يجد عنده الوفاء، والمريض طبيبه حين لا يجد عنده الشفاء . وعندما رفع معاوية المصاحف وجري التحكيم اتضحت لكل واعٍ مخلص نوايا معاوية وابن العاص، وبخاصة بعد أن اشتهرت الصفقة على مصر بين الاثنين ، والتي قال الإمام عنها في الخطبة ٢٦ : « فلا ظفرت يد البائع ، وخزيت أمانة المبتاع » . اتضحت نية السوء والغدر عند الاثنين ، وعلم بها الواعي المخلص فتبرأ منها « وأنقذه الله من الهلكة » كما قال الإمام .

(ومن لجّ وتمادى) في متابعة معاوية وابن العاص كأكثر أهل الشام ، أو في الإلحاح على المضي في الحرب ونبد التحكيم الى كتاب الله كالخوارج (فهو الراكس الخ) .. في الغي والضلالة ، وعليه تدور دائرة السوء في النهاية .

الرسالة

- ٥٨ -

الى الأسود بن قلبية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ .
فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عَوَاضٌ
مِنَ الْعَدْلِ . فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ
اللَّهُ عَلَيْكَ رَاجِيًا ثَوَابَهُ وَتُخَوِّفًا عِقَابَهُ . وَأَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ
لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرَقَّتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ . وَأَنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا . وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ
حِفْظُ نَفْسِكَ وَالِاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَةِ بِجَهْدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ
مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

اختلف هواه : لم يثبت على حال . ما تُنكر أَمْثاله : لا تستحسن أَمْثاله من

غيرك . يتفرغ صاحبها : بطلان بلا عمل . والمراد بيصل اليك الثواب على عمل الخير ، والمراد بيصل بك نفس العمل المثاب عليه .

الإعراب :

كثيراً صفة لمفعول مطلق محذوف أي منعاً كثيراً، وراجياً حال ، وثوابه مفعول « راجياً » وقط هنا ظرف زمان لاستغراق ما مضى ، وتختص بالنفي .

العدل والمساواة والعمل :

وجه الإمام هذه الرسالة الى عامله بحلوان ، وهو الأسود بن قَطيبة ، وقال الشيخ محمد عبده : « حلوان إيالة من إيالات فارس » . والإيالة قطعة من البلاد يحكمها وال . وقال الشيخ الطريحي في مجمع البحرين : « حلوان بلد مشهور ، وهو آخر مدن العراق من طرف المشرق والقادسية » . وعلى أية حال فإن المهم ما في الرسالة، وقد حدد الإمام فيها مهمة الحاكم بإقامة العدل والمساواة ، والاجتهاد في العمل لحياة أكمل . وفيما يلي البيان :

١ - العدل ، وإليه الإشارة بهذه الحكمة : (فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل) إذا تقلبت أخلاق الوالي من حال الى حال تبعاً لأهوائه وأطماعه - ضاعت الحقوق ، وسادت الفوضى والبغي والفساد، واستحالت الحياة .

٢ - المساواة، واليها الإشارة بهذا الأمر الذي وجهه الإمام الى عامله: (فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء الخ) .. ساو بين الجميع في الحقوق والواجبات بلا تفاضل وامتياز بين لون وجنس ، وغنى وفقير إلا بما يقدم المرء من عمل نافع للفرد أو للمجتمع .

٣ - العمل لخدمة الحياة ، وهو المراد بقوله : (وابتذل نفسك الخ) .. اعمل لمنفعة الناس بلا غرور وتبجح ، بل توقع النقص والخلل في عملك ، ورجاء التمام والكمال فيه . واعلم ان البطالة والإهمال حسرة وندامة ، وانحطاط وجهالة ، وإياك أن تنقع من العمل النافع عند حد . ولولا العمل المتواصل ما بلغ الانسان

غاية من أهدافه ، وهل من شيء أحلى مغبة من العمل في سبيل الخير؟ وهل من أحد يبلغ درجة من العلى في الدنيا والآخرة إلا بالكفاح والعمل ؟.

(والاحتساب على الرعية بمجهودك) أي اعمل لمصلحة الناس بكل ما تملك من طاقة . وقيل للملك زال ملكه : ما الذي أزال ملكك ؟ قال : اعجابي بقوتي ، وإهمالي لرعيتي (فإن الذي يصل الخ) .. اذا عملت لحياة الناس ومصالحهم فلذلك تأخذ من الله ومنهم ثواباً أعظم وأجزل مما تعطيههم أضعافاً مضاعفة .. اذا زرعت الخير أكلت من زرعك بلا ريب ، ولكن من يزرع حبة واحدة في أرض الله سبحانه تعود عليه بسبعمئة كما نطقت الآية ٢٦١ من سورة البقرة. وكل من عمل لوجه الله وعياله فقد زرع في أرضه .

وبعد ، فإن لكل شيء غاية ، والغاية من الحكم عند الإمام لا تنحصر بحفظ الأمن ، وإقامة العدل بوفاء الكيل والميزان ، وفصل الخصومات بالحق ، وإنصاف الظالم من المظلوم ، وما أشبه ، بل لا بد له مع هذا أن يعمل جاهداً لحياة أفضل وأسعد ، وأن ينطلق الحاكم برعيته من جديد الى جديد أصح وأنفع ، ومن قوة الى قوة أعز وأمنع .

الرسالة

- ٥٩ -

الجيش والمواطنون :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ
الْخَرَجِ وَحُمَالِ الْبِلَادِ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنِ شَاءَ اللَّهُ ،
وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى وَصَرْفِ
الشَّدَى . وَأَنَا أَزْبَرُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعْرِةِ الْجَيْشِ ،
إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شِبَعِهِ . فَتَكَلُّوا
مَنْ تَنَاولَ مِنْهُمْ شَيْئًا ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ . وَكُفُّوا أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ
عَنْ مُضَادَّتِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا أَسْتَشْنِيَاهُ مِنْهُمْ . وَأَنَا بَازٍ
أُظْهِرِ الْجَيْشَ ، فَادْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ . وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ

مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللَّهِ وَبِي فَأَنَا أَغْيَرُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

الشدى : الأذى . المعرة : المساءة . والجوعة : مصدر جاع .

الإعراب :

من عبدالله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا الكتاب مرسل من
عبدالله ، وظلماً صفة لمفعول مطلق محذوف مبين لنوع التناول أي تناولاً ظالماً ،
لأن التناول والأخذ يكون بالعدل وبالظلم ، وليس عطف ببيان كما توهم بعض
الشارحين .

المعنى :

كان معظم الجيش - فيما مضى - يسير على الأقدام في انتقاله من مكان لآخر
حيث لا شاحنات وقاطرات ، والذين يركبون الخيل من المحاربين أقلاء .. وكان
المحارب يحمل سلاحه ، وما يضطر اليه على ظهره أو عاتقه ، وبطبيعة الحال
كان يمر الجيش في طريقه بالمواطنين . وخشي الإمام أن يفسد في الأرض بعض
الأفراد من الجيش الزاحف لحرب أصحاب الجمل أو أهل الشام ، ويسيء التصرف
مع واحد من الناس - كما هو المعتاد - فأوصى جنوده بالعدل وحسن السيرة ،
لأنهم القوة الرادعة للمعتدين ، فكيف ييغون ويعتدون ؟ ومن البدهاة ان الاعتداء
أو التقصير من أي موظف أو جندي - تقع مسؤوليته على الحاكم أمام الله والناس
إلا إذا أخذ المعتدي بحريته ، وضرب يده بقوة الحق والعدل .

وأيضاً كتب الإمام الى عماله يأمرهم أن يراقبوا أفراد الجند ويردعوا ويؤدبوا

كل سفيه يحاول أن يخيف ويسيء الى إنسان حتى ولو كان يهودياً أو نصرانياً ،
وان عجزوا عن كبح الجاني وتأديبه أعلموه بأمره ، ليأخذه بما يستحق .. وبهذا
الحزم والعدل ساغ للإمام أن يتبرأ من كل ظلامه تحدث من أحد جنوده إلا من
اضطر الى لقمة عيش ، أو جرعة ماء غير باغٍ ولا عاد ، فلا اثم عليه بنص
الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

الرسالة

- ٦٠ -

الى كميل بن زياد :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وَثِّي وَتَكْلَفُهُ مَا كُفِّي لَعَجْزُ حَاضِرٍ وَرَأْيُ مُتَبَرٍّ . وَإِنَّ تَعَاطِيكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قَرْقِيسِيَا وَتَعْطِيلِكَ مَسَاحِكَ الَّتِي وَلَيْنَاكَ لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا لِرَأْيِ شَعَاعٍ . فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا يَلْمُنُ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، خَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ ، وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثَغْرَةَ ، وَلَا كَاسِرٍ شَوْكَةَ ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِضْرِهِ ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ .

اللغة :

مُتَبَرٍّ : مهلك . وقرقيسيا : اسم بلد . ومسالح : أماكن السلاح . والرأي الشعاع : المتفرق الضعيف . والشوكة : القوة .

الإعراب :

لعجز خبر ان تضییع ، ولرأي خبر ان تعاطيك ، وغير شديد صفة لجسر أو حال من كاف الخطاب .

المعنى :

كان كميل بن زياد من خاصة الإمام ، والصفوة من شيعته ، ولما ولي الحجاج طلبه للقتل فهرب منه واختفى ، فما كان من الحجاج إلا أن منع العطاء عن قومه .. ولما علم كميل بذلك قال : أنا شيخ كبير ، وقد فقد عمري ، ولا ينبغي أن أكون سبباً لحرمان قومي من أقواتهم ، وسلمت نفسي للحجاج ، فلما رآه قال له : كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً ، فقال كميل : لا تصرف على أنيابك كالبعير ، فاقض ما أنت قاض ، فالموعد الله ، وبعد القتل حساب وجزاء . فقال الحجاج لجلاوزته : اضربوا عنقه ، فضربت .

وقد ولّاه الإمام على هيت ، فاستضعفه معاوية ، وأرسل اليه المرتزقة يقتلون وينهبون ، كما هو شأنه ، قال ابن أبي الحديد : « وحاول كميل أن يجبر ضعفه بالغارة على أطراف معاوية مثل قرقيسيا وغيرها ، فأنكر الإمام عليه ذلك » . وبعد ، فإن الانسان ابن الظروف التي تحيط به ، وكميل انسان له عواطفه وانفعالاته ، وأيضاً له حرите وقدرته تماماً كأبيه آدم الذي أخرجه الله من الجنة جزاء على فعلته .. وليس المهم أن لا يخطئ الانسان ، وإنما المهم أن لا يصر على الخطأ متى ظهر وبان ، وأن يلوم نفسه ولا يعود .. وقد لام كميل نفسه وتندم تماماً كما ندم آدم من قبل ، وتاب كما تاب .. وختم حياته بالشهادة بسيف البغي والضلال ، فصبر واحتسب حرصاً على دينه وإيمانه .

الرسالة

- ٦١ -

الى اهل مصر :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا
لِلْعَالَمِينَ وَمُهَيِّمِنًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، فَلَمَّا مَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَنَازَعَ
الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ
بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْجِعُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ
أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنْجُوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا أَتْيَا
النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايَعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ
قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى تَحْقِيقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ
هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُ إِلَيَّ إِنَّمَا هِيَ

مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَتْ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، أَوْ كَمَا
 يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَهَضَبْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ،
 وَأَظْمَأُ الدِّينَ وَتَنَهَنَ . إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طَلَاعُ
 الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا أَسْتَوَحِشْتُ . وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ
 فِيهِ ، وَالْهَدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ
 رَبِّي . وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ وَحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ . وَلَكِنِّي
 آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاوُهَا وَفَجَارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ
 دُولًا ، وَعِبَادَهُ خَوَلَا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ، فَإِنَّ
 مِنْهُمْ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمْ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ
 مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلَمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَائِخُ ، فَلَوْلَا
 ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْيِيدَكُمْ وَتَأْيِيدَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيطَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ
 إِذَا أَبَيْتُمْ وَوَلَيْتُمْ . أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدْ انْتَقَصَتْ ، وَإِلَى
 أَمْصَارِكُمْ قَدْ أَفْتَتِحَتْ ، وَإِلَى تَمَالِكِكُمْ تُزَوَّى ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ
 تُغْزَى . أَنْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَثَاقَلُوا إِلَى
 الْأَرْضِ فَتَقِرُّوا بِالْخُسْفِ وَتَبْوءُوا بِالذِّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمْ
 الْأَخْسَ . وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقَّ . وَمَنْ نَأَمَ لَمْ يُنَمَّ عَنْهُ .
 وَالسَّلَامُ .

اللغة :

مهيناً : شاهداً . والروح : القلب والعقل . والبال : الخاطر والتصور .
وراعني : فاجأني أو أفرعني . وراجعة الناس : المتقلبون منهم والمتردون . وثلماً :
خرقاً . وتنهنه : كف الباطل عنه بقوته ومناعته . وطلاع الشيء : ملؤه .
وآسى : أحزن . ودُولاً : يستأثرون به ، ويتداولونه فيما بينهم دون غيرهم .
وخولاً : عبيداً . والرضائح : العطايا . وتألبيكم : تحريضكم . وتزوى : تُقبض .
والخسف : الضيم . والأريق : الساهر .

الإعراب :

نذيراً حال من محمد (ص) ، والمصدر من ان العرب فاعل يخطر ، وواحد
حال ، وما باليت جواب القسم ، ولمنتظر خبر انسي ، والى لقاء الله متعلق
بمنتظر ، وذلك مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي لولا ذلك كائن .

المعنى :

حين أسند الإمام ولاية مصر الى مالك الأشتر أرسل الى أهلها رسالة مع غير
الأشتر حيث أنفى عليه أحسن الثناء ، وقال من جملة ما قال : « فقد بعثت
اليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل عن الأعداء » . وتقدمت
مع الشرح ، ورقها ٣٧ ، وفي الرسالة ٣٣ التي أرسلها الإمام لمحمد بن أبي بكر
ذكر الأشتر وترحم عليه ، وقال في وصفه : « كان لنا ناصحاً ، وعلى عدونا
شديداً » . أما الرسالة التي نحن بصدددها فقد كتبها الإمام لأهل مصر ، وأعطاهما
للأشتر نفسه ، كما ذكر الشريف الرضي الذي قال : « ومن كتاب له (ع) الى
أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه أمارتها » . وابتدأها الإمام بقوله :

لولا عمر ما حكم أبو بكر :

(أما بعد ، فإن الله سبحانه بعث - الى - يبايعونه) . أرسل سبحانه نبيه

الكريم محمداً (ص) مبشراً من أطاع الله بالثواب ، ومنذراً من عصاه بالعذاب ، وشاهداً بوسالة من سبقه من المرسلين : « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً - ٤٥ الأحزاب » . وبعد أن انتقل النبي (ص) الى الرفيق الأعلى حدث ما حدث من الصحابة حول الخلافة ، وما كان الإمام يظن ان أحداً من الصحابة يختار سواه لخلافة الرسول (ص) ولكنه فوجيء بنباً يحمل اليه : ان عمر اندفع بأبي بكر الى السقيفة ، وبايعه على رغم أنوف الأنصار وغيرهم . والمراد بفلان هنا أبو بكر ، وبالناس عمر ومن تابعه في عقد هذه البيعة على ان القرآن أطلق كلمة الناس على الرجل الواحد ، وهو نعيم بن مسعود كما في بعض تفاسير هذه الآية : « الذين قال لهم الناس - ١٧٣ آل عمران » . وعلى أية حال لولا بيعة عمر ما انعقدت الخلافة لأبي بكر .

فقد جاء بكتاب المواقف وشرحه، باب الأمانة : « الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف في ثبوت الإمامة ووجوب اتباع الإمام على أهل الإسلام ، لأن الصحابة اكتفوا في عقد الإمامة بعقد عمر لأبي بكر ، وعقد عبد الرحمن ابن عوف لعثمان . » ومعنى هذا ان بيعة عمر هي السبب الموجب لخلافة أبي بكر ، وبيعة ابن عوف لخلافة عثمان .

(فأمسكت يدي) أي اعتزلت في بيتي معرضاً عن كل شيء (حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام الخ) .. يشير بهذا الى طليحة بن خويلد الأسدي ، واجتماع المرتدين لغزو المدينة بقيادته ، كما جاء في تاريخ الطبري وابن الأثير .

وتتلخص حكاية طليحة انه ادعى النبوة في حياة رسول الله (ص) فوجه الى حربه ضرار بن الأوس ، فأفلت منه ، ولكن ضعف أمره .. ثم قوي بعد وفاة النبي (ص) لكثرة المرتدين ، وعزم أن يغزو بهم المدينة ويحتلها . قال ابن الأثير في حوادث سنة ١١ هـ : « ارتدت العرب ، وتضرمت الأرض ناراً بعد وفاة رسول الله (ص) وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً ، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة » .

ولما علم المسلمون بغزو طليحة المدينة تماسكوا واتفق الصحابة كلمة واحدة على حربه ، وخرج الإمام من عزلته ، ورابط بنفسه في مكان قريب من المدينة ،

واقتمدى به آخرون ، وأغار طليحة على المدينة ليلاً ، وكان المسلمون له بالمرصاد ، فهزموه وفرقوا جمعه وقتلوا العديد من عسكره ، ولم يصب أحد من المسلمين ، ثم لحقت جيوش الإسلام بطليحة الفار ، فانصرف عنه أصحابه بعد إيقانهم بكذبه ، وهرب هو الى الشام ، ونزل ببني كلب ، وأظهر التوبة والإسلام ليسلم من القتل ولما مات أبو بكر وبويع عمر أياه وبأيعه .

(فخشيت ان لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم الخ) .. الخطاب للمسلمين لا للمصريين فقط ، والمعنى ان الإمام خاف على دين محمد (ص) لو بقي معتزلاً في بيته . لذا شارك في حرب الردة ، ودافع عن المدينة كعاصمة للمسلمين ، وعن الخلافة كنيابة عن الرسول (ص) وسكت عن حقه حرصاً على الدين ومصلحته، وتعاون مع أبي بكر للغاية نفسها ، لأن الدين فوق الجميع ، وفي سبيله ضحى الأنبياء بأنفسهم، وإذن فبالأولى أن يضحى الإمام بالولاية والرياسة من أجل الدين .

وقلنا فيما سبق : ان الإمام لا يقيس الخير بالمناصب وكثرة الناس من حوله ، وبالعنى أو غيره من خطام الدنيا ، وإنما يقيس الخير بمرضاة الله وثواب الآخرة . ومن أقواله في ذلك: « كل نعيم دون الجنة فهو محقور .. العنى والفقر بعد العرض على الله » . وعلى هذا الأساس صغر الدنيا وحقرها ، وشبهها بعفطة عنز في الخطبة ٣ ، وبورقة في فم جرادة في الخطبة ٢٢٢ وبالسراب في الرسالة التي نحن بصددھا .

(فنهضت في تلك الأحداث) وهي الردة وغيرها من الفتن التي كانت تهدف الى القضاء على دولة الإسلام وبيضته (حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهت) بانتشاره في شرف الأرض وغربها (واني والله لو لقيتهم واحداً ، وهم طلاع الأرض الخ) .. ضميرهم يعود الى مثيري الفتن والقتال ضد الإسلام كأهل الردة وأهل الشام وأصحاب الجمل ، والمعنى : أنا حرب لمن يضمر السوء للإسلام حتى ولو ملأوا عليّ الأرض رجالاً وسلاحاً ، وأنا سلم ما سلم الإسلام ، ولم يكن من حيف وجور إلا عليّ خاصة ، كما قال في الخطبة ٧٢ .

وكان الإمام يعلن في العديد من المواقف أنه أولى من أبي بكر بالخلافة ، وصارحه بذلك أكثر من مرة .. ومع هذا تعاون معه على مصلحة الإسلام والمسلمين ،

أما كان الأجدد بمعاقبة وطلحة والزبير أن يتعاونوا مع الإمام لهذه الغاية بعد أن بايعه الصحابة والمسلمون ، أو يسكتوا على الأقل حقناً للدماء وتجنباً للفتن وامتنالاً لقول الرسول : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ؟

(واني الى لقاء الله لمنتظر الخ) .. لو اجتمع أهل الأرض على حرب الإمام ما بالى ولا استوحش ، كما قال ، ولماذا ؟ لأمرين : الأول انه على بصيرة من نفسه ، ويقين من ربه . الثاني انه يعيش الشهادة ويتمناها .. أجل ، هناك شيء واحد يحلر منه ويحزن له وهو أن يحدث بعد موته ما أشار اليه بقوله : (ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً الخ) .. كما فعل الأمويون بعد أمير المؤمنين .. هذا هو بالذات الذي يحشاه ويأباه . أما الشهادة في نفسها فهي أميته .

وفسر بعض الشارحين قول الإمام : (ولكنني آسى ان يلي) ففسره بأن الإمام أحجم عن حرب الخلفاء السابقين خوفاً أن يتولى الخلافة بنو أمية مكان أبي بكر وعمر .. وهذا بعيد عن السياق ، لأن الإمام قال بصراحة : انه تعاون مع من سبقه الى الخلافة حرصاً على وحدة الكلمة ضد أعداء الاسلام . ثم أشار الى حبه الشهادة ، وقال بلا فاصل : ولكنني آسى الخ .. أي على رغم حبي للشهادة فلاني أخاف على الاسلام والمسلمين من بعدي أن يتحكم بهم الأشرار ، فيسفكوا الدماء ، وينهبوا الأموال .

(فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام الخ) .. ضمير منهم الى بني أمية ، والمراد بالحرام الخمر . وقال ابن أبي الحديد : « يشير الإمام الى الوليد بن عقبة ، وهو أخو عثمان لأمه ، وقد ولاه الكوفة ، وكان زانياً سكيراً ، شرب الخمر وصلى بالناس جماعة صلاة الصبح أربع ركعات ، وقاء الخمر في محراب المسجد ، وتلى في الصلاة بدلاً من القرآن : علق القلب الربابا * بعد ما شابت وشابا » .

(وان منهم من لم يسلم حتى رُضخت له على الاسلام الرضائخ الخ) .. أي العطايا ، قال ابن أبي الحديد : « يشير الإمام الى المؤلفة قلوبهم الذين رغبوا في الاسلام بعد أن أعطوا الجبال والشاء ، وهم معروفون ، ومنهم معاوية وأخوه يزيد وأبوهما أبو سفيان ، وصفوان بن أمية .. وكان اسلامهم للطمع

وأغراض الدنيا ، ولم يكن عن أصل ولا عن علم ويقين » .
(فلولاً ذلك ما أكثرت تأليبكم الخ) .. أي نحريضكم على قتال أعداء الله
ودينه كيلا يذلوكم من بعدي ويتحكموا بدمائكم وأموالكم ، ولكن تناقلتم ، والآن
أعيد القول مؤكداً ومردداً : (من نام لم ينم عنه) وتقدم ذلك في العديد من
الخطب ، منها الخطبة ٢٧ و ٩١ و ١٠٠ .

الرسالة

- ٦٢ -

الى ابي موسى الأشعري :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ :
أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلُ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِيمَ رَسُولِي
عَلَيْكَ فَارْفَعْ ذَلِكَ ، وَأَشْدُّ مِثْرَكَ ، وَأَخْرِجْ مِنْ حُجْرِكَ ،
وَأَنْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَأَنْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَأَبْعُدْ . وَأَيُّمُ
اللَّهِ لَتَوُتِنَّ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكَ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَائِرِكَ ،
وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قَعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ
كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ . وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا
الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرَكَّبُ جَلْهَا وَيُذَلُّ صَعْبُهَا ، وَيَسْهُلُ جَبَلُهَا . فَأَعْقِلْ
عَقْلَكَ ، وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ وَخُذْ نَصِيْبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ

إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيْنَ وَأَنْتَ . نَأْتِمُّ حَتَّى
لَا يُقَالَ أَيْنَ فُلَانٌ . وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقَّ مَعَ مُحِقٍّ وَمَا نُبَالِي مَا صَنَعَ
الْمُلْحِدُونَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

جحرك : مكانك . وأندب : أدع . وحققت : عزمت . وتفشلت : جبت
وتقاعست . والحائر : اللبن ، والزبد خلاصته . والقعدة - بكسر القاف -
هيئة القعود . والهويثا : تصغير الهوني أي مؤنث الأهون . واعقل عقلك : اجعله
ثقيلاً وكبيراً .

الإعراب :

وَأَيْمُ اللَّهِ مَبْتَدَأُ والخبر محذوف وجوباً أي وأيم الله قسمي ، وَأَنْتَ مَبْتَدَأُ والخبر
محذوف أي من حيث أَنْتَ في مكانك ، وبالهويثا الباء زائدة ، والهويثا خبر هي ،
مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ « ما » مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور بباء محذوفة أي ما
أُبَالِي بصنعهم .

المعنى :

كَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَالْيَأَى عَلَى الْكُوفَةِ حِينَ خَرَجَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ عَلَى
الْإِمَامِ ، وَاسْتَنْفَرَ الْإِمَامُ أَهْلَ الْكُوفَةِ لِلْجِهَادِ ، كَمَا جَاءَ فِي الرِّسَالَةِ الْأُولَى مِنْ رِسَالَتِ
النَّهْجِ ، فَثَبَّطَهُمْ هَذَا الْأَشْعَرِيُّ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ الرِّسَالَةُ التَّالِيَةُ :

(أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغْنِي عَنْكَ قَوْلُ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ) . ذَكَرَ الشَّارِحُونَ فِي

تفسير « هو لك وعليك » ما لا تركز اليه النفس .. والذي نراه ان الإمام يرد بقوله هذا على خطبة الأشعري في أهل الكوفة مثبطاً عن الجهاد مع الإمام بقوله : « أيها الناس ان أصحاب رسول الله (ص) الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه .. وان هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم .. فأغمدوا سيوفكم » .. فقال له الإمام : ان قولك هذا « هو لك وعليك » أي فيه حق وباطل ، أما الحق فهو ان أصحاب الرسول أعلم من غيرهم بالدين ، وأما الباطل فهو ان القاعد في هذه الفتنة خير من القائم ، لأن الله سبحانه قد أوجب قتال مثيري الفتن بقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » - ١٩٣ البقرة . وقال : « والفتنة أشد من القتل - ١٩١ البقرة » . فكيف تنهى يا أشعري عما أمر الله به ؟ وهل قولك هذا إلا رضا بالفتنة وتشجيع لها ؟ وهل نسبت قول رسول الله (ص) : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ؟

(فارفع ذلك واشدد مثزرك) . أسرع إلي أنت ومن معك بلا تأخير (فإن حققت فأنفذ) ان عزمت على الطاعة فتوكل على الله (وان فشلت فابعد) ان فترت وتراخيت فاذهب الى بيتك وشأنك (ولا تترك حتى يُخلط زبدك بخثارك الخ) .. أنتظن انك بمنجاة ؟ كلا ، ستؤخذ من مكانك ، ولا تترك إلا وأنت تائه حائر لا تهتدي الى خير (وحتى تُعجل في قعدتك) . المراد بالقعدة هنا الوظيفة والولاية أي تُطرد منها (وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك) هذا كناية عن الإحاطة به بلا مناص له وخلص .

(وما هي بالهويثا - الى - جبلها) ان موقفك - أيها الأشعري - ليس بالأمر الهين كما تظن .. انه صعب وعسير عليك وعلينا ، ولكننا نحن نقتحم هذا الصعب ونلله حتى يسهل بإذن الله ، وتبقى أنت في الشدة والخيرة (فاعقل عقلك) تغلب به على هواك (واملك أمرك) وأعصابك ، ولا تتحرك بانفعال وعصبية وإلا كان مآلك الفشل والخذلان (وخذ نصيبك وحظك) احمل نفسك على عمل الخير ، وخذ منه أوفر نصيب (فإن كرهت الخ) .. عمل الخير فاعتزل عملنا ، واذهب الى الشيطان .

(فبالخري لتكفن) انك لجدير بالإهمال والنسيان ، لأنك لا تغني شيئاً ،

ولذا نكفيك ونعفيك (وأنت نائم حتى لا يقال : أين فلان) متى أهملناك
تصبح نكرة لا تُعد عند الحضور ، ولا تُفقد لدى الغياب (والله انه
لحق الخ) .. أبدأ لا أكثر بما قال ويقول الجاحدون والمثبطون ما
دمت على الحق ، وهو يدور معي كيف انجحت بشهادة من أنطقه الله ببيانه
وقرآنه .

الرسالة

- ٦٣ -

أيضاً الى معاوية :

أَمَا بَعْدُ فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ،
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسٍ أَنَا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَا اسْتَقَمْنَا
وَقُتِنْتُمْ . وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كُرْهًا ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ
كُلُّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِزْبًا . وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ
طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بَعَائِشَةَ وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ
أَمْرٌ غِبْتُ عَنْهُ فَلَا عَلَيْكَ وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ . وَذَكَرْتَ أَنَّكَ
زَاثِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْهَجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ
أُخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهِ ، فَإِنِّي إِنْ أَرُوكَ فَذَلِكَ
جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنُّقْمَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ تَوَرَّعْتَنِي فَكَمَا قَالَ
أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ
وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجِدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .
وَلِإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ . لَا أَغْلَفُ الْقَلْبَ الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ ، وَالْأَوَّلَى أَنْ
يُقَالَ لَكَ إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَامًا أَطْلَعَكَ مَطْلَعُ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِإِنَّكَ
نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْرًا لَسْتَ
مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ . وَقَرِيبُ مَا
أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأُخْوَالٍ حَمَلَتْهُمْ الشَّقَاوَةُ وَتَمَنَّى الْبَاطِلُ عَلَى الْجُحُودِ
بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَصُرِّعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ
يَدْفَعُوا عَظِيمًا ، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيمًا يَوْفَعُ سُيُوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا الْوَعَى
وَلَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَى . وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتْلَةِ عُثْمَانَ فَادْخُلْ فِيهَا دَخَلَ
فِيهِ النَّاسُ ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ أَهْلِكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .
وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ
وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

اللغة :

أنف الشيء : أوله ، والمراد بأنف الإسلام هنا الصحابة السابقون الأولون .
والمِصران : الكوفة والبصرة . واسترفه : تنعم . والحاصب : رياح تحمل الحصى .

وأغوار : جمع غور أي ما انحدر واطمأن من الأرض . والجلمود : الصخر .
والأغلف : لا يعني « وقالوا قلوبنا غلف - ٨٨ البقرة » . والضالة : المفقودة
المنشودة . والسائمة : الماشية الراعية . والوغي : الحرب . والهوي : مؤث
الهيّن .

الإعراب :

امسَ ظرف زمان مبني على الكسر اذا أُريد به اليوم الذي قبل يومك بليلة ،
واذا أُريد به يوم . من الأيام الماضية أو دخلت عليه الألف واللام أو أُضيف فهو
معرّب بالإجماع . والمصدر من إنّا آمنّا فاعل فرّق ، وكراً في موضع الحال أي
مكرهاً ، وبجدة الباء زائدة ، وجدة مفعول اعرضته ، وما علمت « ما » اسم
موصول خبر انك أي الذي عرفته ، والأغلف والمقارب عطف بيان وتفسير لاسم
الموصول الذي هو خبر انك ، فكأنه قال : انك الأغلف القلب الذي عرفته ،
وقريب خبر مقدم ، والمصدر من ما أشبهت مبتدأ مؤخر أي شبهك قريب من
أعمامك وأخوالك .

المعنى :

تقدم معنا حتى الآن إحدى عشرة رسالة من الإمام الى معاوية ، وهذه الثانية
عشرة ، وتأتي ثلاث ، فالمجموع ١٥ ، وهي متشابهة، لوحدة الموضوع والهدف،
كما قلنا في شرح الرسالة ٥٤ .. وقد دأب معاوية على تلفيق الاتهامات ضد الإمام
بحسد الشيخين تارة ، وبدم عثمان تارات ومرات .. لا شيء إلا لأن الإمام ما
أعطاه الشام طعمة كما جاء في الرسالة ١٦، والإمام يردّ على اتهاماته ومزاعمه خوفاً
من تضليل بعض السذج من أهل الشام، ولا جديد في الرسالة التي نحن بصدددها ،
ولذا نحيل على ما سبق ، ونوجز ما أمكن .

(فإنّا كنّا نحن وأنتم النخ) .. كان بين بني هاشم وأمية تباين في الطباع والأخلاق،
وتنافس على الزعامة والصدارة في الجاهلية ما في ذلك ريب .. ونافر أمية هاشماً
عند الكاهن الخزاعي على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنوات، فحكم الكاهن

لهاشم على أمية ، وانتهت الحصومة عند هذا الحد بلا حرب وضرب . وتقدم قول الإمام في الرسالة ١٦ لمعاوية : « أما قولك : إنا بنو عبد مناف فكذلك ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا المهاجر كالطليق الخ » .. (ففرق بيننا وبينكم الخ) .. الإسلام حيث كنتم عليه حرباً وأعداء ، وكنا له جنوداً ولواء ، وتقدم مثله في الرسالة ٢٧ (وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً) أسلمتم خوفاً من السيف ، وتقدم في الرسالة ١٦ . قال الشيخ محمد عبده : « إنما أسلم أبو سفيان قبل فتح مكة بلبلة خوف القتل » . (وبعد ان كان أنف الإسلام الخ) .. أسلمتم حين أظهر الله نبيه الكريم على الشرك كله ، وكنتم لذلك كارهين .

(وذكرتَ أنني قتلت طلحة الخ) .. تقدم في الرسالة ٢٧ أن معاوية قال للإمام : حسدت الخلفاء ، وان الإمام أجابه بقوله : « ان يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر اليك » . والجواب هناك هو بالذات الجواب هنا . قال ابن أبي الحديد : « أجابه الإمام بكلام مختصر استخفافاً بشأنه ، أما الجواب المفصل فهو ان طلحة والزبير قتلوا نفسيهما ببغيهما ونكثهما ، ولو استقاما على الطريقة لسلا » .. هذا مع العلم بأن طلحة قتله مروان بن الحكم أخذاً بثأر عثمان ، والزبير قتله عمرو بن جرموز .

(وذكرت انك زائري في المهاجرين والأنصار) معاوية يهدد علياً بالحرب . ويتوعد به المهاجرين والأنصار ، وليس معه من الأنصار إلا اثنتان فقط : النعمان ابن بشير ومسلمة بن مخلد تبعاه طمعاً في دنياه ، كابن العاص . وكان مع الإمام تسعة من الأنصار ، ولا نعرف أحداً من المهاجرين كان مع معاوية ، وكان منهم مع الإمام ثمان مئة . وكان في جيش معاوية الأمويون والمنافقون الذين حاربوا رسول الله مع أبي سفيان .. وهذا شيء بديهي وطبيعي يفرضه واقع الحال ، لأن الإمام امتداد لرسول الله (ص) ومعاوية امتداد لأبيه أبي سفيان .

(وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك) . قال ابن أبي الحديد في شرحه : « هذا تكذيب لمعاوية ، لأن أكثر من كان معه ممن رأى رسول الله هم أبنا الطلقاء ، ومن أسلم بعد الفتح ، وقال النبي (ص) : لا هجرة بعد الفتح — وإذن فأين الهجرة — وقول الإمام يوم الفتح إشارة الى تبريع معاوية وأهله بالكفر وانهم ليسوا من أهل السوابق ، وقد أسر يزيد بن أبي سفيان أخو معاوية في يوم الفتح .

وكان قد خرج في نفر من قريش يحاربون رسول الله ويمنعونه من دخول مكة :
فقتل منهم قوم ، وأسر يزيد » .

ومعاوية ومن معه يعلمون أنهم كانوا حرباً على الإسلام ، وان علياً وأصحابه هم أنصار الدين والقرآن من قبل ومن بعد ، ولكن معاوية يعلم أيضاً أنه لن يبلغ ما يريد إلا بالتمويه والتزييف، ولذا موّه وزيف تماماً كالصحف المأجورة وغيرها من وسائل الإعلام في عصرنا وفي كل عصر .

(فإن كان فيك عجل فاسترفه) ان كنت تتعجل زيارتي حقاً فتزود من الدنيا ونعيمها مودعاً ، لأنك مفارقها عن قريب (فلاني ان أزرك الخ) .. ان أيتك فقد انتهى أجلك ، وان أتيتني استقبلتك السيوف والرماح تماماً كما تستقبل رياح الصيف من يواجهها بحصائها (وعندي السيف الذي اعرضته بجدك) عتبة ابن ربيعة (وخالك) الوليد بن عتبة . (وأخيك) حنظلة (في مقام واحد) وهو يوم بدر حيث ساقهم الإمام بسيفه الى حتفهم زمرة واحدة. وتقدم مثله مع الشرح في الرسالة ١٠ و ٢٧ .

(وانك والله ما علمت إلا غلف القلب الخ) .. أنا أعلم بأنك من الذين ران الله على قلوبهم بما كسبوا من الحرام والآثام (والأولى أن يقال لك : انك الخ) .. تجاوزت حدك، وعدوت طورك (وطلبت أمراً لست من أهله الخ) .. سيطرت عليك لذة الحكم وشهوة السلطان ، ومن أجلها تثير الفتن ، وتستعين بدماء المسلمين وكل القيم ! . وقد اعترف معاوية نفسه بذلك ، ونطق به بكل جرأة وصلافة . قال ابن أبي الحديد في شرحه ص ٦ من المجلد الرابع الطبعة القديمة : « روى أبو الحسن المدائني أن معاوية بعد صلح الحسن خطب في أهل الكوفة ، وقال : « ما قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وإنما قاتلتكم لأنامر عليكم وعلى رقابكم » .

هذا هو معاوية ، وهذه هي حقيقته ! .. قتل " وسفك دماء وتخريب وتدمير ، وسخرية من الصلاة والزكاة لا شيء إلا للسيطرة والتحكم بالرقاب ! .. ومن هنا شبهه الإمام بعتمه أم جميل حمالة الخطب ، وخاله الوليد وغيرها من أرحامه

أعداء الله ورسوله .. ومع هذا يطلب خلافة الرسول (ص) باسم الله ورسوله ..
وأي عجب ألسنا نحن في عصر النور والفضاء ، والدماء تجري في فلسطين وفيتنام
أنهراً باسم العدل والسلام !.

(وقد أشرت في قتلة عثمان الخ) .. تقدم الكلام عن ذلك مفصلاً أكثر من
مرة ، وآخرها في الرسالة ٥٧ فقرة « الإمام والقصاص من قتلة عثمان » ونقلنا
كلام الإمام من هنا الى هناك وشرحناه بوضوح .

الرسالة

- ٦٤ -

أيضاً الى معاوية :

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْعِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ،
 فَقَدْ سَلَكَتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِإِدْعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ
 الْمُنِينَ وَالْأَكَاذِبِ ، وَبِإِنْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَأَتَيْتَ زَاوِيَةَ لَمَّا أَخْتَرِنَ
 دُونَكَ ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ وَجُحُوداً لَمَّا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ،
 يَمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلَى بِهِ صَدْرُكَ ، فَأَذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
 الْمُبِينُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ . فَاحْذَرِ الشُّبُهَةَ وَأَشْتِهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ،
 فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَخْذَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَأَعْشَبَتِ الْأَبْصَارَ ظُلُمَتُهَا . وَقَدْ
 أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قِيَوَاهَا عَنِ السَّلَامِ وَأَسَاطِيرَ
 لَمْ يَحْكُمَهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبِيحَتْ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ،
 وَالْخَائِطِ فِي الدِّيمَاسِ وَتَرَقَّيْتُ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَارِحَةِ الْأَعْلَامِ .

تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنْوُقُ ، وَيَحْذَى بِهَا الْعَيُوقُ . وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ
بَعْدِي صَدْرًا أَوْ وَرْدًا ، أَوْ أُجْرِي لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ عَهْدًا ،
فَإِنَّ الْآنَ فَتَدَارِكُ نَفْسَكَ وَأَنْظُرُ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ
إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ أُرْتَجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ وَمُنِعْتَ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ
مَقْبُولٌ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

اللمح الباصر : كناية عن الوضوح والظهور . والمدارج : المسالك . والإقحام :
الإدخال بسرعة . والمين : الكذب . والانتحال : ادعاء ما ليس فيك من صفة
أو ما هو لغيرك من قول أو فعل . والابتزاز : انتهاب واستلاب . واختزن :
مُنِعَ . واللبس واللبسة والالتباس بمعنى واحد ، وهو الإبهام والغموض والإشكال
والاختلاط . وأغدفت : أرسلت . والجلايبب : نوع من الثياب . وأساطير :
خرافات . والدهاس : الأرض اللينة . والديماس : المكان المظلم . والمراقبة :
المكان السامي الرفيع . والنازحة : البعيدة . والانوق : من الطيور . والعيق :
نجم . وينهد : ينهض . وأرتجت : أغلقت .

الإعراب :

المصدر من أن تنتفع فاعل آن ، وفراراً مفعول من أجله لابتزازك ، فإذا هنا
بمعنى أي شيء ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وبعد متعلق بمحذوف خبراً ، والضلال
بدل ، وطالما فعل ماض كفته « ما » الزائدة عن العمل ، وأساطير عطف على
أفانين ، وكلاهما مجرور بالفتحة لعدم الصرف .

الحوار المطلوب :

هذه الرسالة الثالثة عشرة من الإمام الى معاوية ، وتأتي رسالتان .. والنقاش

والحوار مطلوب ، بل ضرورة ، ولكن كعلاج ووسيلة لحل المشكلات ، وبخاصة الخطير منها ، والحوار الذي دار بين الإمام ومعاوية بعيد عن هذه الغاية ، لأن معاوية كان يساوم ويراعى ويجترأ بقصد البقاء في الحكم والسيطرة ، والإمام يعرف ذلك منه ، وما أجابه إلا ليلقي عليه الحجة ، ويفضح شعاراته الكاذبة ، ومقاصده الغادرة ، وينير السبيل لطالب الحق والهداية ، وفي الوقت نفسه يحدد مهمة الحاكم ومسؤوليته عن الرعية .. ومن هنا كانت تلك الرسالة باللغة الأهمية ، وأتمنى لو جُمعت في كتاب واحد ، وشرحت بعلم وإنصاف بلا شوائب ونزعات.

(فقد آن لك ان تتنفع باللمح الباصر) . لماذا تجحد الحق وتعاذله ، وأنت تحسه وتراه كوضح النهار ؟ والى متى الخداع والرياء ؟ ويحدثنا التاريخ أن معاوية كان يعلم أن الخلافة حق للإمام ، ولكنه يكابر ويساوم . فقد جاء في كتاب « الإمامة والسياسة » ص ٩٥ طبعة ١٩٥٧ أن معاوية كتب الى الإمام أن يبايعه ، شريطة أن تكون الشام ومصر جباية له . وفي ص ١٠١ أن معاوية كتب الى الإمام يقول : « لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر » . وكل الناس يعلمون ان علياً بريء من دم عثمان حتى معاوية يعلم ذلك ، ولكنه يتجنى ، كما قال له الإمام في الرسالة ٦ التي ختمها بقوله : « فتنجن ما بدا لك » .

(فقد سلكت مدارج أسلافك الخ) .. انك تماري وتخدع ، وتحارب الحق وتنصر الباطل .. ولا بدع فهذه سنة آبائك وأجدادك (وبانتحالك ما قد علا عنك) تطمح الى ما هو أعلى منك وأرفع . وأبلغ من هذا قول الإمام لمعاوية في الرسالة ٢٧ : ألا تربح أيها الانسان على ظلمك ، وتعرف قصور ذرعتك ، وتتأخر حيث أخرك القدر (وابتزازك لما اختزن دونك الخ) .. يشير الإمام بهذا الى جرأة معاوية وإقدامه على أخذ البيعة بالخلافة لنفسه من أهل الشام ، وهو يعلم علم اليقين انها حق للإمام لأن الصحابة وجمهور المسلمين بايعوا علياً طائعين لا مكرهين .. وأيضاً يعلم معاوية ان أخذ البيعة لنفسه من أهل الشام هي السبيل لتفريق المسلمين وشتاتهم وسفك دمائهم .. ولا بأس في أكثر من ذلك عند معاوية ما دامت الغاية تبرر الوسطة .

(وجحوداً لما هو ألزم لك من لحمك ودمك) قال الشيخ محمد عبده : «الذي هو ألزم لمعاوية من لحمه ودمه البيعة لأمر المؤمنين » . وقال ابن أبي الحديد :

« كان معاوية حاضراً يوم الغدير - أي حين قال النبي (ص) في حق علي : من كنت مولاه فعليّ » مولاه - أيضاً كان حاضراً يوم تبوك حين قال النبي لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى.. ومعاوية يعلم ان النبي قال لعلي: «حربك حربتي وسلمك سلمتي، اللهم عاد من عاداه » .. وليس هذا بشيء وان سمعته الأذن ورأته العين ما دام القلب تائهاً عنه وعن الحق وأهله .

(فاحذر الشبهة واشتمها على لبستها) . المراد بالشبهة هنا إلصاق دم عثمان بالإمام كذباً وافتراء . وباشتمها ان معاوية تبني هذه الشبهة الكاذبة وجعلها دينه وديننه، أما « على لبستها » فعناها ان معاوية تبني هذه الشبهة على علائقها وآفات.. وهكذا يسلك معاوية مدارج أسلافه المشركين الذين تصدوا لرسول الله وحاربوه أول ما حاربوه بالإعلام الخادع والدعاية الكاذبة ، وقالوا : مجنون .. وطالب ملك .. ثم عبأوا الجيوش لحربه .. ونفخ معاوية أكاذيبه وأضاليه ضد الإمام ، ثم حشد جيوش الشام لحرب المسلمين والاسلام .

(فإن الفتنة طالما أغدفت جلايبيها) لبست ثوب النفاق والرياء، وظهرت بغير واقعها وحقيقتها ، والجلباب في هذه الفتنة هو قيص عثمان ستر به معاوية ما يهدف اليه من شتات المسلمين وسفك دمائهم ، وتعدد آرائهم وأحزابهم ليتسلل من خلال ذلك الى الحكم والسيطرة .. وكلنا يعلم ان اللصوص وقطاع الطرق لا يصلون الى المناصب إلا اذا تفاقم الانشقاق ، وعمت الفوضى، وساد الفساد (وأغشت الأبصار ظلمتها) كما ان الفتنة تتخذ من الرياء حجاباً فهي أيضاً تضع على العيون منظراً أسود يحجبها عن رؤية الحقائق والوقائع .

(وقد أتاني كتاب منك ذو أفانين) من الزخرف والتزيق، والغرور والأضاليل (ضعفت قواها عن السلم الخ) .. الهاء في قواها يعود الى أفانين القول، والمعنى ان كتابك كله شر وجهل ، وحق وخطرة ، ومع هذا تريد الولاية على الناس ! . وهل يصلح الجاهل المخادع للحكم والسلطان، وكيف تطمح اليه ، وأنت (كالحائض في الدهاس) أي في أرض من وطأها غارت رجلاه وخارت قواه (والخابط في الديماس) أي في الظلمات ، يقال : ليل دامس أي مظلم .

(وترقيت الى مرقبة بعيدة المرام الخ) .. طلب معاوية من الإمام أن ينص عليه بولاية العهد من بعده ، كما نص هو على ولده يزيد ، فوبخه الإمام وقال له : لست هناك ، فإن الذي تريد هو منك بمكان النجم في السماء ، والطير في

الفضاء .. إنك أصغر وأحقر ان تلي للمسلمين (صدرأ أو وردأ) أي إبرامأ أو حلاً (أو أجري لك على أحد منهم عقدأ وعهدأ) . أبداً لا أدع لك سبيلاً على واحد من المسلمين كائناً من كان .. والغريب ان بعض الشارحين فسّر العقد هنا بعقد البيع والزواج والاجارة ، وفسّر العهد بالبيعة واليمين والذمة .. والصواب - على فهمنا وعهدتنا - ان المراد بالعهد والعقد معاً السبيل الذي عناه الله سبحانه بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً - ١٤١ النساء » .

(فن الآن فتدارك نفسك الخ) .. ارجع الى رشدك ، وتب الى الله وإلا حاربك المسلمون ، وأصابك منهم ما أصاب الخوارج وأصحاب الجمل (ومنعت أمراً هو منك اليوم مقبول) إن رجعت الى الحق يقبل الله منك ويعفو عما سلف وإن عاندت وصممت على الباطل ندمت حيث لا ينفع الندم .

الرسالة

- ٦٥ -

الى عبدالله بن عباس :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَقُوتَهُ وَيَحْزَنُ
عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ . فَلَا يَكُنْ أَفْضَلُ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ
مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغَ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءَ حَيْظٍ ، وَلَكِنْ إِطْقَاءَ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءَ
حَقٍّ . وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسْفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ،
وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

المعنى :

قال الشريف الرضي : تقدم ذكره - أي ذكر هذا الكتاب - بخلاف هذه
الرواية أي برواية ثانية ، والرواية الأولى هي الرسالة رقم ٢١ التي قال عنها
عبدالله بن عباس : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله (ص) كانتفاعي بهذا
الكلام . ولا فرق بين الرسالتين إلا في بعض الألفاظ ، أما المعنى فواحد ،

قال الإمام هنا : (فلن المرء لم ليفرح بالشئ الذي لم يكن ليفوته) . وقال هناك أي في الرسالة ٢١ : « فلن المرء قد يسره ما لم يكن ليفوته » . وقال هنا : (ويحزن على الشئ الذي لم يكن ليصيبه) . وقال هناك : « ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه » . الى آخر الكلام هناك وهنا . وتقدم الشرح فراجع .

الرسالة

- ٦٦ -

الى قثم بن العباس :

أَمَّا بَعْدُ فَأَقِمِ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَأَجْلِسْ لَهُمْ
الْعَصْرَيْنِ فَأَقِ الْمُسْتَغْفِيَّ وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ وَذَكِّرِ الْعَالِمَ . وَلَا يَكُنْ لَكَ
إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهَكَ . وَلَا تَحْجُبَنَّ
ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ
وَرْدِهَا ، لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدَ عَلَى قَضَائِهَا . وَأَنْظِرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ
مِنْ مَالِ اللَّهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ مُصِيباً
بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ وَالْخِلَاطِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ
فِيمَنْ قَبْلَنَا . وَمَنْ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ لَا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنِ أَجْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ » فَالْعَاكِفُ الْمُقِيمُ بِهِ

وَالْبَادِي الَّذِي يُحْجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ . وَفَقَّنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ .
وَالسَّلَامُ .

اللغة :

العصر : آخر النهار ، والعصران : الغداة والعشي ، أي الليل والنهار ، وفي مجمع البحرين للشيخ الطريحي : « جاء في الحديث : حافظ على العصرين ، يريد صلاة الفجر وصلاة العصر ، لأن الأولى تقع في طرف النهار والثانية في طرف الليل » أي القربة منه . وذاكر العالم : خض معه في حديث العلم ومسائله . وقبلك — بكسر القاف — عندك وجهتك . والفاقة : الفقر . والحلات : الحاجات . ومحابه : ما يحب .

الإعراب :

سفير اسم يكن ، والى الناس خبر ، ولسانك بدل من سفير ، ومصيباً حال من فاعل اصرفه ، ومواضع مفعول « مصيباً » .

المعنى :

كان قثم بن العباس والياً للإمام على مكة ، كما أشرنا في أول الرسالة ٣٢ التي أرسلها إليه الإمام ، وهذه الرسالة الثانية الى قثم ، ولكن موضوعها غير موضوع الأولى . (فأقم للناس الحج) حج بهم على كتاب الله وسنة نبيه ، وعلمهم المناسك وما يجب فعله وتركه (وذكرهم بأيام الله) التي عاقب فيها الأمم الماضية على البغي والفساد : وخوفهم بذلك لعلمهم يتقون (واجلس لهم العصرين) صباحاً ومساءً ، لتستمع الى مشكلاتهم ، وتسعى في حلها جهداً ومقدرتك (فافت المستفتي) أجب عما تُسأل عنه من حلال الله وحرامه .

(وعلم الجاهل) اقعده للتدريس في حلقة من التلاميذ ، تعلمهم الدين أصولاً وفروعاً

(وذاكر العالم) تدارس معه مسائل الدين ، وشؤون البلاد ومصالحها (ولا يكن لك الى الناس سفير الخ) .. اختلط بهم ، وقابلهم وجهاً لوجه ، واسمع منهم ، واسمعهم مباشرة وبلا واسطة تماماً كما فعل الأنبياء. ولماذا الحجاب وغلق الأبواب؟. وتقدم مع الشرح قول الإمام للأشتر في الرسالة ٥٢ : ان احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور .

(فإنها ان ذيدت .. الخ) الحاجة ومُنعت أولاً ، ثم راجعت نفسك وقضيتها فإن صاحبها لا يحمذك ، ولا يرى لك فضلاً ، فالأولى أن تبادر الى قضائها بمجرد عرضها عليك ، فإن الله يضاعف لك الأجر ، وصاحبها يضاعف لك الشكر ، لأن تعجيل الخير من الخير ومضاعفاته (وانظر ما اجتمع عندك من مال الله الخ). فأنفقه على المصالح العامة والمحاييج من أهل البلاد التي جمع منها المال ، فإنها أولى من غيرها ، فإن تبقى منه شيء فأرسله إلينا لنوجهه الى وجهته .

بيوت مكة وبيعها وإيجارها :

اتفقت المذاهب الاسلامية قولاً واحداً ان مواضع النسك في مكة المكرمة لا تباع ولا تؤجر كمحل السعي والرمي ، واختلفوا في بيوت مكة : هل تباع وتؤجر ؟. وعن مالك وأبي حنيفة المنع ، وعن الشافعي الجواز ، وعن أحمد روايتان . قيل : أصحابها المنع . وكما اختلف فقهاء السنة فيما بينهم اختلف كذلك فقهاء الشيعة . قال الشيخ الطوسي : لا يجوز البيع ولا الإيجار تماماً كما قال مالك وأبو حنيفة . وقال الشهيد الثاني في «المسالك» ما نصه بالحرف الواحد : «المشهور الجواز ، وعليه العمل ، وتسمية مكة مسجداً مجاز للحرمة والشرف والمجاورة» . وقال صاحب «الجواهر» ، أيضاً بالنص الحرفي : « ومن هنا كان المنع الجواز كما هو خيرة جماعة » قال هذا بعد أن مهد له بأنه لم يقف على شيء من طرق الشيعة يدل على المنع . ورواية المنع عن النبي (ص) سندها عبدالله بن عمرو ابن العاص .

ونحن مع الذين ذهبوا الى الجواز ، وان سألنا سائل : وماذا تصنع بقول الإمام هنا لعامله : (ومرو أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرآ) فإنه ظاهر في المنع وعدم الجواز ؟.

قلنا في جوابه : لو ان الإمام قال هذا وسكت دون أن يستدل بقوله تعالى :
 « سواء العاكف فيه والباد » - لكان هذا حجة متبعة يجب الأخذ بها . أما وقد
 استدل بالآية فلا بد من صرف الظاهر عن الحقيقة الى المجاز ، وحمل الأمر على
 الضيافة المستحبة ، لأن موضوع الكلام مختص بالمسجد الحرام ، والآية نص فيه ،
 ورد على المشركين الذين صدوا الناس عنه ، والتعبد فيه ، وهذه هي الآية كاملة :
 « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس
 سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه يلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم - ٢٥ الحج » .
 والمسجد الحرام شيء وبيوت مكة التي هو موضوع الكلام شيء آخر ، ولا
 صلة بين الاثنين لا موضوعاً ولا حكماً ، ولا أي شيء سوى علاقة الجوار ، وهي
 تصلح للاستحباب لا للوجوب ، أي لصرف الظهور عن الحقيقة ، وهي الإلزام ،
 الى المجاز ، وهو الرجحان .

الرسالة

- ٦٧ -

الى سلمان الفارسي :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسْهُا ، قَاتِلٌ شُتْمًا ، فَأَعْرِضْ
عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَتَقَنَّتْ
مِنْ فِرَاقِهَا . وَكُنْ آتِسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا . فَإِنَّ
صَاحِبَهَا كُلَّمَا أَظْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورِ أَشْخَصَتَهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ .

اللغة :

أشخصته : صرفته .

الإعراب :

مسها مبتدأ مؤخر ، ولين خبر مقدم ، واسم كن ضمير مستتر ، وآتس حال
منه ، واحذر خبر كن .

هذه الرسالة :

بعث الإمام بها الى سلمان قبل أيام خلافته ، كما قال الشريف الرضي ، ولا شيء فيها سوى التحذير من الدنيا ، وانها كالحية لينة المسّ قاتلة السم .. وخطب النهج - كما رأيت - متخمة بدم الدنيا وغدرها ، والتحذير من شرها وضررها بلا حدود .. وتقدم ذلك عشرات المرات بأساليب شتى ، وشواهد كثيرة ، وكل ما في هذه الرسالة تكرار وتوكيد خوف الدهول والإهمال .. لذا نصرف الكلام عن الشرح الى اشارة موجزة وسريعة عن سلمان ، عليه أفضل التحيات ، وأكمل الصلوات .

نسبه :

هو من نسل الملوك ، وجدّ آبائه « منوچهر » مؤسس الدولة الثانية من دول الفرس القديمة ، ولكن سلمان يرفض الانتساب لغير الاسلام ، وكان يقول : أنا ابن الاسلام ، أعتقني الله بمحمد ، ورفعتني بمحمد ، وأغناني بمحمد ، وصلى الله على محمد وآل محمد ، فهذا حسبي ونسبي . وأقره محمد على هذا الحسب والنسب وقال : سلمان منا أهل البيت . وكان يقال له : سليمان المحمدي ، وسلمان الخير ، وسلمان الحكمة والعلم ، وسلمان باك أي النظيف في لغة الفرس ، والطيب والطاهر ، وصاحب الكتابين : القرآن والانجيل .

مكائنه :

كان من رؤوس الصحابة ، وأقطابهم علماً وتقى وجهاداً ، وكان عند رسول الله (ص) الخليل الأثير . قال ابن عبد البر في « الاستيعاب » ج ٢ ص ٥٦ طبعة ١٩٣٩ : « قالت عائشة : كان لسلمان مجلس من رسول الله (ص) ينفرد به في الليل حتى كان يغلبنا عليه » .. وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي انه قال : « أمرني ربي بحب أربعة ، وأخبرني انه يحبهم ، وهم علي وسلمان وأبو ذر والمقداد » . وعن الإمام أمير المؤمنين انه قال : أنا سابق العرب ، وسلمان سابق الفرس ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبش ، وخباب سابق النبط .

زهدہ :

كان راتبه من بيت المال في العام خمسة آلاف ، يتصدق بكامله ، ويأكل من كدّ اليمين ويقول : لا أحب أن آكل إلا من عمل يدي عملاً يقول نبي الرحمة : ما أكل أحدكم طعاماً قط خيراً من عمل يده ، وكانت له عبادة ، يجعل بعضها غطاء ، وبعضها الآخر وطاء .

زوجته وأولاده :

تزوج عربية توفيت في حياته ، فتزوج عجمية ومات عنها ، وله ستة أولاد : ثلاثة ذكور عبدالله وقد أعقب ، ومحمد أيضاً أعقب ، ومن نسله علماء وشعراء ، وكثير ، ولا يُعرف له عقب . وثلاث بنات : واحدة كانت بأصفهان ، ولها عقب ، واثنان كانتا بمصر .

وفاته :

انتقل الى ربه سنة ٥٣٥ هـ ، ودفن في البلدة المعروفة بسلطان باك على ضفاف دجلة الشرقي ، وتبعد ثلاثة فراسخ من بغداد ، ويؤم قبره الشريف ألوف الزائرين من كل فج ، وكنت منهم سنة ١٩٦٤ م .
وكتبت عنه مطولاً في كتابي « مع علماء النجف » وأشرت اليه والى تكوينه النقابة العمالية في شرح الخطبة ١٦٠ فقرة « سلمان والنقابات » . أما المصادر التي اعتمدت عليها في إشارتي هذه فهي شرح ابن أبي الحديد ، والاستيعاب لابن عبد البر ، وسلمان المحمدي للشيخ عبد الواحد المظفر .

الرسالة

- ٦٨ -

الى الحارث الهمداني .. فقرة ١ - ٢ :

وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَأَنْتَصِيحُهُ . وَأَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ ،
وَصَدَّقَ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ . وَأَعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا مَا بَقِيَ مِنْهَا
فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضًا ، وَآخِرُهَا لَاحِقُ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَاقِلٌ
مُفَارِقٌ . وَعَظَّمَ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَثْبَرِ ذِكْرَ
الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ . وَأَحْذَرِ
كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ^(١) . وَأَحْذَرِ
كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ . وَأَحْذَرِ كُلَّ
عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوْ أَعْتَذَرَ مِنْهُ . وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ
غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْلِ ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ فَكَفَى بِذَلِكَ

كَذِبًا ، وَلَا تَرُدُّ عَلَى النَّاسِ كُلِّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .
وَأَكْظِمِ الْغَيْظَ وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَأَحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَأَصْفَحْ
مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ . وَأَسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ .
وَلَا تُضِيعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ ، وَلَيْزَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ
بِهِ عَلَيْكَ ^(٢) .

اللغة :

استنصحه : عده ناصحاً . وحائل : متغير . والعرض - بكسر العين - ما
يصونه الإنسان من نفسه . والمراد بالدولة هنا السلطة والمقدرة .

الإعراب :

المصدر من أن تذكره مجرور بباء محذوفة أي عظم الله واسم الله بذكره له
على الحق ، وكفى فعل ماضٍ ، والباء زائدة ، وذلك فاعل ، وكذباً تمييز ،
وتكن مضارع مجزوم بجواب الطلب .

المعنى :

الحارث الهمداني من أصحاب الإمام المقربين ، والصفوة من شيعته ، ومن
ذوي الأقوال والاجتهاد في الفقه والفتيا . وقال له الإمام ، كما في سفينة البحار :
« أبشرك يا حارث ، إنك لتعرفني عند المات ، وعند الصراط ، وعند الخوض » .
وهذا معنى قوله بمناسبة ثانية : يا حارث همدان ، من يمت يركني . وعن الشيخ البهائي
أنه قال : هو جدنا .

(وتمسك بحبل القرآن الخ) .. اعمل بأحكامه ، واعتبر بمواعظه ، وانتفع

بأخباره عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، فنها تقشعر الجلود ، ولها تلين القلوب .
وتقدم الحديث عن القرآن مرات ، منها في الخطبة ١٨١ والرسالة ٤٦ (واعتبر بما مضى الخ) .. الماضي من الدنيا موت ودمار ، والآتي كالحاضر ، والحاضر كالداير (وعظم اسم الله الخ) .. بذكره كشاهد ودليل على حلاله وحرامه ، وفي يمين صادقة ، وعبادة مخلص ، وحسنة لوجهه الكريم ، عظمه طاعة لأمره ، وتقديساً لجلاله ، وابتعد بذكره عن الكذب والشر إلا أن تعوذ به من كل سوء تماماً كما تلجأ إليه عند الخوف والقلق .

(ولا تموتن إلا بشرط وثيق) وهو الإسلام ، والعمل به والإخلاص له وللمسلمين . قال سبحانه : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون - البقرة ١٣٢ » .
(واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه الخ) .. لا تقيس الخير من أفعالك بما اشتهيت وأحببت ، بل بما فيه خدمة للدين والحياة ، ويتفق مع الصالح العام ، ولا يضر بإنسان (واحذر كل عمل الخ) .. يكون سبة عليك ولعنة دنيا وآخرة (ولا تحدث الناس بكل ما سمعت) الخ .. أكثر ما ترى غير نافع ، وجل ما تسمع كذب ، فإن حدثت بكل ما رأيت وقعت في اللغو والعبث ، أو بكل ما سمعت كنت من الكاذبين الا إذا أسندت القول الى قائله .

(ولا ترد على الناس كل ما حدثوك به الخ) .. اصبر نفسك على كلام الناس جيداً كان أو رديئاً ، ولا تمتعضن منه ، وإن كنت على علم به ، واذا أحسست بثقله وكراهيته فمأسك ، وإن استطعت أن لا يظهر الكلوح والقطوب على وجهك فافعل (وتجاوز عند المقدرة الخ) .. عن أساء ، فإن العفو زكاة الظفر ، وأقرب للتقوى ، وأدعى للصفاء وراحة البال (واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك الخ) .. بالشكر والتواضع والبذل والاخلاص ، فإن الله سبحانه يحب من عبده أن يحدث له شكراً اذا أحدث له نعمة : « ثم لتسألن يومئذ عن النعم - ٨ التكاثر » .

الصاحب معتبر بصاحبه .. فقرة ٣ - ٤ :

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِيمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ،
فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمُ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَى لَكَ ذُخْرُهُ وَمَا تُؤَخِّرُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ
خَيْرُهُ . وَأَحْذَرُ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ وَيُنْكِرُ عَمَلُهُ فَإِنَّ الصَّاحِبَ
مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ . أَسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ .
وَأَحْذَرُ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقَلَّةِ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ . وَأَقْصُرْ
رَأْيَكَ عَلَى مَا يَغْنِيكَ ، وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ
وَمَعَارِضُ الْفِتَنِ ^(٣) . وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فَضَّلْتَ عَلَيْهِ . فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ . وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ
الصَّلَاةَ إِلَّا فَاِصْلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعَذِّرُ بِهِ . وَأَطِعِ اللَّهَ
فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا . وَخَادِعُ
نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَأَرْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرَهَا . وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا
إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا
وَتَعَاهِدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا . وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آتِقٌ مِنْ
رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا . وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ فَإِنَّ الشَّرَّ بِالْشَّرِّ
مُلْحَقٌ . وَوَقِّرِ اللَّهَ وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ . وَأَحْذَرِ الْغَضَبَ فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ
مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ، وَالسَّلَامُ ^(٤) .

اللغة :

التقدمة : البذل والفداء . ويفيل : يخطيء ويضعف .. ومعارض : جمع معراض نوع من السلاح ، والمراد به هنا مجرد الضرر . وعفوها : فراغها : وآبق : هارب .

الإعراب :

تقدمة تمييز ، وما تقدم «ما» شرطية تجزم فعلين ، وتقدم فعل الشرط، ويبق جوابه ، وإياك مفعول لفعل محذوف ، والأصل أحذرک .

مقياس العظمة عند الإمام :

(واعلم ان أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمه الخ) .. الناس درجات متفاوتات، ومنازل متفاوتات دنيا وآخرة ، ما في ذلك ريب ، ولكن على أساس العمل الصالح النافع للفرد والمجتمع .. وأيضاً الطيبون الصالحون على درجات متفاوتات عالية وأعلى ، والعبرة هنا بمقدار البذل والعطاء من النفس والأهل والمال ، كما قال الإمام وصرح بقوله : « من نفسه وأهله وماله » . ويدلنا هذا ان العظمة عند الإمام لا تقاس بمجرد الإيمان والعبادة ، أو بالعلوم والفلسفات ، أو بمجرد حب الخير ، ولا بالبطولات والخارقات ، ولا بكثرة المال والرجال ، بل بالإيمان مع التضحية بالنفس والمال والأهل من أجل الإنسان وخدمة الإنسان وحياته وسعادته، وان لكل عند الله والناس بمقدار ما أعطى من جليل وجميل .

(واحذر صحابة من يفيل رأيه ، وينكر عمله الخ) .. الفضيلة ضد الرذيلة، وعدوها الألد ، فإذا أنت صحبت الخبيث المنحط في أخلاقه ، وارتاحت اليه نفسك كان معنى هذا انك عدو الخير والفضيلة ، وان نفسك لا ترتاح أبداً إلا للخبائث والرذائل تماماً كحشرة القذارات « والخبيثون للخبيثات » .

(واسكن الأمصار العظام الخ) .. اذا سكنت المدن الكبرى رأيت منجزات الحضارة ، ومقدرة الانسان على الاختراع ، ورأيت التفاوت بين الناس في عيشهم وحياتهم من ثراء فاحش الى فقر قاتل، ومن مواخير للدعارة الى صروح للعبادة ..

الى كثير من صور الحياة المتنافرة المتناقضة .. فتأخذ درساً نافعاً مما ترى — على الأقل — وتعلم ان وراء دنياك دنيا أعرض وأعمق .. وقرأت لصحفيّ زار جزيرة هونغ كونغ ، ومن جملة ما قال في وصفها : فيها أفخم السيارات ، وفيها العربات يجرها الإنسان بدلاً عن الحيوان ، وفيها الذهب الأصفر ، وفيها ناس وجوههم كالذهب الأصفر من البؤس ، وفيها الناطحات للسحاب ، والناطحون للأرض .

(وأقصر رأيك على ما يعينك) دع الفضول والتطفل ، وانصرف لشأنك (وإياك ومقاعد الأسواق الخ) .. لأن فيها سميرات ومساومات ، وغشاً ورباً ، وبداءات وخصومات على الحقيق واليسير من متاع الدنيا (وأكثر أن تنظر الى الخ) .. من هو دونك لترى نعمة الله عليك ، فتشكر وتتواضع .. ولكن كثيراً من الأغنياء إذا رأوا من دونهم مالا أخذتهم العزة بالإثم ا .

التعطيل يوم الجمعة :

(ولا تسافر في يوم جمعة حتى تشهد الصلاة الخ) .. لا يجب التعطيل في يوم الجمعة ، بل ولا يستحب أيضاً إلا عند الصلاة فقط .. وبعد ما يستحب العمل وطلب الرزق ، وهو تماماً كالصلاة وسائر العبادات من حيث الأجر والثواب ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تعلمون — ١٠ الجمعة .

أمر سبحانه بترك العمل عند النداء للصلاة والسعي الى ذكر الله .. وبعد أداء الصلاة على وجهها أمر بالسعي وتحصيل الرزق وسؤال الله من فضله عن طريق العمل ، ومعنى هذا ان السعي يوم الجمعة من أجل الحياة مأمور به تماماً كسائر الأيام ، بل هو عبادة تماماً كالسعي الى الصلاة ، لأن الأمرين معاً جاءا جنباً الى جنب في سياق واحد ، وكل منهما نُسب الى الله : « فاسعوا الى ذكر الله .. وابتغوا من فضل الله » . وهنا تكمن عظمة الاسلام وحقيقة الإسلام حيث أمر بالعمل للمادة والروح ، لأن الإنسان انسان بهما لا بإحدهما : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً — ٤٦ الكهف » .. بنون ومال وعبادة وسعي للحياة وللمعبد ، والكل من الله والله ، ولا شيء لقيصر .

(وخادع نفسك في العبادة) اصرفها أو شككها فيما تهوى وتميل اليه، وأغرها بالعمل الصالح ، وقل لها : هو خير لك وأبقى (وارفق بها ولا تقهرها الخ) ..
 إلا على الفرائض ، كالصلوات الخمس والصيام والحج والزكاة ، واترك لها الخيار فيما عدا ذلك ، وتقصد مثله في شرح الرسالة ٥١ و ٥٢ (وإياك أن ينزل بك الموت الخ) .. إلا بشرط وثيق ، كما قال الإمام في هذه الرسالة بالذات (وإياك ومصاحبة الفساق الخ) .. فإن صاحب معتبر بصاحبه ، أيضاً كما قال في هذه الرسالة نفسها (واحذر الغضب فإنه الخ) .. جمرة الشيطان يوقدها في القلوب ، ليخرج الناس عن دينهم وعقولهم . وفي الحديث : « من كف غضبه ستر الله عورته » لأن العيوب تظهر ساعة الغضب .

الرسالة

- ٦٩ -

الى سهيل بن حنيف :

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِّنْ قِبَلِكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدِيدِهِمْ وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ . فَكَفَى لَهُمْ غِيًّا وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًا ، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهَدْيِ وَالْحَقِّ وَإِضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْنَا وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ أَسْوَةً ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبُعِدَ لَهُمْ وَسُخِّقَ . إِنَّهُمْ وَاللَّهِ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرِ وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلِ . وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلَّلَ اللَّهُ لَنَا صَعْبُهُ وَيُسَهَّلَ لَنَا حَزَنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

قِبَلِكَ : عندك . ويتسللون : يهربون . والمدد : العون . وايضا عهدهم : اسراعهم . ومهطعون : مسرعون . والأثرة : الاختيار والاختصاص . والبعد

والسحق : بمعنى وهو الهلاك . والحزن - بفتح الحاء وسكون الزاي - ما غلظ من الأرض .

الإعراب :

غياً وشافياً نصب على التمييز ، وبعداً وسحقاً نصب على المصدرية ، والمصدر من أن يدلل مجرور بنفي محذوفة .

المعنى :

سهيل بن الحنيف الأنصاري هو أخو عثمان بن حنيف الذي كان والياً للإمام على البصرة حين غزاها أصحاب الجمل ، ونكلوا به ومثلوا ، وسبق الكلام عن ذلك ، وكان سهيل من أجل الصحابة المقربين ، قال ابن حجر العسقلاني في كتاب « الإصابة » : « كان سهيل من السابقين ، شهد بدرأ ، وثبت يوم أحد حين انكشف الناس - أي انهزموا عن رسول الله - وبايع يومئذ على الموت ، ومات بالكوفة ، وصلى عليه الإمام » . وفي سفينة البحار : « كان سهيل أحب الناس إلى الإمام ، ولما مات خرج في جنازته ، وجزع عليه جزعاً شديداً » . وكان قد بلغ الإمام أن جماعة من أهل المدينة لحقوا بمعاوية طمعاً في دنياه ، وكان سهيل والياً على المدينة ، فأسف وتألم ، فكتب إليه إمامه : (فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم النخ) .. كان الأنبياء يدعون دعوة الحق ، وقيمون الأدلة والبراهين على صدقها ، ويدعون الناس إلى الإيمان بها عن علم وقناعة بلا جبر وإكراه : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي - ٢٥٦ البقرة » . وهذا أمر طبيعي ، لأن العقيدة وممارسة الدين لا تكون ولن تكون إلا في ظل الحرية التامة ، وهي حق لكل إنسان ، فإذا اعتدى وأساء استعمالها تحمّل وحده التبعات والمسؤولية .

هذا هو مبدأ القرآن والرسول والإمام ، ولذا لم يُكره أحداً على بيعته ، ولا صدأ أحداً ممن بايعه عن النكت والذهاب إلى حيث يشاء تماماً كما لم يُكره النبي الكريم (ص) أحداً على الاعتراف بنبوته .

(فكفى لهم غياً) لقد اختاروا لأنفسهم طريق الغي والضلال ، وآثروه على الحق والهدى ، وسيجزى الله الذين أساءوا بما كانوا يعملون (ولك منهم شافياً) أي كفى شفاءً لغيظك منهم انهم من الهالكين ، وعبر الإمام عن الهلاك بقوله : (فرارهم من الهدى والحق ، وإيضاعهم الى العمى والجهل) لأن الفرار من الحق الى الباطل من أقوى أسباب العذاب .

(وإنما هم أهل الدنيا للنخ) .. تركونا لأننا نعدل في الرعية ، ونقسم بالسوية ، وذهبوا الى الدنيا والجور .. وما يضرهم إلا أنفسهم .. فعلام تذهب نفسك عليهم حسرات ؟ (وانّا لنطمع في هذا الأمر النخ) .. أي الخلافة ، وهي بيد الله تعالى ، ونحن لا نياس من رحمته تعالى ، وفي الوقت نفسه نرضى بقضائه ، ونصبر على بلائه .

الرسالة

- ٧٠ -

الى المنذر بن الجارود :

أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ صَلَاحَ أَيْكَ غَرَّتِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ
وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُفَّتِي إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ أَنْفِيَادًا ،
وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عِتَادًا ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ
عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ . وَلَيْتَنِي كَانَمَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجَمَلِ أَهْلِكَ
وَشَسَعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ
بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يَنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ
يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

هَدْيُهُ : سيرته . وَرُفَّتِي : رُفَعَتْ . وَالْعِتَادُ : اللُّخْبَرَةُ . وَشَسَعُ النَعْلِ : مَا
يَدْخُلُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنَ النَعْلِ الْعَرَبِيِّ .

الإعراب :

إذا فجائية ، وأنت مبتدأ ، وجملة لا تدع خير ، وفيما رقي متعلق بتدع ، ولئن اللام للتوطئة ، ولجمل اللام في جواب القسم الذي دلت عليه الواو ، واسم ليس ضمير مستتر يعود الى من كان وأهل خبر ليس ، والباء زائدة ، والمصدر من أن يسد مجرور بلام محذوفة ، ويؤمن على خيانة على حذف مضاف أي على دفع خيانة .

المعنى :

تحدث التاريخ عن عدل الإمام ، وشدة في الحفاظ على أموال الدولة.. وأيضاً تحدث هو نفسه حيث دعت الحاجة حين حاسب عامله عثمان بن حنيف على حضور وليمة ، وقال ، وهو يعظه ويخوفه : « إن إمامكم اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعمه بقرصيه .. وما أخذ من المال إلا كقوت أتانٍ دبيرة » كما جاء في الرسالة ٤٤ . وأقام الدنيا ولم يقعداً على رأس ابنته السيدة ام كلثوم ، لأنها تجملت بعقد من بيت المال كعمارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام ، وقال للخازن ابي رافع الذي أعارها العقد : أنخون المسلمين ؟.

وإذا كان هذا دأبه مع نفسه وأهله فهل يتسامح مع عماله ؟. بلغه عن عامله على اذربيجان بعض الشيء فأرسل يهدده كما في الرسالة ٥ ، ومثلها الرسالة ٣٩ و ٤٢ و ٤٤ والرسالة التي نحن بصدها ، والتي أرسلها للمنذر بن الجارود ، وكان والياً للإمام على بعض الأعمال وقال له :

(فإن صلاح أهلك غرني منك) كان أبو المنذر ، وهو الجارود بن خنيس ، نصرانياً ، فأسلم على يد رسول الله (ص) ولما قبض الرسول ، وارتد كثير من العرب حذر الجارود قومه من الارتداد ، وقال لهم : استمسكوا بدينكم ، وكان فيهم مطاعاً ، فاستمعوا له ، وعملوا بنصحه . ومن هنا قال الإمام لولده المنذر : ان صلاح أهلك غرني منك (وظننت انك تتبع هديه الخ) .. فخاب الظن ، وانقطع الأمل بعد أن سمعت انك لا تملك هواك ، وانك تبيع دينك بديناك (فإن كان ما بلغني عنك حقاً لجعل أهلك وشسع نعلك خير منك) . ان صح ما قيل عنك فقد أفسدت دينك ونفسيك ، واخترت لها الدل والهوان ، ولا يجديك نفعا كرم الأجداد ومروءة الآباء .

(ومن كان بصفتك الخ) .. من الحيانة، فما هو بأهل لأيسر الأمور وأحقرها
 (فأقبل إليّ حين يصل اليك كتابي هذا) للتحقيق ونقاش الحساب . وقال
 الشريف الرضي : والمنذر هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين (ع) : (انه لناظر
 في عطفه مختال في برديه) أي ينظر جنبيه يمينا وشمالا إعجاباً بنفسه وثيابه
 كالطاووس يتصفح ذنبه وجناحيه (تفأل في شراكه) يغسل حذاءه ببصاقه ليعتز
 به كما اعتز برديه .. وهكذا كل سخيّف مجوّف يسد ما في نفسه من فراغ
 بحذاء يلمع ، أو ثوب يخدع .

الرسالة

- ٧١ -

أيضاً ابن عباس :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقِ أَجَلِكَ وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ .
وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ
دُؤْلِ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ
لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

المعنى :

(لست بسابق أجلك الخ) .. لكل أجل كتاب ، ما في ذلك ريب ، ومع
ذلك علينا أن نحترس ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة .. وأيضاً الرزق مكتوب ،
ولكن عن طريق العمل والتدبير ، وسبق الكلام عن ذلك مرات ومرات .. وآمن
الناس على نفسه أكثرهم مسالة للناس ، وأبعدهم عن الشر والأذى ، وأوسعهم

غنى اقنعهم بما أوتي . وتقدم الكلام عن مثله في الخطبة ١١٢ والرسالة ٢١ ،
وقال ابن أبي الحديد : « تقدم شرح مثل هذا الكلام ، وهو معنى مطروق ،
وقال الناس فيه فأكثرُوا » . أجل ، ولكن ذم الدنيا والتحذير منها عند الإمام
عبادة تماماً كالصلاة .

الرسالة

- ٧٢ -

أيضاً الى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ وَأَلَا سِتْمَاعٍ إِلَى كِتَابِكَ لَمْوَهْنُ
رَأْيِي وَمُخْطَئِي فِرَاسَتِي . وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ
كَأَلَسْتَنْقِيلِ النَّائِمِ تَكْذِيبُهُ أَهْلَامُهُ . أَوْ أَلَمْ تُحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ .
لَا يَذَرِي آلَهُ مَا يَأْتِي أَمَّ عَلَيْهِ . وَلَسْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهُ .
وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْ لَا بَعْضُ الْإِسْتِيقَاءِ لَوَصَلْتَ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ
تَفَرُّعِ الْعَظَمِ وَتَهْلِسُ اللَّحْمِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ
تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ .

اللغة :

التردد : التردد . وتحاولني : تطالبني أو تحاول أن ألبيك . ويبهظه : يثقله .
والقوارع : الشدائد . وتهلس : تضعف . وثبطك : أخرك أو منعك .

الإعراب :

رأيي مفعول موهن ، وفراستي مفعول مخطيء ، والسطور منصوبة بنزع الخافض أي بالسطور ، وكالمستقل خبر انك ، وأله ما يأتي ، «له» خبر مقدم و «ما» مبتدأ مؤخر ، وغير نصب على الاستثناء .

المعنى :

عدنا الى أجوبة الإمام عن رسائل معاوية « وعادت حاله الراكدة » وهذه الرسالة الرابعة عشرة ، ولكن لا حياة لمن تنادي ، ولذا كتب اليه جواباً عن بعض ما سطر: (فلاني على التردد في جوابك الخ) .. لقد أكرتُ من قراءة الكلام في جواب رسالتك، وأراني مشتبهاً في ذلك ، لأنني أخطب جداراً بلا قلب وسمع. وبتعبير ابن أبي الحديد : « ألوم نفسي ، وأستضعف رأيي حيث جعلتك نظيراً تكتب وأجيب ، وتجب وأكتب ، وكان الأولى أن لا أجيبك لهوانك » .

(وانك إذ تحاولني الأمور - الى - شبيه) . المراد بالأمور هنا ولاية الشام، والنص عليه بولاية العهد ، والمعنى انك يا معاوية تلف وتدور ، وتكتب السطور لعلك تجد عندي أمينتك ، وقد زجرتك وحذرتك فلم تياس .. وإن دل هذا على شيء فلأنما يدل على ان شهوة السيطرة والحكم قد أعمت قلبك وحطمت أعصابك حتى صرت كالنائم نوماً عميقاً ، وقد رأى في منامه انه نال ما تمنى .. حتى اذا استيقظ لم يجد شيئاً فطار صوايه ، وفقد رشده ، أو كالقلق التائه المضروب على رأسه يقول ويفعل ، ولا يدري : هل الذي حدث منه خير أو شر ، لعنة عليه أو رحمة له ؟ (ولست به غير انه بك شبيه) أي ما أنت كذلك حقيقة، ولكنك شبيه بالنائم والمتحير .

(وأقسم بالله الخ) .. لو أردت القضاء عليك لفعلت، ولدي أكثر من وسيلة لهذه الغاية ، ولكن أدع الأمور تأخذ مجراها (واعلم ان الشيطان قد ثبطك الخ) .. تقمص روحك وجسمك ، ولم يبق فيك أي أمل للخير والهداية . ولا تضر بذلك أحداً سواك .

الرسالة

- ٧٣ -

بن ربيعة واليمن :

هَذَا مَا أَجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ : حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ :
حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ
وَيُحِبُّونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ . لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا وَلَا يَرْضُونَ
بِهِ بَدَلًا ، وَأَنَّهُمْ يَدُّ وَاحِدَةً عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ . أَنْصَارُ
بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ . لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمُغْتَبَةِ عَاتِبٍ
وَلَا لِمُغْضَبٍ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْمًا وَلَا لِمُسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْمًا .
عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَسَفِيهِمُومُهُمْ وَعَاجِلُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا .
وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

اللغة :

الحاضر : ساكن الحضر . والبادي : ساكن البادية . والمعتبة : الملامة .

الإعراب :

هذا مبتدأ ، وما اجتمع خبر ، والمصدر من انهم على كتاب الله بدل من « ما » وعلى كتاب الله متعلق بمحذوف خبراً لأنهم ، وبعضهم مبتدأ مؤخر ، وأنصار خبر مقدم ، وبعض متعلق بأنصار ، وأصل الكلام بعضهم أنصار لبعض .

المعنى :

(هذا ما اجتمع عليه أهل اليمن حاضرها وباديا، وربيعه حاضرها وباديا الخ).
كل البطون التي تنتهي الى قحطان بن عامر تسمى اليمن ، والتي تنتسب الى ربيعة بن نزار تسمى ربيعة ، وكان بينهما حروب وأصغان في الجاهلية ، فألف بينهما الإسلام ، وتأكدت هذه الألفة على يد الإمام ، وكتب بينهم هذا العهد ، ومضمونه أن يكونوا يداً واحدة في نصره الاسلام ، والدعوة اليه ، والعمل به ، وأن يقفوا صفاً واحداً بقلوبهم وسيوفهم مع من يدعو الى الاسلام والحق ويأمر به ويدافع عنه كما قال : (ويجيبون من دعا اليه) وكأنه يعني بهذا نفسه الشريفة ، لأنها أظهر وأكمل من ينطبق عليه هذا الوصف بعد رسول الله (ص) .

(لا يشتركون به ثمناً الخ) .. قليلاً ولا كثيراً ، ويتعاونون على الوفاء بهذا العهد ، ويقصدونه قولاً وعملاً حتى ولو عتب واحد منهم على الآخر ، أو غضب عليه ، أو ظلمه ، لأن هذه الأمور تحدث بين الأرحام والأصدقاء ، ويتعذر الاجتناب عنها - في الغالب - ويمكن تسويتها بالحب والسلم بلا حرب

وضرب (على ذلك شاهدتهم وغائبهم الخ) .. هذا العهد يعم ويشمل الجميع
بلا استثناء .. وليس للغائب أن يرد ، وللجاهل أن يختار ، وللعالم أن يتأول ،
وللحليم أن يتجاهل (ثم ان عليهم بذلك عهد الله وميثاقه) هذا العهد في
عنقهم ، وهم وحدهم المسؤولون عن الوفاء به أمام الله والناس ، ولا يسمع عذر
من متعلل .

الرسالة

- ٧٤ -

أيضاً الى معاوية :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ :
أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ
مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ . وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَذْبَرَ مَا
أَذْبَرَ وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ ، فَبَايَعَ مَنْ قَبْلَكَ وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ .

المعنى :

هذه هي الرسالة الخامسة عشرة والأخيرة بالنسبة الى ترتيبها وتدوينها في « نهج
البلاغة » ، وقد كتبها الإمام يوم بويغ بالخلافة ، وابتدأها بقوله : (من عبدالله
علي أمير المؤمنين الى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد فقد علمت اعذارى فيكم)
أيام عثمان بالنصح له أن يرجع عن أخطائه ، وبالدفاع عنه حين حوضر بنفسه
وبولسدي الحسن والحسين (واعراضى عنكم) أي عن إساءاتكم المتكررة إلي
والي غيري .

(حتى كان ما لا بد منه) من قتل عثمان (ولا دافع له) من إجماع الصحابة

على مبايعتي بالخلافة ومعهم جمهور المسلمين إلا من شذّ ، وأنت وكل الناس يعلمون أنني رفضت ومانعت ، وقلت لهم فيما قلت : دعوني والتمسوا غيري فأبوا وأصروا . وتقدم مع الشرح في الخطبة ٩٠ (والحديث طويل ، والكلام كثير) فيكم وفي عثمان يا بني أمية (وقد أدبر ما أدبر) ولا جدوى من الكلام عما أصبح في خبر كان ، فلندع حسابه لله وحده (وأقبل ما أقبل) المهم الحاضر والمستقبل ، وإصلاح المسلمين والقضاء على الفتن باجتماع الشمل وتوحيد الكلمة . وذلك بأن تبايعني ، وتأخذ لي البيعة من أهل الشام كما فعل الصحابة وجمهور المسلمين حتى نعمل يبدأ واحدة بما لله فيه رضى ، ولهذه الأمة خير وصلاح (وأقبل لى في وفد من أصحابك) بروح صادقة لا غش فيها ولا طمع ، ونية خالصة لله وعباده . قال ابن أبي الحديد : « كيف يبايع معاوية وعينه طامعة الى الملك والرياسة منذ أمّره عمر على الشام ؟ » .

وليس من شك ان محمداً (ص) لو كان مكان علي ، ومعاوية في وضعه من أهل الشام الذين هم أطوع اليه من نعله على حد تعبير ابن أبي الحديد - لفعل نفس الشيء الذي فعله مع علي بن أبي طالب .. بل سبق أن فعلها هو وأبوه مع رسول الله (ص) في بدر وأحد والأحزاب .

الرسالة

- ٧٥ -

أيضاً لابن عباس :

سَعِ النَّاسَ بِوُجْهِكَ وَتَجَلَّسِكَ وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ
طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ . وَأَعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ،
وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ .

المعنى :

حين أسند الإمام ولاية البصرة الى عبدالله بن عباس أوصاه بقوله : (سعي الناس بوجهك أي ابسط لهم وجهاً رحباً لا عبوس فيه ولا قطوب (ومجلسك) تواضع في جلوسك كما تتواضع في مشيك وجميع حركاتك (وحكمك) أي اعدل في حكمك (وإيائك والغضب) إلا لله والحق (فإنه طيرة من الشيطان) والطيرة - بكسر الطاء - الخفة وعدم الثقل والوزن ، والمعنى ان الإنسان عند الغضب يصير العوبة بيد الشيطان يملكه ويتمكن منه ، ولا يدع له قوة ولا عقلاً ولا إرادة (ان ما قربك من الله يباعدك من النار) . وهذا من البدهة بمكان تماماً كقولك : كلما تقدمت في العلم بعدت عن الجهل ، ولا يحتاج لإثباته الى قياس مؤلف من صغرى وكبرى ، كما فعل بعض الشارحين .

الرسالة

- ٧٦ -

أيضاً لابن عباس :

لَا تُخَاصِمُهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَلٌ ذُو وَجْهِ تَقُولُ وَيَقُولُونَ ،
وَلَكِنْ حَاجِبُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا حَيْصاً .

المعنى :

في شرح الخطبة ٤٠ فقرة « موقف الإمام من الخوارج » تكلمنا عنهم وعن
أهدافهم ، وأيضاً تعرضنا لهم في شرح الخطبة ١٢٣ وغيرها . وكان الإمام يأبى
قتال الخوارج إلا بعد اليأس ، وأثر أن يلقاهم مجادلاً ، لا مجالداً ، وخرج اليهم
في ذات يوم ، وقال لهم : اختاروا رجلاً يسألني وأنا أجيب ، ومن لزمته الحجة
اعترف وقاب . فاختاروا إمامهم ابن الكواء ، فكواه الإمام وألقمه حجراً ، ولكنهم
أصروا على العناد ، وأيضاً بعث اليهم ابن عباس لينظرهم ويأخذ عليهم بالحجة
وقال له :

(لا تخاصمهم بالقرآن ، فإن القرآن حمل ذو وجه) ظاهره أئنيق ، وباطنه
عميق لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفي غرائبه ، كما وصفه الإمام في الخطبة ١٨ وقد
رأينا جماعة من شيوخ الفقه ومذاهبه يستدلون بآية من آي الذكر الحكيم على وجوب

فعل من الأفعال ، وآخرين يستدلون بالآية نفسها على عدم الوجوب ، كآية السادسة من سورة المائدة الواردة في الوضوء ، والآية ٢٤ من سورة النساء الواردة في تحريم الزواج بالنسب والمصاهرة والرضاعة ، الى غير هاتين من الآيات .

(ولكن حاجتهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً) أي مهرباً . قال ابن أبي الحديد : « أشار بهذا ليحتج عليهم بحديث علي مع الحق ، والحق مع علي يدور معه حيثما دار . وحديث : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، ونحو ذلك من الأخبار التي سمعها الصحابة من فم رسول الله (ص) وقد بقي منهم جماعة تثبت بهم الحجة » .

وحديث علي مع الحق رواه الترمذي في صحيحه ج ٢ ص ٢٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ كما في كتاب « فضائل الخمسة » وعبد الرحمن بن الجوزي في « صيد الخاطر » ص ٣٨٥ مطبعة السعادة دار الكتب الحديثة بمصر . أما حديث من كنت مولاه..فهو من المتواترات عند الشيعة والسنة، ومنهم الترمذي وابن ماجه وابن حنبل والنسائي وغيرهم . أنظر كتاب « الغدير » للأميني .

الرسالة

- ٧٧ -

الى أبي موسى الأشعري :

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ فَأَلَوْا مَعَ الدُّنْيَا
وَنَطَقُوا بِالْهَوَى ، وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنَزِلًا مُعْجِبًا أَجْتَمَعَ
بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، فَأَيُّ أَدَاوِي مِنْهُمْ قَرَحًا أَخَافُ أَنْ
يَكُونَ عَلَقًا ، وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَأَعْلَمُ - أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةٍ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْفَتَمَاءِ مِنِّي ، أَسْتَبْغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ
وَكَرَمَ الْمَنَاقِبِ . وَسَأُنِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَغَيَّرَتْ عَنْ صَالِحِ
مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ
وَالْتَجَرِبَةِ ، وَإِنِّي لَأُعْبِدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ يَبَاطِلُ ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْرًا قَدْ
أُصْلَحَهُ اللَّهُ ، فَدَعُ مَا لَا تَعْرِفُ فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ
بِأَقْوَابِلِ السُّوءِ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

معجباً : يدعو للتعجب . وقرحاً : جرحاً . وعلقاً : دماً غليظاً وفاسداً .
والمآب : المرجع . ووأيت : وعدت وتعهدت . وأعبد : آنف .

الإعراب :

أحرص خبر ليس ، واعلم جملة معترضة ، ومني متعلق بأحرص .

المعنى :

رشح الإمام للتحكيم عبدالله بن عباس ، فقال معاوية : كلا ، ان له قرابة قريبة من علي .. هذا مع العلم ان ابن العاص شريك في الغنيمة مع معاوية ، ذهب الى التحكيم وفي جيبه صك بمصر من معاوية .. ولا أدري كيف سكت أصحاب الإمام عن ذلك ؟ .. اللهم إلا أن يكون بعض الرؤوس متآمرين مع معاوية .. ومهما يكن فقد رفض أصحاب الإمام ابن عباس ، وأكروهوا إمامهم على ترشيح الأشعري الذي يريده معاوية ، ولا يرضى بغيره .

ويقال : إن البعض ذكر اسم أبي الأسود الدؤلي للتحكيم كبديل عن ابن عباس والأشعري ، ولكن تم الاتفاق على أبي موسى . وروي عن الشعبي انه قال : « ما كان أعف أطراف أبي الأسود وأحضر جوابه ا . دخل على معاوية يوماً بعد أن استقام له الأمر ، فقال له : أكنت ذكرت للحكومة ؟ قال : نعم . قال : ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أجمع ألفاً من المهاجرين وأبنائهم ، وألفاً من الأنصار وأبنائهم ، ثم أقول : يا معشر من حضر أرجل من المهاجرين أحق أم رجل من الطلقاء ؟ فقال له معاوية : الحمد لله الذي كفأك .

وبعد اجتماع الأشعري وابن العاص وقبل اعلان الحكم كتب الإمام لأبي موسى الأشعري يقول : (فإن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم) أي من دينهم ، والمراد بالناس هنا الصحابة ، ومنهم الأشعري ، وقول الإمام : « تغير كثير منهم » يشير الى ما رواه البخاري في الجزء التاسع من صحيحه

كتاب الفتن : إن رسول الله (ص) يقول يوم القيامة : أي ربي أصحابي .
فيقول له : لا تدري ما بدلوا بعدك . فيقول النبي (ص) : سحقاً سحقاً لمن بدل
بعدي .

(واني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً) المراد بهذا الأمر الخلافة، ومعجباً أي
يدعو للتعجب ، وذلك لأنه قد (اجتمع به أقوام أعجبهم أنفسهم) أي كان
المفروض ، وأنا خليفة المسلمين ، اني إذا أبرمت أمراً أن يطيعوني فيه . ولكن
الله سبحانه قد ابتلاني بأصحاب مغرورين لا تعجبهم إلا آراؤهم ، فيعترضون
كلما رأيت رأياً ، كما حدث حين اخترت ابن عباس للتحكيم ، فأبوا إلا أبا موسى
الأشعري .

(فلاني أداوي منهم قرحاً أخاف أن يكون علقاً) أنا حائر في أمر هؤلاء
الأصحاب لا أدري كيف أعالجهم من غرورهم ؟ فالخسنى لا تجدي معهم نفعا ،
والقوة تزيدهم فساداً وعناداً ، وتشتت جمعهم .. ان حالي معهم تماماً كحال
الطبيب الذي يحاول أن يعالج جرحاً، وفي الوقت نفسه يخشى إذا حرك منه ساكناً
أن يتحول الى علق يسمم البدن بكامله .

(وليس رجل - الى المآب) لا استعمل القوة مع أصحابي خوفاً من الفتنة
واختلاف الكلمة بين المسلمين ، وأنا حريص على الألفة والتعاون على الصالح العام
طلباً لرضا الله وثوابه .

(وسأني بالذي وأيت على نفسي) رضيت بك مكرهاً - يا أبا موسى -
ومع ذلك سأني لك ، ولا أغير وأبدل إلا إذا غيّرت أنت وانحرفت (وان
تغيرت عن صالح ما فارقني عليه) من يقطتك وحلرك من كيد ابن العاص ومكره ،
ووقوفك الى جانب الحق وأهله (فإن الشقي من حرم الخ) .. ان خدعك
ابن العاص فأنت أشقى من عليها لأنك ، وهذه هي حالك ، تكون بلا عقل
وعلم ، وأضحوكة وألعوبة لابن العاص .. وقد حدث ما قاله الإمام ، وأصبح
أبو موسى مثلاً للبلالة والجهالة مدى الدهر .

(واني لأعبدُ أن يقول قائل بباطل) أنا أكره الباطل من غيري ، فكيف
أفعله ولا أنكره من نفسي ؟ (وأن أفسد أمراً قد أصلحه الله) اذا أنت أخلصت
لله، وتوخيت صلاح المسلمين - يا أبا موسى - فأنا أول المقرين لعملك والشاكرين

لفضلك ، وكيف أرفض الصلح والصلاح للمسلمين ، وفيه رضى الله ورسوله
 (فدع ما لا تعرف) الى ما تعرف أي لا تتفوه بكلمة ، أو تأتني بحركة إلا
 وأنت على يقين من صوابها ورضى الله بها، ومثله دع ما يريك الى ما لا يريك
 (فإن شرار الناس طائرون اليك بأقاويل السوء) المراد بشار الناس هنا ابن العاص
 وأضرابه ، والمعنى ان هؤلاء يوسوسون في صدرك بالكاذب والأضاليل
 فاحذرهم .

الرسالة

- ٧٨ -

الى أمراء الجند :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ،
وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَأَقْتَدَوْهُ .

المعنى :

يقول الإمام للقادة مخوفاً ومحدّراً : ان الله سبحانه أخذ القادة الأقوياء من
الأمم الماضية ، أخذهم بغتة بالنكال للأميرين : الأول انهم كانوا يحولون بين الحق
وصاحبه ، ولا يمكنونه منه إلا إذا دفع رشوة .. حتى كأن الحق لهم ، وهو
يشتره بما يرضون عليه من الثمن .

الثاني ان القادة كانوا يفعلون المنكر ويأمرون الناس بفعله ، فيستجيبون ويستسلمون ،
وكان عليهم أن يرفضوا ويثوروا . لذلك يضع سبحانه غداً التابع والمتبوع في
مستوى واحد : « وقالوا - أي التابعون - ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا
فأضلونا السبيل ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً وبهلاً - ٦٨ الأحزاب .
فقال سبحانه في آية ثانية : « لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون - ٣٨ الأعراف .
أي كان على المستضعفين أن يثوروا ولا يستسلموا .. ولما رضوا بالقعود أذاقهم
سبحانه ما كانوا يكسبون .

وهو ، جلت كلمته ، المسؤول أن يهدينا سواء الصراط بمحمد وآله صلوات
الله عليهم أجمعين .

جوامع الكلم

والمعاني الكبار في الكلمات القصار

تمهية

حقائق السالفة :

ينقسم نهج البلاغة بمجموعه الى ثلاثة أقسام : خطب ، ورسائل ، وحكم ،
وانتهى شرح القسم الأول والثاني بتوفيق الله وعونه ، وبقي القسم الثالث ، وهو
أكثر صلة بالحياة من السابقين ، لأن كلماته مرآة صافية تعكس حقيقة الانسان
وتجاربه وأفعاله من حيث هو انسان بلا حد من زمان أو مكان ، أو قيد بمحادثة
واقعة معينة ، كواقعة الجمل أو صفين ، وغيرهما من الوقائع التي تكرر الحديث
عنها في الخطب والرسائل .. إن الحكم الآتية حقائق يتمثلها كل انسان في نفسه ،
ويحياها في سلوكه وأفعاله ، وينفعل بها روحاً وجسماً .

العلوم وهذه الحكم :

ولهذه الحكم صلة وثيقة بطائفة من العلوم ، لأنها تتعلق بالانسان من حيث
هو ، كما أشرنا ، والانسان يُبحث عنه في علم التاريخ وعلم الطب ووظائف
الأعضاء ، وعلم النفس والأخلاق والاجتماع ، والفقه والفلسفة ، وغير ذلك من
العلوم . وعلى سبيل المثال من هذه الحكم قوله (ع) : « قد تكذب العيون
أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه » يشير الى سبب المعرفة ، وهو من
مباحث الفلسفة ، وقوله : « اذا أضرت النوافل بالفرائض فارفضوها » يدخل
في علم الفقه ، وقوله : « ينظر الانسان بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ،
ويتنفس من خرم » يدخل في علم وظائف الأعضاء ، وقوله : « امش بدائك

ما مشى بك « يدخل في علم الطب ، وقوله في الغوغاء : « اذا اجتمعوا ضروا ، واذا تفرقوا نفعوا » يدخل في علم الاجتماع .. وكل حكمة تتعلق بالنفس والعقل تدخل في علم النفس، وكل ما يتعلق بمبدأ وقانون سلوكي يدخل في علم الأخلاق .

ثلاثة علوم :

وأكثر حِكَم الإمام في النهج وغيره تدخل في علوم ثلاثة : الاجتماع ، والنفس والأخلاق ، وتشترك هذه الثلاثة في أنها علوم انسانية ، ويفترق كل واحد منها عن الآخر بجهة خاصة ، فعلم النفس يبحث عن غرائزها وصفاتها ، وسلامتها ومرضها ، وعن أسبابها : هل هي ذاتية ، أو أتت اليه بالوراثة ، أو من التربية والبيئة ، ويبحث عن تاريخ الصفات : هل ولدت بولادة الانسان ، أو بعد الولادة بسنة أو أكثر ، وأيضاً يبحث آثارها ونتائجها في سلوكه وأفعاله . وبكلمة يبحث علم النفس عن عناصرها وحياتها فاعلة ومنفعلة ، وعن أسباب تلك العناصر وتاريخها وآثارها .

ويبحث علم الاجتماع في أحوال المجتمعات الانسانية وأوضاعها وقوانينها ، والأسباب التي نشأت عنها المعيشة الاجتماعية .

أما علم الأخلاق فلا يبحث عن النفوس والطباع ، والغرائز والشمال كعلم النفس ، ولا عن المجتمعات كعلم الاجتماع ، بل يضع القانون الخلقي ، ويحدد المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتديه الانسان في سلوكه وأفعاله تماماً كالفقه يحلل ويحرم . ومن هنا كان علم الأخلاق من العلوم المعيارية التي يقاس بها حسن الشيء وقبحه .

وبهذا يسهل علينا التمييز بين الحِكَم الآتية من حيث عدّها واعتبارها من مسائل هذا العلم أو ذاك .

المعاني الكبار في الكلمات القصار

١ - كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنِ اللَّبُونِ : لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ، وَلَا
ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ .

● اللبون من الإبل والشاء هي ذات اللبن قلّ أو كثر. وابن اللبون فصيلُ الناقة قبل أن يقوى ظهره للركوب ، أو يصلح ضرعها للحليب، وظهرٌ بالرفع اسم «لا» العاملة عمل ليس على مذهب الحجازيين ، وخبرها محذوف ، والتقدير لا ظهر صالحاً للركوب ، ولا ضرع صالحاً للحليب ، والفعل المضارع هنا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوعها بعد النفي المحض مثل ما أعرف دارك فأزورك أي كي أزورك .

والمراد بالفتنة هنا الباطل ، والمعنى إذا رأيت باطلاً فلا تدخل فيه ، واحذر من أهله أن يخدعوك ويستغلوك في أغراضهم ومآربهم .. وسكت الإمام في حكمته هذه عن الحق وأهله ، وليس معنى سكوته عنه وعنهم أنه ينهى عن الدخول في شأن المحقين ومناصرتهم ، وانه يساوي بينهم وبين المبطلين .. كلا ، وألف كلا، لأن مثل هذا الكلام يقتصر فيه على دلالة المنطوق دون المفهوم .. هذا ، الى أن كلمات الإمام ووصاياه بنصرة الحق وأهله تجاوزت حد الإحصاء ، من ذلك قوله لولديه الحسن والحسين : « كونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً » . كما جاء في الرسالة ٤٦ ، وذمه للذين لم يحاربوا معه الناكثين بأنهم لم ينصروا الحق ، ولم يخذلوا الباطل .

وخفي المعنى المراد من هذه الحكمة على كثير من الشارحين ، وخطبوا فيه ، وفهموا منه أن الإمام أمرنا بأن نسكت أيام الفتنة ، ونعزل إذا رأينا باطلاً يتبعه قوم ويعارضه آخرون ، حتى ان بعض الشارحين قال : « أراد الإمام أن يكون الإنسان أيام الفتنة ضعيفاً غير مستكثر من المال » !. ولا أعرف السبب الموجب لحشر المال هنا ! وحاشا لله وللإمام الذي أوقف نفسه للحق ، وضحي بها في سبيله أن يأمر بالفرار من جهاد الباطل والفساد .

وبعد ، فكلنا نحن - أبناء الهيئة العلمية الدينية - نحفظ هذه الحكمة عن ظهور قلب تماماً كما نحفظ سورة الإخلاص ، وفروها ونوصي بها ، ولكن ما لها في أعمالنا أو أعمال معظمنا من نصيب .. فهذا يؤيد زعماً طاغية ويقول : أريد أن أعيش ، وذلك يوقع عريضة مسمومة ملغومة لإرضاء لشهوة رئيس أو متزعم ، وآخر يزيغ ويحرف بوحى الشركات ومكاتب الاستخبارات ، ورابع إمعة يستجيب لكل ناعق وشاهق .. وهنا يكمن السر في أننا نسير من ضعف الى ضعف ، ويكثر فينا أهل الجهل والدجل .

٢ - أَزْرَىٰ بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذَّلِّ مَنْ
كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ أَمْرٍ عَلَيْهِ
لِسَانُهُ .

● الطمع ضد القناعة ، ولكن كثر استعماله ضد المروءة والورع حتى صار حقيقة فيه ، أما حكمه فيقاس بآثاره ونتائجه ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . وقول الإمام من استشعر الطمع معناه من اتخذ دينا له وديناً بحيث لا يلتزم بشيء إلا على أساس منفعة الخاصة . ومن كان كذلك فقد حقر نفسه بنفسه ، لأن الإنسان يقاس بأهدافه وأمانيه . ومن كانت همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها كما قال الإمام .

وقد يُبْطَلَى الإنسان بمرض أو فقر أو غيرها من الآفات . وما من شك ان المرض بلاء ، والفقر مصيبة ، ولكن الكشف والإعلان عنها وعن أية آفة -

فضيحة . وقد يما قيل : الشكوى لغير الله ذل .. وأية جدوى من الشكوى الى الناس ما دامت لا تدفع ضرراً ، ولا تجلب نفعاً ، وتسوء المحب ، وتسبب المبعوض ؟ وأيضاً لا جدوى من أمر المبتلى وجهه على الصبر وكمآن العلة إلا إذا كان ذا عقل رزين ، لأن الصبر على قدر العقل .

والشكوى من مقولة الكلام وصفاته ، ولذا عقبها الإمام بالإشارة الى اللسان ، ومر الحديث عنه في شرح الخطبة ٩٤ فقرة « السكوت » وغيرها . وقال مجرب حكيم : يتنازع لسانك عقلك وهواك ، فإن غلب الأول فهو لك ، وإن غلب الثاني فهو عليك ، فلا تطلق لسانك حتى تعلم ان كلامه لك لا عليك .

٣ — الْبَخْلُ عَارٌ . وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ . وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ . وَالْمَقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلَدَيْهِ . وَالْعَجْزُ آفَةٌ ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ . وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ . وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ .

● البخل يخطط لصاحبه منهجاً يسير عليه في تفكيره وسلوكه ، ولا يحيد عنه بحال ، وهذا المنهج يرفض بطبعه التعاون على الخير ومصلحة الفرد والجماعة ، ويهدي الى القسوة وعدم الاكتراث بالناس ومشاكلهم .. ومن لا يهتم بهموم الناس فليس منهم ولا من الانسانية في شيء . ونعطف على ذلك ما جاء في الآثار من أن البخيل يعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء ، وأنه كالحنزير لا ينتفع به إلا بعد موته حيث تنهشه الكلاب ، وإن البخل يفسد الرأي ، ويمنع صاحبه عن رؤية الحقيقة ؛ لأنه ينظر الى الأشياء من خلال ذاته الشحيحة الشاحبة .

وإذا كان الإمساك رذيلة فالبلد والتضحية فضيلة في كل زمان ومكان، ولكن إطعام الطعام قد بلغ الغاية والنهاية من التقديس عند القدامى ، وبخاصة العرب الذين اعتبروه سبباً رئيسياً من أسباب السيادة والقيادة ، وملأوا الدنيا في المديح والثناء نظماً ونثراً على صاحب الخوان ، وكنوا عنه بـجبان الكلب وكثير الرماد والنيران .. ووضع الجاحظ كتاباً في البخلاء، وأفرد الكثير من المؤلفين باباً طويلاً

في كتبهم لدم البخل والبخلاء ، ومدح الجود والأجواد .

والسر العسر والمعيشة الضنكى في ذاك العصر حيث الجائعون من كل بلد بالآلاف أو بالملئات .. هذا ، الى ان المسافرين كانوا يسرون أياماً أو أشهراً على الأقدام أو على الحيوان ، ولا مطاعم وفنادق ، فلا بدع اذا كان لإطعام الطعام شأنه ووزنه ، ومن هنا ساوى رسول الله (ص) بينه وبين السلام في قوله : « أفضل الأعمال إفشاء السلام ، وإطعام الطعام » .

حتى الماء كان لباذله أجرٌ وفضل على قدر عطش الظمآن ولطفته ، لتعذر الوصول الى مجرى الماء ومصدره .. أما الآن ، وقد غير العلم الأرض ومن عليها وخطا بالبشرية خطوات يسرت لها العسير ، وقربت لها البعيد ، وحققت الكثير من مطالبها ، أما الآن فلم يعد لإطعام الطعام ونحوه ذاك الوزن والاثّر الذي كان له من قبل .. وليس معنى هذا ان الكرم قد تحول عن طبيعته ونزل عن مرتبته ، وإنما يعني ان مظاهر الكرم قد تغيرت وانتقلت من التعاون الفردي الى التعاون الاجتماعي ، من إطعام الرغيف الى بناء دار للأيتام ، ومستشفى للمعوزين ، ومدارس للمتعلمين ، ومن سقي الظمآن الى ري الأراضي ، وتحويل الصحراء الجرداء الى جنات وعيون ، ومعنى هذا أن معنى الكرم قد عمّ واتسع بعد أن كان ضيقاً ومحدوداً ، وان اسم الكريم قد تطور الى اسم المصلح والمنقذ .

(والجبن منقصة) لأن الجبان يرى المنكر فيتعاضد عنه ، ويسمع دعوة الجهاد في سبيل الله والحق فيصد عنها ، وإذا شكّا اليه مظلوم أدار له ظهره ، وإذا أراد أن يتكلم يخاف من النقد .. وهكذا يسلبه الخوف ما يملك من طاقات ، ويعيش حبيساً بين جدران الهواجس والأوهام بلا شخصية وإرادة ، ولا زهرة أو ثمرة إلا الهدير والثروة .. وهل علمت أو سمعت أن للجبان شأناً أو تاريخاً؟ .

(والفقر يخرس الفطن عن حجه) لأن الفقر يضغط على العقل ، ويسد أمامه منافذ الرؤية .. اللهم إلا إذا كان للفقر هدف أعلى يضحي بحياته من أجله ، وينسى معه نفسه وبؤسه ، كطلب العلم أو الحرية لوطنه ، كما حدث لكثير من الفقراء المناضلين الأحرار . وتقدم الكلام عن الفقر مرات ويأتي أيضاً .

(والمقل غريب في بلده) ومثله قول الإمام : « الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة » لأن من شأن الوطن أن يُسهل لك العسير ، ويستجيب

لحاجتك وأمنيتك ، والمال قاضي الحاجات ، والفقر أصل الويلات ، ومن هنا كان الفقر غربه في الوطن ، والغنى وطناً في الغربه .

(والعجز آفة) وكلمة العجز تعم وتشمل وباء الفقر والمرض والجهل، وهذه الأوباء الثلاثة آفة الإنسانية بكاملها ، ومنها تنبع القبايح والردائل ، وبخاصة الفقر فإنه السبب القريب والبعيد لأكثر الآفات والمشكلات .

(والصبر شجاعة) وجهاد . وحين يتحدث الإمام عن الصبر وفوائده فإنه يتحدث عن علم وتجربة ، فلقد رأى وشاهد صبر رسول الله (ص) والصحابة على الأذى والتنكيل في سبيل الإسلام ، وثباتهم عليه مستهينين بكل شيء ، وهذا الصبر هو الأصل والأساس لحياة الإسلام وانتشاره ، وعلى صخرته تحطم الكفر والشرك ، ولولا هذا الصبر والثبات ما كانت الهجرة ولا بدر وأحد والأحزاب، وبالتالي ما كان للإسلام عين ولا أثر .

(والزهد ثروة ، والورع جنة) المراد بالزهد التورع عن الحرام ، وبالورع الكف عنه ، وعليه يكون العطف للبيان والتفسير ، والمعنى أن العفيف النزيه في غنى عن الناس ، وأمان من شرهم ، لأنه بعفته ونزاهته يرضى ويقنع بالميسور، ويكف أذاه عن الآخرين ، والقناعة كنز ، وكف الأذى حصن وصيانة . وتقدم الكلام عن ذلك مراراً وتكراراً مفصلاً ومجملًا . انظر شرح الخطبة ١٨٩ فقرة « التقوى » .

٤ — نِعَمَ الْقَرِينُ الرّضَى . وَالْعِلْمُ وَرَآئَهُ كَرِيمَةٌ . وَالْآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ . وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ .

● (نعم القرين الرضى) عليك أن تسعى جهدك للرزق ، ولا تتكل على القدر، وإذا سعت ونلت من الحلال دون ما أملت فارض بما تيسر ولا ترفضه وتتبرم به . وقديماً قيل لا يترك الميسور بالمعسور ، كيف والحرمان أقل منه ، وبعض الشر أهون من بعض ؟ خذ ما تيسر ، وانتظر الفرصة الى ما هو أفضل ، ولا تتعجل الشيء قبل أوانه ، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها .. ولا أظن مخلوقاً حقق

كل ما يشهد من سعادة إلا من روض نفسه على التسليم والرضا بما لا سبيل الى
سواه ، ولا يقول لشيء لم يكن : ليته كان ، أو لما كان : ليته لم يكن .
والرضا بمنطق الواقع هو الذي عناه الإمام ، وأثنى عليه بقوله : « نعم القرين
الرضا » لأنه يحرر صاحبه من الحيرة والقلق ، والتبرم والسخط بلا جدوى .

وبالاختصار ان تعاسة الإنسان قد تأتي من داخله لا من خارجه، ومن صنع يده
لا من صنع القدر، لأنه يرفض الانسجام مع ظروفه الخاصة التي تمسه في الصميم،
وتؤثر عليه وعلى شؤونه ، ولا يجني من معاندتها إلا الآهات والحسرات .. ورأيت
من الشباب الجامعي من يأنف ويحتقر بعض الأعمال ، لأنها - بزعمه - عيب يمس
بكرامته ، ويطمح الى وظائف الأغوات وأبناء الذوات ، فيبحث ويلهث وراء
كل متزعم حتى اذا يثس عاد الى ما استنكف عنه من قبل ، وطلبه بلهفة ..
ولكن بعد فوات الفرصة التي لا سبيل الى مردها .. ففقد كسبها خاسراً ، لأنه
أراد القفز أكثر مما تستطيع عضلاته .

وهكذا قضت حكمة الخالق جلّ وعلا أن يعاقب بالحرمان من استنكف عن
رزقه المكتوب .

وأيضاً رأيت كثيراً من الشباب الجامعي يستسلمون لمنطق الواقع ، ولا يأنفون
من وظيفة كاتب بسيط ، وبعضهم من حملة الدكتوراه ، ومع الصبر والأيام صار
أحدهم مديراً عاماً ، وآخر استاذاً جامعياً ، أو رئيساً لمصلحة ، أو قاضياً
مرموقاً .. ولا سر - فيما أعتقد - إلا الرضا والصبر الذي هو من مظاهر الحمد
والشكر ، فأنجز لهم سبحانه قوله ووعدده : « لئن شكرتم لأزيدنكم - ٧ ابراهيم » .
حمداً لله وشكراً .

(والعلم وراثه كريمة) قال ابن أبي الحديد في شرحه : « كل عالم يأخذ
العلم من استاذه فكأنه ورث العلم عنه » وتبعه ميثم في هذا التفسير وقال : « العلم
وراثه عن العلماء » وقال شارح ثالث : « أخطأ الاثنان ، والحق في التفسير ان
العلم يؤخذ بلا عوض تماماً كالإرث » .. ولو تنبه هؤلاء الشارحون لقول الإمام
في الحكمة رقم ١٤٧ لأراحوا واستراحوا من هذا التكلف والتعسف . قال الإمام
في هذه الحكمة من جملة ما قال : « العلم يكسب الانسان جميل الأحداث بعد
وفاته » وهذا بالذات هو مراد الإمام بقوله : « والعلم وراثه كريمة » فإن كلام

الإمام يفسر بعضه بعضاً ، لأن مصدره واحد .. وكلنا يعلم ان الناس يذكرون الانسان بعد وفاته بأفعاله وصفاته ، وان العلم من الصفات الجلتى .

(والآداب حلل مجددة) . الحلل المجددة كناية عن البهجة والزينة الدائمة ، والمراد بالآداب هنا الصفات الحميدة عند العقل والعقلاء ، كالبلاغة والذكاء وحسن السلوك ، وما إلى ذلك من الفضائل الشخصية والاجتماعية .. نقول هذا مع العلم ان تحديد المفاهيم ومعاني الألفاظ من أدق الأشياء وأصعبها .. ولكن هذا ما فهمناه من سياق الكلام ، أو منطق الواقع ، فإن كان هذا ما أراده الإمام من كلامه هنا فذلك، وإلا فإن الإمام لا يرفض المعنى الذي فهمناه لأنه حق في نفسه ومن حيث هو .

(والفكر مرآة صافية) المراد بالفكر هنا القوة المدركة العاقلة التي اذا عملها الإنسان بعيداً عن الهوى والمحاكاة دلت على الحق والصواب ، وكنتى الإمام عن هذه الدلالة الصادقة بالمرآة الصافية التي تعكس الشيء كما هو في واقعه . وأخذنا هذا التفسير من قول الإمام في الرسالة ٣٠ : « من تفكّر أبصر » وقوله في الحكمة ١١٣ « لا علم كالتفكير » أي ان العلم بلا تفكير أكثر خطورة من التفكير الذي لا يدعمه علم ، كما قال كونفوشيوس .

٥ - صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ . وَالْبَشَاشَةُ حُبَالَةُ الْمَوَدَّةِ .
وَالْإِحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ (أَوْ) وَالْمَسْأَلَةُ خِيبَةُ الْعُيُوبِ . وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّخِطُ عَلَيْهِ .

● (صدر العاقل صندوق سره) بعض الحاجات لا يستقيم قضاؤها إلا بالكتمان، ومن الجهل والحمق إفشاؤها وإذاعتها .. وكان النبي (ص) إذا أراد غزواً ورى . ومن ضاق بسرّه فلا يلومن من أفشاه . والحق خاص بصاحبه ، وعلى كل إنسان أن يحترم هذا الحق ويقدسه ، ويحرم التجسس عليه .. ولكن الغرب قد انتهك هذا الحق ، واخترع للتجسس على الشعوب والبيوت والأفراد آلات مذهلة شديدة الدقة ، وقد هددت حرية الإنسان وأصبحت حياته وأسراره مشاعاً للذين يملكون

هذه الآلات ، ويبيعونها كالسلعة لمن يدفع الثمن ، وفتحوا بنوكاً وحوانيت لبيعها علانية وعلى علم من السلطة التي تصون الأمن الحريات .

وهكذا حولوا العلم من العمل لصالح الإنسان وخدمته الى الإضرار به والاعتداء عليه والقضاء على حريته ، وفرضوا عليه لوناً جديداً من الضغط لا نظير له حتى في عصور الجهل والتخلف .

(والبشاشة حباله المودة) اذا خرجت الابتسامه من القلب دخلت في القلب تماماً ككلمة الصدق والإخلاص ، أما ابتسامه المكر فهي وكلمة النفاق سواء، تخرج من الحناجر ولا تتجاوز الآذان .

(والاحتمال قبر العيوب) المراد بالاحتمال هنا الصبر على كلمة تافهة أو حركة نائية من زوجة أو ولد أو جار أو أي سفيه ، والمراد بقبر العيوب أن هذا الصبر فضيلة تشفع في بعض العيوب ، أو تسترّها — على الأقل — وأية جدوى من إظهار الغيظ والغضب إلا البغضاء والشحناء .

(ومن رضي عن نفسه كثر الساخط عليه) . كثرة الادعاء تدل على كثرة العيوب ، ومن استطاع على الناس بما فيه أو بزورٍ يدعيه فقد فتح عليه أبواب الدم والطعن والسخرية والاستهزاء والمقت والكراهية .. والعالم حقاً يتواضع ويتوقع الخطأ من نفسه ، والدعي اللصيق بأهل العلم يرى نفسه مصدر الحق والصواب .. ولاحظت من تتبعي لأقوال العلماء وآرائهم ان العالم بحق يعرض رأيه بحذر ، أما الضعيف في معرفته فيؤكد أقواله جازماً بأنها الحق الذي لا ريب فيه ، وان غيرها هراء وهباء . والسر أن القوي بعلمه يعتمد على العقل ، والضعيف يثق بعاطفته ، ويقول بوحى منها ، ويظن أنه يقول بملء العقل والوجدان . وهذا هو الجهل المركب .

٦ — الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ . وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبٌ
أَعْيُنِهِمْ فِي آجِلِهِمْ .

● المراد بالصدقة هنا كل معونة تسد حاجة من حاجات الحياة خاصة كانت

كلإغاثة الملهوف ، أم عامة كينساء ميم يأوي المشردين ، أم مصنعاً ينتج الغذاء والكساء والدواء للمحتاجين . وأي دواء أكثر نفعاً من خدمة الإنسان وسد حاجاته ؟ وليست هذه الصدقة أو المعونة تجيب دعوة المضطر وكفى ، بل هي أيضاً دواء وخلاص من عذاب الحريق لمن ضحى وأعان يوم الحساب والجزاء .

ويأتي قريباً قول الإمام : « من كفارة الذنوب العظام إغاثة الملهوف ، والتنفيس عن المكروب » . هذا إذا كان الملهوف والمكروب واحداً ، فكيف بإغاثة الأجيال والألوف ؟

(واعمال العباد في عاجلهم الخ) .. من عمل في دنياه لمنفعة الآخرين - يجد ثواب عمله مجسماً نُصب عينيه في آخرته .

٧ - اعْجَبُوا لِهَذَا الْإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ .

● المراد بالشحم هنا غير اللحم كالجلد الشفاف الذي يغطي شبكة العين ونحوه ، أما العظم فالمراد به الغضروف ، وهو عظم طري .

أشار الإمام الى أربعة أعضاء : البصر واللسان والسمع والأنف . وللعين مهمتان الأولى أنها نافذة الى القلب تتسرب اليه منها ما تراه في الخارج . المهمة الثانية أنها مرآة تعكس في كثير من الأحيان ما هو مودع في القلب من حب وبغض ، وفطنة وبلاذة ، وخير وشر ، ومعنى هذا ان العين تعطي القلب وتأخذ منه ، تؤثر فيه ، ويؤثر فيها . وأيضاً معنى هذا ان كل ما في العين لا بد أن يكون رقيقاً شفافاً يحكي عما وراءه ، ونقياً صافياً ينعكس فيه ما تقع عليه العين ، ومن البدهة أن في اللحم غلظة وكثافة ، وان كان اللحم أقل كثافة من العظم ، والشحم أخف وأرق من اللحم ، وهو أشبه بـ « النيلون » .

أما اللسان فهو أكثر الأعضاء حركة وقبضاً وبسطاً .. تجري حركته بسرعة بلا تعب وكلال عند الكلام والشراب والطعام ، وعند ابتلاع الريق أو قذفه ، بل يتحرك عند السكوت وترك الطعام والشراب .. فاستدعى ذلك أن يكون لحماً

رطباً بلا عظم وعصب ، وأن يكون في الفم بمنزلة الصدر للقلب صوتاً له من العوارض الخارجية .

وأما الأذن فهي الأداة اللاقطة للصوت ، والصوت يحمله الهواء ، ولا يدخل الى الأذن إلا بعد انكسار حذته ، فجعلها سبحانه عضواً ليناً لا لحماً مسترخياً ، ولا عظماً صلباً بل عظماً طرياً متماسكاً .

أما التنفس في الإنسان فيقول أهل الاختصاص أن له عضلات كثيرة ، وأهمها الأنف ، وبه يُستغنى عن الفم لاستنشاق الهواء ، وقد جعل سبحانه تجويفه بقدر الحاجة ، ولو كان أوسع مما عليه لدخل الى الجوف من الهواء أكثر من المطلوب ، أو أضيق لدخل دون القدر اللازم ، وأيضاً جعل التجويف مستطيلاً لينحصر فيه الهواء وتنكسر حذته قبل أن يصل الى الدماغ ، وإلا صدمه بقوته وأوقفه عن الحركة .

فسبحان الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى .

٨ — إِذَا أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ . وَإِذَا أَدْبَرْتَ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ .

● المراد بإقبال الدنيا على الإنسان أن ينال منها ما يُغبط عليه أو يُحسد، والمراد بإعارته محاسن غيره أن يرفع فوق منزلته ، كمن ساد ، وما هو بأهل للسيادة . وليس من الضروري أن تنسب اليه فضائل الآخرين ، كما توهم الشارحون ، بل قد يكون ذلك ، وقد لا يكون ، والمعياري أن يُقدر بأكثر من ثمنه . والمراد بسلبته محاسن نفسه أن تُبَخَسَ أشياءه ، ويهبط حقه ومقامه . والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، منها ان يؤلف شهير كتاباً ، فيقبل عليه الناس ويشتروه بأغلى الأثمان ، ويكيلوا له المديح بلا حساب ، ويستشهدوا بكلماته كدليل على الحق! . ولو نُسِبَ هذا الكتاب بالذات الى مغمو رجھول لأعرضوا عنه.. وربما سخروا منه.

وفي الخطبة ١٠٧ أوضح الإمام السبب الموجب وبَيَّنَّه بقوله : « فهو عبد لها — أي للدنيا — ولمن في يده شيء منها حيثما زالت زال اليها ، وحيثما أقبلت أقبل

عليها . انه يُقبل ويُدبر بوحى من دنياه ومصلحته ، وهو يظن أنه ما فعل
وسا ترك إلا بلملاء الحق والعدل .

٩ — خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ
عَشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .

● فرق بعيد بين النفاق وحسن المعاشرة، فالنفاق أن تضرر البغض وتظهر الحب،
أما حسن المعاشرة فهي أن تحسن ولا تسيء ، وتحب ولا تكره ، وتعين ولا
تخلد .. وهذا تكون محبوباً عند الناس ويكون عليك ان مت ، ويحنون عليك
ان غبت . قال سبحانه : « وقولوا للناس حسناً — ٨٣ البقرة » . وقديماً قيل:
أحب لغيرك ما تحب لنفسك .. ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف . ومن أقوال
الإمام : أسوأ الناس حالاً من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولم يثق به أحد لسوء
فعله . وقال : القريب من قريبته الأخلاق ، والغريب من لم يكن له حبيب .
وتقدم ذلك في الرسالة ٣٠ .

١٠ — إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ
عَلَيْهِ .

● علمتني التجربة وتكرارها أشياء ، منها أن من فرّ الى الله وقرع بابَه مخلصاً
أغاثه وشمله بعنايته ، ومنها أن من شكر القليل من فضله تعالى زاده أضعافاً ،
ومن رفضه وتبرم به طلباً للكثير عاقبه بالحرمان ، وان من أبى إلا القصاص بيده
من أساء اليه تركه سبحانه وشأنه يشفي غيظه من عدوه ان استطاع ، وان من
عفا عن حقه الخاص لوجه الله كان له ناصراً ، وعوّض عليه أضعافاً مضاعفة .
ويأتي قول الإمام : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وقوله : أول عوض
الحليم من حلمه ان الناس انصاره على الجاهل .

١١ - أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

● قالوا في تعريف الصديق وصفاته وأكثروا . والوصف الداخل في ماهيته أو اللازم لها هو أن الصديق حقاً وواقعاً يرفض الشائعات عن صديقه حتى ولو كان على جهل بمصدرها . وهذا الصديق ثروة وعدة في الدين والدنيا ، قال تعالى حكاية عن أهل النار : « فإنا لنا من شافعين ولا صديق حميم - ١٠١ الشعراء » . وقيل للحكيم قديم : ما أفضل ما يقتنيه الإنسان ؟ فقال : « الصديق المخلص » . وإذا كان الإخوان أفضل قوة وثروة يقتنيها الإنسان فمن العجز أن تعيش بلا أصدقاء ، وإن ضيعت واحداً منهم بعد الظفر به فأنت أخسر الفاشلين ، كما قال الإمام .

وقال بعض الشارحين : للصدقة طرق وأسباب ، وعدتها منها « الملاقاة بابشر والطلاقة » . والحق أن السبب الوحيد للصدقة هو التوافق في الطباع حتى الطيور على أشكالها تقع . واشتهر عن نبي الرحمة (ص) : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . وتقدم الكلام عن الصدقة في الرسالة ٣٠ وفيها يقول الإمام : ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه .

وبعد ، فلا متعة أعذب وأطيب من حديث تنفّس به عن قلبك غبار الآلام والأشجان أمام صديق يصغي اليك بروح زاكية تطمئن إليها ، وعاطفة دافئة تلجأ إليها .. ومن فقد متعة الإحساس بالصدقة فقد حرمه الله أجمل ما في الحياة ، وإن كان بيته مرفأً ومزخرفاً .

١٢ - إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

● المراد بأطراف النعم أوائلها أو القليل منها ، وبأقصاها نموها وزيادتها ، والمعنى أن الله سبحانه إذا أحدث لك نعمة فاحفظها وعظّمها بالشكر والتدبير ، من أي

نوع كانت وتكون ، ولن حقرتها وقصرت في حفظها وشكرها سلبها الله منك ، وحرملك من غيرها . وتقدم في الرسالة ٦٨ قول الإمام : « واستصلح كل نعمة أنعمها الله عليك ، ولا تضيعن نعمة من نعم الله عندك » .

وقد منّ سبحانه على المسلمين بدولة كريمة فلم يشكروها بالجهاد والإخلاص وأضاعوها بالخلافات واتباع الشهوات ، فسيموا الخسف جزاء وفاقاً .

١٣ — مَنْ صَنِيعُهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ .

● لا تيأس إذا أصابك شر من الأقارب والأرحام فأبواب الخير والنجاح عند الله لا يبلغها الإحصاء، فإن أغلق دونك باب منها فتح الله عليك ما هو خير وأجدى.. ومن توكل عليه كفاه حتى ولو كاد له أهل السموات والأرض ومن بينهم .

١٤ — مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

المراد بالمفتون هنا من فعل ما لا ينبغي فعله ، والمعنى اذا رأيت شذوذاً من إنسان فلا تبادر الى لومه وعتابه قبل أن تعرف السبب الموجب ، فابحث وانظر، فإن كان السبب مشروعاً كمن أكل من المينة أو سرق رقيقاً لسد الجوعة فهو معذور إذا انحصر سبب الحياة بذلك ، أو كان جاهلاً بلا تقصير ، وان كان لمجرد الهوى واللامبالاة بالدين والقيم فهو مأزور، وعليك أن ترشده بالحسنى.. اللهم إلا مع اليأس من صلاحه وإصلاحه كابن عمر وابن وقاص وابن مسيلمة حيث أحجموا عن بيعة الإمام ، ولم ينصروا حقاً ، ويخذلوا باطلاً .

١٥ — تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْخُتْفُ فِي التَّذْيِيرِ .

● يُحذَّرُ الإمام بهذا من المخبات والمفاجآت التي لا تراها العيون ، ولا تسمى إليها القرائن من قريب أو بعيد ، يحذَّر كل إنسان من ذلك كي يخطأ ويحترس..

على ان الوقاية من الهلاك قد تكون هي السبب الموجب له ، كالطبيب يصف نوعاً من الدواء لمريضه بقصد الشفاء ، فيقضي عليه ، أو يتحصن الجيش من عدوه في مكان ملغوم ، أو يفر من الجهاد طلباً للسلامة فيقع فيما هو أدهى وأمر .

١٦ — سُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « غَيْرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ » ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَلِكَ وَالَّذِينَ قُلْتُ ، فَأَمَّا الْآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرَائِهِ فَأَمُرُّهُ وَمَا اخْتَارَ .

● الدين قل " أي لم ينتشر بين الناس ويكثر أتباعه . والنطاق : الحزام . والجراح مقدم البعير يضرب به الأرض إذا استراح ، وكان النبي (ص) قد أمر الشيوخ من أصحابه أن يستروا الشيب عن العدو بالخضاب ليظهروا أمامه في هيئة الأقوياء . فقال الإمام : ذاك حيث كان الإسلام ضعيفاً بقلّة أتباعه ، أما اليوم وقد ظهر على الدين كله فلم يبق لهذا الحكم من موضوع ، فن شاء فليترك الخضاب ، ومن شاء فليخضب . وبهذا القصد ألغى عمر سهم المؤلفه قلوبهم .
وتسأل : ألا يتنافى هذا مع الحديث المشهور عن رسول الله (ص) : حلال محمد حلال الى يوم القيامة ، وحرامه حرام الى يوم القيامة ؟ .

الجواب :

ان الأحكام الشرعية الإسلامية على نوعين : الأول منها يرتبط بطبيعة الإنسان وفطرته من حيث هو إنسان ، وهذا النوع من الأحكام لا يتغير ولا يتبدل تماماً كنظام الكون والأفلاك في حركاتها الدائبة ، ولو اختلف شيء منه لانهار الكون بما فيه . وهذا النوع هو المقصود بالحديث المشهور . والنوع الثاني يرتبط بالحياة الاجتماعية ، وهذا تتغير أحكامه تبعاً لتغير المجتمع من حال الى حال حيث يتغير موضوع الحكم وسببه الموجب ، وخضاب الشيب أو عدم خضابه من هذا النوع وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ١٧٤ فقرة « التحليل والتحريم بين الإسلام والمسيحية » .

١٧ — خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

● ضمير الجماعة في خذلوا ولم ينصروا يعود الى الذين لم يبايعوا الإمام ، ولم يحاربوا ضده ولا معه كابن وقاص وابن عمر . قال ابن أبي الحديد : يدل هذا القول من الإمام أنه راضٍ عنهم . أما ميثم فقال : يجري هذا الكلام مجرى العذر عنهم .

أما نحن فلا نرى ذمّاً أوجع وأقلدع من هذا .. كيف وقد تهيأت لهم الأسباب الكافية الوافية لمناصرة الحق وخذلان الباطل ؟ ومع هذا تجاهلوا وأحجموا .. وفي الخطبة ٢٩ وبخ الإمام المتفاعسين عن القتال معه وقرعهم بقوله : « لا يدرك الحق إلا بالجد .. ومع أي إمام بعدي تقاتلون ؟ » . وقال سبحانه : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله — ٩ الحجرات » . وقال الرسول الأعظم (ص) : الساكت عن الحق شيطان أخرس .. الى كثير من الآيات والروايات .

١٨ — مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

● كل الأعمال بالآمال ، ولولا الأمل لبطل العمل . والمدموم هو أن تطلق العنان لأملك في الدنيا وحطامها ، وتزاحم الآخرين ، وتعلن الحرب من أجلها غير مكترث بواجب أو حرام ، ولا بدين وشريعة . ومن كان هذا شأنه نسي الموت وما بعده ، واختطفه على حين غرة ، وذهب به الى خالقه بلا زاد واستعداد .

١٩ — أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُّ اللَّهِ يَرْفَعُهُ .

● المراد بذوي المروءات كل من يأنف من القبيح ، وينزه نفسه عما يشين ، ويتغافل عن زلل الاخوان ، وقال بعض السلف : رأيت المعاصي مذلة ، فتركها

مروءة . أما العثرات فالمراد بها بعض الهفوات والسقطات التي لا يخلو منها إلا من عصم ربك ، والمعنى تجاهلوا هفوة من كريم .. وأي الرجال المهذب ؟ ولا يقيم الحد من كان لله عليه حد ، كما قال الإمام أمير المؤمنين ، وقال السيد المسيح : من كان منكم بريئاً فليرمها بحجر . يريد الزانية .

(ويد الله بيده يرفعه) أي انه تعالى يتداركه برحمته ، وذلك بأن يهيبه له أسباب التكفير عن هفوته وعثرته بالتوبة أو بأية فضيلة من الفضائل : « إن الحسنات يذهبن السيئات - ١١٤ هود » .

٢٠ — قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ . وَالْفُرْصَةُ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَأَنْتَهَرُوا فُرْصَ الْخَيْرِ .

● الخوف من الله حتم ، وهو مقام الربانيين ، والخوف من القول والفعل بلا علم حسن وجميل ، وهو من صفات العلماء والمتقين ، وكل خوف ما عدا هذين فهو جبن وخور . فأقدم على ما يطمئن اليه قلبك ، وان قال الناس وقالوا .. وان أحجمت خوفاً من قيلهم وقاهم عشت حياتك سلبياً فاشلاً .. على أنك لا تسلم من ألسنة الناس وان حذرت منها ومنهم .. وأحمد الله سبحانه الذي عافاني من هذا الداء ، ولو شاء لفعل . وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة رقم ٢ عند شرح قوله : « الجبن منقصة » .

(والحياء بالحرمان) . الحياء من فعل ما لا يقره عقل ولا دين ، وتأباه الكرامة والمروءة هو من الدين في الصميم ، وسنة من سنن الأنبياء والمرسلين ، وخلق من خلق الأباة والسراة ، أما الحياء من الحلال ، وبخاصة ما ينفع الناس فهو عجز وخوف ، وخنوع واستكانة ، وخلق من خلق الضعفاء والجبناء . وهذا النوع من الخوف هو مراد الإمام ، ومن أقواله : « تكلموا تعرفوا » ومن الأمثال العامة : « لا ينجب أولاداً من يستحي من زوجته » .

وبهذه المناسبة نشير الى ما قيل في تفسير هذا الحديث : « مما ادرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستح فافعل ما شئت » . قيل في تفسيره : إذا لم تستح

من الله والناس فافعل ما بدا لك من حلال وحرام ، وحسن وقبيح . وهذا المعنى معروف بين الناس . وقيل : معناه إذا لم يكن في الفعل ما تستحي منه فافعله ، ولا بأس عليك . وكل من المعنيين صحيح يتحملة لفظ الحديث .
أما فرص الخير فلإنها تمر من السحاب ، كما قال الإمام ، واغتنامها سعادة وكرامة ، وفواتها حسرة وندامة . ولا أرى مثيلاً لمن أضاع الفرصة إلا منكر الجميل . هذا أخذ ولم يشكر ، وذاك رفض ما يستوجب الشكر ، وكل مقصر .
وتقدم الكلام عن ذلك في الرسالة ٣٠ .

٢١ — لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ وَإِنْ طَالَ السَّرَى .

• الراكب اعجاز الإبل هو الرديف أي الراكب خلف الراكب . والسرى : سير الليل ، والمراد به هنا طول الأمد . ولا خلاف بين أحد في أن الإمام كان يرى أنه أحق بالخلافة من جميع الصحابة دون استثناء ، وأنه احتج لحقه هذا بالحسنى ، وأقواله في النهج وغير النهج صريحة في ذلك . وقال هنا : ان أعطي هذا الحق عن رضا وطيب نفس فذاك ، وإن زاحمه عليه مزاحم صبر ولا يثير حرباً حتى ولو جاء رديفاً ، بل ورابعاً ، وطال الأمد سنوات وسنوات . لا لشيء إلا حرصاً على مصلحة الاسلام والمسلمين ، وخوفاً من الفتنة وانشقاق الكلمة . وهذا ما حدث بالفعل .

وقيل : يجوز أن يكون مراد الإمام انه اذا لم يحصل على حقه في الخلافة ركب الصعاب من أجله . وهذا المعنى قريب من دلالة اللفظ ، وبعيد عن الواقع ، لأن الإمام ما زاد شيئاً عن النقاش والجدال بالنبي هي أحسن . أما تفسير الشريف الرضي بالذل فأبعد من بعيد ، لأن الله ورسوله يأبى الذلة لأهل البيت .

٢٢ — مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

• ليست الفضيلة بالمال والأنساب ، بل بالعمل والعمل . ولا فرق بين أعمى بصير

يعتمد على عصا ، وأعمى بصيرة يعتمد على عظام المقابر . وصدق الله العظيم :
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات » .

٢٣ - مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسُ
عَنِ الْمَكْرُوبِ .

● التنفيس عن المكروب عطف تفسير على إغاثة الملهوف . والصدقة عامة وخاصة
كما أشرنا في شرح الحكمة ٦ وكلام الإمام هنا عن الخاصة ، ومن أمثلة الملهوف
مريض لا يملك أجره الطبيب وثن الدواء ، وذو عيال وأطفال يعجز عن قوتهم
ونفقتهم ، ومدين لا سبيل له الى الوفاء، ومظلوم لا يجد المعين على ظالمه إلا الله .
ولكل واحد من هؤلاء ومن اليه - كبد حرى لاهفة تائهة لا تدري ما الحيلة
والوسيلة ؟ فن رد لفتها، ورحم حيرتها صفح الله تعالى العظيما من سيئاته وكان في
عونه دنيا وآخرة . وفي الحديث : من لا يرحم لا يرحم . وقال الإمام : كما
تدين تدان ، وكما تزرع تحصد .

٢٤ - يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَةً
وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرُهُ .

● تكرر هذا المعنى في كلام الإمام بأساليب شتى ، وأيضاً يأتي قوله : « كم من
مستدرج بالإحسان اليه ، ومغرور بالسَّتر عليه » . والقصد الأول والأخير التحذير
من معصية الله والركون الى الدنيا وزينتها .
وتسأل : لقد رأينا الكثير يزددون طغياناً كلما ازدادوا مالاً وجاهاً، ومع هذا
يضمون بلا مؤاخذه .. ولا يتفق هذا مع التخويف من العقوبة ؟ .
الجواب : المراد هنا التحذير من عذاب الآخرة ، وهي أشد وأخزى من آلام
الدنيا وضرباتها . قال سبحانه : « انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ٤٢ -
ابراهيم » . وبكلمة : ان الله يمهل ولا يهمل .

٢٥ — مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

● للتعبير عما في النفس العديد من الوسائل ، منها اللفظ والكتابة والإشارة ، ومنها الرقص والرسم والألحان ، ومنها نظرات العين ، وابتسام الفم وصفحات الوجه والعبوس والدموع ، حتى المني جوب وشعر الخنافس بل والصمت أيضاً بعض الأحيان من وسائل التعبير .. وبالأولى فلتات اللسان .

وقال أديب شهير : يستحيل إخفاء الحقيقة ، لأن قانون الفعل يقابله قانون رد الفعل ، وإن هذا القانون يطبق في المجال النفسي كما يطبق في المجال الميكانيكي ، وعليه فإن فعل الإخفاء يصطدم برد فعله ، وهو الإظهار بأسلوب أو بآخر ، وبالتالي من وضع ستاراً على الواقع هتكه رد فعله لا محالة .

٢٦ — إِمْسِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ .

● إذا أحسست بفتور أو ألم فلا تسرع الى الطبيب ، أو تخلد الى الفراش ، بل اصبر وتجلد ما استطعت وامض في عملك ، فربما كان الحادث طارئاً لا يلبث أن يزول ، ومتى عجزت عن الحركة فاخلد الى الراحة وخفف الطعام ، ولا تلجأ الى الطبيب إلا عند الضرورة .. ومعنى هذا ان الإمام لا يشير باستعمال الدواء إلا للمضطر الذي لا يجد وسيلة الى الشفاء إلا به ، لأن الدواء ان أفاد من جهة أضر من جهة ثانية . وتقدم قوله في الرسالة ٣٠ : « ربما كان الدواء داء » . وفي مستدرك النهج ، عن الإمام انه قال : لا يتداوى المرء حتى يغلب مرضه صحته . وقرأت عن المعمرين أن أكثرهم لا يعرف طبيباً ولا دواء .

وقال بعض الشارحين : أوصى الإمام في حكمته هذه بالصبر على كل مكروه ما دام الصبر ممكناً ! والرضا بمنطق الواقع حسن ، ولكن بعد الجهاد وإفراغ الوسع .

٢٧ — أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ .

● في الخطبة ٧٩ حدد الإمام الزهد بقوله : « الزهادة قصر الأمل ، والشكر عند النعم ، والتورع عن المحارم » . وفي الخطبة ٣٢ قسم الناس إلى أصناف ، منهم من طلب الدنيا فنفرت منه ، وبعد اليأس تحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهادة . وإذا عطفنا قوله هنا : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، عطفناه على ما تقدم — نتج معنا أن الزاهد حقاً وصدقاً هو الذي أرادته الدنيا فأعرض عنها، وإذا أخفى ذلك عن الناس فقد أضاف فضلاً إلى فضل ، وزاده الله أجراً على أجر .

أما طريق الإخفاء فهو أن يلبس للناس المألوف لأمثاله ، ولا يتحدث عن زهده ، وإن حضر مائدة فيها ما لذ وطاب ، أكل كأحد الحاضرين دون أن يشعروا أنه من الزاهدين .

٢٨ — إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارِ وَالْمَوْتِ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى .

● المراد بالإدبار هنا مضي الأيام من العمر ، وإقبال الموت أنه آت في أجله لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، والمعنى أنت مسرع إلى الموت فاستعد له . وفي الرسالة ٣٠ « من كانت مطيته الليل والنهار يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقبلاً » .

٢٩ — أَلْحَذَرَ الْحَذَرَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

● إلى متى تتمادى في غيك — أيها العاصي — أتظن أنك مهمّل ومغفول عنك ، أو مغفور لك ؟ كلا ، انه تعالى يهمل ولا يهمل ، وما سكت عنك إلا امتحاناً لك ، ورحمة بك عسى أن تثوب إلى رشذك وعقلك . وتقدم مثله مراراً، وآخرها في الحكمة ٢٤ .

الإيمان :

٣٠ - الإيمانُ على أربعِ دَعَائِمَ : على الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهَادِ .
وَالصَّبْرُ مِنْهَا على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ .
فَمَنْ أَشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ
اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنْ
ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ . وَالْيَقِينُ مِنْهَا على أَرْبَعِ شُعَبٍ :
على تَبَصُّرِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبَرَةِ ، وَسُنَّةِ
الْأَوَّلِينَ . فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ
لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبَرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ .
وَالْعَدْلُ مِنْهَا على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على غَايِصِ الْفَهْمِ وَغَوْرِ الْعِلْمِ ،
وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْجِلْمِ . فَمَنْ فَهِمَ عِلْمَ غَوْرِ الْعِلْمِ ، وَمَنْ
عِلْمَ غَوْرِ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ ، وَمَنْ حَلَّمَ لَمْ يُفْرِطْ فِي
أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً . وَالْجِهَادُ مِنْهَا على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على
الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصَّدَقِ فِي الْمَوَاطِنِ ،
وَشَتَانِ الْفَاسِقِينَ ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ
نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْوْفَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى
مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَتَى الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ .

● كل من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله يسمى مسلماً ، ونجري عليه أحكام الاسلام ، كالإرث والزواج والدية سواء أنطق بهذه الشهادة عن علم أم جهل ، وعن صدق أم نفاق .. وفي صدر الاسلام كانت كلمتا : المؤمن والمسلم مترادفتين أو متقاربتين في المعنى ، وقد أطلق القرآن كلمة المؤمنين على المسلمين ، وخاطب الجميع بيا أيها الذين آمنوا في العديد من آياته .

وهناك آية تشترط في المؤمن الحق معرفة القلب ، وخشوعه للذكر الله ، وخوفه منه ، وتوكله عليه مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهي قوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم - ٤ الأنفال » . وفي معنى هذه الآية أو قريب منه قول الإمام : الايمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

ووجه الجمع بين هذه الآية وغيرها من الآيات التي أطلقت كلمة المؤمن على كل من نطق بالشهادتين هو ان هذا الناطق يعامل في الدنيا معاملة المسلم المجرد النطق وكفى ، وفي الآخرة يعامل على أساس القول والعمل معاً ، ولا يكفى منه بمجرد النطق . ومهما يكن فإن الإمام هنا لا يتكلم عن الايمان من حيث هو وعلى وجه العموم والشمول ، بل عن ايمان خاص يأتي بعد العصمة من غير فاصل بدليل انه جعل العدل من دعائمه ، وليس من شك ان الايمان أعم ، والعدل أخص . وهذا الايمان الذي يتكلم عنه الإمام يقوم على أربع دعائم ، وهي :

١ - الصبر ، وله أربع علامات : الأولى الشوق الى رحمة الله وجنته . ومن البداهة أن من تطلعت نفسه الى نعيم الآخرة انصرف بجميع كيانه عن الدنيا وزينتها . الثانية الشفق أي الخوف من عذاب النار ، ومن خاف من شيء ابتعد عما يؤدي اليه . العلامة الثالثة اللامبالاة بالدنيا وأشياءها ، أقبلت أم أدبرت ، سالت أم حاربت . الرابعة العدة والتأهب للموت بالتقوى والعمل الصالح .

٢ - اليقين الصادق الثابت ، وأيضاً له أربع علامات : الأولى الثقة بكل ما يصدر عنه ، كما قال الإمام في الرسالة ٦١ : « اني لعل بصيرة من نفسي ويقين من ربي » . وفي الخطبة ٤ : « ما شككت في الحق مذ أريته » . الثانية معرفة

الحقائق على وجهها ، كتنزيه الباري عن المادة والزمان والمكان والتشبيه والتعطيل والجهل والظلم ، وكالعلم بالشرعية وأسرارها وبالبديع وآثارها . العلامة الثالثة الاتعاض بالعبر والانتفاع بالنذر . الرابعة العمل بسنة السلف الصالح .

٣ - العدل ، وعلاماته أربع : الأولى (غور العلم) أي أسرارته ودقائقه . الثانية (غائص الفهم) أي تطبيق العلم على موارده ، ولا يكفي مجرد الحفظ والاطلاع ، والقدرة على الجدل واستخدام البراهين . العلامة الثالثة (زهرة الحكم) وهي وضوحه لكل الناس في الفصل بين الحق والباطل . الرابعة (رساخة اللحم) بحيث إذا غضب العادل فلا يخرج منه الغضب من الحق ولا يدخله في الباطل .

٤ - الجهاد ، وله أربع علامات : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر والثبات في ميدان القتال ، وكراهية الظلم والفساد .

وكل هذه الدعائم التي ذكرها الإمام ، والعلامات لكل دعامة - تدل دلالة قاطعة على أنه يتحدث عن الإيمان الكامل المتأخيم للعصمة ، كما أشرنا .

الكفر والشك :

٣١ - الكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالزَّيْغِ وَالشَّقَاقِ ، فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْ كَثَرَ زَوَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عِمَاهُ عَنِ الْحَقِّ . وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ . وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ . وَالشُّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّوَارِي وَالْهَوْلِ وَالتَّرَدُّدِ وَالْإِسْتِسْلَامِ ، فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ . وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ . وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي

الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ . وَمَنْ أَسْتَسَلَّمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
هَلَكَ فِيهَا .

● للكافر عند المسلمين أصناف ، منها أن يمجّد الخالق من الأساس ، أو يؤمن به وينكر اليوم الآخر ، أو يؤمن بهما معاً وينكر نبوة محمد (ص) . ومنها أن يجعل مع الله إلهاً آخر ، أو ينسب إليه صاحبة وولداً ، ومنها أن يغالي في مخلوق وينعته بصفة من صفات الخالق ، أو ينصب العداء لأهل بيت الرسول (ص) ، ومنها أن ينكر ضرورة دينية ثبتت بإجماع المسلمين ، كوجوب الصوم والصلاة ، وتحريم القتل والسلب والنهب . وأشار الإمام إلى أصناف الكافر بقوله : (الكفر على أربع دعائم) وهي .

١ - التعمق ، والمراد به اقتحام السدود المضروبة دون الغيب كالبحث عن ذات الله سبحانه وكنهه ، وتقديم ذلك في شرح الخطبة ٨٩ ، وجاء فيها : « إن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكتفهم البحث عن كنهه رسوخاً » .

٢ - التنازع ، أي الجدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، كما في الآية ٨ من سورة الحج .

٣ - الزيغ ، وهو الانحراف عن الحق الذي يشمل الجحود بالله والنصب والمغالاة .

٤ - الشقاق ، أي إنكار الحق عناداً ومكابرة ، ويصدق هذا فيما يصدق على منكر الضرورة .

(فن تعمق لم يُنسب إلى الحق) المراد بلم ينب لم يرجع ، والمعنى من بحث عن ذات الله وكنهه يبقى حائراً مدى عمره ، ولا يرجع إلى رشده إطلاقاً ، لأن المحدود لا يدرك غير المحدود (ومن كثّر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق) لا شيء وراء الجدل والنقاش بالجهل إلا الحيرة والضلال ، أما الجدل مع العلم بالحق وإخفائه فهو نفاق وكذب متعمد (ومن زاغ الخ) .. عن طريق الهدى

رأى الخير شراً ، والشر خيراً (ومن شاقّ الخ) .. أي تمرد على الحق فقد ركب الصعب وسلك مسالك التهلكة ، ولن يجد فرجاً ولا مخرجاً .
 (والشك على أربع شُعب) : الأولى التّاري ، ومعناه الجدل بلا تعمق ، والمراد به هنا السفسطة واللعب بالألفاظ البرّاقة التي تربك المستحيل ممكناً ، والممكن مستحيلاً . الثانية الهول ، أي الخوف من الوقوع في الخطأ ، والخائف ينفر من خياله ، ويحسبه عدواً جاء لاغتياله . الثالثة التردد في العزم والنية ، ومن كان هذا حاله لا يأتي بخير . الرابعة الاستسلام لكل راكب وقائد الى الهلاك والدمار .

٣٢ - فَاِعِلْ اَلْخَيْرَ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاِعِلْ الشَّرَّ شَرٌّ مِنْهُ .

● كل ما فيه جهة صلاح للناس بلا ضرر على أحد فهو خير ، وكل ما فيه جهة فساد بلا نفع أو كان ضرره أكثر من نفعه فهو شر . وليس من شك ان الفاعل علة للفعل ، والعلة أقوى وأكمل من المعلول ، لأن لها من الصفات الذاتية ما لا يظهر ولا يمكن أن يظهر في المعلول أي أن في العلة ما في المعلول وزيادة . وغير بعيد أن يكون مراد الإمام مجرد الحث على فعل الخير وترك الشر ، وليس من قصده التفاضل بين الفعل وفاعله .

٣٣ - كُنْ سَمِيحاً وَلَا تَكُنْ مُبَذِّراً . وَكُنْ مُقَدِّراً وَلَا تَكُنْ مُقْتَرّاً .

● المبذر : ينفق المال فيما لا ينبغي ، والمقدر : يقدر العواقب ، فينفق دون ما يكسب ، ويدخر الفاضل لوقت الحاجة ، وعلى الأقل قدرأ بقدر . والمقتّر : يُضَيِّقُ في النفقة على نفسه وعياله بلا ضرورة ، والسمح هو السهل اللين لا يقر ولا يندر ، ويضع كل شيء في محله ، والمعنى: كن بين بين ، كما نطقت الآية ٢٩ من سورة الإسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

٣٤ — أَشْرَفُ الْغِنَى تَرَكُ الْمُنَى .

● كل إنسان يتمنى أن تكون له زوجة صالحة وولد بار ، وأن يكون عالماً عاقلاً ، وسليماً معافى ، وغنياً عن الناس . وهذا النوع من التمني لا يوصف بخير ولا بشر ، لأنه لازم قهري لطبيعة الإنسان وفطرته ، أما الذي يتمنى العفو والرحمة من الله ، والخير لكل الناس ، وإن يحق الله الظلم وأهله فهو من الطيبين الأخيار . وليس من شك أن النبي وعلياً وصالح المؤمنين تمنوا الهداية للناس اجمعين . وعليه فالإمام يتكلم عن التمني الذي هو بالحمق أشبه ، كالطمع في غير مقبل . وعلى أية حال فإن التمني لا يجلب نفعاً ، ولا يدفع ضرراً . وقد يخدع الشهوات ويخدرها الى حين ، كما قال المتنبي :

منى ان تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

٣٥ — مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ .

● من أساء الى الآخرين ذموه بالحق وبالباطل، واتخذ منهم أعداء لنفسه، والبادي أظلم ، بل من ادعى ما ليس فيه مقتته الناس ، وذموه بأكثر مما يستحق .

٣٦ — مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ .

● الأمل هو الطاقة المحركة لحياة الانسان ، والقوة الدافعة له على العمل.فالتاجر يفتح حانوته أملاً بالربح ، والفلاح يزرع أملاً بالحصاد ، والطالب يجهد ويجتهد أملاً بالنجاح .. وهكذا ، ومن هنا قال الإمام : طول الأمل ، ولم يقل الأمل . وليس من شك أن طوله يُنسي الموت ، وإن الانسان في طريقه الى الرحيل ، ومن نسي هذا المصير تحدى جميع القيم،وتعالى على الحق والعدل عناداً واستكباراً .

٣٧ — وَاللّٰهُ مَا يَنْتَفِعُ بِهَٰذَا أَمْرًاوُكُم . وَإِنَّكُمْ لَتَشْقَوْنَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
فِي دُنْيَاكُمْ . وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ
وَرَاءَهَا الْعِقَابُ . وَأَرْبَحَ الدَّعَاةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ .

● قال الشريف الرضي : مرّ الإمام في طريقه الى حرب معاوية بمكان من بلاد
العراق يسمى الأنبار ، ولما رآه زعماء الفلاحين نزلوا عن خيولهم وأسرعوا بين
يديه ، فاستنكر ذلك وقال : ما هذا الذي صنعتموه ؟ قالوا : خلقنا منّا نعظم
به أمرنا . فقال : وأية جدوى لكم ولأمرائكم بهذا التقليد البغيض ؟ انه تعب
ونصب عليكم في الدنيا ، وشقاء وإلزاء في الآخرة .

(وما أخسر المشقة وراءها عقاب) . أخسر الناس صفقة من أتعب نفسه في
دنياه ، وشقي في آخرته (واربح الدعة معها الأمان من النار) . النعمة الكبرى
أن تعيش دنياك في هدوء وطمأنينة، وأن تأمن في آخرتك من عذاب النار وغضب
الجليل .. اللهم إنا في هذه النعمة لراغبون ، وأنت الوسيلة إليها وحدك لا
شريك لك .

٣٨ — يَا بُنَيَّ أَحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعًا وَأَرْبَعًا لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ :
أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ . وَأَكْبَرُ الْفَقْرِ الْخُمُقُ . وَأَوْحَشُ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ .
وَأَكْرَمُ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ . يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْأَتْحَقِ فَإِنَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ . وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَبْعُدُ عَنْكَ
أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالنَّافِهِ .
وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ إِلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبْعِدُ
عَلَيْكَ الْقَرِيبَ .

● وتَسأل : لماذا قال : أربعاً وأربعاً ، ولم يقل : ثماني وصايا ؟

وأجاب بعض الشارحين بأن الأربع الأولى تعود الى ذات الانسان من حيث هو ، والثانية من حيث سلوكه مع الناس .. وهذا مجرد حدس وتكهن ، والأقرب حمل الكلام على التوكيد والتحقيق ، ومهما يكن فالمعنى واحد ، والوصايا الثمانية هي :

١ - العقل ، وليس المراد به هنا عقل اينشتاين واديسون وغيرهما من العقول الرياضية ، بل المراد العقل الذي يقدر العواقب ، ويدفع بصاحبه الى التواضع وفعل الخيرات ، ويتعد به عن الرذائل والمهلكات كالكذب والظلم والعجب، وما الى ذلك .

٢ - الحق ، وهو ضد العقل الذي أشرنا اليه ، والأحمق أفقر الفقراء ، لا ينتفع بعظمة ، ولا يستفيد من تجربة ، ويتعجل الأمور بلا روية، ولا يدرك عواقبها إلا بعد القوات .

٣ - العجب ، وهو جهل وصلافة ، والمعجب بنفسه ثقيل على كل قلب ، ولذا يعيش غريباً بين قومه . قال الإمام في الرسالة ٣٠ : الغريب من لم يكن له حبيب .

٤ - حسن الخلق ، وأساسه الصبر والرفق وسعة الصدر ، والبعد عما يشين الكرام وأهل المروءات .

٥ - مصادقة الأحمق ، لأنها تضر ولا تنفع .. انه ينصحك بصدق وإخلاص ولكن بلا عقل ولا علم .

٦ - مصادقة البهيل ، لأنه ضنين بالحق والوفاء .. يأخذ منك ولا يعطيك إلا التجاهل والخللان .

٧ - مصادقة الفاجر، لأنه لا يعرف ولا يتعرف إلا على صكوك البيع والشراء ويعقد الصفقات مع الشيطان على دينه ووطنه ، فلا بدع اذا باع صديقه بأبخس الأثمان .

٨ - مصادقة الكذاب ، لأنها نفاق ورياء ، وتلبيس وتضليل تُريك الممكن مستحيلاً ، والمستحيل ممكناً .

٣٩ — لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضْرَتْ بِالْفَرَائِضِ .

● النافلة يرجح فعلها ويجوز تركها ، والفريضة يجب فعلها ويحرم تركها ، فإن أمكن الجمع بين الاثنتين فذاك . وكلام الإمام منصرف عن هذه الحال ، لأنها من الوضوح بمكان ، وإن تعدل الجمع ولم تسنح الفرصة إلا لواحد دون الآخر — كما هو الفرض — فالواجب أولى وأهم ، ومثال ذلك في العبادة أن يتسع الوقت للفريضة فقط فتقدم على النافلة بلا ريب ، ومثاله في غير العبادة أن لا يتسع المال إلا لوفاء الدين فيقدم على الصدقة . هذه هي القاعدة كمبدأ ومنهج ، وعلى المجتهد أن يفرع ويطبق . والتفصيل في كتب الفقه .

٤٠ — لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

● اللسان ترجان القلب وانعكاس عنه ، ووظيفة المترجم أن يصغي ويعقل عن المترجم عنه ، ثم يحكي ويروي ما سمع ووعى بالحرف الواحد ، فإن غير وبدل فقد خان ، وإن سبق ونطق قبل أن يسمع ويتدبر فهو مجنون ، لأن الغيب لله وحده .. وهكذا يسرع الأحق ويتعجل القول قبل أن يتدبره في عقله وقلبه ، وقبل أن يعرف العواقب ، أما العاقل فيخزن لسانه ، ولا يقول إلا بعد الروية والتفكير والعلم بالعاقبة وانها له لا عليه . وتقدم مثله في الخطبة ١٧٤ ولكن الإمام ذكر هناك المؤمن مكان العاقل هنا ، والمنافق مكان الأحق . ويومئ هذا الى ان الإيمان لا يستقيم إلا مع العقل . وفي الحديث الشريف : أصل ديني العقل .

٤١ — بَجَلَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْ شُكْوَاكَ حَظًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ

الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ ، وَيَحْتِثُّ حَتَّ الْأُزَاقِ .
وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ . وَإِنَّ

اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

● المراد بالشكوى هنا المرض . وكان بعض أصحاب الإمام مريضاً فقال له : (جعل الله ما كان من شكواك الخ) .. يستحق الإنسان الأجر والثواب على خير يؤديه ويفعله مختاراً ، لا على ما يحدث له قهراً كالمرض ، فإنه تماماً كالطول والقصر .. أجل ، قد يكون المرض مع الرضا بقضاء الله سبباً للتخفيف من وطأة الذنوب أو زوال أثرها والعذاب عليها ، لأن المرض ضرب من العذاب .

هذا عن الثواب الذي كتبه الله تعالى على نفسه ، وجعله حقاً لفاعل الخيرات ، أما الثواب تفضلاً وجوداً وكرماً فيجوز للمريض ولن كف أذاه عن الناس ، ولكل ذي نية صادقة ، وغاية صالحة ، ولذا استدرك الإمام وقال : (وان الله سبحانه يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة) تفضلاً منه وكرماً ، لأنه أهل العفو والمغفرة ، والجود والرحمة .

٤٢ — يَرْحَمُ اللَّهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرْتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ وَعَاشَ مُجَاهِداً .

● قال ابن عبد البر في الاستيعاب : اختلفوا في نسب خباب ، والصحيح انه تميمي النسب ، خزاعي الولاء ، لحقه سبأ في الجاهلية ، فاشترته امرأة من خزاعة وأعتقته ، وكان حداداً يعمل السيوف ، وفاضلاً قديم الإسلام ، وممن عُدَّ في الله ، وصبر على دينه ، ومن المهاجرين الأولين ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله (ص) . وقال ابن حجر في الإصابة : رُوي أنه أسلم سادس سنة ، ونزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين . وقال ابن أبي الحديد : صلى عليه أمير المؤمنين (علي) ودفن في ظهر الكوفة ، وشهد مع الإمام صفين ونهروان . وابنه عبد الله قتله الخوارج ، فاحتج الإمام عليهم به وطالبهم بدمه .

وأثنى عليه الإمام بهذه الصفات : (أسلم راغباً) عن بصيره و يقين ، وصدق وإخلاص ، وأوذى بالكثير من عتاة قريش في سبيل الإسلام ، من ذلك أنهم أوقدوا النار على ظهره كي يرتد عن دينه ، فثبت وصبر .. ولا جهاد أعظم من الصبر على التنكيل والأذى من أجل الحق ونصرته. وجاء يوماً الى رسول الله (ص) وقال له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال له : قد كان من قبلكم يؤخذ فيُحضر له ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه . والله ليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب الى حضرموت فلا يخاف إلا الله.. ولكنكم تستعجلون .

(وهاجر طائماً) . نشأ الإسلام في مكة فتألب عليه صناديد الشرك والطفيان ، وساموا أهله سوء العذاب ، وهم لا يملكون أية قوة سوى الصبر والثبات ، وبعد ١٣ سنة من صبر الأحرار على البلاء - هاجر النبي (ص) بالإسلام ليكون قوة رادعة لأهل الضلال ، وحلقة جديدة من النضال والتضحية والفداء ، فهاجر معه لهذه الغاية جماعة من الصحابة ، منهم خباب ، وأنشأوا معسكراً للدفاع عن الدين وحماية المستضعفين ، وتأديب المعتدين . فصدق عليهم قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - ٢١٨ البقرة » .

(وقنع بالكفاف) رضي من الرزق بما يكفيه ويفنيه عن الناس بلا زيادة ، وهذه فضيلة من أعظم الفضائل، لأنه بهذا الرضا قدّم خباب خدمة كبرى للإنسانية بعامة ، وللمعوزين بخاصة حيث ساوهم بنفسه ، ولو أخذ الزائد عن سد حاجته، وتمتع به لكان قد حرم المحتاجين قوتهم الضروري ، وصدق عليه قول الإمام في الحكمة الآتية : « فما جاع فقير إلا بما متع به غني » .

(ورضي عن الله) أي فرح بجزائه وثوابه (وعاش مجاهداً) يقاتل دفاعاً عن الدين ، وصيانةً لأرواح المستضعفين ، وضماناً لحريتهم وكرامتهم .

٤٣ - طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ،
وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ .

● المراد بذكر المعاد هنا الإيمان بالبعث . ومن لم يؤمن به فلا يجديه الإيمان بالله شيئاً ، لأن الإيمان بالله حقاً يدخل في مفهومه الإيمان بكل ما يليق به من صفات الكمال والجلال كالعلم والقدرة على إحياء العظام وهي رميم ، ومن كفر بهذه القدرة فقد كفر بالله من حيث يريد أو لا يريد .. أما دعواه بأنه يؤمن بالله فهي خيال وسراب ، لأنه يؤمن بكائن عاجز ، والعاجز لا يكون إلهاً ، بحكم البدئية . قال الإمام الصادق : ربما توهمت انك تدعو الله وأنت تدعو سواه .

(وعمل للحساب) . وأيضاً مجرد الإيمان بالله والبعث معاً لا يجدي نفعاً إلا مع العمل الذي ينال عليه العامل أجراً « يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء - ٣٠ آل عمران » . وبكلمة الإمام جعفر الصادق (ع) : « الإيمان عمل كله » . (وقنع بالكفاف ، ورضي عن الله) تماماً كخبايا الذي تحدثنا عنه قبل قليل في الحكمة ٤٢ .

٤٤ — لَوْ صَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي . وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَهَائِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي . وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَأَنْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ . »

● قال ابن أبي الحديد : « الخيشوم أقصى الأنف ، والجُمُات جمع جمة مكان يجتمع فيه الماء ، ومراد الإمام لإذكار الناس بحديث : « يا علي لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق » .

وبلغ هذا الحديث عن رسول الله (ص) حد التواتر المفيد للقطع ، فلقد نُقل بعشرات الطرق والأسانيد في العديد من الكتب ، ذكر منها صاحب كتاب : الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٢٠٧ وما بعدها ، ذكر من كتب السنة حرالي ١٦ كتاباً ، منها صحيح مسلم طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ وصحيح

الترمذي ج ٢ ص ٣٠١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ وصحيح النسائي ج ٢ ص ٢٧١
 طبعة مصر سنة ١٣١٢ ومسنند أحمد ج ١ ص ٨٤ طبعة مصر سنة ١٣١٣ ومستدرك
 الصحيحين ج ٣ ص ١٢٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ والاستيعاب ج ٢ ص ٤٦٤
 طبعة حيدر آباد سنة ١٣٣٦ .

٤٥ — سَيِّئَةٌ تَسُوْغُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

● كل منا يخطيء ويسيء ، والعصمة لأهلها .. والفرق ان بعض الأفراد يصر
 على الخطأ بعد بيانه ، ويرفض النقد ، بل يزداد إصراراً اذا نُبِه الى خطئه
 وإساءته .. وليس شك في انه مجنون ، قال الإمام : « الحدة ضرب من الجنون ،
 لأن صاحبها يندم ، فإن لم يندم فجنونه مستحكم » . وقال أيضاً : أشد الذنوب
 ما استهان به صاحبه .

والمنصف العاقل يجابه الواقع بصمود وشجاعة ، ويعترف بالخطأ ، ويصدق مع
 نفسه ومع الآخرين . وهذا تصير سيئته من الحسنات ، قال سبحانه عن التوابين :
 « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات - ٧٠ الفرقان » . وقال رسول الله (ص) :
 « من رأى أنه مسيء فهو محسن » والعكس صحيح أي : من رأى انه محسن فهو
 مسيء ، لأنه أفسد إحسانه بالعجب والتيه . ورب كلمة أفسدت الإيمان وقوضته
 من الأساس .

٤٦ — قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ . وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنْفَتِهِ . وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

● كثيراً ما تُطلق الكلمات من غير قياس وتحديد ، وبالحصوص في عالم الأخلاق
 والقيم ، فيؤدي ذلك الى الخلط وسوء الفهم والتفاهم بين الناس .. وأشار الإمام
 هنا الى المقياس الصحيح الذي يجب أن يُقاس به قدر الرجل وصدقه وشجاعته
 وعفته :

١ - (قدر الرجل على قدر همته) وثقته بأنه يملك من الطاقات ما يُغير بها مجرى الطبيعة والحياة ، وانه بالعلم والعمل يصل الى ما هو أفضل وأروع .. وكل من يؤمن بهذه الحقيقة ، ويعمل بموجبها يجب ان يقاس بها تقديره وتكريمه أي يُحترم ويُعظم لعلمه وعمله الى ما هو أتم وأكمل . وكأن الإمام يومئذ بهذا الى نفسه ، لأنه المثل الأعلى لبعده الهمة وعلوها ، فلقد كان في سن العاشرة حين قال لرسول الله (ص) : أنا يا رسول الله، يوم دعا الرسول الى مائدته صناديد قريش ، وقال لهم فيما قال : أيكم يُوازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم . قال علي : انا، وما هاب وارتاع من الرؤوس الكبار الذين يملكون الجاه والمال ، واستخف بهم وهزئهم وسخريتهم ، وهو لا يملك إلا همته ومواهبه . وفي كتاب «عبقريّة الإمام» علّق العقاد على ذلك بقوله : « فما منعتة الطفولة وسن العاشرة أن يعلم أنه قوة لها جوارٌ يركن اليها المستجير » .

٢ - (وصدقه على قدر مروءته) ومعنى المروءة يجمع بين الإيجاب بفعل ما يستوجب المدح والثناء ، وبين السلب بترك ما يستدعي اللوم والذم ، أما الصدق هنا فليس المراد به مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم وكفى ، بل المراد به حسن السلوك الذي لا يُشّاب بعبث ونقص ، وهو بهذا المعنى مرادف للمروءة أو لازم لها ، ولذا يُستدل على الصدق بالمروءة ، وبها عليه .

٣ - (وشجاعته على قدر أنفته) والشجاعة تشمل الصمود في القتال، وتحمل المسؤوليات ، ومواجهة الصعاب بقلب ثابت ، وأيضاً تشمل الاعتراف بالخطأ . والأنفة استنكاف عن الجبن والعار ، واذن الشجاعة من لوازم الأنفة، وكل واحدة منهما تدل على أختها .

٤ - (وعفته على قدر غيرته) والعفة تشمل نزاهة اليد واللسان ، والبطن والفرج ، ولكن المراد بها عفة الفرج فقط لمكان كلمة الغيرة . ويقال : غارَ الرجل على امرأته أي أنف أن يشاركه الغير فيها ، ومن كان كذلك ينبغي له أن لا يعتدي على أعراض الآخرين ، ومن هنا قيل : ما زنا غيور قط ، ومعنى هذا ان الزاني لا يكون عفيفاً ولا غيوراً ، وانه بحكم الديوث الذي يدخل الرجال على زوجته . ويروى ان جماعة من أهل الجاهلية تركوا الزنا لهذه الغاية .

٤٧ — الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ . وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ . وَالرَّأْيُ بِتَخْصِيصِ الْأَسْرَارِ .

● يشير الإمام بهذا الى أن التخطيط شرط أساسي للظفر والنجاح ، وإن أي عمل من غير تصميم وتخطيط يذهب سدى ، وربما كان ضرراً محضاً . وهذه الحقيقة سمة العصر الحديث في المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية على السواء ، لأنهم يخططون لكل شيء ، للانتاج والخدمات والمواصلات .. حتى الحمل في بطن امه يخططون له ، بل الكذب في صورة دعاية ، أيضاً له عندهم تخطيط ودراسة .

والشرط الأساسي في التخطيط الحزم ، وفسره الإمام بإجالة الرأي أي بالدراسة العلمية على ان تبقى هذه الدراسة طي الكتمان ، لا يعلن عنها إلا بعد التجربة والنجاح التام ، لأن الإعلان قبل العلم بالنتيجة حماقة وتنبؤ قبل الأوان ، ومتى تمت الدراسة ، ونجحت التجربة أعلنت على الجميع ليستفيد منها القاصي والداني ، ولا يجوز إخفاؤها بقصد الربح والاحتكار ، كما هو شأن المستغلين والمستعمرين في هذا العصر وكل عصر .

٤٨ — أَحْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّيْمِ إِذَا شَبِعَ .

● تتمثل كرامة الكريم في تواضعه للفقراء إذا استغنى ، وتبهره على الأغنياء إذا افتقر ، وفي تحمله الكلمة الموجهة من أهل الضعف والقلة وصفحه عند المقدرة ، وفي ثورته وغضبه حين تمس كرامته من قريب أو بعيد ، لأنها لقلبه أشد الجروح إيلاًماً . أما اللئيم فعلى العكس .. إذا استغنى بطر وطفى ، وربما ترفع عن رد السلام الواجب على الفقراء ، وإذا افتقر ذل ووهن .. ولا يبالي بما يقال له ولا بما يفعل به « من يهن يسهل الهوان عليه » ما الجرح بميت إيلاًم .

٤٩ — قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

● ومثله الحكمة الآتية : « التودد نصف العقل » . وقال رسول الله (ص) : « تحبب الى الناس محبوبك .. ثلاث يُصنّفن ود المرء لأخيه : يلقاه بالبشر، ويوسع له في المجلس ، ويدعوه بأحب الأسماء اليه » شريطة أن لا يكون ذلك نفاقاً .

٥٠ - عَيْنُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

● المراد بالجد هنا الغنى وإقبال الدنيا ، وهي تستر العيوب وتغفر الذنوب عند أبنائها حيث ينظرون الى الأشياء من خلالها لا من خلال العقل ، فمن كان في يده شيء منها ستر عن أعينهم هذره وجهله ، وجبته وبخله ، وربما رأوا الجهل منه عقلاً ، والضعف حلاً ، والهدر بلاغة . وتقدم مع الشرح قول الإمام في الحكمة ٨ : إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره .

٥١ - أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ .

● تقدم مثله مراراً ، آخرها في الحكمة ١٠ : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه . ولا جديد عندنا نضيفه ونعطفه على ما قلناه هناك .

٥٢ - السَّخَاءُ مَا كَانَ أُتِيْدَاءً ، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

● التذم : الفرار من الدم ، والتأثم : الفرار من الإثم ، والتحرج : الفرار من الحرج أي الشدة والضيق ، والمعنى ان العطاء من غير سؤال كرم وسخاء بالطبع ، وهو عن مسألة تكلف وتطبّع لسبب أو لآخر. وفي رأينا أن كل عطاء يسد الحاجة والإعسار فهو خير عند الله طبعاً كان أم تطبعاً .

٥٣ - لَا غِنَى كَالْعَقْلِ . وَلَا فَقْرَ كَالْجَهْلِ . وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ
وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ .

● لا جدوى من مال ولا سلطان بلا عقل .. ان العقل مصدر العلم والمال والجاه وكل خيرات الدنيا والآخرة . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : العقل ما عبُد به الرحمن ، واكتسب به الجنان . فقل له : والذي عند معاوية ؟ قال : تلك النكراء - أي الدهاء - تلك الشيطنة . ولا يعرف التاريخ ديناً كالإسلام أشاد بالعقل ، واعتمد عليه في مبادئه وتعاليمه ، وقد جاء ذكر العقل والعلم ومشتقاتهما في القرآن الكريم - ٨٨٠ مرة للدلالة على إحقاق الحق وإبطال الباطل .. هذا ما عدا الآيات المشتملة على ذكر الهدى والنور. وهنا يكمن السر في تقدم المسلمين وحضارتهم التاريخية ، وإذا انحطوا وتخلفوا، اليوم، فلأنهم تركوا الجهاد المقدس الذي أمرهم به الإسلام ، وانقسموا على أنفسهم ، فالذنب ذنبهم لا ذنب الإسلام . (ولا فقر كالجهل) لأنه أصل كل رذيلة ، وانه يلحق الإنسان بالحيوان . وفي أصول الكافي قال رسول الله (ص) : « يا علي لا فقر أشد من الجهل ، ولا مال أعود من العقل .. إذا رأيتم كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهاوا به حتى تنظروا كيف عقله » .

(ولا ميراث كالآدب) المراد بالميراث ما يتركه المرء من الأحداث، وبالآدب حسن السيرة (ولا ظهير كالمشاورة) الظهير : المعين ، والمراد بالمشاورة مشاورة العاقل الناصح . قال رسول الله (ص) : ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير عاقلاً له دين وورع . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) للمشورة حدود : الأول أن يكون المشير عاقلاً . الثاني أن يكون متورعاً . الثالث أن يكون صديقاً . الرابع أن تطلعه على شرك حتى يكون علمه به كعلمك بنفسك . فإن كان عاقلاً انتفعت بمشورته ، وإن كان متورعاً جهد نفسه في النصيحة ، وإن كان صديقاً كتم شرك ، وإذا أطلعته على شرك كملت النصيحة . وتقدم الكلام عن ذلك في الرسالة ٥٢ فقرة « المشورة » .

٥٤ — الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عَلَى مَا تَكَرَّرَ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

● ومن أمثلة الصبر الأول : جائع لا يجذ الى القوت سبيلاً ، ومريض لا يملك ثمن الدواء ، وسجين لا عم له ولا خال . ومن أمثلة الصبر الثاني فلاح زرع واجتهد أملاً بالحصاد ، ولما استوى الزرع على سوقه أتت عليه آفة ، فأصبح هشياً تذروه الرياح . والصبر ممدوح وحسن إذا كان وسيلة لغاية نبيلة كالصبر في الجهاد المقدس ، وفي طلب العلم وقوت العيال ، أما الصبر على الفقر مع القدرة على العمل ، والصبر على الاضطهاد بلا مقاومة — فهو مذموم وقبيح شرعاً وعقلاً .

وروي أنه كان في العصور الخالية أسرة في الصين عاشت في بيت واحد ، وانها كانت تضم جداً وعشرات الأولاد والأحفاد ذكوراً وإناثاً ، ومر عليها أمد غير قصير وما كدّر صفوها كلمة ولا حركة من واحد من أبنائها وأفرادها حتى كان يضرب المثل بسعادتها وهنائها ، ولما سأل امبراطور الصين الجدل الأعلى عن سبب هذه السعادة كرر في جوابه كلمة الصبر مئة مرة .

٥٥ — الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ . وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

● كلمة الوطن توحى بالقوة والأهل وجمع الشمل ، وبالمتعة والراحة والطمأنينة . والغنى الواجد تتوافر له هذه الأوصاف ، لأن المال قوة ومتعة ، وبه تطمئن النفس وترتاح ، والى صاحبه تتودد الرجال وإخوان الزمان . أما كلمة الغربة فإنها توحى بالضعف والوحدة والوحشة ، وبالآلم والخوف والضياح ، ومعنى هذا أن الغنى وطن بذاته سواء أكان في مكان الولادة أم في غيره ، وأن الفقر غربة وسجن وتشريد أينما كان ويكون حتى في مسقط الرأس ، بل هو كفر أيضاً كما قال الرسول (ص) ، والموت الأكبر كما قال الإمام في الحكمة الآتية ، والوصف بالأكبر يومئذ الى ان الفقر أقسى وأشد من الموت المعتاد . وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة ٣ .

ولا بد من الإشارة الى ان مراد الإمام بالغنى أن يملك المرء من أسباب العيش

ما فيه الكفاية له ولعياله مع الكرامة أيضاً، وليس المراد به الذهب والفضة والديباج والرياش .

٥٦ — الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

● القناعة أن ترضى بما تيسر من الحلال ، وتيأس عما في أيدي الناس . ومن البدهة أن من رأى الثروة فيما تيسر له من حلال — يستحيل أن تنفذ ثروته ، لأن المفروض ان الميسور هو الثروة بالذات ، وان غير الميسور لم ينظر اليه على الاطلاق . وكان النبي (ع) في طعامه لا يردّ موجوداً ولا يتكلف مفقوداً . وفي شرح ابن أبي الحديد : إن رجلاً قال لسقراط ، وهو يأكل العشب : لو خدمت الملك ما احتجت الى هذا الحشيش . فقال له سقراط : وأنت لو أكلت الحشيش ما احتجت خدمة الملك .

٥٧ — الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

● وكلمة الشهوات هنا تشمل شهوة البطن والفرج ، وحب التعالي والتباهي ، والرغبة في الانتقام والسيطرة ، وغير ذلك . وليس من شك ان المال مطية ووسيلة لإشباع هذه الرذائل والقبائح ، ومتى شبعت بغت وطغت على العقل والقيم الانسانية ، وأصبح الانسان مسيراً لها لا يملك من أمره شيئاً ، وقد ثبت بالحس والمشاهدة ان الانسان كلما أسرف في الماديات والشهوات ازداد بعداً عن الروحانيات . وعن ابن عباس انه قال : أول درهم ودينار ضربا في الأرض وضعها ابليس على عينيه وقال : قرّة عيني أنتم ، لا أبالي الآن أن يعبد بنو آدم صنماً ووثناً . حسبي أن يعبدوا الدرهم والدينار .

وكتب مصطفى صادق الرافعي مقالاً بعنوان « الدينار والدرهم » جاء فيه :
الفقيه الذي يتعلق بالمال هو فقيه فاسد ، يفسد الحقيقة التي يتكلم بها .. فلقد رأيت فقهاء يعطون الناس في الحلال والحرام ونصوص الكتاب والسنة .. وتسخر منهم

الحقيقة بذات الأسلوب الذي يسخر به لص يعظ لصاً آخر ، ويقول له : إياك أن تسرق » .

وبالمناسبة قال الاشتراكيون في ردهم على النظام الرأسمالي بأنه يفتح الطريق للأغنياء أن يسيطروا على رجال الدولة والحكم ويخضعوا السياسة لمصالحهم الخاصة وإلا حاربوهم بالأموال . والضحية الشعب والمستضعفون . ومن أحب التفصيل فليرجع الى كتابنا « فلسفة التوحيد والولاية » ، فصل « بين الشيوعية والرأسمالية » .

٥٨ — مَنْ حَذَرَكَ كَمَنْ بَشَرَكَ .

● المراد بالتحذير النصيح بعلم وإخلاص ، والتخويف من سوء العاقبة باتباع الشهوات ، والمراد بالبشارة الإخبار بالخير والهناء ، والمعنى : من حذرَكَ من الشر فقد بشرَكَ بالخير لو سمعت وأطعت . ومثله رحم الله من أهدى إلي عيوبي .

٥٩ — اللِّسَانُ سَبْعُ إِنْ خُلِيَ عَنْهُ عَقَرٌ .

● اللسان كثير الحركات والعثرات، ولا بد من مراقبته وسجنه وإلا أهلك ودمر .
وتقدم الكلام عنه في الخطبة ١٧٤ و ٢٣١ والحكمة ٣٩ .

٦٠ — الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةٌ اللَّبْسَةِ .

● قال بعض الشارحين : المراد باللبسة اللسعة . وقال الشيخ محمد عبده : اللبسة هنا من اللباس سوى ان المرأة تلبس دون العقرب . وهذا القول أقرب الى الآية ١٨٧ من سورة البقرة : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .
والمرأة والرجل من طبيعة واحدة وطينة واحدة ، والفرق ان لكل منهما وظيفة تخصه .. وشبهها الإمام بالعقرب لأنها تسرع الى الغضب على الرجل ، وتجدد

معروفه لأمر تافه ، وقد تؤذيه بكلمة موجعة وحركة نابية بلا سبب موجب ومعقول ، فأوصاه الإمام بأن يصبر عليها ، ويتحملها على علاقتها ، لأنها مهما تكن فهي أخف وخير من العقرب التي لا يمكن معها العيش بحال .. أقول هذا تعبيراً عن فهمي لا تفسيراً لقول الإمام (ع) .

٦١ - الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

● المعنى واضح ، وهو أن الشفيع يُوصل الطالب الى مطلبه ، تماماً كالجنح بالنسبة الى الطائر .. وأعظم شفيع عند الله التوبة ، والتوسل به إليه تعالى ، ولا واسطة - في دين الإسلام - بين العبد وربه . وقرأت من جملة ما قرأت أن رجلاً قال لكریم : أنت الذي أحسنت إليّ فيما مضى . فقال له : «مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته » .. وهكذا كل جواد كريم .. أما الشفيع عند ناس هذا الزمان فهو النفاق والرشوة والخيانة .

٦٢ - أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

● ومثله ما جاء في الرسالة ٣٠ : من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن واقفاً ، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً . وتقدم البيان والشرح .

٦٣ - فَقَدْ الْأَجِبَةُ غُرْبَةً .

● الحب بين اثنين صورة من صور التعامل والتعاقد بين الأرواح على تبادل الصفاء والإخلاص ، والعطف والحنان ، والإنس والسرور ، والرضا والاطمئنان . ومن فقد هذه الثروة عاش غريباً وأعزل من كل سلاح . وتقدم مع الشرح في الرسالة ٣٠ : الغريب من لم يكن له حبيب .

٦٤ - قَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلِبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

● مهما كان الصبر مرأً وثقيلاً فإنه أخف وأحلى من اللجوء الى لثيم .. والنفوس الطبية الأبية تؤثر ألم العوز والصبر على منة اللثيم وتعنيفه .. انه بطبعه لا يعطي إلا الأذى والإساءة ، وان أعطى قليلاً عن رغبة أو رهبة عنف وتعالى ، ولا يحتمل هذا منه إلا خسيس وضع .

٦٥ - لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقْلُ مِنْهُ .

● الوجود ، وان قل، خير من العدم ما في ذلك ريب .. هذا ، الى أن الأشياء تقاس بعواقبها ، ورب جرعة ماء أو لقمة عيش أحيت نفساً زكية . ويأتي قول الإمام : افعلوا الخير ولا تحقروا شيئاً منه ، فإن صغيره كبير ، وقليله كثير .

٦٦ - الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

● العفاف زينة وفضيلة للفقير والغني وأيضاً للملوك .. وخص الإمام الفقر بالذكر لأنه منقصة عند الناس ، والعفاف يكفر عنه . وأيضاً الشكر زينة وفضيلة من كل الناس ، بل هو واجب عام، من كل حسب طاقته . وذكر الإمام الغني بالخصوص لأنه في الغالب يبعث على الكبرياء والطغيان ، فإذا شكر الغني وتواضع فعني هذا انه من الطيبين الأخيار . ويأتي قول الإمام : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله .

٦٧ - إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَلَا تُبَلِّ مَا كُنْتَ .

● فلا تُبَلِّ أي لا تبال من المبالاة بمعنى الاكتراث، وحذفت الألف للتخفيف ،

والمعنى لا تأسف على ما فات منها كانت ظروفك وأحوالك، لأن الحزن لا يرجع ما فات ، والفرح لا يبقى ما هو آت . وقال واحد من الزاهدين : « ما أصنع بدنيا ان بقيتُ لها لم تبقى لي ، وان بقيتُ لي لم أبق لها ؟ » . واذن فعلام التأسف والتلهف ؟.

٦٨ — لَا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرَطًا أَوْ مُفْرَطًا .

● مفرط : مقصر مهمل ، ومفرط . مسرف متجاوز للحدود في جميع أموره لا يعرف معنى القصد ، ولا يهتدي الى رشد . ومثل الجهل أو أسوأ علم بلادين وعمل . وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، آخرها في الحكمة ٥٣ .

٦٩ — إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

● ووجه الملازمة بين تمام العقل وقلة الكلام — ان العقل من العقال ، فإذا قوي وتم تغلب على اللسان وأمسكه عن اللغو والعبث ، ولا يطلقه إلا فيما ينفع ، فإذا نقص العقل وضعف انطلق اللسان من عقاله ، وجرى على غير هدى هابطاً وصاعداً .. وقد رأينا الجاهل يثرثر بغير حساب ، ويخبر بما لا يسأل عنه، ويحدث من لا يصدقه ويضيق به ويجديته . وتكلم رجل أمام الأحنف فأكثر ، ولما سكت قال له : يا هذا ما ستر الله منك أعظم . وتقدم مثله ويأتي أيضاً .

٧٠ — الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ الْأُمْنِيَّةَ ، مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِبٌ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعَبٌ .

● (الدهر يخلق الأبدان) . كلما تقدمت بنا الحياة وهن العظم، واشتعل الرأس شيباً (ويجدد الآمال) . اذا امتدت الحياة بالانسان في هذه الدنيا قويت العلاقة

والإلفة بينه وبينها ، وازداد بالدنيا أملاً وتعلقاً ، وقد شاع وذاع : « اذا شاخ المرء شابت معه خصلتان : الحرص وطول الأمل » . (ويقرب المنية) لأن العمر في إدبار ، والموت في إقبال ، كما في الحكمة ٢٨ (ويباعد الأمانة) لقرب المنية (من ظفر به نصب ، ومن فاته تعب) . الهاء في « به وفاته » تعود الى مال الدهر ومتاعه ، والمعنى من نال شيئاً من مال الدهر غرق في الغرس والتعمير والتجارة والتعمير ، وإن حرمه الدهر كدح واجتهد سعيّاً وراء المال .. وأذن هو في تعب دائم معدماً ومثرياً .

والخلاصة ان الإمام يقول للشيخ العجوز : بالأمس عملت لدنياك ، فتقاعد عنها الآن ، واعمل لآخرتك فقد أزف الرحيل .

٧١ — مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ . وَلَيْكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ . وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

● المراد بالإمام هنا المرشد والمعلم .. والمرشد السوء علامات ، منها أن يعظ ويتصرف بعكس ما يقول ، ومنها أن يطلب الدنيا بالدين ، ويخالط السلطان وأهل اليسار طلباً للعزة والجاه ، ومنها أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع الى العلم ، وان نُبِّه الى خطئه أنف وثار .. الى غير ذلك مما رأيناه وشاهدناه من كثير من المتسمين بسمة الدين وأهله .

إن الإرشاد يستهدف العمل قبل كل شيء ، فإذا كان المرشد مناقضاً لنفسه ودينه تابعاً لأهوائه وميوله ذهب لإرشاده مع الريح .. وربما أحدث ردة فعل عند بعض السامعين وقال: لو كان الدين كما يصفه هذا الواعظ لظهر أثره في سلوكه. وغير بعيد أن يكون الوعظ مكروهاً ممن يعلم بأن المستمعين اليه على علم بفسقه وأنه يعظ ولا يتعظ .. ومهما يكن فإن العقلاء يستقبحون دعوة الصلاح من الفاسد ،

والإخلاص من العميل الخائن . وفي الحديث : ان الله سبحانه أوحى الى عيسى (ع) :
عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستح مني .

وبعد ، فينبغي للواعظ أن يكون عالماً بالدين وأحكامه ، وعاملاً بعلمه ، ومخلصاً
في قصده ، وفصيحاً يواتيه لسانه على بيان ما يريد ، وذا رؤية نافذة يضع الكلام
في مواضعه ، وجريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم .

٧٢ — نَفْسُ الْمَرْءِ خَطَاةٌ إِلَى أَجَلِهِ .

● كل نفس من أنفاسك يدفع بك الى حفرة موحشة مظلمة ، ويعظك قائلاً
بلسان الحال : أنت الآن على ظهر الأرض ضيف مؤقت ، وغداً في جوفها ،
وهو مقرك الأخير ، فانسجم مع نفسك ، وتزود من دار الضيافة لدار القرار .

٧٣ — كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

● المراد بالمعدود هنا كل كائن ممكن الحدوث وهو الذي لا يحدث بنفسه ، بل
بسبب خارج عنها ، لأن طبيعته بما هي لا تحمل السبب الكافي لوجوده ، والمعنى
ان كل ما عدا الله سبحانه فهو فان لا محالة (وكل متوقع آت) المراد بالمتوقع
ما لا مفر من وقوعه وحدوثه في المستقبل القريب أو البعيد ، كالموت والبعث
والنشر ، وعليه تكون كلمة «آت» لمجرد التوضيح . ومثله كل آت قريب .

٧٤ — إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا أُسْتَبْهَتْ أُعْتَبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

● الأشياء تُقاس بنتائجها، فالإقتصاد والتدبير خير وحسن لأن نتيجته صيانة المال
والراحة في المستقبل والاستغناء عن الناس ، والتبذير والإسراف شر وقبيح لأن
نتيجته الفقر وضياع الثروة.. وأيضاً البداية تدل على النهاية، والمقدمة تبشر بالنتيجة،

فالتدبير يدل على حسن العاقبة ، والتبذير على سوءها . وكلام الإمام يشير الى ذلك ويقول : كل عاقل يستطيع التنبؤ بما سيحدث غداً من الوضع الحاضر ، فكسل التلميذ الآن يدل على رسوبه في الامتحان ، ونشاطه على نجاحه ، وتخاذل العرب وضعف الثقة بأنفسهم دلالة قاطعة على هزيمتهم أمام كل غازي وطامع .

٧٥ — يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكَ عَنِّي ، أَبِي تَعَرَّضْتُ ، أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتُ .
لَا حَانَ حِينُكَ هَيْهَاتَ غُرْبِي غَيْرِي . لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ .
قَدْ ظَلَقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا . فَعَيْشُكَ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكَ
يَسِيرٌ ، وَأَمْلُكَ حَقِيرٌ . آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ، وَطُولِ الطَّرِيقِ ،
وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ .

● قال الشريف الرضي والذين شرحوا النهج من بعده : ان ضرار بن ضميرة كان من أصحاب الإمام أمير المؤمنين وخاصته ، وبعده دخل على معاوية فقال له : يا ضرار صف لي علياً ، قال : أعفني . قال معاوية : لا أعفيك . قال ضرار : ما أصف منه ، كان والله شديد القوى بعيد المدى ، يتفجر العلم من جوانبه ، والحكمة من أرجائه ، حسن المعاشرة ، سهل المباشرة ، خشن المأكل ، قصير الملبس ، غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا سكتنا ، ونحن مع تقريره لنا أشد ما يكون صاحب لصاحب هيبة ، لا نبتدئه الكلام لعظمته ، يحب المساكين ، ويقرب أهل الدين ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ يتململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : (يا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكَ عَنِّي الْخ) .. هذا هو نهج علي .. وضعه هو لنفسه ، وعاشه بعمله ، واستهان بالموت من أجله .. أبداً لا دنيا تذوق منه ويدوق منها . انها محرمة عليه تحريماً أبدياً لا حل لها ولا محلل .. ومعنى لا دنيا لا شهوة وهوى ، ولا متعة ولذة ، ولا فردية وأناية ، ولا سعادة لحظة واحدة ، بل عناء قائم ،

وبلاء دائم .. وهكذا كانت حياة عليّ لا لشيء إلا لأنه طلق الدنيا ثلاثاً ، ولكنه تقبل هذه الحياة عن رضا وطيب نفس .. واذا طلق الدنيا ثلاثاً لا رجعة فيها ، وهجر حلاوتها وزينتها - فكيف يمكن الجمع والتوفيق بينه وبين أهلها ومحبيها ؟ ومن الذي يجمع بين الضرة وشريكها ؟. وهنا يكمن السر في نقمة الناقسين على ابن أبي طالب ، وثورة الناكثين والفاسقين والمارقين ، وفي عزلة المعتزلين عن بيعته ونصرته ، وفي قول من قال : علي لا يعرف السياسة .. ومن قبلهم قال المشركون لمحمد (ص) : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون - ٦ الحجر » .

٧٦ - وَيَحْكُ لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءَ لَا زِمًا وَقَدَرًا حَاتِمًا . وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ . إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْذِيرًا ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا ، وَكَلَّفَ يَسِيرًا وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا . وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوبًا ، وَلَمْ يُطْعَ مُكْرَهًا ، وَلَمْ يُرْسَلِ الْأَنْبِيَاءُ لَعِبًا ، وَلَمْ يُنْزَلِ الْكِتَابَ لِلْعِبَادِ عَبَثًا ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا « ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

● روى جماعة ، منهم الكليني في « أصول الكافي » ، وأبو الحسين في كتاب « الغرر » ، والشريف الرضي : إن رجلاً شامياً حارب مع الإمام في صفين ، وبعد منصرفه منها سأل الإمام : هل كان مسيرنا الى حرب أهل الشام بقضاء من الله وقدره ؟. فقال له : ما وطننا موطناً ، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره . فقال السائل : عند الله أحسب عنائي .. ما أرى لي أجراً . فقال له الإمام : مه ، لقد عظم الله أجركم في مسيركم وفي منصرفكم ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا مضطرين . فقال السائل : كيف وقد ساقنا القضاء والقدر ؟. فقال الإمام : (ويحك لعلك ظننت الخ) .. وفيما يلي البيان .

القضاء والاختيار :

هناك مواضيع ثلاثة متشابهة متشابكة ، الأول : القضاء والقدر . الثاني : الجبر والاختيار . والثالث : الهدى والضلال . وتكلمنا عن كل منها مفصلاً في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » . ونشير هنا بإيجاز الى معنى القضاء والقدر والاختيار بحكم الموضوع الذي نحن بصدده .

لكل من القضاء والقدر معان . وأوضح معاني القضاء انه البت والإمضاء الذي لا مرد له . وأوضح معاني القدر انه التقدير . قال الإمام الكاظم نجل الإمام الصادق : القدر هو تقدير الشيء من طوله وعرضه ، والقضاء هو إمضاء لا مرد له . وقال الإمام الرضا حفيد الإمام الصادق : القدر هندسة ، والقضاء لإبرام .

أما مسألة الجبر والتفويض فالذي عليه الشيعة الإمامية هو « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين » . ومعنى الجبر ان الانسان لا أثر له إطلاقاً في أفعاله ، وانما هي بالنسبة اليه تماماً كجريان الدم في عروقه ، وخروج النفس من أنفه . ومعنى التفويض ان الله أمر العبد ونهاه ، وأعطاه القدرة على الطاعة والمعصية ، ثم فوض اليه أمر هذه القدرة يفعل بها ما يشاء ، وقطع سبحانه كل علاقة بينه وبين هذه القدرة بحيث أصبح الله بالنسبة الى قدرة العبد بعيداً عنها تماماً كالبائع الذي باع سلعته للمشتري يفعل بها ما يريد بلا مزاحم ومعارض .

ومعنى « أمر » بين الجبر والتفويض « ان الله بعد أن أمر العبد ونهاه منحه القدرة ولم يحرمه اياها كما زعم الجبريون ، ولكنه تعالى لم يعرض كلية عن هذه القدرة ويقطع العلاقة بينه وبينها كما ادعى المفوضية ، بل بقيت قدرة العبد في قبضة خالقها وتحت سلطته ينزعها من العبد متى شاء ، والعبد لا يستطيع أن يرفض هذه القدرة ، ويقول لله : لا أريدها ، وأيضاً لا يستطيع ابقاءها اذا أراد سبحانه أن ينزعها منه ، وبهذا الاعتبار يكون العبد مسيراً لا مخيراً ، وأيضاً بالقدرة التي منحها الله له يستطيع أن يفعل ويترك ، ويكون من هذه الجهة مخيراً لا مسيراً ، ومعنى هذا ان العبد مسير من جهة ، ومخير من جهة ، هذا هو معنى بين بين ، وأمر بين أمرين .

وللتوضيح نقدم هذا المثال : أب قوي مسيطر على ولده أعطاه مالاً ، وقال

له : انجر به ، فأخذ الولد المال لأنه لا يستطيع رفضه بحال ، وأيضاً لا يستطيع الاحتفاظ به اذا أراد الوالد نزع منه ، ولكنه قادر على الاتجار به وفقاً لارادة أبيه ، وأيضاً هو قادر أن يجمد المال ولا يتاجر ، ومعنى هذا انه مسير في رفض المال وابقائه ، ونخير في التجارة وعدمها . وهكذا القدرة التي منحها الله للإنسان ، انها في الانسان يفعل بها ويترك ، ولكنها في الوقت نفسه في قبضة الله أيضاً تماماً كالمال الذي أعطاه الوالد لولده . ومن أراد المزيد فليرجع الى كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » .

وبعد هذا التمهيد المفيد إن شاء الله نشرع بإيجاز بتفسير الكلمات (ولو كان ذلك كذلك) أي لو كان الانسان مسيراً كما يقول الجبريون (لبطل الثواب والعقاب) حيث يكون الانسان ، والحال هذه ، تماماً كريشة في مهب الريح، وفعله كالثمرة على الشجرة (وسقط الوعد) على الطاعة (والوعيد) على المعصية ، لأن الوعد والوعيد فرع عن وجود الثواب والعقاب .

(ان الله سبحانه أمر عباده تخيراً) أي ما أمرهم أن يفعلوا إلا لأنهم قادرون ونخبرون ، ولو كانوا مسيرين ما كلفهم بشيء . كيف وهو القائل : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت - ٢٨٦ البقرة » .

(ونهاهم تحذيراً) من غضبه وعقابه ، ومن البدهة انه لا معنى من التحذير إلا مع القدرة والاختيار (وكلف يسيراً) وسهلاً يستطيع الإنسان أن يسمع ويطيع بلا عسر وحرَج قال سبحانه : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج - ٦ المائدة » . (ولم يكلف عسيراً) عطف تفسير على « كلف يسيراً » تماماً كقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » فإن اليسر بطبعه يستدعي نفي العسر .

(وأعطى على القليل كثيراً) أعطى الثواب الكثير على العمل اليسير الذي فعله الإنسان بملء إرادته وتمام قدرته (ولم يُعص مغلوباً) إذا عصى الإنسان فليس معنى هذا ان الله عاجز عن ردعه عن المعصية .. كلا ، انه على كل شيء قدير ، ولكن يترك للإنسان حريته لأنه لا إنسانية بلا حرية (ولم يُطع مكرهاً) وأيضاً لو أراد أن يمنع عن الطاعة لفعل ، ولكنه لا يفعل لأنه عادل وحكيم ، لا تتناقض أقواله مع أفعاله (ولم يرسل الأنبياء لعباً) بل ليرشدوا الخلق الى الحق (ولم

ينزل الكتاب للعباد عبثاً) عطف تفسير ، لأن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب واحدة (ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً) بل لتتجلى فيها قدرته وعلمه وجلاله وكماله .

٧٧- خُذِ الْحِكْمَةَ أَتَى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ
الْمُنَافِقِ فَتَلْجُلُجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى
صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .

● الحكمة عصارة أفكار العقلاء المجربين ، ومن شأنها أن تهدي للتي هي أقوم . وفيما مضى كان النفاق نعتاً لمن يضمّر الكفر ويظهر الإيمان ، واليوم يوصف به كل من أضمر شراً ، وأعلن خيراً ، ومعنى قول الإمام هو ان المنافق يمارس الحياة ويجربها كغيره من المجربين والعارفين ، ويستخرج الحكمة والحقيقة من تجاربه كأني عاقل ، وينطق بها من حيث يريد أو لا يريد ، لأن الحقيقة في حركة دائبة لا تستقر في مكان ، والمراد بالمؤمن هنا من يبحث عن الحق لوجه الحق . هذا المؤمن رائده الحقيقة والحكمة يأخذها أتى كانت وتكون ، حتى من الملحد والمنافق ، وينتفع بها في سلوكه ، أما المنافق فإنه يحسها وينطق بها ، ولكن لا تنفعه في كثير أو قليل ، لأنه يقول ولا يفعل ، ويفعل ما لا يقول ، ولا يتحرك ويتصرف إلا في الاتجاه المعاكس للحق والواقع .

والمنافقون في عصرنا لا يحصون كثرة ، ومنهم الذين حولوا أقوات الخلائق الى أسلحة الهلاك والموت بالجملة ، وهم يتسترون بكلمات الدفاع عن الحرية وصيانة السلم والمدنية ، ويصنعون سفن الفضاء للتجسس على الشعوب ويقولون : هي لمنفعة الإنسان وسعادته ، ولقضاء شهور العسل في القمر والزهرة ، وأيضاً يقتلون الأحرار باسم القصاص من العناصر التي يسمونها «هدامة» ، ويعتدون على الشعوب دفاعاً عن الحدود الآمنة ! ولكن الحقيقة تخرق بقوتها الأسوار ، وتدور في الآفاق معلنة عن نفسها ، ويسمعها ويراها القريب والبعيد .

٧٨ — الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ
النِّفَاقِ .

● الحكمة رائد كل عاقل مؤمناً كان أم ملحدًا ، وإنما خص المؤمن بالذكر للإشارة الى ان من طلب الحق لوجه الحق ينبغي أن يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر ، لأن هذا الإيمان حق وعدل ، والعلم يؤدي الى الحق والحقيقة ، والذي يناقض هذا الإيمان هو الفسق والانحلال ، والخيانة والاستغلال (ولو من أهل النفاق) ومنهم المسيطرون على وسائل الإعلام في هذا العصر . وسبق الكلام عن الحكمة في الرقم السابق بلا فاصل ، وبعض الشارحين جمع بين الرقبتين لوحدة الموضوع والهدف .

٧٩ — قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

● يشير الإمام بهذا الى معيار التقويم للأشخاص والأفراد في المجتمع ، وان الفرد لا ينبغي أن يُقدَّر ويعتبر لنسبه ولقبه ، ولا لماله ومنصبه، ولا لفصاحته وانتصاراته في ميادين القتال والمباريات الرياضية ، ولا لعلمه وما يحمل من شهادات وأوسمة؛ بل لما يحسنه أي ينتجه ويسديه لأخيه من نفع وإحسان . وعن النبي الكريم : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا حج وإنما يكفرها سعي الرجل على عياله » فكيف اذا سعى لعيال الله سبحانه من المحاويع والبائسين ؟ . وفي حديث آخر : « إن لله عبادة في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة » . ويومئذ هذا الحديث الى الصلة الوثيقة بين الآخرة والدنيا ، وان من كان في هذه أعمى فهو في تلك أعمى وأضل سبيلا .

وقد ينادي مخادع ماكر بأمانى الناس ، ويتلاعب بأحلامهم ، فيقدمون له بعض التضحيات عن سداجة وبراعة حتى اذا بلغ منهم ما يريد قلب لهم ظهر المجن ! . وهذا من المنافقين الذين سبقت الإشارة اليهم قبل قليل .

٨٠ — أَوْصِيَكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلًا . لَا يَرْجُونَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا ذَنْبَهُ . وَلَا يَسْتَحِينُ أَحَدٌ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ . وَلَا يَسْتَحِينُ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ . وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ ، وَلَا فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ .

● أوصى الإمام في حكمته هذه بخمس وصايا :

١ — (لا يرجون أحد منكم إلا ربه) المراد بالوجه هنا السؤال وطلب الحاجة ، وهو بطبعه يستدعي الخضوع والمذلة . وقديماً قيل : السؤال ذل ولو أين الطريق ؟ والتدلل لله سبحانه عز وإباء ، ولغيره خسة ودناءة ، لأنه خضوع محتاج الى محتاج ، وتحمل للمنة من معدم على معدم .. قال الإمام زين العابدين (ع) في بعض مناجاته : اللهم ان وكنيتي الى نفسي عجزت ، وان وكنيتي الى خلقك تجهموني ، وان ألبأتني الى قرابتي حرموني ، وان أعطوا أعطوا قليلاً ، وملأوا طويلاً ، وذموا كثيراً .

والشرط الرئيسي في الرجاء طاعة الله في السعي والعمل والثقة بالنفس مع الإيمان بأن وراءها ووراء كل شيء قوة عليا تعين وتمهد لبلوغ المطلوب .

٢ — (ولا يخافن إلا ذنبه) . كل ما يجري عليه حساب وعقاب فهو أثم وذنب ، وما عداه لا حساب عليه ولا عقاب ، وإذن فلا موضوع ومبرر للخوف من العذاب والعقاب على غير الذنوب والآثام .. أما الخوف من حدوث مكرهه كال فقر والمرض وفقد حبيب أو قريب فهو طبيعة وغريزة ، وقصد الإمام بعيد عن ذلك ، ومراده الأول التحذير من معصية الله ، والتخويف من عذابه وغضبه . وتقدم مثله مراراً .

٣ — (ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم)

ومن ترك هذا القول أصيبت مقاتله ، كما قال الإمام في الحكمة الآتية . وقال لولده الإمام الحسن : ما أكثر ما تجهل ، وقال سبحانه لنبيه الكريم : « وقل رب زدني علماً » - ١١٤ طه . ومن استقل ما لديه من علم سعى واجتهد في طلب المزيد ، ومن ادعى كثرة العلم تحول علمه الى جهل ، وقد عرفت وبلوت أشخاصاً يحسبون كل ما يخطر في قلبهم من وهم وخيال وحياء وعلماً حتى كأن علمهم عين ذاتهم ، ومعنى هذا في واقعه أنهم يدعون الربوبية من حيث لا يشعرون .

٤ - (ولا يستعين أحد إذا لم يعلم الشيء ان يتعلمه) ويسهر الليالي في العلم وتحصيله ، ويتحمل المشقة في سبيله ، ومن استخف بطلب العلم فقد استخف بنفسه وحقرها .
٥ - (وعليكم بالصبر الخ) .. ومن لم يحمل نفسه على الصبر فلا يتم له دين ولا عقل ولا عمل .. ان الصبر هو الأساس والركن الركين لكل خير وفضيلة لا للدين والإيمان فقط ، ومن الصبر ترك الشكوى وإخفاء الضر والبلوى ، وأية جدوى من الجزع والقلق إلا مضاعفة المصائب وتراكمه ؟ . وبالصبر خرج يوسف من البئر وصار عزيز مصر ، وبترك الصبر وعدم العزم خرج آدم من الجنة ولاقى هو وذريته من العذاب والأوصاب في الحياة الدنيا ما يفوق التصور .

٨١- أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

● أفرط بعضهم في الثناء على الإمام ، وكان له متهاً فقال : (أنا دون ما تقول الخ) .. كان الإمام يكره الثناء وبأباه بطبعه ، وهذا حتم وضرورة لمن عظم الخالق في نفسه .. وعاتب الإمام بعض أصحابه على الإطراء وقال : كرهت أن يحول بخاطركم اني أحب الإطراء .. فلا تشنوا عليّ بجميل ، ولا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي التماس إعظام لنفسي .. إلى آخر ما جاء في الخطبة ٢١٤ .

وفي كتاب « الحكمة الخالدة » ان الإمام قال : « احذر من يطريك بما ليس فيك ، فيوشك ان يبهتك بما ليس فيك » . ولا أدري ماذا قال هذا المتهم للإمام ، لأن ما لدي من المصادر لم يشر الى ذلك من قريب أو بعيد . وربما

أطراه بما هو فيه أو دون ذلك ، ولكن المطري كان في قلبه مرض ، كما يشعر
جواب الإمام .

٨٢ — بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَدًا وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

● نقل ابن أبي الحديد عن شيخه أنه قال : « ليت الإمام ذكر العلة لذلك »
وأرجح ما قرأت في التعليل قول الشيخ محمد عبده : « بقية السيف هم الذين
يبقون بعد الذين قُتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم ، وفضلوا الموت على
الذل ، فيكون الباقي شرفاء نجباء ، وعددهم أبقى ، وولدهم أكثر بخلاف
الأذلاء ، فإن مصيرهم الى المحو والفناء » . ويتفق هذا التفسير تماماً مع قول
الإمام في الخطبة ٥١ : « الموت في حياتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين »
وقول ولده سيد الشهداء : لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا
برماً .

٨٣ — مَنْ تَرَكَ قَوْلَ لَا أَذْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

● تقدم الكلام عن ذلك قبل قليل . أنظر الحكمة ٨٠ وفي كتاب « الحكمة
الخالدة : « تعلّم قول لا أذري . فلأنك ان قلت لا أذري علموك حتى تدري .
وإن قلت اني أذري سألوكم حتى لا تدري . وما أحد من أصحاب رسول الله (ص) :
قال سلوني إلا علي بن أبي طالب عليه السلام » .

٨٤ — رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ .

● الشيوخ المجربون للرأي والتخطيط ، والشباب للشجاعة والعمل ، وليس من
شك ان العمل والشجاعة بلا تخطيط فوضى ومجازفة . وتقدم الكلام عن ذلك في
شرح الحكمة ٤٦ عند قول الإمام : « والحزم بِلِجَالَةِ الرَّأْيِ » .

٨٥ — عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنُطُ وَمَعَهُ الْإِسْتِغْفَارُ .

● المراد بالقنوط هنا اليأس من عفو الله ورحمته ، وبالإستغفار التوبة . ويشير الإمام بهذا الى قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم — ٥٣ الزمر » .

٨٦ — كَانَ فِي الْأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا

فَدُونَكُمْ الْآخِرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ . أَمَّا الْأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَمَّا الْأَمَانُ الْبَاقِي فَالِإِسْتِغْفَارُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا

كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

● هذه الآية الكريمة رقمها ٣٣ في سورة الأنفال ، وللمفسرين فيها تأويلات وأقوال ترك القارىء في ظلمات ليس بخارج منها ، والذي نفهمه نحن ان ضمير الغائبين في ليعذبهم يعود الى أهل مكة ، وان المراد بالإستغفار هنا الإسلام ، لأنه نجاة من عذاب الله ، والمعنى ان الله لا يعذب أهل مكة ما دام فيهم رسول الله (ص) إكراماً وتعظيماً لشأنه ومقامه . وأيضاً هو سبحانه لا يعذبهم من بعده شريطة أن يؤمنوا برسالته . وقول الإمام : « دونكم الآخر فتمسكوا به » معناه تمسكوا بالإسلام قولاً وفعلاً ، ودافعوا عنه بكل ما تستطيعون ، والذي يؤيد إرادة هذا المعنى قوله في الخطبة ١٥٠ : « الإسلام اسم سلامة » والسلامة والأمان كلمتان مترادفتان .

٨٧ — مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

النَّاسِ وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .
وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ .

● (من أصلح ما بينه وبين الله الخ) .. إذا أردت أن تكسب قلوب الناس وولاءهم نحوك فلا بد - قبل كل شيء - أن تكفّ أذاك عنهم يداً ولساناً ، وأن تعمل لصالحهم قدر جهدك ، وأن تكون مستعداً . لتقبل الصدمات منهم ومن غيرهم والصبر عليها ، ومتى توافرت فيك هذه الصفات كنت مرضياً عند الله لطاعتك له ، وعند الناس لجهادك من أجلهم .

(ومن أصلح أمر آخرته الخ) .. ليست الآخرة مجرد نظرية كمثُل أفلاطون ، ولا قيمة إنسانية تهدف الى الترهيب والترهيب وكفى ، كما يُظن .. كلا ، ان الإسلام لا يعنى أبداً بالنظريات المجردة ، ولا بالقيمة في ذاتها .. انه دين علم وعمل ، والآخرة عنده وفي الواقع عالم خارجي يحس ويلمس ، فيه طعام وشراب ، ونعيم وعذاب تماماً كعالمنا هذا ، والفرق أن الدنيا يعمل فيها ، والآخرة يعمل لها ، والعمل الأهم في الدنيا من أجل الآخرة هو الصدق والأمانة ، والإخلاص في العمل والنضال لخدمة الإنسان وحل مشاكله واستصلاح أحواله .. وكما ان العمل في هذا الميدان سبب للفوز بسعادة الآخرة فهو أيضاً سبب للنجاح والرفعة في الحياة الدنيا . قال سبحانه : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً - ٧٢ الإسراء » . وكل باحث منصف مسلماً كان أم غير مسلم يعترف بأن أول دين ربط بين الدنيا والآخرة ، وجعل تلك مطية لهذه هو دين الإسلام .

(ومن كان له من نفسه الخ) .. ان الوظيفة الأولى للعقل السليم هي وقاية صاحبه من المجازفة . ومن البداهة ان من كان له هذا الحصن الحصين عاش في أمن وأمان من المهالك والمخاوف . وعبر الإمام عن هذا العقل الواقي بالواعظ من النفس والداخل . وفيه إيماء الى ان المواعظ الخارجية لا تجدي فعلاً إلا اذا تركت أثراً طيباً في النفس والعقل . وسبق الكلام عن ذلك عند قول الإمام في الحكمة ٣٧ : « أغنى الغنى العقل » .

٨٨ — الفقيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤَيِّسَهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ .

● المراد بكل الفقيه ، الفقيه الكامل الذي توافرت فيه صفات الهادي والمرشد ، والمعنى ان لله سبحانه جنة ونارا ، والمؤمن العاقل يصدر بأقواله وأفعاله عن خوف من هذه وطمع في تلك . والمرشد العارف بحقيقة الإسلام يسلك بالناس هذه السبيل ، فإذا خوفهم من النار فتح لهم باب الأمل والرجاء في الجنة ، وإذا رغبتهم في الجنة خوفهم من النار ، كما هو شأن القرآن الكريم : « واعلموا ان الله شديد العقاب ، وان الله غفور رحيم — ٩٨ المائدة » . وسبق الكلام عن ذلك بنحو من التفصيل في شرح الخطبة ١٥٨ فقرة « فلسفة الرجاء والخوف » .

٨٩ — إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمِ .

● كل ما في الطبيعة من روعة وجمال هو من حكمة الله الخالدة التي أعطت الكون والانسان ما أعطت ، ولا تنحصر الحكمة بخصوص الأمثال والكلمات القصار في مدح الزهد والتقوى كما فهم ابن أبي الحديد وغيره من الشارحين ، لأن الإمام أراد بالحكم هنا ما يذهب عن القلب الملل والسأم ، وعليه فطلع الفجر وحدائق الزهر والصفصاف على ضفاف النهر ، وكل ما فيه عظمة الإعجاز الإلهي ، ويرضي النفس ويوقظ فيها الحياة والأمل — فهو من الحكمة ، وعلينا أن ننشده ونتمتع به كلما أحسنا بالتعب والفتور ليعود إلينا النشاط والأمل ، ونستأنف الجهاد والنضال .

٩٠ — أَوْضَعُ الْعِلْمَ مَا وَقَفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

● جوارح الإنسان أعضاؤه التي يستعين بها على العمل ، والعضو الرئيسي في جسد الإنسان يُطلق عليه الركن . والعلم فهمٌ ودراية ، لا حفظ ورواية ، ومن وثق بالكلام واكتفى به عن الوعي والعمل فهو اسطوانة وشريط مسجل .. والفرق ان هذا الشريط يتكلم ولا يسمع ، أما الحافظ فإنه يتكلم ويسمع ، وأيضاً يجب الاستماع الى صوته .. والعالم حقاً هو الذي لا يهتم بالحفظ والتفوق بالجدال على الأقران ، بل ينظر الى الألفاظ كوسيلة ، والعمل النافع هو الغاية في نظره .

قال فيلسوف صيني : «ان حب الإنسان للكلمات هي الخطوة الأولى في طريق جهله وعدم وعيه » ذلك بأن الحقيقة لا تتخلّى عن الحياة والعمل ، والخرافة وحدها هي التي لا تتصل بالحياة من قريب أو بعيد . ويأتي قول الإمام : « العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه » . وباختصار إن العالم الكامل هو الذي يجعل الحياة أكثر خصباً وعدلاً وأمناً .

٩١- لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ ، وَلَكِنْ مَنْ أَسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُم بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِيُظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضُهُمْ يُحِبُّ تَشْمِيرَ الْمَالِ وَيَكْرَهُ أَنْثِلَامَ الْحَالِ .

● المراد بالفتنة هنا الامتحان والاختبار بالمال والجاه والبنين ، والمراد بمعضلات الفتن الطغيان بسبب المال والولد وما أشبهه ، والمعنى لا تتعوذ من الفتنة بوجه العموم ،

فإن منها زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق التي أحلها سبحانه لعباده ، بل تعوذ من إغراء الفتنة وحبائلها ، لأن الدنيا وزينتها كثيراً ما تصرف الإنسان عن دينه وضميره .. وقد شاهدنا الإنسان يتعد عن الخير كلما أمعن في المادة والترف. (ومعنى ذلك انه يختبرهم الخ) .. ان الله سبحانه يعلم من عباده ما فعلوا وما سيفعلون من خير أو شر ، ولكن سبق في عدله وقضائه أن لا يحاسب أحداً على ما يعلم منه ، وما ينطوي عليه صدره وسره ، بل يحاسبه ويجازيه على ما ظهر منه بالفعل بعد أن وهبه القدرة والعقل والإرادة ، ورزقه من الخيرات والطيبات ، وأمره ونهاه ، فلن خالف وعصى قامت عليه الحجة واستحق المؤاخذه والعقاب .

٩٢ - لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثَرَ مَا لَكَ وَوَلَدُكَ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثَرَ عِلْمُكَ وَيَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمَدَتَ اللَّهُ ، وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللَّهُ . وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ : رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَذَكَّرُهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَرَجُلٍ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ .

● المال من حيث هو لا يُحمد ولا يُذم ، لأنه حجر أو ورق ، وإنما يُنظر إليه من حيث أثره ومفعوله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال سبحانه كمثال على الشر : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة - ٣٦ الأنفال » . وقال كمثال على الخير : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أثبت سبع سنابل في كل سنبلة مثله حبة والله يضاعف لمن يشاء - ٢٦١ البقرة » وقال الرسول الأعظم (ص) : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » وكذلك الولد هو خير إن كان صالحاً ، وشر إن كان طالحاً ، والعلم خير كله ان جعل الحياة أكثر خصباً وأمنأ وعدلاً ، وشر إن قتل الآدميين وروع الآمنين .

وتسأل : اذا كان كل المال والولد والعلم يُحمد من حيث هو خير ، ويُذم من حيث هو شرّ - فلماذا نفى الإمام الخير عن المال والولد دون العلم، مع أن الجميع من فصيلة واحدة ؟.

الجواب : لا يريد الإمام بقوله هنا ان يوازن بين المال والولد من جهة ، والعمل من جهة ثانية ، بل هدفه الرد على من يرى الخير كل الخير في الأموال والأولاد ، ولا يرى خيراً في غيره. إطلافاً علماً كان أم حليماً . ومن قبل قال المترفون : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين - ٣٥ سبأ » .

(وأن تباهي الناس بعبادة ربك) . ليس المراد بالتباهي هنا التفاخر ، بل المراد أن لا ترى نفسك شيئاً مذكوراً بالمال والولد ، بل بالعلم والحلم وطاعة الله وحسن السلوك (فإن أحسنت حمدت الله) الذي هداك الى عمل الخيرات (وان أسأت استغفرت الله) من سيئاتك ، وتداركتها بالتوبة والمسارة الى الصالحات (ولا خير في الدنيا الخ) .. الشيء الأعظم في كل عمل في الدنيا هو ما ينفعك في الآخرة كالتوبة من الذنب ، والعمل لخدمة الإنسان .

٩٣ - لَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى . وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ .

● التقوى أن تتقي غضب الله سبحانه ، ولا تتعدى حدوده وشريعته .. وأيضاً من التقوى اتقاء الشبهات والتورع عما لا تدري أحلال هو أم حرام ، والمراد بالعمل القليل هنا الاقتصار على ما وجب بلا زيادة ونقصان ، ومن وفق لذلك فقد زحزح عن النار ، ومن زحزح عنها فقد فاز . وكفى بهذا الفوز فضيلة وسعادة .

٩٤ - إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ . ثُمَّ تَلَا « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا » .

● المراد بأولى الناس بالأنبياء الولاية عنهم ، ويعبر عنها بالخلافة ، وهي علاقة إلهية طبيعية بين النبي وخليفته ، ولا تكون هذه الخلافة أو الولاية ولن تكون إلا لعالم برسالة النبي عامل بها ومناصر له في جميع مواقفه . ويشير الإمام بهذا الى نفسه وانه أولى الناس برسول الله (ص) لأنه امتداد له علماً وأخلاقاً .

وتجدر الإشارة الى ان الاسلام يورث العبد من سيده اذا كان قد أعتقه تبرعاً ولا وارث سواء ، ويسمى في اصطلاح الفقهاء الإرث بالولاء. فكيف اذا اجتمعت القرابة والولاية معاً ، كما هي الحال بين محمد وعلي ؟.

٩٥ — إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وَإِنْ عَدُوٌّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

● اللحمة — بضم الحاء — القرابة ، والإمام يردّ بهذا على الذين احتجوا من قريش على الأنصار يوم السقيفة ، وزعموا انهم أولى بالخلافة لقرابتهم من رسول الله .. فقال الإمام : إن الله سبحانه لا يتعامل مع أحد من خلقه بمنطق قبلي أو شخصي ، فالكل عنده سواء إلا من ابتغى اليه الوسيلة بالطاعة والتقوى . وأيضاً لا ولاية ولا قرابة بين محمد (ص) وغيره إلا على هذا الأساس من غير فرق بين قرشي وحشي ، وبهذا نطقت الآيات والروايات ، قال سبحانه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم — ١٣ الحجرات » وقال النبي (ص) : « يا فاطمة بنت محمد اني لا أغني عنك من الله شيئاً » . وهذا معروف ومشهور عن دين الاسلام عند كل الأمم والطوائف . وتقدم الكلام عنه مرات .

٩٦ — نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ .

● قال الإمام هذا حين سمع رجلاً من الخوارج يتهجّد أي يصلي ويتعبد في الليل. واليقين أن تؤمن بالله كأنك تراه ، ومن بلغ إيمانه الى هنا لم يقم في وجهه أي

حاجز عن العمل بمرضاة الله ، ويستهن بالموت في هذه السبيل ، وتاريخ الشهداء هو تاريخ هذا اليقين ، وهو بنفسه عبادة ، بل هو المصدر والمنبع الذي تفيض منه العبادات والصلوات ، واذن فلا عجب اذا كان صاحب هذا اليقين عابداً قائماً في فومه ، وكان الشاك عاصياً ضالاً في صلاته .

٩٧ — إَعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرِعَاةَهُ قَلِيلٌ .

● الفرق بين الرعاية والرواية كالفرق بين من بنى صرحاً بعلمه ويده ، ومن رأى هذا الصرح بعينه، وأخبر عنه بلسانه .. على ان الإخبار عن الإعيان الخارجية لا يحتاج الى العلم والدرس ، ورواية العالم لها تماماً كرواية الجاهل ما دام كل منها ثقة في النقل ، أما القيم الروحية كالخير فلا تعرفها وتذكرها إلا عقول الراسخين في العلم (فإن رواة العلم كثير) وهم الذين ينقلون ويروون عن العلماء . وقال قائل من الرواة : « أنا أحفظ لأهل البيت ثلاثمائة ألف حديث » . وهذا الراوي وحده يعادل عشرات الرواة ، ومثله كثير (ورعاه قليل) أي العلماء بحق .

٩٨ — (وَتَسْمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) : إِنَّا قَوْلُنَا : إِنَّا لِلَّهِ ، إِقْرَارُ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمَلِكِ . وَقَوْلُنَا : وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، إِقْرَارُ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهَلِكِ .

● من أقر على نفسه بالملك حرم عليه التصرف بشيء منها إلا بترخيص المالك ، ومن تصرف بلا اذن وترخيص منه تعالى فهو غاصب ظالم . وأيضاً من أقر بالموت فعليه أن ينسجم مع نفسه واعترافه ، ولا يعمل عمل الخالدين .

٩٩ - (وَمَدَحُهُ قَوْمٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ) : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَأَغْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ .

● يستصغر الإمام كل شيء في جنب الله ، وليس نفسه فقط ، وهذه هي نظرة العارفين ولغتهم ، وهذا دأبهم وطبعهم ، ولذا لا يثني الإمام على نفسه إلا لضرورة كما قال يوسف : « اني حفيظ عليم - ٥٥ يوسف » . وأيضاً يكره الإمام الثناء من غيره . ولذا دعا بهذا الدعاء حين سمع المديح والإطراء .. وقال قائل ، وهو يشرح هذه الحكمة : « طلب الإمام من ربه المغفرة على ترك الأولى لا على فعل الذنب » . وقد صار هذا « الترك » مأوى العاجزين يفرون اليه لسبب وغير سبب حتى ولو قال المعصوم: استغفر الله .. ونسوا ان هذه هي لغة الأنبياء والصدّيقين.

١٠٠ - لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِغْفَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَنْوُ .

● الفرق بين التعاون وقضاء الحاجة ان التعاون تكامل ، والهدف منه مصلحة الجميع ، أما قضاء الحاجة فهو مساعدة ثنائية من فرد لآخر ، ولكنه من الفضائل ومكارم الأخلاق ، لأن الساعي في حاجة أخيه برّ دُ كبهه ، ويرد لهفته ، هذا إن عجل الحاجة وكتبها واستصغرها ، أما اذا أجيل وأعلن واستكثر فلإنه يكدر صفو الحاجة ، ويذهب نورها وأجرها .

واللام في « لتظهر » للعاقبة مثل لدوا للموت وابنوا للخراب ، لأن مسدي المعروف اذا تجاهله أعلن عنه المسدى اليه ، وأثنى عليه أمام الناس ، وهم بدورهم يتحدثون ، ويتخذون منه مثلاً يُحتذى .

١٠١ - يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْهَاحِلُ ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ . يَعْدُوثُ الصَّدَقَةُ فِيهِ غُرْمًا . وَصِلَةُ الرَّحِمِ مِنَّا . وَالْعِبَادَةُ أَسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ النِّسَاءِ وَإِمَارَةِ الصَّبِيَّانِ وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ .

● أخبر رسول الله (ص) عن الأجيال الآتية بأفعالها وأوصافها ، ودون أهل الحديث ذلك في كتبهم . ومن قرأها لا يجد أي اختلاف بينها وبين ما يجري في عصرنا ، وما جرى فيما سلف ، وما أخبر به (ص) قوله : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وَجُوهُهُمْ وَجُوهُ الْآدَمِيِّينَ ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ كَالذُّنُوبِ الضَّوَارِي سَفَاكُونَ لِلدَّمَاءِ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنَكِرٍ فَعَلُوهُ » . وكل الناس يعرفون من هم الذين يسفكون اليوم دماء الأبرياء بالألوف ، ويطعمون القواعد العسكرية في البحر والبر والجو لغزو الشعوب المستضعفة وتدميرها وتشريد أهلها . والذي أشار إليه الإمام هنا هو غيظ من فيض رسول الله (ص) قال ابن أبي الحديد : « هذا من الإخبار بالغيب الذي اختص بها دون الصحابة » أي ان النبي خصّه بهذا العلم دون غيره .

(لا يقرب فيه إلا الماحل) أي التهام الناكِر ، فله وحده الدرجات العلى في بيئة الضلال والفساد (ولا يُظَرَّفُ فِيهِ) لا يُعَدُّ ظَرِيفًا لَطِيفًا (إلا الفاجر) وهو الخليع الفاسق (ولا يُضَعَّفُ فِيهِ) أي يُهَجَّرُ وَيُهْمَلُ (إلا المنصف) القائل العامل بالحق والعدل ، وفي الحديث النبوي : « الْمُؤْمِنُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ » . (يعدون الصدقة غرمًا) ضريبة جائرة (وصلة الرحم منًا) إنعامًا يمنون به على المحروم ، وهو حق له بنص القرآن الكريم في الآية ٢٤ من سورة المعارج . (والعبادة استطالة على الناس) يمنون على الناس بصومهم وصلاتهم ، والله يقول : « لَا تَتَمَنَّوْا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » - ١٧ الحجرات .

(فعند ذلك يكون السلطان بمشورة النساء) أي يسيطرن على الحاكمين ، ويطمعن

في إدارة البلاد ، ويشفعن بالمجرمين ومن يهدي اليهن النفيس والتمين . ومما قاله الرسول الأعظم (ص) عن الأجيال من بعده : « بطونهم آلتهم ، ونساؤهم قبلتهم ، ودنياهم دينهم ، وشرفهم متاعهم » . (ولامارة الصبيان) يشير الى الملوك الذين يعهدون بالإمارة من بعدهم الى الأولاد والأطفال (وتدبير الحصيان) أمثال المرتزقة وأعوان الظلمة في زماننا الذين يصفقون ويهتفون للحاكمين والمتزعمين نفاقاً ورياءً .

١٠٢ — وَرَوُّي عَلَيْهِ إِذَا رُ خَلَقُ مَرْقُوعٌ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ) :
يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ . إِنَّ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ
الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا . وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا شِ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ ، وَهُمَا بَعْدُ
ضَرَّتَانِ .

● (يخشع له القلب ، وتذل به النفس) الضمير في « له » يعود الى الإزار المرقوع . وسبق في آخر الخطبة ١٥٨ قول الإمام : « لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها » . وتكلمنا عن هذه المدرعة في شرح الخطبة المذكورة بعنوان « مدرعة علي تنص عليه » ولو تساوى الناس في العيش ما كان للفقر والزهد من موضوع ولا معنى ، ولوجب حذف هذه الكلمة وما رادفها من قواميس اللغة ، أما وقد وجد الفقر فلا بد وان تلحقه آثاره ولوازمه ، ومنها حسرات المحروم وآلامه، وتعاضم الترف وطغيانه .. والإمام قادر على لبس الحديد وأكل الطيبات دون أن يطغى ويتعالى ، بل يستحيل في ذلك في حقه ، ولكنه ، وهو الإمام المعصوم يقدر نفسه بضعة الناس كيلا يهيج بالفقر فقره فيهلك، كما قال في الخطبة ٢٠٦ . وقوله هنا: « يخشع له القلب ، وتذل به النفس » تفرغ وتوبخ لمن يطغيه الغنى ويبطره .

(ان الدنيا والآخرة عدوان الخ) .. المراد بالدنيا هنا دنيا الحرام كالعيش على حساب الآخرين ، والتي تؤدي الى الحرام ، كالكبرياء والسيطرة بغير الحق ، أما دنيا الحلال والعيش بكدّ اليمين وعرق الجبين فهي خير محض ، ومن الآخرة في الصميم (فن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعادها) . وكلمة «تولاها» تدل بوضوح أنه انصرف بكله الى الدنيا ، واتخذها ديناً ومعبوداً ، وليس من شك ان من كان هذا شأنه كره الآخرة والعمل لها .

(وهما بمنزلة المشرق والمغرب) هذا دليل آخر على أن المراد بالدنيا دنيا البغي والفساد ، والفجور والضلال ، ولو كان بين الدنيا والآخرة هذا البعد والتضاد - ما كانت الدنيا مطية ووسيلة للآخرة (وماشٍ بينها كلما قرب من واحد بعد من الآخر) كل ما جاوز الحد انقلب الى الضد ، وكل من أسرف في الماديات ابتعد عن الروحانيات ، ومن قرب من الرذائل بعد عن الفضائل .

(وهما بعد ضربتان) في بعض الحالات ، وذلك بأن يكون عمل الإنسان كله لدنياه ، ولا يقدم شيئاً لآخرفته ، أما إذا عمل لهذه وتلك فهي شقيقتان متحابتان لا ضربتان متباغضتان . قال رسول الله (ص) : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه .

١٠٣ - طَوَيْبِي لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاعِبِينَ فِي الْآخِرَةِ . أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا ، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طِيبًا ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالِدُّعَاءَ دِتَارًا . ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مَنَاجِ الْمَسِيحِ . يَا نَوْفُ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ : إِنَّهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّارًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ شُرْطِيًّا أَوْ صَاحِبَ عَرْطِيَّةٍ .

● كان نوف البكالي من أصحاب الإمام وشيعته والمقربين اليه . وقال نوف هذا :

رأيت أمير المؤمنين (ع) ذات ليلة ، وقد خرج من فراشه ، فنظر في النجوم وقال : (طوبى للزاهدين في الدنيا الخ) .. وهم الذين يقنعون بما تيسر .. لا يردون موجوداً ، ولا يتكلفون مفقوداً ، وإن دعت الضرورة الى النوم على الأرض ناموا عليها غير ساخطين ولا حاسدين .

(وماءها طيباً) من الطيبات لا من الطيب الذي كان يحبه رسول الله (ص) (والقرآن شعراً) يحرصون على تلاوته والعمل بأحكامه (والدعاء دثاراً) يواظبون على الدعاء خوفاً وطمعاً . وقيل : الشعار كناية عن تلاوة القرآن سراً ، لأن أصل الشعار ما يلي البدن من اللباس ، والذثار كناية عن الدعاء جهراً ، لأنه ما ظهر من الثياب (ثم قرضوا الدنيا قرضاً) وما خضموها خضماً ، والفرق بين القرض والخضم أن القرض أكل بأطراف الأسنان ، والخضم أكل بالفم كله ، والمعنى ان الزاهدين أخذوا من الدنيا قوت من لا يموت .

(في مثل هذه الساعة من الليل) أي بعد نصف الليل ، كما يتبادر الى الفهم من السياق ، وهي ساعة عزلة وهدوء وتأمل ، يستطيع الإنسان في هذا الوضع أن يتجه الى خالقه سبحانه ، ويدعوه بإخلاص ، وهو سبحانه يستجيب كما وعد في الآية ١٨٦ من سورة البقرة : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي » . فتى استجاب العبد لربه وأطاعه استجاب الرب لعبده وأرضاه . وأشار الإمام الى هذا الشرط بقوله : (الا ان يكون عشاراً أو عريفاً أو شرطياً أو صاحب عرطبة) . وبكلمة أن يكون مطيعاً لا عاصياً ، أما ذكر العشار وما بعده فهو من باب الإشارة الى الشيء ببعض مصاديقه وأفراده ، والعشار الجاهلي ، والعريف : المراقب . والشرطي معروف ، وعرطبة فسرّها الشريف الرضي بالطنبور ، وهو آلة موسيقية طويلة العنق ذات أوتار . وأظنها العود .

١٠٤ — إِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ فَلَا تُضِيعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَسْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَسْيَاءَ وَلَمْ يَدْعَهَا نِسْيَاناً فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا .

● الله سبحانه عادل وحكيم ، لا يؤاخذ أحداً من عباده على فعل أو ترك إلا مع القدرة في العبد ، والبيان منه تعالى أمراً أو نهياً . هذا هو حكم العقل والعقلاء والكتاب والسنة . قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها - ٢٨٦ البقرة » . وقال نبي الرحمة : « رُفِعَ عن أمتي ما لا يعلمون » . وقال الإمام الصادق : إن الله احتج على الناس بما آتاهم وعرفتهم .. وقد آتاهم القدرة ، وعرفهم ما أراد على لسان رسله ، وجعل لمراده منهم حداً ، وجعل على من اعتدى وتعدى ذلك الحد حداً .

وإذن لماذا البحث والسؤال عما لا تُسأل عنه يوم الحساب والجزاء ، ولا جدوى لنا من بحثه في الحياة الدنيا ؟ كالبحث في حقيقة الملائكة ، وشجرة آدم ، ولون ناقة صالح ولبنها ، وطول سفينة نوح وعرضها . وسمعت قائلاً يقول : قرأت في بعض الكتب تحديداً دقيقاً للذكر عوج بن عنق طولاً وعرضاً .

وقول الإمام : (وسكت لكم عن أشياء الخ) .. رد واضح وصريح على أهل القياس الذين يُلحقون حكم غير المنصوص عليه بحكم المنصوص لا لشيء إلا لما يخطر على قلوبهم من صورة العلة المشتركة بين الاثنين .

١٠٥ - لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِإِسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضْرُّ مِنْهُ .

● وأوضح مثال لهذه الحكمة أو الحقيقة المسلمون في هذا العصر .. تركوا الجهاد وهو من أقدس واجبات الاسلام وأهمها ، تركوه وعاشوا عزلاً من كل سلاح يرهبون به الدثاب الضارية والوحوش الكاسرة التي تحيط بهم من كل ناحية، تركوا دينهم وتاريخهم بترك الجهاد واستسلموا للترف والكسل ، والكلام الفارغ ، فأضاعوا بلادهم ، ووأدوا حريتهم وكرامتهم ! . « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها ، صلحون - ١١٧ هود » . فالرؤوس المترفة المفسدة هي الداء ، ولا علاج إلا بتحطيمها أو طردها من القيادة - على الأقل - .

١٠٦ — رَبِّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ .

● لهذا العالم الجاهل العديد من الصور والمظاهر ، منها أن يحفظ كلمات العلماء بلا بصيرة ، ومنها أن يبعث العلم في نفسه الزهو والغرور ، ومنها أن يتخذ من علمه أداة للصوصية ، وهذا أسوأ أثراً من الجاهل دنيأً وآخرة ، ومنها أن لا يحترز من علمه بعقله، ومثاله أن يستطيل بعلمه على الأكفاء ، أو يشارك عالماً في حديثه ويتغلب عليه بالكلام ، أو يسبق الى الجواب قبل السؤال، أو يكون غيره المسؤول، وهو يجهل عنه ، أو يناقش معانداً يحتقره ويستخف به ، أو يحدث بالعلم من لا يفهمه ، ولا يحب الإصغاء اليه ، ويثقل على نفسه أن يرى العلم في غيره .. ونحو ذلك .

١٠٧ — لَقَدْ عُلِقَ بِنِيَّاطٍ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ ، وَذَلِكَ الْقَلْبُ . وَلَهُ مَوَادٌّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا . فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ . وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ . وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ . وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ . وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحَفُّظَ . وَإِنْ نَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ . وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ . وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْفَأَهُ الْغِنَى . وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَّهَ الْجَزَعُ . وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلَاءُ . وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ . وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشَّبَعُ كَظَّمَتْهُ الْبِطْنَةُ فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

العناصر العقلية والعاطفية :

لكي يتضح المقصود من كلمات الإمام نعهد بهذه الإشارة : ان في داخل الإنسان العديد من العناصر والغرائز، وهي مجموعها على قسمين: الأول، عقلية فكرية، وتسمى بالمنطق العقلي ، وعن هذا المنطق يصدر العلم والمعرفة . والقسم الثاني عناصر قلبية عاطفية ، وتسمى بالمنطق العاطفي ، وعنه تصدر الشهوة والميول . وكثيراً ما يقع الصراع والتصادم بين المنطقيين لاجتماعهما في جسم واحد ونفس واحدة . وفي الأعم الأغلب تنتصر العاطفة على العقل ، ويصاب بالشلل ، ويتعطل عن التأثير والعمل في الجهة التي غلب فيها على أمره .

وأكثر أفعال الإنسان وحركاته تصدر عن العاطفة لا عن العقل، والذين يحفظون التوازن بين المنطقيين دون أن يطفئ أحدهما على الآخر هم أقل من القليل ، لأن عملية التعادل هنا عسيرة وشائكة، ولا يَلْقَاهَا إلا ذو حظ عظيم من العقل والصبر. ونحن مكلفون بكبح العاطفة عن الشر ، والصبر عند المصيبة ، ومسؤولون عن معصية الله والعقل ، ومعاقبون على الاندفاع مع الشهوة وحس السيطرة ، وعلى الجزع الذي يتجاوز الحد ويقود الى التهلكة ، وكلام الإمام هنا يختص بالمنطق العاطفي ، وأشار الى بعض مظاهره وأفراده ، وإن الواحد منها قد يتولد منه ما هو أسوأ أثراً وأكثر ضرراً . قال :

(لقد علق بنياط هذا الانسان الخ) .. النياط : عرق عُلِّقَ به القلب ، والبَضْعَة - بفتح الباء - القطعة من اللحم (وذلك القلب ، وله موارد من الحكمة الخ) .. ليس المراد بالحكمة هنا الفضائل كالشجاعة والجود كما فهم ابن أبي الحديد وتابعه ميثم .. كلا ، بل المراد - بدلالة السياق - الشؤون العاطفية كالرجاء والغضب والجزع ، وما الى ذلك مما أشار اليه الإمام وكل ما يقابل الشؤون العقلية . وأطلق الإمام عليها كلمة الحكمة ، لأن الله سبحانه ما خلقها في القلب عبثاً ، بل لحكمة بالغة .

(فإن سنح له الرجاء أذله الطمع) ان توقع معروفاً من مخلوق تدلّل له وتضرع ، وباعه دينه وضميره ، وكذب وفاق في الثناء عليه ، وصرف مساوئه الى محاسن ، فجعل بلادته حليماً ، وجبته عقلاً ، وهذبه بلاغة . والمؤمن العاقل في غنى عن هذه الخسة والنضعة، لأنه يتوقع قضاء حوائجه بالسعي والتعاون المتبادل

مع الناس ، وبالتوكل على الله والتوفيق منه تعالى (وان هاج به الطمع أهلكه الحرص) . الرجاء يولد الطمع ، والطمع يولد الحرص ، والحريص دائم الخوف والتعب ، يخاف على ما في يده ، ويكدح ليل نهار طلباً للمزيد .

(وان ملكه اليأس قتله الأسف) . أسرف في الطمع وتجاوز الحد لبلوغ الأمل ، فإذا خسر الصفقة وملكه اليأس قتلته الصدمة بعنفها وشدها.. ولو اعتدل وتحفظ منذ البداية لهان عليه الأمر ، وبقيت له باقية تخفف عنه (وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ) وهو لهيب الغضب وفورانه ، وقد وصف سبحانه به نار جهنم في الآية ٨ من سورة الملك : « تكاد تميز من الغيظ » . والغيظ مفتاح كل شر إلا من جاهده بعقل كبير، وكنمه بصبر وجلد .. ولا شيء أحلى وأجدى عاقبة من تجرع الغيظ وكنمته .

(وان أسعده الرضا) ونال من الدنيا ما أراد (نسي التحفظ) وأطلق العنان لشهوته وأهوائه ، وذهل من العواقب والمفاجآت (وان ناله الجنون شغله الحذر) إذا خاف حذر من كل شيء حتى من خياله ، وهذا هو الجنون والداء القاتل ، لأنه يبعث على الجمود والعزلة ، ويمنع عن الحركة والعمل . والحذر المحمود هو المحرك على الكفاح النافع الواقي (وان اتسع له الأمن استلبته الغيرة) أي الغفلة . والمعنى إذا أمن على نفسه وماله اطمأن كل الاطمئنان ، وذهل عن المفاجآت والمخبات ، فهو أبداً ودائماً مسرف ومفرط ، ان خاف كانت حياته كلها حذراً في حذر، وان أمن كانت جميع أيامه غفلة وذهولاً .. والعاقِل يحذر عند الخوف، ولكن لا على حساب ما يملك من طاقات، وما يستطيعه من عمل ، وأيضاً ترتاح نفسه عند الأمن ، ومع هذه الراحة يحترس من العواقب ويحذر .

(وان أفاد مالا أطغاه الغنى) وأخذته العزة بالإثم بدلاً من التواضع والشكر لله على إنعامه وتفضله (وان أصابته مصيبة فضحه الجزع) الذي لا يجديه نفعا، بل يزيد النار تأججاً ، ويحوّل أجر المصيبة الى إثم ووزر (وان عضته الفاقة شغله البلاء) ان افتقر سيطر عليه الحزن ، وصرفه عن السعي والتفكير في طريق الخلاص ، وحكم على نفسه بالموت وهو يعيش بين الأحياء (وان جهده الجوع قعد به الضعف) كما هو شأن من ضُربت عليه الذلة والمسكنة ، أما البطل فيثور ويخلق القوة من الضعف ، ويجاهد بكل كيانه حتى الموت ، أو التحرر من الدل

والبؤس .. واشتهر عن الصحابي الجليل أبي ذر قوله : عجبت لمن جاع كيف لا يخرج شاهراً سيفه ا .

(وان أفرط به الشبع كظته البطنة) . كظته : آلمته ، والبطنة : التخممة . وهي داء الجسم والروح ، ومن كان أسيراً لبطنه ألحق بالحيوان (فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد) . التوازن والتعادل حسنٌ في كل شيء حتى بين الميول والغرائز ، فإن بغت إحداهما على الأخرى أضرت وأفسدت .

١٠٨ — نَحْنُ النَّمْرُقَةُ الْوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ
الْغَالِي .

● وندع الكلام هنا للشيخ محمد عبده وحده الذي قال بإيجاز وإعجاز : «النمرقة - بضم فسكون فضم ففتح - الوسادة ، وآل البيت أشبه بها للاستناد اليهم في أمور الدين ، كما يستند الى الوسادة لراحة الظهر واطمئنان الأعضاء ، ووصفها بالوسطى لاتصال سائر النارق بها ، فكأن الكل يعتمد عليها ، إما مباشرة وإما بواسطة ما بجانبه ، وآل البيت على الصراط الوسط العدل ، يلحق بهم من قصر ، ويرجع اليهم من غلا وتجاوز » .
وكل شرح دون هذا الشرح فضول ، وكل عطف عليه نافلة .

١٠٩ — لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ وَلَا يُضَارِعُ
وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ .

● لا يقيم أمر الله أي لا يتولى الحكم على الناس ، وأضافه الإمام الى الله سبحانه ، لأنه من المصالح العامة وأهمها . ولا يصانع : لا يداري . ولا يضارع : لا يشبه المبطلين في شيء من أحكامه وأعماله . وقيل : معنى لا يضارع لا يخضع ويضرع . ومهما يكن فإن الغاية من حكم الحاكم إقامة الحق والعدل ، والعمل لسعادة المحكومين

فإذا اتبع أهواءه في حكمه ، أو أهواء الطامعين — عم الفساد والبغي ، وانتقض الغرض من وجود الحكم والحاكم ، قال سبحانه : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن — ٧١ المؤمنون » . وهكذا تأني حكم الإمام عامرة بمعاني الوحي والقرآن الكريم .

١١٠ — لَوْ أَحْبَبْنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتْ .

● تهافت : تساقط وتصدع . قال الشريف الرضي : تُؤني سهل بن حنيف بالكوفة بعد مرجعه من صفين ، وكان أحب الناس الى الإمام فقال : « لو أحبني جبل لتهافت » . ثم قال الرضي : وهذا مثل قوله :

١١١ — مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلَيْسَتْ عِدَّةٌ لِلْفَقْرِ جَلَبَابًا .

● يريد الإمام من هذه الجملة والتي قبلها أن من أحب أهل البيت تراكت عليه المصائب ، وسكت عن بيان السبب لوضوحه ، وهو ان الولاء لأهل البيت ولقاء الله والحق ، إذ لا شيء عندهم إلا العلم والإيمان ، والإخلاص والجهاد في حرب الباطل وأهله ، ومن سلك هذه السبيل تظاهرت عليه قوى الشر والباطل وعلى الذين يتبعونه بإحسان ، وأعدت له وهم كل ما تستطيعه من قوة، والأمثلة على ذلك من كل عصر وقطر لا تحصى كثرة ، وتكفي الإشارة الى بعض ما لاقاه خاتم النبيين (ص) فقد حوَّصر في الشعب أمداً غير قصير ، واضطر بعد رجوعه من الطائف أن يدخل مكة في جوار كافر ، وهو مطعم بن عدي ، ثم خرج منها خائفاً يترقب .

واشتهر عن الإمام قوله : « ما ترك الحق لي صاحباً » وإذا عاش من عاش بلا أعداء فاعلم بأنه مغمور ، أو إمعة ، أو منعزل لا يساهم في شيء من حياة المجتمع ويمارسها بحلوها ومرها .

١١٢ — لَا مَالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ . وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ .
وَلَا عَقْلَ كَالْتَذْيِيرِ . وَلَا كَرَمَ كَالْتَقْوَى . وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ .
وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ . وَلَا قَائِدَ كَالْتَوْفِيقِ . وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ . وَلَا رَيْحَ كَالثَّوَابِ . وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهِةِ .
وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ . وَلَا عِلْمَ كَالْتَفَكُّرِ . وَلَا عِبَادَةَ
كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ . وَلَا إِيْمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ . وَلَا حَسَبَ كَالْتَوَاضِعِ .
وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ .

● أشار الإمام هنا الى طرف من مجامع الخير وطرق النجاح دنيا وآخرة ، وهي :

١ — (لا مال أعوذ من العقل) المراد بالمال هنا الوسيلة التي تؤدي بالانسان الى غايته . وأعوذ : أنفع .. وكل ذي لب عالماً كان أم جاهلاً يحس ويلمس نعمة العقل ومنافعه ، يحسها في طعامه وشرابه ، ومسكنه وملبسه ، وفي كل خطوة من خطواته .. فمن أعطاني هذا القلم الذي أسطر به ، والقرطاس الذي أكتب عليه ، والكلمات التي أصوغها ، ومصباح الكهرباء التي أتحرك في ضوءها .. الى ما لا نهاية ، أما أثر العقل في الصناعة فقد تجاوز الأرض الى القمر وغيره من الكواكب .

وبالاختصار لولا العقل لم يكن الانسان انساناً ، وأنى انجبه به أتاه بالحوارق والمعجزات ، فأني مال وأي شيء يساوي فضل العقل وعظمته اذا استعمل في رشده ، وصرف الى الخير لا الى الشر ، ومن أخطأه العقل ظهرت حيوانيته ، ومن انحرف به الى الشر ظهرت سمومه وقسوته .

٢ — (لا وحدة أوحش من العجب) لأن الناس يمتقنون المعجب بنفسه ، ويتباعدون من قربه ، فيصبح وحيداً غريباً . وتقدم مثله في الحكمة ٣٠ .

٣ — (ولا عقل كالتدبير) ويشمل هذا التدبير صيانة المال واستثماره والرفق

في الإنفاق . وقال بعض الشيوخ : ومن التدبير أن يترك الشيخ النكاح ، لأنه ينفق جوهرأ ثميناً لا يحصل على مثله أبداً .

٤ - (ولا كرم كالتقوى) المراد بالكرم هنا الإكرام والكرامة ضد الهوان والإهانة ، مثل قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات » . وتقدم الكلام عن التقوى مرات ، منها في الخطبة ١٨٩ فقرة : التقوى .

٥ - (ولا قرين كحسن الخلق) المراد به أن يكون الانسان حسن السيرة والمعاملة في علاقاته مع الناس . وليس من الضروري أن يكون عالماً أو بطلاً أو مخترعاً ، والمهم أن لا ينجش أحد من شره وغدره . وفي الحكمة ٣٨ « أكرمُ الحسب حسن الخلق » .

٦ - (ولا ميراث كالآداب) تقدم بالحرف في الحكمة ٥٣ .

٧ - (ولا قائد كالتوفيق) وهو الهداية والعناية من الله الذي لا حول ولا قوة إلا به ومنه . واني أوّمن بالتجربة والممارسة انه لا شيء على الإطلاق إلا والله فيه تدبير ، وكلما قرأت وسمعت فلسفات تناقض هذه الحقيقة ازدادت بها إيماناً كإيماني بوجودي لا كإيمان العجائز الذي سُدت فيه منافذ العقل . وأيضاً أوّمن بأن لهذا التوفيق أسباباً لا بد منها ، وأهمها السعي وحب الخير لكل الناس بلا استثناء .

٨ - (ولا تجارة كالعمل الصالح) وهو أن يترك أثراً ينتفع به الانسان ، وهذه هي التجارة الراجعة الناجحة دنيا وآخرة « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٧ الرعد » . وقال نبي الرحمة (ص) : خير الناس أنفع الناس للناس .

٩ - (ولا ربح كالثواب) من الله تعالى ، وهو لا يثيب ولا يغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

١٠ - (ولا ورع كالوقوف عند الشبهات) . وكثير منهم يقف ويتورع في الوضوء والطهارة وتكبيرة الاحرام ، ولا يتورع عن التصرف في أموال الفقراء والمساكين وتبذيرها في شهوات نسائه وأبنائه ، ثم يترك ما تبقى ميراثاً للابن والزوجة والصهر والبنت .

١١ - (ولا زهد كالزهد في الحرام) لأن في ترك القادر عليه طاعة لله ورضوانه ، وأفضل من هذا عند الله من ترك الرزق الحلال لمن هو أحوج إليه منه ، أما الزهد في الحلال بلا جدوى تعود على المعوزين فهو جائز شرعاً، ولكنه أشبه بالعبث والتعب بلا جدوى .

١٢ - (ولا علم كالتفكير) والعلم بلا تفكير أكثر خطراً من التفكير بلا علم ، وأية جدوى من حفظ المتنون وما يرد عليها من أشكال والجواب في الشروح والخواشي ؟ أية جدوى من حفظ الكلام بلا وعي ومعرفة بفوائده ومدى أثره في الحياة ؟ وقال قائل : ان حفظ الأقوال وما يرد من أشكال يرهف العقل ويغذي الملكات . ونقول في جوابه : وأية جدوى من العقول والملكات إذا بقيت في عالم المغيبات ولم تعالج شأناً من شؤون الحياة ؟.. أبداً لا شيء يُطلب لذاته حتى الإيمان بالله يهدف الى طاعته والعمل بمرضاته . وتقدم مثله في الحكمة ٩٠ .

١٣ - (ولا عبادة كأداء الفرائض) إذا أديت ما عليك من واجبات فأنت من أسعد الخلق وأعبدتهم ، وتقدم مراراً أن من زُحِرح عن النار فقد فاز .

١٤ - (ولا إيمان كالحياء والصبر) الحياء مما لا يقره عقل ولا دين خير وفضيلة ، وإذا أدى الحياء الى الحرمان من طيبات الآخرة أو الدنيا فهو ضعف وجبن . وتقدم الكلام عنه في الحكمة ٢٠ وعن الصبر في الحكمة ٥٥ و ٨٢ .

١٥ - (ولا حسب كالتواضع) وحده في كلمات أهل البيت « أن يعرف المرء قدر نفسه وينزلها منزلتها بقلب سليم - أي بلا تصنع - ولا يأتي الى أحد إلا بمثل ما يحب أن يؤتى إليه » . ولا شك أن من يؤت هذا الخلق فقد أوتي خيراً كثيراً ، وارتفع شأنه عند الله والناس .

١٦ - (ولا شرف كالعلم) النافع ، ولا خير في علم لا ينفع ، والضار جسيم وحيم .

١٧ - (ولا عز كالعلم) عن سفيه أو ضيع بدرت منه كلمة جارحة ، أو حركة نابية ، وما الى ذلك مما يترفع الكريم عن أقداره . أما السكوت عن الذين يفسدون في الأرض فهو تشجيع وإقرار للفساد ، والتشجيع والإقرار ضرب من العمل .

١٨ - (ولا مظاهره أوثق من المشاورة) تقدم مثله في الحكمة ٥٤ .

١١٣ - إِذَا أَسْتَوَى الصَّلَاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خَزِيَّةٌ فَقَدْ ظَلَمَ . وَإِذَا أَسْتَوَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

● المراد بحسن الظن هنا الثقة بالشخص والاعتماد على صدقه في أقواله وعهوده ، والمراد بسوء الظن مجرد التحفظ منه والكف عن معاملته ، ولا يجوز بحال الإساءة إليه بقول أو فعل حتى مع التهمة . والخزية : فعل ما يُخْزِي ويُفْضَح . وغرر بنفسه : عرّضها للخطر ، والمعنى اذا جهلت أخلاق واحد من الناس، وشككت: هل يفني بالعهود أو يغدر؟ فمقياس الثقة به أن يكون فرداً من مجتمع صالح صادق فيما يقول ويفعل ، ومقياس التهمة وعدم الركون إليه أن يكون من مجتمع فاسد يسوده الغدر والنفاق .

الأنبياء وتطور المجتمع :

وقد أثبت علم الاجتماع ودراسة التاريخ ان الانسان ابن المجتمع الذي يعيش فيه ، والظروف التي تحيط به ، وانه يتغير بتغيرها شاء أم أبى .. حتى الجهاد يتأثر ويتبدل بتبدل البيئة ، وان الفولاذ يتحول الى بخار اذا كانت البيئة ملائمة . وقد أدرك الأنبياء والرسل هذه الحقيقة بوحى من الله سبحانه ، فأرسلهم بشريعة تغير الأوضاع من جذورها ، وتنتقل بهم الى الوضع الأفضل والأكمل .. وحول هذا التغير والتطور كان يدور النقاش والجدال بين الأنبياء المجدين، وبين المترفين المحافظين ، وآيات القرآن صريحة في ذلك ، منها قوله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون - ٢٣ الزخرف » .

١١٤ - كَيْفَ نَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

كَيْفَ يَكُونُ مَنْ يَفْنَى بَيَقَائِهِ ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى
مِنْ مَأْمِنِهِ .

● لكل حادث داعية وسبب ، فسبب الغدر - مثلاً - الثقة والاطمئنان . ومع
التحفظ والحذر لا موضوع للغدر ، وسبب الخيبة الأمل والطمع، ولا خيبة بلا أمل
سابق ، وسبب الموت الحياة . قيل لبعضهم : لماذا مات أخوك وهو في زهرة
الشباب ؟ قال : لأنه حي (من يفنى ببقائه) أي بحياته . وسبب السقم الصحة ،
وهل يعرض العطب لغير السليم ؟. وسبب الأمن الخوف (ويؤتى من مأمنه) أي
من حيث لا يحتسب انه يموت في الساعة التي مات فيها .

١١٥ - كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسُّرْرِ
عَلَيْهِ . وَمَقْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ . وَمَا أَتَى اللَّهَ أَحَدًا
بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

● أكثر الناس أو الكثير منهم يستجيبون لتصوراتهم وأوهامهم ، ويتعاملون معها
كحقيقة لا تقبل الشك والريب !. ولا يسمعون لواعظ ناصح، أو يعتبرون بحادثة
من الحوادث ، فإذا كذب في مدحهم منافق قالوا هذا وحي السماء ، وإذا ملكوا
شيئاً من الحطام قالوا : هنا القوة والمنعة .. ومع الأيام يتبين لهم ولغيرهم ان
الذي كانوا يحسبونه خيراً لهم هو شر محض ، والعاقل الفطن لا يعتز وينخدع
بإقبال الدنيا عليه ، بل يزداد حذراً من العواقب ، ويحسب لها جهده . وتقدم
مع الشرح في الخطبة ١١٢ قول الإمام : « كم من منقوص راجع، ومزيد خاسر ».

١١٦ - هَلَكَ فِي رَجُلَانِ مُحِبٌّ خَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالَ :

● وفسره الإمام بقوله في الخطبة ١٢٥ : « سيهلك في صينفان : محب مفروط

يذهب به الحب الى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض الى غير الحق ،
وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فالزموه . واشتهر هذا المعنى في حديث
رسول الله (ص) . (أنظر ج ٢ ص ٢٤٦) .

١١٧ — إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

● وفي معناه قولهم : « الفوت أشد من الموت » ذلك بأن الفوت والمضيغ هو
الذي أساء الى نفسه ، وحرّمها الخير والهناء . وتقدم الكلام عن ذلك في الرسالة
٣٠ والحكمة ٢٠ .

١١٨ — مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْخَيْتِ لَيِّنٌ مَسْهًا وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا . يَهْوِي إِلَيْهَا الْغَرُّ الْجَاهِلُ وَيَحْذَرُهَا ذُو أَلْبٍ الْعَاقِلُ .

● ذم الإمام للدنيا لا نهاية له .. فهي فناء وبلاء ، ومصاب وعذاب ، وحية
ورزية .. الى آخر ما تقدم وتكرر . ومما قيل فيها : اذا أردت أن تعرف الدنيا
فانظر عند من هي .

١١٩ — وَسُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ : أَمَّا بَنُو نَخْرُومٍ فَرِيحَانَةٌ قُرَيْشٍ نُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ . وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْيًا وَأَمْتَعَهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا . وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا ، وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا . وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمَكْرُ وَأُنْكَرُ . وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

● كان العرب يهتمون بالأنساب ، ويتفاخرون بها ويتكاثرون ، أما الذي يعرفها ويحفظ أسماء الأموات والعتاة فهو من أكثر الناس علماً وفضلاً . ولا بدع فهذا شأن المجتمعات البدائية التي تعيش على الطبيعة والماشية ، ولا تعرف إلا حياتها وأشياءها .

وقوَّض الإسلام بنیان هذا العلم ، وقال عنه رسول الله (ص) : لا ينفع من عِلْمِهِ ، ولا يضر من جهله . وقال سبحانه : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات » . وقال : « فلا أنساب بينهم يومئذ - ١٠١ المؤمنون » . ومع هذا بقي من حب العلم بالأنساب رواسب وآثار ، منها هذا السؤال ، وأجاب عنه الإمام مماشاة مع السائل . وتقدم قوله مع الشرح في الحكمة ٢٢ : « من أبطأ به نسبه لم يسرع به حسبه » .

(أما بنو مخزوم الخ) .. فنهم أبو جهل الذي نزل فيه : « أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى .. أرايت ان كذب وتولى .. لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة .. - العاق » . ومنهم الوليد نزل فيه : « ذرني ومن خلقت وحيداً .. سأصليه سقر .. لا تبقي ولا تذر .. - المدثر » .

(وأما بنو عبد شمس الخ) .. فنهم بنو أمية ، وسيدهم أبو سفيان الذي جيش الجيوش وحزب الأحزاب على الإسلام ونبي الإسلام ، وابنه معاوية الذي فرق أمة محمد (ص) شيعاً شيعاً كما قال العقاد ، وابنه يزيد الذي قتل الحسين ، وأباح مدينة الرسول ، ورمى الكعبة بالمنجنيق ، وفيهم نزل : « والشجرة الملعونة في القرآن - ٦٠ الإسراء » .

(وأما نحن الخ) .. فنا محمد وعلي والحسن والحسين ، وفيما نزل : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً - ٣٣ الأحزاب » . وقوله تعالى الفصل ، وحكمه العدل .

ولإذا ابتعدنا في الشرح عن الأصل فقد قربنا من الحق والواقع وثواب الله ورضوانه . وهو سبحانه المسؤول أن يشغل قلوبنا وألستنا بشكره ، وبمدح أحبائه وأوليائه ، وبالبراءة من أعدائهم وأعدائه .

١٢٠ - شَتَانِ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ : عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ،
وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَوُونَتُهُ وَتَبْقَى أُخْرُهُ .

● ما من عمل إلا وفيه جانب إيجاب وجانب سلب ، لذة وألم ، راحة وتعب ، خير وشر ، والفرق بين عمل وآخر هو اختلاف النسبة بين الجانبين ، فأبي عمل غلب فيه جانب الخير على الشر فهو خير ، وأي عمل غلب فيه جانب الشر على جانب الخير فهو شر . هذا ما يقرره العقل ، وقد باركه القرآن الكريم، وضرب له مثلاً بالخمر والميسر وقال : « فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها » - ٢١٩ البقرة .

وقارن الإمام في هذه الحكمة بين عمليْن : أحدهما فيه لذة زائلة فانية تعقبها لوعة دائمة باقية ، والعمل الآخر فيه لذة دائمة باقية يسبقها تعب وجهد يذهب مع الأيام . والأول يغلب شره على خيره فيجب أن يُترك ، والثاني يغلب خيره على شره فيجب أن يُتبع . وأي عاقل إذا خيّر بين الحياة الكريمة مع الكفاح والصبر على العوز والمشاق ، وبين حياة الذل والهوان مع الراحة وامتلاء المعدة ، أي عاقل يختار ويفضل شيئاً على حريته وكرامته ؟ وهل الخير كل الخير في المعدة .. حتى مع الأسر والعبودية ؟.

١٢١ - وَتَبِعَ جَنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ . وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا
وَجَبَّ وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ،
نُبَوِّئُهُمْ أُجْدَانَهُمْ وَنَأْكُلُ تُرَائِهِمْ ثُمَّ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ
وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ .

● السفر — بفتح السين وسكون الفاء — المسافرون جمع مسافر كصاحب جمع صاحب . والجائحة : البلية والتهلكة (وكأن الحق على غيرنا وجب الخ) .. هذا كناية وتوبيخ لعدم الشعور بالمسؤولية ، ومعنى الكلام بجملته : مالك أيها الضاحك الجاهل وأنت ترى الموت وجنازته ؟ أنسيت أنك مسؤول عن واجبات كثيرة أمام الله وأمام ضميرك ومجتمعك ؟ وأن عليك أن تبصر وتعرف ما هو مطلوب منك ، وتنهض به على خير وجه ممكن بلا تقصير ونفريط ، وأنتك إذا قصرت وتهاونت فصيرك الى اهلاك وسوء العذاب .

(ثم قد نسينا كل واعظ وواعظة) حتى عظة الموت الذي نحسه ونؤمن به ، وسبق مع الشرح في الخطبة ١٨٦ قوله « كفى واعظاً يموتى عابتموهم فمحلوا الى قبورهم غير راكبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين » . (ورؤينا بكل جائحة) ومنها نسيان الموت الذي يردعنا ذكره وتذكره عن الاعتداء والأسواء .

١٢٢ — طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَطَابَ كَسْبُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، وَوَسَّعَتْهُ السَّنَةُ ، وَلَمْ يَنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ .

● (طوبى لمن ذل في نفسه) لا يدعي ما ليس فيه ، ولا يفتخر ويعتز بما عنده ، ويؤلين الجانب لمن هو دونه (وطاب كسبه) والكسب الطيب ما كان بكد اليمين وعرق الجبين . وفي الحديث ان رجلاً صافح رسول الله (ص) بيد خشنة من أثر العمل فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله .. هذه يد محرمة على النار » . (وصلحت سريرته) بحب الخير لكل الناس ، والوقوف مع كل محق ومظلوم ، وضد كل مبطل وظالم ، وفي الحديث : « كف الأذى عن الناس صدقة يتصدق بها الإنسان على نفسه » ومعنى هذا أن ترك الشر خير في الإسلام . (وحسنت خليقته) أي طبيعته ، وحسنها أن يأمن الناس شره ، ويرجوا

خيرهُ ، ويثقوا بأقواله (وأنفق الفضل من ماله) أدى ما فيه من حق لله وللفقراء (وأمسك الفضل من لسانه) ولا يطلقه إلا فيما ينفع . وقال الحكماء : « تعرف حساسة المرء بكثير كلامه فيما لا يُجدي ، وفي إخباره بما لا يُسأل عنه ولا يزداد منه » . ومثله أو أسوأ من اشتغل بتزويق الكلام وزخرفته ، وتجاهل المعنى وفائدته (وعزل عن الناس شره) عطف تفسير على حسنت خليفته (ووسعته السنة ، ولم ينتسب الى البدعة) لا يتجاوز بقول أو فعل حدود ما نص عليه كتاب الله وسنة نبيه من الحلال والحرام .

ومن دعاء الرسول الأعظم (ص) : اللهم اني أعوذ بك من كل عمل يخزيني ، وصاحب يؤذيني ، وأمل يلهيني ، وفقر ينسيني ، وغنى يطغيني .

١٢٣ — غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيْمَانٌ .

● المراد بالكفر هنا مجرد المعصية في مقابل الإيمان الذي يدعو الى الطاعة .. والمرأة تغار من ضررتها وشريكها في الزوج بحكم الغريزة والفطرة ، فإن هي صبرت وعابت بالحسن بل ومنّت بفضلها على الزوج دون أن تغضب الله في شيء ، فلا بأس عليها ولا إثم في غيرتها وحرقتها ، بل هي مأجورة ومشكورة عند الله والناس ، وإن قامت ولم تقعد وتعدت حدود الله سبحانه فهي مجرمة آثمة . أما غيرة الرجل على المرأة فهي من الإيمان لأنها نهى عن المنكر أي التهلك والفجور شريطة أن لا تتعدى الغيرة حدها المعقول ، وتقدم قول الإمام في الرسالة ٣٠ : إياك والتغاير في غير موضع غيرة .

١٢٤ — لَا تُسَبِّحَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي . الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ . وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ . وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ . وَالتَّصَدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ . وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ . وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ .

● المسلم عند الفقهاء من نطق بالشهادتين حيث يجرون عليه ما يجرونه على المسلمين زواجاً وميراثاً ودية وقصاصاً ، أما المسلم عند الله فهو الذي يستسلم للحق ، ويؤمن به ، ويعلمه قولاً ، ويجسده عملاً ، فالإقرار باللسان شرط ، لأنه جزء من العبادة .. بالإضافة الى أن اللسان ترجان القلب ، وانه أكثر الأعضاء حركة ، فوجب أن يعبد الله بالذكر والإقرار كما على سائر الأعضاء أن تعبد بالركوع والسجود .

وقول الإمام : « لم ينسبها أحد قبلي » يريد به أن ما من أحد سبقه الى الفرق بين معنى المسلم الذي تجري عليه أحكام الإسلام في الحياة الدنيا ويكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وبين المسلم عند الله سبحانه الذي تجري عليه أحكام الآخرة حساباً وثواباً .

١٢٥ — عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ . فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ . وَيُحَاسِبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ . وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأُمْسِ نُظْفَةً وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً . وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ . وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَ . وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النُّشْأَةَ الْآخِرَى وَهُوَ يَرَى النُّشْأَةَ الْأُولَى . وَعَجِبْتُ لِعَاِمِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ .

● تقدم الكلام عن البخل في الحكمة ٣ ويتلخص كلام الإمام عن البخيل هنا انه طلب المال ليتحرر من الفقر الذي هو الموت الأكبر ، ولما حصل على المال أمسكه وأبى إلا العيش في سجن الفقر وأسره ، وناقض بهذا نفسه بنفسه ، وعاش في الدنيا محروماً من زرعه وغرسه ، ومعذباً في الآخرة على الإمساك والحرمان ، ومعنى هذا ان غير البخيل من الأغنياء يحاسب على ما أصاب من الدنيا وزينتها ،

أما البخيل فيحاسب عليها مع حرمانه منها ومن لذتها، ومعناه أيضاً أن الفقر للبخل خير من الغنى وأفضل .

(وعجبت للمتكبر الخ) .. الكبر داء ، ودواء المتكبر الاحتقار والازدراء . ويروى أن عابداً رأى أميراً يزهو ويتبختر ، فتجاهله واحتقره فقال له الأمير : أما تعرفني ؟. فقال : بلى ، أولك نطفة ، وآخرك جيفة ، ومررت بمجرى البول مرتين ، وفوق ذلك أنت تحمل العذرة . وفي الحديث : إن الله يقبل الصلاة ممن تواضع له ، ولم يتعظم على أحد من خلقه .

(وعجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله) وآياته في كل شيء .. ونصيحتي لمن لم يقتنع بهذه الآيات أن يقرأ أدلة الجاحدين ، وأنا ضامن وكفيل لإيمانه وهدايته ، ومن أدلتهم هذه قول « نيتشه » : « لو كان هناك إله لكنت أنا الإله ، وكيف أستطيع أن لا أكون إلهاً ؟ .. ولهذا فليس ثمة إله » . أنظر الصفحة ٢٩٠ من كتاب « السلطان » للفيلسوف الانكليزي الشهير « برتراند راسل » ترجمة خيرى حماد الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢ .

وقال آخر : إن الانسان خُلِقَ بشكله وعقله من العفونات وتفاعله العناصر الطبيعية !.. وعرضنا الأدلة على وجود الله تعالى في العديد من المناسبات التي أشار إليها الإمام ، منها في شرح الخطبة ١٥٣ ج ٢ ص ٣٩٥ .

(وعجبت لمن نسي الموت ، وهو يرى الموتى) أي ترك العمل والاستعداد للموت ، وهو يعلم أنه ملاقيه لا محالة . وأعجب منه هؤلاء الوعاظ في عصرنا يحذرون من نسيان الموت ولا يحذرون ، ويقولون ما لا يفعلون .

(وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى) . من كفر بالله ، وهو يرى خلقه وآياته فأمره عجيب ، ومن آمن به لأنه رأى خلقه وآثاره ثم كفر باليوم الآخر - فأمره أعجب وأغرب ، لأن الذي بدأ الخلق قادر على أن يعيده ، وهو أهون عليه : « أو لا يذكر الانسان إنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً - ٦٧ مريم » . ومن أنكر البعث فقد أنكر وجود الله من حيث يريد أو لا يريد ، لأن إنكار البعث معناه إنكار القدرة عليه ، وهذا الإنكار إنكار لله بالذات . وتقدم الكلام عن البعث مراراً .

(وعجبت لعامر دار الخ) .. أبداً لا فرق بين ظلك في المرأة ووجودك في هذه الحياة ، كلاهما الى زوال ، والفرق في طول المدة وقصرها ، وكل آتٍ

قريب . وقيل لحكيم : ان فلاناً في الترع . قال : « هو في الترع منذ ولد »
أي ان الموت أقرب الأشياء الى الإنسان ، وانه في طريقه الى دار الخلود، ولكن
أكثر الناس يعملون كل شيء للممر ، أما المقر فلا شيء له .

١٢٦ — مَنْ قَصَرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ ، وَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ فَيَمْنُ لَيْسَ
لِلَّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

● قد يصاب المرء بصحته أو ماله وأهله قضاءً وقدرًا ، فإذا صبر واحتسب
ضاعف الله له الأجر والعوض، وهان عليه ما حل به . أما من تنزل به نازلة من
تقصيره وصنع يده فهو مهموم ومذموم عند الله والناس حتى ولو صبر ، لأنه
هو الذي أساء الى نفسه ، وأوقعها في الهم والغم بسوء اختياره وإرادته .. وقد
عرفت أفراداً يأففون من بعض الأعمال ، لأنها لا تليق بالدوات والشخصيات ،
ولكنهم لا يأففون من العيش عبثاً على الآخرين محمولين غير حاملين حتى أنفسهم .
(ولا حاجة لله الخ) .. أي أنه تعالى يهملهم ويعرض عنهم ، كما في الآية
٦٧ من سورة التوبة « نسوا الله فنسيتهم » . ونصيب الله في المال هو حق الفقراء
الذي صرحت به الآية ٢٥ من سورة المعارج : « والذين في أموالهم حق معلوم
للسائل والمحروم » . ونصيبه تعالى في الأنفس هو الجهاد لنصرة الحق وخللان
الباطل ، والمعنى ان الذين يبخلون ولا يضحون بأموالهم وأنفسهم « أولئك لا
خلاق لهم ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب
أليم — ٧٧ آل عمران » .

١٢٧ — تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي
الْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الْأَشْجَارِ . أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ .

● يتكيف جسم الإنسان تبعاً للجو وأحواله برودة وحرارة واعتدالاً . وهذا شأن

كل جسم حي نباتاً كان أم حيواناً . وأخبر الإمام بهذه الحقيقة ، ونصح بالوقاية من أول البرد دون آخره - كأبي عالم مخبر وناصح .

١٢٨ — عِظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

● يعجب الناس العادلون إذا فوجئوا بشيء من الطبيعة، أو من آثار العقل وإبداعه ما كانوا يعرفونه من قبل ، كما عجبوا وذهلوا حين اكتشف العلماء الخلايا في جسم الإنسان والعديد من الكواكب وغيرها ، وحين انتقل الإنسان من عصر الشراع الى عصر البخار ، ومنه الى الكهرباء ، ثم الى عصر الذرة والفضاء .

أما الصفوة وأهل المعرفة بالله وعظمته فإنهم لا يعجبون من أي جديد يظهر من غرائب الكون ، أو يكتشفه الإنسان مهما كبر ، لأنهم يعلمون بأن قدرة الله تعالى لا حد لها ولا نهاية ، وإن هذا الجديد وفوقه بملايين الملايين هو أقل من القليل بالقياس الى فيض القدرة الإلهية التي تقول للشيء : كن فيكون . وتقدم مع الشرح قول الإمام في الخطبة ١٩١ : « عِظْمُ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ » .

١٢٩ — قَالَ وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُفْقِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَا أَهْلَ الثَّرْبَةِ . يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ . أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ . وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ . وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ . هَذَا خَيْرٌ مِمَّا عِنْدَنَا فَمَا خَيْرٌ مِمَّا عِنْدَكُمْ ؟ (ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ) : أَمَّا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

● المحال : جمع محل ، وفي بعض النسخ المجال بالجيم ، وهو خطأ ، ومقفرة : خالية ، والفوط - بفتح الفاء والراء - المتقدم . والكلام واضح يدل بنفسه على معناه ولا يحتاج الى تفسير ، ولا يتعظ به ويعتبر إلا « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب - ٣٣ ق » .

أما قول الإمام : (لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم) فهو تماماً مثل قول النبي (ص) لقتلى المشركين يوم بدر : « يا أهل القلب، يا عتبة بن ربيعة، يا شبة ابن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فلاني وجدت ما وعدني ربي حقاً . فقال المسلمون يا رسول الله أتنادي قوماً جيتوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني » .

وتسأل : ألا يتنافى هذا مع قوله تعالى : « وما أنت بمسمعٍ من في القبور؟. الجواب : كلا ، لأن القصد من هذه الآية توبيخ المشركين الذين لم يستجيبوا لدعوة رسول الله تماماً كما لم يستجب أهل القبور ، وبدل على ذلك قوله تعالى في الآية : « وما يستوي الأحياء ولا الأموات » .

وأغرب ما قرأته في هذا الباب نقلاً عن قصة « الحضارة » الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٣٠ : إن السومريين والاسرائيليين يعتقدون بأن الحياة الآخرة حق لا ريب فيه ، ولكن لا حساب فيها ولا عقاب ، ولا أي فرق بين الأخيار والأشرار .

١٣٠- (وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ الدُّنْيَا) : أَيْهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا ثُمَّ تَذُمَّهَا . أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمَّهَا . أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ؟ أِبْصَارِعَ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى ؟ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ؟ كَمْ عَلَلَّتْ بِكَفِّكَ . وَكَمْ مَرَضَتْ

يَدَيْكَ . تَبْغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ . لَمْ يَنْفَعِ أَحَدَهُمْ
إِشْفَاؤُكَ وَلَمْ تُسْعِفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ . وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ بِقَوْلِكَ . قَدْ
مَثَلْتَ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ . إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ
صَدَقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ
تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ ،
وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ . اكْتَسَبُوا
فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ . فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بَيْنِيهَا ،
وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا . فَمَثَلْتَ لَهُمْ بِلَايَتِهَا الْبَلَاءَ ،
وَشَوْقَتَهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ رَاحَتِ بِعَافِيَةٍ وَأَبْتَكَّرْتَ بِفَجِيعَةٍ .
تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا ، وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا ، فَذَمُّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ ،
وَحَمْدُهَا آخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ذَكَّرْتَهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا ، وَحَدَّثْتَهُمْ
فَصَدَّقُوا ، وَوَعَّظْتَهُمْ فَاتَّعَظُوا .

● لكل إنسان دنياه ، وهي أيام حياته على وجه الأرض ، فإذا مات قامت
قيامته ، وأدبرت دنياه ، وأقبلت آخرته ، ولذا قيل : الموت أول منزل من
منازل الآخرة ، وآخر منزل من منازل الدنيا .. وكل عمل للإنسان في دنياه هو
واحد من ثلاثة : عمل لا صلة له بآخرة العامل ووقوفه غداً لنقاش الحساب ،
كهوايته بجمع الطوابع وتنسيق الأزهار . وعمل آخر له أطيب الأثر في آخرته
وسعادته ، كخدمة الإنسان وحل مشاكله ومشاركته في آلامه . وعمل ثالث يجر
على صاحبه أسوأ الآثار في آخرته ، كالفساد والعدوان على العباد .

والله سبحانه وجميع رسله وأوليائه ذموا الدنيا بالنظر الى هذا القسم الثالث .
ومدحها الإمام في كلامه هنا بالنظر الى القسم الثاني الذي يؤدي الى رحمة الله
وجنته ، وكلامه صريح في ذلك : (اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة)
بإرادتهم وحسن اختيارهم « وهديناه النجدين » : طريق الطاعة والمعصية ، الحسنة
والسيئة : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلهما
وهم لا يُظلمون - ١٦٠ الأنعام » . واذن فالذنب ذنبنا ، ولا ذنب للدنيا ،
وبهذا نجد تفسير قول الإمام : (أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك ؟) .
(أفتقر بالدنيا ثم تلمها ؟) . أكثر الإمام من ذم الدنيا وهو زاهد فيها ،
ونلّمها ونحن لها عابدون (متى استهوتك ، أم متى غرتك ؟ الخ) .. أنبأ الله
ورسله بمساوىء الدنيا ، وحذروا منها . وأيضاً تكشففت هي عن كل ما فيها ،
ولم تخف شيئاً ، فأين الخداع والتغريب ؟ (إن الدنيا دار صدق لمن صدّقها الخ) .
المراد بصدق الدنيا إعلان ما فيها من عبر وعظات ، وقد صرح الإمام بذلك في
الخطبة ٢٢١ : « ما الدنيا غرتك .. لقد كاشفتك العظات ، وأذنتك على سواء »
أما الذي صدّقها فهو الذي انتفع بعبورها ، واعتبر بمواعظها . ويأتي قول الإمام :
« ما أكثر العبر - في الدنيا - وأقل الاعتبار » أي المتعبرين والمتعظين .

(ودار غنى لمن تزود منها) كل من جاهد وناضل لنصرة الضعيف وإنصافه
من القوي فقد أخذ من دنياه ثروة لا حد لها ولا عد (ودار موعظة الخ) ..
عطف تفسير على دار صدق (وقد آذنت بينها الخ) .. أعلمت وأخبرت أهلها
بلسان الحال أنهم الى فناء وزوال ، وما بعد هذه الجملة عطف تفسير عليها
(فثلث لهم ببلائها البلاء) تكشففت عن مساوئها حتى رأوها بالحس والعيان .

(وشوقتهم بسرورها الى سرور) رغبتهم في كل عمل ينتهي بهم الى جنة
الله ورضوانه (راحت بعافية ، وابتكرت بفجيرة الخ) .. راحت : من الرواح
أي العشي ، وابتكرت : من البكرة أي الغداة . والعافية : النعمة ، والفجيرة :
النقمة . والمعنى ان الدنيا تسمى بخير ، وتصيب بشر (ترغيباً) في طاعة الله
وثوابه (وترهيباً) من معصيته وعقابه (فذمها رجال غداة الندامة) وهم الذين
قصرُوا في العمل ، وندموا عند نقاش الحساب ، وكان الأولى بهم أن يذموا
أنفسهم ، لأن الدنيا كشفت لهم عن عورتها بلا تضليل وحياء (وحدها آخرون الخ) ..
وهم الذين أخذوا منها ما فيه الكفاية لنجاتهم يوم الفرز الأكبر .

١٣١ — إِنَّ اللَّهَ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُّوا لِلْمَوْتِ ، وَأَجْمَعُوا
لِلْفَنَاءِ ، وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ .

● هذه سنة الله في خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . وقد يكون المراد بالملك هنا العقل والعيان ، أو طبيعة الحال وإلا فآية جدوى من صوت لا يسمع؟.

١٣٢ — الدُّنْيَا دَارٌ مَرٌّ إِلَى دَارٍ مَقَرٍّ . وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ :
رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ أَتْبَعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

● الأول من الرجلين باع نفسه ودينه للشيطان بلذة زائلة ، فأهلك نفسه ، وخسر دينه ، ولقي ربه مذموماً مخدولاً . والرجل الثاني حرر نفسه من الشيطان وحباطله واحتفظ بدينه ، فعاش في الدنيا حراً كريماً ، وفي الآخرة راضياً مرضياً .. وفي سائر الأحوال فلا خير في نفس ما عرفت الكفاح ، ولا حملت الأثقال، ولا ذاقت مر الحياة وقسوتها .

١٣٣ — لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ :
فِي نَكَبَتِهِ وَغَيْبَتِهِ وَوَفَاتِهِ .

● قال الناس في الصداقة فأكثرُوا شعراً وثراً، قديماً وحديثاً ، وألف «التوحيد» كتاباً ضخماً في الصداقة والصديق ، والشرط الأساسي في الصديق الوفاء ، ومعناه ان تشارك صديقك في آلامه ، وتساويه بنفسك ، وأن تدافع عنه في غيبته وتحفظه في أهله ، وأن تذكره بالخير حياً وميتاً ، وتنوب عنه في الصالحات بعد وفاته . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الرسالة ٣٠ ، وعن الوفاء في شرح الخطبة ٤١ .

١٣٤ - مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمَ أَرْبَعًا : مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّعَاءِ « أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وَقَالَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » . وَقَالَ فِي الشُّكْرِ « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » . وَقَالَ فِي التَّوْبَةِ « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

● والأربع هي :

١ - (مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ) . قال سبحانه : « أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ - ٦٠ غافر » . وأيضاً قال : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي - ١٨٦ البقرة » . وإذا عطفنا إحدى الآيتين على أختها نستخرج منها معاً أن الله سبحانه يستجيب الدعاء ممن سمع وأطاع ، ويؤخذ هذا المعنى من قوله تعالى لموسى وهرون : « قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَاستَقِمَا وَلَا تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ - ٨٩ يونس » . وتومئ هذه الآية الى أنه إذا لم يستقِما على سبيل الدين يعلمون فلا تستجاب لهما دعوة ، وتقدم الكلام عن الدعاء في شرح الرسالة ٣٠ . والكلمة الأخيرة : أفضل أنواع الدعاء ترك الذنوب .

٢ - (وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ) . أودع سبحانه في الإنسان ميولاً ورغبات تقوده وتتجه به نحو المعصية واقتراف الذنوب ، وهو لا يملك نفسه في

كل حين ، فاقترضت حكمة الله وعدالته أن يفتح للعاصي من عباده باب التوبة ، فإذا استجاب وتاب عفا عنه وأثابه من فضله ، وإن أصر قامت عليه الحجة واستحق العقاب . قال سبحانه : « ثم تاب عليهم ليتوبوا - ١١٨ التوبة » أي فتح لهم باب التوبة ليدخلوا منه الى مغفرته .. وأية حجة أقوى من هذه وأبلغ؟. وبعد ، فإن المعصية داء ، والتوبة دواء ، وهي واجبة على الفور وبلا تأجيل لإجتماعاً وكتاباً وسنة ، بل وجوب التوبة ثابت بضرورة الدين تماماً كوجوب الصوم والصلاة . وتقدم الكلام عن ذلك بشئى المناسبات .

٣ - (ومن أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة) . الاستغفار أعم وأشمل من التوبة ، لأنه مطلق بلا قيد ، أما التوبة فمن شروطها العزم على ترك الذنوب والمعصية ، وعليه يكون ذكره بعد التوبة من باب ذكر العام بعد الخاص مثل قوله تعالى : « وما أوتي موسى وعيسى والنبيون - ٨٤ آل عمران » .

٤ - (ومن أعطي الشكر لم يحرم الزيادة) وكل ما رأى أن من به نعمة صغرت أم كبرت هي من الله وحده لا شريك له - فهو من الشاكرين الداكرين . ومن النعم العافية من البلاء . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : « من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها » . وأفضل أنواع الشكر ترك المحرمات .

١٣٥ - الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ . وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ .

● إذا صلى المتقي أقبل على الله بقلبه وكيانه ، لقوة شعوره بالحاجة الى الله ورحمته ، وإذا صلى غير المتقي فإنه يصلي لمجرد أداء الفريضة والخروج من المسؤولية وكفى .

والحج من الجهاد أو شبيه به يوم كان الحجاج يقطعون الصحراء على الدواب والجمال ، ويعانون آلام البرد والحز ، والجوع والعطش ، والخوف على النفس والمال : أما اليوم فالحج نزهة وترفيه .

وزكاة الأموال تسد حاجة المعوزين، (وزكاة الأبدان الصيام) للثبات والصبر على الجوع والظمأ . وتقدم الكلام عن هذه العبادات في الخطبة ١٠٨ وغيرها .

(وجهاد المرأة حسن التبعل) . البعل : الزوج . قال تعالى : « وبعولتهن أحقّ برءنهن - ٢٢٨ البقرة » . وتبعلت المرأة : صارت ذات بعل ، وحسن تبعلها الطاعة والعفة ، والتدبير والقناعة بالميسور ، وترك المنة على الزوج ومعايشتها ، وان توافقه فيما يرضي الله ، وتُجمل في الغيرة .. ونحو ذلك مما يسد منافذ الهموم والغموم والظنون .

١٣٦ - أَسْتَنْزِلُوا الرُّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

• يريد الإمام بهذا أن يجعل الإحسان والمساعدة عقيدة دينية يقوى بها المجتمع ، وتعود عليه خيراتها وثمراتها .. وليس من شك ان هذا الأسلوب من أجدى الأساليب في نجاح الدعوة الى الخير ، ومن هذا الباب قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً - ٢٦٨ البقرة » والمراد بالفضل هنا الغنى في مقابل الفقر الذي وعد به الشيطان . وقال تعالى شأنه : « ان تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم - ١٧ التغابن » . ومثله كثير في القرآن الكريم والسنة النبوية . وبهذه العقيدة تُسد المنافذ على الوسوسة والأوهام ان البذل في سبيل الله والخير يوجب الفقر ، ويستفد المال ، والدليل على ان الإمام أراد المعنى الذي أشرنا اليه قوله فيما يلي .

١٣٧ - مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ .

• الخلف - بفتح الخاء واللام - البذل والعوض ، والمعنى واضح ، ومظاهره كثيرة ، وأظهرها الرشوات التي تُبذل بسخاء في عصرنا لمجرد الظن بالوصول الى المناصب العليا كالنيابة ونحوها ، فكيف مع العلم واليقين ؟.

١٣٨ — تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَوْثِقَةِ .

● كثرة العيال تبعث على التفكير وبذل الجهد الى أقصى حد ، لسد حاجة العيال والأطفال ، والله سبحانه مع المعوزين المناضلين يمدّهم بالعون والتوفيق ، ويمهد لهم السبيل ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، ومنها هذه النادرة الطريفة :

قال صاحب « الأغاني » وغيره : إن أعشى قيس كان من أعلام الشعر في الجاهلية ، وأوفرهم حظاً ، ما مدح قوماً إلا رفعهم ، وما هجا قوماً إلا وضعهم ، وكان في عصره رجل مملق ومغمور ، اسمه الملق الكلابي ، وله العديد من البنات ، وما طلبهن أحد لفقره ، فألهم الله زوجته أن تشير عليه بالتصدي للأعشى فيستضيفه ويكرمه ، عسى أن يقول فيه أبياتاً من الشعر فيرغب الناس في بناته .

قال صاحب الأغاني : لما سمع الملق هذا من زوجته قال لها : ويحك ما عندي إلا ناقي ، وعليها الحمل . قالت الله يخلفها عليك . فقال لها : وكيف بالشراب والطيب ؟ قالت : عندي منه ذخيرة . ولعلي أن أجمعه . فتعرض الملق للأعشى ، وأخذه الى خيمته ، ونحر له ناقة ، وكشط له عن سنامها وكبدها ، وسقاها ، وأحاطت به بنات الملق بخدمته ويمسحنه بالطيب ، فقال الأعشى : ما هذه الجواري ؟ قال الملق : بنات أخيك ، وهن ثمان ما تزوجت منهن واحدة . ولما خرج الأعشى من عنده أنشد فيه قصيدة فسارت وشاعت ، وما مضى أمد قصير حتى زوّج جميع بناته .

١٣٩ — مَا أَعَالَ مَنْ أَقْتَصَدَ .

● ما أعال : ما افتقر الى الناس وان كثر عياله ، واقتصد اعتدل ولم يسرف في الإنفاق ، ووضع كل شيء في موضعه . ونُقل عن سقراط انه قال : الجواد من أعطى من دنياه لآخرته ، والبخيل لا يعطي دنياه ولا آخرته ، والمسرف يعطي دنياه دون آخرته ، والمقتصد يعطي كل واحدة نصيبها .

١٤٠ - قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ .

● واليسار الثاني وجود المال وكثرته ، وتلتقي هذه الحقيقة مع النظرة القائلة : ان سبب الجوع هو تضخم السكان ، وان الناس ينتجون من الأطفال أكثر مما ينتجون من الطعام ، وان تحديد النسل هو سبيل التوازن بين الإنتاجين . وكلام الإمام منصرف كلية عن تحديد النسل ، وإنما هو مجرد انعكاس عن الواقع .

وفي رأينا ان الإسلام لا يُكره أحداً على الزواج ولا يُلزمه به إذا أمن الوقوع في الحرام ، لأن الإسلام دين الحرية لا إكراه فيه ولا إرغام ، وأيضاً يترك الإسلام الخيار لكل من المرء والمرأة في النسل وتقديره بأي سبب من الأسباب إلا الإجهاض واستئصال الرحم أو غيره من الأعضاء . وقال جماعة : يحرم تحديد النسل ، لأن الله هو الرازق . ونقول في الجواب ، وبصرف النظر عن: عقلها وتوكل ، نقول : أجل ، ان الله هو الرازق ، ولكن أين وجه الدلالة في الرزق على التحريم ؟ وما هي الصلة بين قدرة الله على الرزق وتحديد النسل ؟.

وفي تشرين الأول اكتوبر سنة ١٩٦٨ حرّم بابا روما تحديد النسل ١ . ولا أدري هل يتفق هذا مع تحريم الزواج عليه وعلى الكبار من رجال الكنيسة ؟.

١٤١ - التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ .

● هذا حديث لرسول الله (ص) والمراد بالتودد حسن المعاملة لا التملق والتصنع. ومن هذا الحسن العفو عند المقدرة ، واحتمال الكلمة. المرجعة من جاهل، والإصغاء لحديث سخيّف . ونصف العقل أي من العقل بمكان . وقال أحد الشارحين : المراد بنصف العقل تدبير المعاش ! . ولا أدري ما هو وجه الصلة بين التودد والمعاش ؟ اللهم إلا العيش على حساب الآخرين .

١٤٢ - اَلْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ .

● الهمّ آفة الأرواح والأجسام ، والقلوب والعقول ، والتخلي عنه متعذر مع قيام أسبابه .. أجل ، بعض الهمّ يكون من وحي الجهل والخيال ، كمرقبة الناس في شؤونهم الخاصة ، والتفكير في ان زيدا الحقيّر غني وأنا معدم ، وعمرأ محترم وأنا وضعيف . وأكثر الناس همّاً وقلقاً من فكّر في أقوال الناس . قال الإمام في الخطبة ١٥٥ : « من شغل نفسه بغيره تحير في الظلمات ، وارتبك في الهلكات » . ولا شك ان هذا الشغل البغيض والتفكير الأسود يمكن التخلي عنه .

١٤٣ — يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ . وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ
عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ عَمَلُهُ .

● الظاهر من هذا الكلام ان الله يعطي من الصبر ما يعادل المصيبة شدة وضعفها . ولكن هذا غير مراد — كما نظن — لأن مصدر الصبر العقل والإيمان كما قال الإمام في الحكمة ٨٠ و ١١٢ ، وإنما المراد ان مرارة الصبر تكون على قدر المصيبة كما هو الواقع ، وقول الإمام انعكاس عن هذا الواقع ، أما قوله : « ينزل الصبر » فمعناه ان الله سبحانه يمنح الرضا على مرارة الصبر بقدرها . قيل للحكيم : ماذا تريد ؟ قال : أريد أن لا أريد .
(وحبط عمله) أي ذهب ثوابه على مصابه حتى ولو صبر .

١٤٤ — كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الظَّمْأُ . وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ . حَبِذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ .

● أبداً لا جدوى من صوم وصلاة وحج وزكاة إلا مع الصدق والإخلاص في القول والعمل والشدة والصلابة في الحق ولو تظاهرت ضده جميع قوى الشر ، وأي وزن لعبادة لا تردع عن منكر ، ولا تبعث على معروف ؟ قال نبي الرحمة (ص) :

« من لم يهتم بأموال المسلمين فليس منهم » حتى ولو صلى وصام وحج الى بيت الله الحرام . وأيضاً قال : « الدين النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين » ومعنى هذا أن دين الإسلام لا يعرف السلبية ولا يعترف بها .
(حبذا نوم الأكياس وافتارهم) والمراد بالأكياس هنا أهل العلم والعمل ، والمعنى نوم العالم العامل أفضل من عبادة القاعد الجاهل . وتقدم مع الشرح قول الإمام في الحكمة ٩٦ : « نوم على يقين خير من صلاة في شك » .

١٤٥ — سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ وَأَذْفَعُوا
أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ بِالْدُّعَاءِ .

● سوسوا إيمانكم أي اعملوا بمقتضاه وانتفعوا به ، والمعنى لا إيمان يجدي بلا بذل تماماً كما لا بذل ينفع بلا إيمان (وحصنوا أموالكم بالزكاة) قال ميثم في شرحه : من منع الزكاة فقد عرض أمواله للتلف ، لأن الفقراء لا يسكتون عنه (توفي هذا الشارح سنة ٦٧٩ هـ) أما الدعاء فقد سبق الكلام حوله منذ قليل في الحكمة ١٣٤ .

١٤٦ — (قَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ : أَخَذَ يَدَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ ثُمَّ قَالَ) : يَا كُمَيْلُ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاها . فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ . النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رَعَاةٍ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِيٍّ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ . يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ أَلْمَالِ . وَالْعِلْمُ يَخْرُسُكَ وَأَنْتَ تَخْرُسُ أَلْمَالُ . أَلْمَالُ تَنْقُصُهُ

النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْهَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .
يَا كَمِيلُ ، الْعِلْمُ دَيْنٌ يُدَانُ بِهِ . بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ،
وَجَمِيلَ الْأَحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْهَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .
يَا كَمِيلُ ، هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاؤُهُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ
الدَّهْرُ . أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا ، إِنَّ
هَهُنَا لِعِلْمًا جَمًّا (وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ، بَلَى أَصَبْتُ
لَقِنَا خَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِرًا
بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَبِحُجَّتِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ ،
لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ
شُبْهِهِ . أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مِنْهُمَا بِاللَّذَّةِ ، سَلِسَ الْقِيَادَ لِلشَّهْوَةِ ،
أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ لَيْسَا مِنْ رِعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ . أَقْرَبُ
شَيْءٍ شَبَهَا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .
اللَّهُمَّ بَلَى ، لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ . إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا
أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا لِنَلَّا تَبْطُلَ حُجَّتُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ . وَكَمْ ذَا ؟ وَأَيْنَ
أُولَئِكَ ؟ أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقْلُونَ عَدَدًا وَالْأَنْعَظُمُونَ قَدْرًا . يَحْفَظُ اللَّهُ
بِهِمْ حُجَّتَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ
أَشْبَاهِهِمْ ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ ،
وَأَسْتَلَفُوا مَا أَسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرْفُونَ ، وَأَنَسُوا بِمَا أَسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ،

وَصَحِّبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحَهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى . أُولَئِكَ خُلَفَاءُ
اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالِدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ . آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْتِهِمْ . أَنْصَرِفْ
إِذَا سِتَتْ .

(يا كميل بن زياد) كان من أصحاب الإمام وخصته ، وسبقت إليه الإشارة
في شرح الرسالة ٦٠ (إن هذه القلوب أوعية) أي مستودع العواطف والمشاعر
والنزعات (فخيرها أوعاها) وهي التي تنج بعواطفها ومشاعرها نحو الخير
والصلاح ، وتبتعد عن الشر والفساد ، والعكس بالعكس ، والله سبحانه يأمر
الإنسان بالخير ، وينهاه عن الشر لتظهر مشاعره مجسمة في أفعاله التي يستحق عليها
الثواب والعقاب . قال سبحانه : « وليبتي الله ما في صدورك وليمحس ما في
قلوبكم - ١٥٤ آل عمران » . وقال : « ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم
خيراً - ٧٠ الأنفال » . وقديماً قيل : على ما في القلوب المعقول .

(الناس ثلاثة : فعالم رباني) وهو الذي يعرف الله وشريعته ، ويعمل بموجبها
(ومتعلم على سبيل نجاة) . كل من جد في طلب العلم النافع ، وانصرف إليه
بكيانه لا يشغله عنه شاغل ، وصبر على ألم التحصيل ، وسهر الليالي في هذه
السبيل - يصير عالماً وينال شرف العلم ، وإذا عمل بموجبه فاز بالخير والسعادة
دنياً وآخرة .

وفي كتاب « الحكمة » لابن مسكويه : ان أفلاطون - ولد سنة ٤٢٧ ،
وتوفي ٣٤٧ قبل الميلاد - قال لمعلمي الأحداث : أقيموا عليهم رئيساً منهم
- أي من الطلاب - يشرف عليهم ، ويجب أن يكون متفوقاً وذكياً معروفاً
بحسن السيرة غنياً كان أم فقيراً ، وإذا انحرف عن الجادة يُنحى ، ويقام غيره ..
ويشبه هذا رئيس رابطة الطلاب في عصرنا ، والفرق ان رئيس الرابطة اليوم
ينتخبه الطلاب ، وفي عهد أفلاطون يعينه الأساتذة تبعاً للتقاليد والعادات في كل
زمان .

(وهمج رعا عاتباء كل ناعق الخ) .. والحديث عن رذيلة الجهل وأخلاق
الجهال تماماً كالحديث عن ضرر المرض وآلام المرضى ، نافلة وفصول ، وخير

تحديد للجاهل قول الإمام في الحكمة ٧٠ : « لا ترى الجاهل إلا مفترطاً أو مفترطاً » ونقدم الشرح .

بين العلم والمال :

(العلم خير من المال الخ) .. المال عصب الحياة ، وقاضي الحاجات من كبيرها وصغيرها ، الى كل ما في الدنيا من وسائل الترف وزينة الحياة ، ولكن من الذي أوجد هذه الوسائل والأدوات ، وعرضها في الحوانيت والأسواق ، المال أو العلم ؟ واليك هذا المثل الصغير : أنت تذهب الى الصيدلية ، وتشتري دواء بمبلغ بسيط لا تحس به إطلاقاً تماماً كما تشتري كيلو الطماطم .. وكان الملوك من قبل يتنازلون عن عروشهم من أجل الحصول عليه .. فمن أوجده ويسّره ، دفر الصكوك ، أو عباقرة العقول التي أجرت عليه آلاف التجارب ؟! وأيضاً من أعطى القوة للشعب المتفوق في كل ميدان وعلى كل الشعوب الجاهلة المتخلفة . وامتنص دماءها وأموالها ، وقتل حريتها وكرامتها ، وقضى على تراثها وثقافتها ، من الذي أعطى هذا وأكثر للشعب المتفوق ، العلم أو أي شيء ؟ . وسمه ما شئت . وهذا الذهب الأسود يتدفق بجرأ في أرض الجهل ، ويُستخرج بأيدي أهله الجاهلين ، ويصب في أرض العلم ليصبح رأساً لأموال المحتكرين .. ومثله الذهب الأصفر والماس في افريقيا ، والمطاط الطبيعي في آسيا ، وقس على ذلك أمريكا اللاتينية ، وسائر الدول الجاهلة « النامية » ، وتقدر بأكثر من ١٢٠ دولة ، وفوق ذلك هي غارقة في الديون الى الآذان للغزاة الآكلين .. والسر علم الآكل وجهل المأكول .

وبعد، فإن العلم هو المقياس الوحيد لفهم الحياة والقوة والتفوق في كل ميدان، ولكل خطوة تخطوها البشرية الى الأمام .. وغير بعيد أن يتصل العلماء غداً أو بعد غد بمخلوقات عاقلة متحضرة فيما وراء مجموعتنا الشمسية ، ويعملوا معاً على تقدم الحياة ، ويصبح عصرنا بالقياس الى ما يأتي تماماً كالعصر الحجري بالقياس الى هذا العصر .

وبهذا نجد تفسير قول الإمام : (والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه) والشاهد الناطق العادل بهذه الحقيقة هو نحن العرب ، نملك الكنز والثروة ، والغرب يملك

العلم والخبرة ، فحكم وتحكم بكنوزنا و ثروتنا ، ونحن نتفرج كالجالسين على مقاعد السينما . قالوا بلسان العمل : ربي زدني علماً . وقلنا بلسان الكسل : زدني جهلاً . ومنذ سنوات قرأت كلمة حول المال لكاتب مصري قال فيها ، وهو يتظرف ويتكلف : « كان فيما مضى حكيم فقير لا يملك شيئاً من المال قال : المال خير من العلم » . ولو كان لهذا المتفلسف مثقال ذرة من علم لقال : إن صاحب هذه الحكمة سبق زمانه بأكثر من ألف وثلاثمئة عام حين تنبأ بمكانة العلم وعظمته في عصرنا وفي كل عصر يأتي من بعده .

(هلك خُزان الأموال وهم أحياء) أي وهم غارقون في الترف والملذات ، وهلكوا لأنهم تنازلوا عن انسانياتهم لأعداء الانسانية ، ونفذوا كل ما يراود منهم على حساب دينهم ووطنهم وأمتهم (والعلماء باقون الخ) .. ما بقيت الأجيال تنتفع بثمار عقولهم وجهودهم دون مقابل (إن ها هنا لعلماً الخ) .. تقدم الكلام عن علم الإمام وسببه عند شرح قوله : « سلوني » في الخطبة ٩١ ج ٢ ص ٥٥ . ثم أشار الى أن طلاب العلم في عهده أربعة أصناف ، وهم بين قاصر ومقصر لا يصلح للعلم وحكمته :

- ١ - (بلى أصبت لقناً غير مأمون عليه) اللقن - بفتح اللام وكسر القاف - السريع الفهم ، وضمير « عليه » يعود الى العلم ، والمعنى ان الذي يفهم العلم ويضمه خائن يتخذ من علمه أداة للصوصية ، ويستطيل به على الأكفاء والأولياء .
- ٢ - (أو منقاداً لحملة الحق الخ) .. أحنائه : نواحيه ، وينقذح يخرج ويظهر أي ان هذا الثاني طيب القلب ينقاد للحق وأهله ، ولكنه ساذج لا خبرة له وبصيرة ، تهتز عقيدته لأدنى شبهة ، ويصبح العوبة بأيدي الأبالسة والشياطين .
- ٣ - (أو منهوماً باللذة الخ) .. إذا رأى حلاوة الدنيا وزينتها سال لعبابه ، وطار علمه وصوابه .

- ٤ - (أو مغرماً بالجمع الخ) .. لا أمنية له إلا المال وجمعه وادخاره ، فهو شغله الشاغل ، لا ينفق قلبه إلا له ، ولا يلهج لسانه إلا به .
- (كذلك يموت العلم بموت حامليه) يريد بحامليه نفسه الزكية ، ومن البداية ان موت كل شيء يموت أهله علماً كان أو جهلاً ، ديناً أم إلحاداً .. وإذا مات أهل العلم خآقهم الأديعاء - في الأغلب - فيضللون ويفسدون ، كال كثير من المتسمين به في عصرنا .

(بلى لا تخلو الأرض من قائم الخ) .. هذا استدراك لقوله : « يموت العلم بموت حامله » . ويتلخص المعنى بأن الله سبحانه قضى وقدّر أن الأرض لا تخلو من عالم عامل بالله وشرعته يكون حجة على الجاهل المقصر والفاقد المستهتر ، وقد يكون هذا العالم ظاهراً معروفاً عند الناس حيث لا خوف عليه من شيء ، وقد يكون مستوراً ، للخوف أو لأي سبب نجهله . وفي « فلسفة التوحيد والولاية » كتبنا بعنوان « لماذا الإمام الغائب ؟ » حوالي تسع صفحات ، فليرجع إليها من شاء ، ومنها الأسطر التالية :

إن الإيمان بالمهدي المنتظر إيمان بالغيب ، وكل إيمان بالغيب يفتقر الى النص عن المعصوم ، وثبت عند الشيعة هذا النص فوجب عليهم التصديق والإيمان ، والشرط الرئيسي للعمل بالنص أن يثبت عند الباحث عنه والمطلع عليه ، لا عند غيره أياً كان هذا الغير ، وليس من شك أنه لو ثبت النص على المنتظر عند التشكك فيه لزال شكّه وآمن ، وأيضاً لو لم يثبت النص عند الشيعة لأنكروا وتشككوا .

(وكم ذا ؟ وأين أولئك ؟) أي كم عدد العلماء الذين هم خلفاء الله في أرضه وحججه على عباده ؟ وأين مكانهم في هذه الأرض ؟ (أولئك والله الأقلون عدداً الخ) .. لا نعلم عددهم بالضبط والتحديد ، ونعلم بالإجمال أنهم قليلون ، كما هو شأن الهداة الكرام (والأعظمون عند الله قدراً) لأنهم المطهرون من الرجس تطهيراً (يحفظ الله بهم حججه وبيئاته) هم خزنة علم الله ، وحفظة شريعته ، والبرهان القاطع الدامغ لأقوال الجاحدين والمعادين .

(حتى يودعوها الخ) .. يبشرون وينشرون العلوم ، فينتفع بها الطيبون الراغبون في معرفة الحق لوجه الحق والعمل به (هجم به العلم الخ) .. أي أنهم مصدره ومنبعه حتى كأنه هو الذي طلبهم دون أن يسعوا إليه (واستلثوا ما استوعره المترفون) استوعره : رآه وعراً ، والمعنى أن الوعر الخشن من العيش عند المترفين هو ناعم ولين عند هؤلاء العلماء الزاهدين .

(وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون) . أنسوا بالحق ، واستوحشوا من الباطل على عكس الجاهل . وفي الخطبة ١٢٨ : « لا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل » . (وصحبوا الدنيا بأبدان الخ) .. الجسم مع المخلوق

والروح مع الخالق (أولئك خلفاء الله في أرضه) ومنار لعباده ، من اهتدى بهم
نجا ، ومن أعرض عنهم هوى .

١٤٧ — الْمَرْءُ مَحْبُوبُهُ تَحْتَ لِسَانِهِ .

● الأديب والفقيه والفيلسوف يُعرفون بالأقوال ، وعن طريقها فقط ، وكذلك
المحامي والفلكي ومن إليه ، أما العاقل والعالم والطبيب والمهندس فإنهم يعرفون
بالأقوال وبالأفعال أيضاً ، بل هي أصدق في الدلالة وأقوى .. وعلى أية حال
فكل انسان ترك كلماته جديداً مفيداً لأخيه الإنسان فهو عاقل وعالم وأديب وفقيه
وفيلسوف ، أما عباقره اللسان الذين بلغوا القمة من فصاحة الكلام ، ولم يتركوا
ثراً نبيلاً فهم سفسطائيون ، وان كتبوا آلاف المجلدات ثراً وشعراً .

١٤٨ — هَلَكَ أَمْرُو لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ .

● كل من يدعي ما ليس فيه قتاله الوبال والهلاك ، والخيبة والخسران ، لأنه
يتصدى لأمر ليس لها بكفؤ ، ويعيش في عالم بعيد عن واقعه . وتقدم قول
الإمام في الخطبة ١٦ : « هلك من ادعى ، وخاب من افترى ، وكفى بالمرء
جهلاً أن لا يعرف قدره » .

١٤٩ — لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ ، وَيَرْجِي الثَّوْبَةَ

بَطُولِ الْأَمَلِ . يَقُولُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ الزَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ
الرَّاغِبِينَ . إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ . يَعْجِزُ
عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي وَيَأْمُرُ
بِمَا لَا يَأْتِي . يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُنْفِضُ الْمُدْنِينَ وَهُوَ

أَحَدُهُمْ . يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكثَرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمَ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَهُ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا . يُعْجِبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ وَيَقْنَطُ إِذَا أُتْبِلَ . إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْتَرَضَ مُغْتَرًّا . تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا تَقْظُنُّ وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَتِقِنُّ . يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَذْنَى مِنْ ذَنْبِهِ . وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِهِ . إِنْ أَسْتَغْنَى بِطَرِّ وَفَتْنٍ ، وَإِنْ أَفْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ . يُقْصِرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيَبَالِغُ إِذَا سَالَ . إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ . وَإِنْ عَرِثَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ . يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَغْتَبِرُ ، وَيَبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ . فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِيلٌ ، وَمِنْ الْعَمَلِ مُقِلٌّ . يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى . يَرَى الْغَنَمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرَمَ مَغْنَمًا . يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَا يُبَادِرُ الْقَوْتَ . يَسْتَغْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِيلُ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ . وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ . فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ . اللَّغْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ . يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، وَيُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوِي نَفْسَهُ . فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصَى ، وَيَسْتَوْفَى وَلَا يُوفَى ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

● (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل). كل خطير ونفيس يطول اليه الطريق، وتكثر في نواله المشاق .. حتى التافه الزائل من متاع الدنيا لا تصل اليه إلا بالسعي والحركة، فكيف إذا كان المطلوب « ما لا عين رأت - مثله - ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » ؟ حتى الأنبياء ما دخلوا الجنة إلا بعد أن كافحوا وصبروا على الجهاد والآلام . قال الإمام : « حُفَّت الجنة بالمكارة ، وحفت النار بالشهوات » . وقال حفيده الصادق : الإيمان كله عمل ، ولا إيمان بلا عمل .

(ويرجى التوبة بطول الأمل) . يرجى - بتشديد الجيم - يؤخر ويسوّف . وتقدم ان التوبة تجب على الفور .. هذا ، الى أن الموت يأتي بغتة ، ولا شيء معه إلا حسرة القوت ، ومرارة الندم (ويقول في الدنيا الخ) .. أبداً لا صلة ولا علاقة بين أقواله وأفعاله (ان أعطي منها الخ .. مريض بسداء النهم ، ولا يجد الى الشبع سبيلاً ، ولا الى دائه دواء (يعجز عن شكر الخ) .. يقول ولا يفعل ، ويأكل ولا يشبع ، ويطلب الكثير وما هو بأهل لأقل من القليل ، بل ولا لشيء إلا الصفع على القفا .

(يحب الصالحين الخ) .. يستحسن الفضيلة، ويستقيج الجريمة نظرياً ، أما في عمله فإنه يقترف الجرائم عن قصد وتصميم ، ومعنى هذا أنه ينقاد في سلوكه لمنطق العاطفة لا لمنطق العقل ، وأكثرنا نحن بني آدم على هذه الملة والمذهب .. ومن جملة ما قرأت ان بعض العلماء والعباقرة يؤمنون بالخرافة والأساطير !. والسراهم علماء في مهنتهم يصدرون فيها عن عقل وروية ، أما في غيرها فيصدرون عن التربية والعاطفة والبيئة .. وأفحش الأخطاء والأخطار أن تُفسر الخرافة بالعلم ، والجريمة بالدين .

(يكره الموت لكثرة ذنوبه الخ) .. هو يؤمن بيوم الحساب ، ويعلم انه مذنب ومعاقب على ذنبه ، ومع هذا يضيف اليه ذنباً ، ولا عجب لأن العاطفة هي المحرك الرئيسي للإنسان إلا اذا تغلب عليها العقل أو الدين ، أو تحول الى عاطفة ، وقد أدرك أهل الاختصاص هذه الحقيقة ، وقالوا : إن تهذيب الأخلاق لا يكون بالمواظظ وقراءة الكتب ، بل بتربية الطفل وتنشئته على الخلق المرغوب فيه ، وتوجيه عاطفته اليه قبل أن تقوى وترسخ جذورها في نفسه .

(إن سقم ظل نادماً الخ) .. اذا أصابه مكروه بما كسبت يده ندم وتحسر،

وكان عليه أن ينتفع بهذا الدرس ويتعظ ، ولا يعود الى فعلته الأولى ، ولكنه سرعان ما ذهل وعاد الى مثلها (يعجب بنفسه اذا عوفي) ويذهل عن المخبات والمفاجآت ، ويأتي قول الإمام: ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وخبأ له الدهر يوم سوء (ويقنط اذا ابتلي) مع ان الفرج كثيراً ما يأتي من بطن الضيق ، ويأتي قول الإمام : عند تنامي الشدة تكون الفرجة ، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء .

(إن أصابه بلاء الخ) .. يشير الى قوله تعالى : فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون - ٦٥ العنكبوت « (تغلب نفسه على ما يظن الخ) .. هو يعلم ان سلوك هذا الطريق يعود عليه بالضرر لا محالة ، وفي الوقت نفسه يظن ان مع هذا الضرر الثابت ثبوتاً يقيناً - شيء من النفع ، فيتبع الظن ويدع العلم واليقين .. والسرا ما أشرنا اليه منذ قليل ، وهو ان مصدر العلم العقل أو الوحي ، ومصدر الظن هنا العاطفة ، وأكثر الناس مع العاطفة لا مع الدين والعقل .

(يخاف على غيره بأدنى من ذنبه) أي يعظ ولا يتعظ (ويرجو لنفسه بأكثر من عمله) يعمل القليل ، ويطلب الأجر الكثير (ان استغنى بطر الخ) .. عطف تفسير على يعجب بنفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلي (يقصر إذا عمل ، ويبالغ إذا سأل) لا يؤدي ما وجب عليه ، ويطالب باللاح بما لا يستحق (إذا عرضت له شهوة أسلف المعصية الخ) .. أسلف : أسرع . وسوف : أهمل ، والمعنى يسرع الى الحرام ، ويهمل الواجب حتى كأن ما وجب عليه هو الحرام ، وما حرم عليه هو الواجب، ومثله في الخطبة ١٠١ : اذا دُعي الى حرث الدنيا عمل ، وإذا دُعي الى حرث الآخرة كسل .

(وان عرته محنة الخ) .. إذا نزلت به نازلة خرج عن دينه وعقله ، وتقدم مع الشرح في الحكمة ١٠٧ : ان أصابته مصيبة فضحه الجزع (يصف العبرة ولا يعتبر) تكرر بأسلوب ثان لقوله : يخاف على غيره .. (فهو بالقول مدلل الخ) .. أي مستعمل ومستظهر ، وتقدم مثله في الحكمة ١٤٦ : مستظهراً بنعم الله على عباد الله (ينافس فيما يفنى الخ) .. يباهي ويضاهي بمظاهر الزينة والرفاهية ، ولا يقيم وزناً للبر وآثاره (يرى الغنى مغماً ، والغرم مغماً) الغنى : الربح ،

والمراد به هنا الأجر من الله والناس على العمل الصالح النافع ، والغرم : الخسارة ، وهي هنا العقاب منه تعالى على اتباع الشهوات وإضاعة الخيرات .
 (يخشى الموت الخ) .. ولا يستعد له (يستعظم من معصية غيره الخ) ..
 تكرار بأسلوب ثالث لقوله : يخاف على غيره .. (فهو على الناس طاعن ، ولنفسه مداهن) أي مصانع متساهل ، ومثله ما يأتي : أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله (فهو يُطاع) أي يطل ، الطاعة من الناس لمواعظه ويوبخهم على الإعراض ، وينسى نفسه المرائية الباغية (ويستوفي ولا يوفي) عطف تفسير على يقصر إذا عمل .. (ويخشى الخلق في غير ربه) يعصي الله سبحانه خوفاً من خالق الله (ولا يخشى ربه في خلقه) لا يخاف الله في الإساءة الى خلق الله .
 قال ابن أبي الحديد : « اختلفت ألفاظ هذا الفصل والمعنى واحد ، وذلك لاعتداده عليه السلام على العبارة ، وسعة مادة النطق عنده » .

١٥٠ — لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ حُلُوءٌ أَوْ مُرَّةٌ .

● المراد بالعاقبة هنا الآخرة ، وهي سعادة وحلاوة للمتقين ، وشقاء ومرارة للغاوين ، قال سبحانه : « يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد — ١٠٥ هود » . وتقدم هذا المعنى مرات ، وهو من أوضح الواضحات عند من آمن بالله واليوم الآخر ، أما من أنكر فجوابه ما تقدم مع الشرح في الحكمة ١٢٥ : عجت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى .

١٥١ — لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ وَمَا أَدْبَرَ كَانَ لَمْ يَكُنْ .

● كل ما أقبل عليك من هذه الحياة جاهاً كان أم مالاً أم عافية أم غير ذلك فهو ذاهب عنك ، أو أنت ذاهب عنه .. ويستحيل أن تبقى له ، ويبقى لك ، إما أن يدبر ويدعك صفر اليدين تضرب كفاً بكف ، وإما أن تدعه وتدبر بجلدك وكفئك الى حفرة مظلمة موحشة عفنة ، لا تحمل معك اليها إلا ما كسبت يداك من خير أو شر .

١٥٢ — لَا يَعْدَمُ الصَّبْرُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ .

● أي طالب لأمر يسلك طريقه القويم ، ويجتهد في السير ، ويصبر صبر الأحرار يظفر بما أود ، فطالب العلم ينجح إذا ثابر وصبر ، والشعب الناصر من أجل حريته يتحرر إذا استمر في الثورة ، وصبر على التضحية . وكل الناس يحفظون ويقولون : من صبر ظفر . وتقدم الكلام عن الصبر مرات .

١٥٣ — الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالِدَاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانٍ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ الرِّضَى بِهِ .

رضا الشيطان رضانا :

رضا الله رضا المتقين ، وغضبه غضبهم ، وعلامة ذلك أن يرضوا من أعمال الناس ما يرضي الله ، ويكرهوا منها ما يكره ، أما حزب الشيطان فعلى العكس يرضون لما يُغضب الله ، ويفضون لما يرضيه ، وإن فعلوا فعل المفضوب عليهم تضاعف الوزر حيث يظهر الزيف من القلوب ويتجسم في الفعل والسلوك .

ومن درس أحوالنا وسيرتنا نحن رجال الدين أو العلماء بالدين — رأى الكثير منا يفرحون ويطربون إذا حدث من أحدنا ما يشينه ويفتضح به أمام الله والناس ويحزنون ويألمون إذا فعل ما يزينه ويرفع من شأنه عند الله والناس ! ألا يعني هذا أن رضا الكثير منا — نحن حجج الإسلام — هو غضب الرحمن ورضا الشيطان ، وإن غضبنا هو رضا الله والمؤمنين وغضب الشيطان الرجيم ؟ .

١٥٤ — اَعْتَصِمُوا بِالذِّمِّ فِي أَوْتَادِهَا .

● اعتصموا : تحصنوا ، والذمم : العهود ، والمراد بالأوتاد هنا أهل الصدق

والوفاء ، والمعنى صادقوا وعاهدوا الطيبين الأخيار تجدوهم عوناً لكم في البأساء والضراء . ولأيامكم وأهل الغدر والخيانة .

١٥٥ — عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ .

● قال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله — ٨٠ النساء » . ولكي نطيع الرسول (ص) يجب أن نعلم رسالته وسنته ، ولا عذر لجاهل مقصر .

١٥٦ — قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنْ أَهْتَدَيْتُمْ وَأُتِمِّعْتُمْ إِنْ أَسْتَمَعْتُمْ .

● الجملة الثانية والثالثة عطف تفسير على الأولى ، والمعنى ان الله سبحانه يبين وأوضح « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — ٣٧ ق » ولم يدع لأحد من حجة وعذر . فلا تلوموه ولوموا أنفسكم .

١٥٧ — عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَأَرْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

● لا بأس عليك اذا أنت أغضبت وتحملت ما تكره من صديق أو جار أو أي انسان ، بل خير لك وله وللإنسانية أيضاً أن تسامحه وتحسن اليه عسى أن ينجل من نفسه ، فيؤنبها ويكفر عن فعلته بما يرضيك .. هذا ، الى ان المحسن يعم بإحسانه جميع الناس حتى من أساء اليه ، والحليم يعفو ويصفح ، والكريم يجرود على من بخل عليه . والله يقول : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم — ٣٤ فصلت » . ومن يرغب عن أمره إلا من سفته نفسه .

١٥٨ — مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التَّهْمَةِ فَلَا يُلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ
الظَّنَّ .

● من قارب مواضع الرية ارتاب به الناس ، وأساء إلى نفسه بنفسه . وروي
أن صحابياً رأى النبي (ص) ومعه امرأة ، فقال له النبي : هذه زوجتي فلانة .
قال : يا رسول الله أفيك يُظن ؟ قال : الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

١٥٩ — مَنْ مَلَكَ أَسْتَأْثَرَ .

● كل أو جل الذين يملكون القوة يستبدون وينهبون . والذي يتمنى السلطان
يريده لهذه الغاية ، أما الشاذ النادر فلا يقاس عليه ، ومن هنا نادى القوضويون
بإلغاء الدولة والسلطة . وتكلمنا عنهم في شرح الخطبة ٤٠ بعنوان « القوضوية
والسلطة » ج ١ ص ٢٥٤ .

١٦٠ — مَنْ أَسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهَا
فِي حُقُولِهَا .

● الاستبداد بالرأي أن تقدم على أمر مجهول العاقبة عندك ، لأنك ما جربت مثله
من قبل ، ولا استشرت الناصح المجرب ، ولا شك أن الإقدام على مجهول مغامرة .
ويأتي قول الإمام : « قد خاطر من استغنى برأيه » وإن استشرت الناصح المجرب
فقد اكتسبت علماً جديداً تستعين به على مرادك . وفي مستدرک نهج البلاغة :
ان رجلاً سأل الإمام عن أعلم الناس ؟ فقال : من جمع علم الناس إلى علمه .
وقال حفيده الإمام جعفر الصادق : إذا شاورت من يصدق قلبك فلا تخالفه ،

وان كان بخلاف هوالك ، فإن النفس تجمع عن قبول الحق . وسبق الكلام عن المشورة مرات ، منها عند شرح قوله : « ولا تظهر كالمشورة » في الحكمة ٥٤ .

١٦١ — مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ يَدِهِ .

● ان شاء كتم ، وان شاء أذاع ، فإن أفشى كان في وثاق كلامه ولا خيار له . وتقدم الكلام عن السر في الحكمة ٥ و ٤٨ .

١٦٢ — الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ .

● قال رسول الله (ص) : « كاد الفقر يكون كفراً » لأنه يدفع بالإنسان الى فعل الرذائل ، وفي الحكمة ٣١٨ : « الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت » . وفي الحكمة ٣٧١ : « اذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير دينه بدنياه » . وتقدم مع الشرح قوله : « الفقر يخرس الفطن » في الحكمة ٣ . وقوله : « الفقر في الوطن غربة » في الحكمة ٥٥ .

واذا لم تكن الذاكرة فقد نقلت هناك عن كتاب « أصول الكافي » ان الإمام جعفر الصادق قال : غداً يضرب الفقراء باب الجنة فيقول البواب : من في الباب ؟ فيقولون : نحن الفقراء . فيقول البواب : أتريدون أن تدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ لن يكون هذا أبداً . فيقول الفقراء : وماذا أعطيتمونا حتى نحاسبونا ؟ فيقول الله جلّ وعز : صدقوا خلوا بينهم وبين الجنة . ادخلوها بسلام آمين .

١٦٣ — مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يُقْضَى حَقُّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ .

● معنى العبودية ان العبد لا يملك مع سيده شيئاً ، وان مراده فان بمراده ، وقد اشتهر وذاع على كل لسان : العبد وما ملكته يداه في قبضة مولاه . ومعنى

هذا أن العبد لا أجر له ولا جزاء على خدمة سيده وطاعته ، لأن هذه هي مهنته ووظيفته .. وعليه فمن قضى حق الغير وخدمه لذاته لا خوفاً ولا طمعاً فقد اعتبره سيداً ، واعتبر نفسه عبداً ، أراد ذلك أم لم يرد .

١٦٤ — لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

● من عصى الله سبحانه كانت الحجة لله عليه حتى ولو أطاع جميع الخلائق ، ومن أطاع الله كانت الحجة له عند الله حتى ولو عصى جميع الخلائق ، بل تكون الطاعة أقوى وللثواب أدعى : « أتخشونهم فالله أحق أن تحشوه ان كنتم مؤمنين — ١٣ التوبة » أي لا إيمان لمن يعصي الخالق خوفاً من المخلوق .

١٦٥ — لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

● المجرم المذنب هو الذي يعتدي على حقوق الآخرين ، أما المعتدى عليه فلا ذنب له ، كيف ، وهو صاحب الحق المغصوب ؟ قال الإمام في الرسالة ٢٧ : ما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوماً . وأيضاً قال : إن تلقى الله مظلوماً خبير لك من أن تلقاه ظالماً .

١٦٦ — الْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الْإِزْدِيَادِ .

● المعجب بنفسه يرى أنه قد بلغ القمة ، فكيف يتغنى المزيد ؟ ولا شيء يفسد العلم والعقل والدين كالعجب .. ان المعجب بنفسه لا نظير له بين الخلائق حماقة وسخفاً . وسبق الكلام عنه مراراً ومن ذلك عند شرح قول الإمام : « أوحش الوحشة العجب » في الحكمة ٣٨ .

١٦٧ — الْأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَالْإِصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

● المراد بالأمر هنا الموت ، قال سبحانه : «وَعَرَّيْكُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ — ١٤ الحديد » والمراد بالاصطحاب حياة الإنسان في الدنيا وصحبته لها . وفي كل صفحة من صفحات النهج حديث وكلام عن الموت والحياة صراحة أو إشارة .

١٦٨ — قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ .

● طريق الحق واضح كوضح النهار ، ولا عذر لمن أعرض ونأى . ومثله في الخطبة ١٥٥ : ان الله قد أوضح لكم سبيل الحق ، وأثار طريقه ، فشقوة لازمة ، أو سعادة دائمة . ومثله في النهج كثير .

١٦٩ — تَرَكْ الذَّنْبَ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

● لا تدنّب ولا تطلب العفو ، ما كان أغناك عن الحالين . وبكلمة : الوقاية خير من العلاج . وفي بعض النسخ المعونة بدل التوبة ، والتوبة بالذنّب أنسب .

١٧٠ — كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ .

● كل إفراط مفسد ، سواء أكان في الأكل أم في سواه . والمعدة بيت الداء ، فن أفرط في حشوها ابتلي بمرضها ، واضطر الى الحمية ، وقد تودي الأكلة بحياته .. أيضاً . ما كان أغناه عن الحالين ! وأيضاً الوقاية خير من العلاج !

١٧١ — النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

● الجاهل من أهات الرذائل وأكثرها خطراً ، وكفى بالجاهل غياً وفساداً أن الجاهل

يعادي ويعاند ما فيه خيره وصلاحه دنيا وآخره ، ولا دواء للجاهل إلا أن يعلم بأنه جاهل، وأنه لا غنى له عن يقوده ويهديه ، وأخطر الخطورة أن يرى الجاهل نفسه عالماً ، وأن يرى العالم أنه دائماً على صواب .

١٧٢ — مَنْ أَسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَا .

● من تتبع آراء أهل الخبرة في أية قضية ، وتدبرها على حقيقتها — استطاع أن يميز الرأي الأصوب والأرجح عن غيره ، ويختاره . وهذا — كما ترى — لا يصدق إلا على العالم ، لأنه هو الذي يتدبر ويميز .

١٧٣ — مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلَّهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشْدَّاءِ الْبَاطِلِ .

● ليس المراد بالغضب هنا هو الانفعال الذي تحمر معه العينان وتنتفخ الأوداج .. كلا ، فإن هذا مؤقت لا يلبث حتى يزول ، وإنما المراد به الصبر والثبات في حرب الباطل وأهله ، ويؤمىء الى ذلك قول الإمام : « أَحَدَّ سِنَانَ » أي ان هذا الغاضب لله يحارب المبطلين بأقصى سلاح يملكه وأجداه سيفاً كان أم لساناً أم قلماً .. والباطل زهوق كما وصفه سبحانه ، فمن واجبه بجهنم مخلص وثابت أمدته الله بعونه ، وقوّض الباطل من الأساس .

وقديماً قيل : إن للحق سلاحاً لا تراه العيون . وبهذا السلاح عاشت أسماء أهل الحق والخير بالتقديس والإكبار ، وستعيش الى آخر يوم ، وذهبت أسماء أعدائهم وخصومهم مع الريح ، وان ذُكرت فبالاحتقار والازدراء .

١٧٤ — إِذَا هَبَّتْ أَمْرًا فَفَقَعَ فِيهِ فَإِنْ شِدَّةَ تَوَقُّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

● لا أحد يخلو من الهمم .. اللهم إلا من عاش غير مسؤول عن شيء إطلاقاً ،

وأين هو ؟ ولكن بعض الموم تأتي من نفس المرء وصنع يده ، كما لو راقب الناس : ماذا قالوا وفعلوا ؟. أو توقع نازلة يجهل مدى تأثيرها في حياته ، فيقضي ليله. ونهاره في قلق دائم واضطراب !. ويقول الإمام لهذا المتخوف : أقدم على ما خفت منه ، ومتى وقع اضمحل . ونقل ابن أبي الحديد أبحاثاً في هذا المعنى ، أبلغها هذا العجز : « وأعظم مما حل ما يُتوقع » .

١٧٥ — آلةُ الرِّياسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ .

● كلما برز الانسان واتسع نفوذه — كثرت حوائج الناس اليه . وفي الأمثال : الخراف تُذبح حين تغدو وافرّة الشحم ، والطيور الجميلة تجتذب الصيادين ، ومن هنا فر بعض الناس من الرياسة فرارهم من المجدوم ، وعلى عشاقها أن يستعينوا بالصبر وسعة الصدر ، وبالإخلاص والمبادرة الى خدمة الآخرين .

١٧٦ — أَرْجُؤِ الْمَسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

● للردع عن الجريمة والإساءة طرق وأساليب ، منها عقاب المسيء وتأديبه «ولكم في القصص حياة — ١٧٩ البقرة » ومنها تشجيع المحسن ، وجزاؤه بالحسنى ، لأن ذلك بطبيعة الحال تأنيب وتقريع للمسيء على إساءته ، وعبرة وعظة لأولي الأبصار . ومن هذا الباب تكريم العابرة ، ومنح الأوسمة والألقاب للمتفوقين في أعمالهم ، وتشجيع الأستاذ للطالب المتقدم في دروسه الوديع في سلوكه .

١٧٧ — أَحْصِدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرٍ غَيْرِكَ بِقَلْبِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

● هل تريد أن يعاملك الناس بالحسنى ، ولا يضمروا لك ما تكره ؟ فالأمر سهل وبسيط ، إن شئت وأحببت : دع الحقد والضغينة ، والعجب والتعظيم ،

وسوء الظن والغيبة ، وأضرر الخير للجميع دون استثناء ، فإنهم يعاملونك بالمثل كما قال الشاعر : « وكما تراني يا جميل أراك » .

وهذا صحيح بلا ريب في حق بني آدم إلا أهل الحسد والمنافسة ، فالنعمة على خلق الله تسل قلوبهم ، وفضيلة الفاضل تعمي عيونهم .. ويستحيل أن يكفوا عنه إلا بموته أو سلب النعمة عنه .

١٧٨ — اللَّجَاجَةُ تَسْلُ الرَّاْيَ .

● المراد باللجاجة هنا العناد والإصرار ، وليس من شك ان العناد يعمي ويصم ، وأن تداول الآراء يفتح باب الرشاد .

١٧٩ — الطَّمْعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

● الطمع من أمهات الرذائل ، وعلة العلل للفساد والضلال في طول الأرض وعرضها..فهو يخرج الانسان عن انسانيته، ويقوده الى الدل والهوان والعبودية للجبايرة الطغاة ، والكذب والخيانة ، والظلم والبغي .. الى ألف رذيلة ورذيلة .. وقد بلينا نحن بقيادة لو خيّر الواحد منهم بين التضحية بمنصبه من أجل البلاد والعباد وبين كرسى الحكم - لما اختار عليها شيئاً .

١٨٠ — ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ .

● التفريط : التقصير في العمل ، وعاقبته مرارة الألم وطول الندم ، والحزم : اغتنام الفرصة ، ومراقبة العواقب بعين بصيرة ، وإحكام العمل من أجلها .. والنتيجة الراحة والأمان .

١٨١ — لَا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ

بِالْجَهْلِ .

● على الجاهل أن يسكت عن الفتوى بالحلال والحرام ، والحكم بالحق والباطل ، وعلى العالم أن يفتي ويحكم بما أنزل الله ، وإن سكت وأحجم فقد استنكف عن الحق وإحقاقه . قال سبحانه : «وَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ — ١٨٧ آل عمران » .

١٨٢ — مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

● كل من توافرت فيه صفات المجتهد ، وأتم البحث والنظر بلا تقصير في القضية التي بين يديه ، ثم حلل وحرّم ، أو قضى بأن الحق لهذا دون ذاك ، إذا كان الأمر كذلك فهو غير آثم ولا مسؤول أمام الله والناس ، أصاب الواقع في علم الله أم أخطأه ، لأنه — إذا أخطأ الحكم الإلهي الواقعي — فإنه مصيب للحكم الظاهري الذي قرره الله في حقه .. هذا هو سبيل المجتهد وتكليفه بحكم العقل والشرع، لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها . وروي عن رسول الله (ص) : إن المجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر واحد .

ومعنى هذا أن الحكم الظاهري المقرر في حق المجتهد — يتعدد ويختلف باختلاف أنظار المجتهدين ، أما الحكم الواقعي المعين في علمه تعالى فهو واحد ، لأن الحق عنده لا يتعدد ولا يتجزأ ، ولا واقع له وظاهر ، فكل سرّ عنده علانية، وكل غيب عنده شهادة . وقول الإمام : « كانت إحداهما ضلالة » يشير الى الدعوى في علم الله سبحانه ، وطريق العلم الى هذا العلم القدسي بديهية العقل التي لا يتطرق اليها الشك ، أو النص القطعي متناً وسنداً عن المعصوم . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً في شرح الخطبة ٨٥ فقرة « كل مجتهد مصيب » .

١٨٣ — مَا شَكَكْتُ فِي الْخَلْقِ مُذْ أَرَيْتُهُ .

● الإمام أخذ الحق من معدنه رسول الله (ص) مباشرة وبلا واسطة ، ومن أخذ العلم من الحس والمشاهدة لا من النقل والحدس — فمن أين يأتيه الشك؟ وبهذا نجد تفسير قول رسول الله (ص) : « اللهم أدر الحق مع علي كيف دار » . رواه الترمذي في صحيحه ج ٢ ص ٢٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ والفخر الرازي في آخر تفسير البسملة المطبوع بدار الطباعة العامرة ، وغيرهما من كتب الحديث (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

١٨٤ — مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضَلَّ بِي .

● لا يخشى الإمام إلا الله ، ولا يبتغي مرضاة سواه ، وإذن فلماذا الكذب ؟ وما هو الداعي الى التكذيب ؟ وأيضاً أخذ المهدي من كتاب الله وسنة نبيه ، وبهما كان يهدي ويرشد الخلق الى الحق ، فمن أين يأتي الضلال والتضليل ؟ ونقل صاحب فضائل الخمسة عن تفسير الطبري المطبوع بالمطبعة الكبرى ببولاق سنة ١٣٢٣ هـ وتفسير الرازي المطبوع بدار الطباعة الكبرى العامرة ، وتفسير السيوطي المسمى بالسدر المنثور، المطبوع بمصر سنة ١٣١٤ هـ وغير ذلك من كتب الحديث ، نقل ان رسول الله (ص) عند نزول هذه الآية : « إنما أنت منذر ولكل قوم هادي — ٧ الرعد » . قال (ص) : أنا المنذر ، والهادي علي .

١٨٥ — لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَدَاً بِكَفِّهِ عَصَّةٌ .

● «ويوم يعرض الظالم على يديه — ٢٧ الفرقان » . وقال رسول الله (ص) : « من أصبح وهو لا يهم بظلم أحد غفر الله ما اجترم » . ومعنى هذا أن الإسلام يثيب على ترك الظلم كما يثيب على الأعمال الصالحة ، وفوق ذلك يغفر للتارك ما

اقترب من ذنوب ، لا لشيء إلا لأنه ما ظلم أحداً .. وهذه ميزة خاصة لترك الظلم دون غيره من المحرمات .

وتجدر الإشارة الى أن الشرك بالله ظلم قال سبحانه : « ان الشرك لظلم عظيم - ١٣ لقمان » . وتقدم الكلام عن الظلم مفصلاً في شرح الخطبة ١٧٤ فقرة : « لا إسلام مع ظلم » .

١٨٦ — الرِّحِيلُ وَشَيْكُ .

● أي عن الحياة الدنيا الى قبر مظلم موحش ، وتكرر بالعشرات .

١٨٧ — مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

● في قواميس اللغة أن أصل الصفح الإعراض بصفحة الوجه ، قال تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً - ه الزخرف » أي إعراضاً أو معرضين ، ولكن الإمام قال : من أبدى صفحته أي أظهرها ، وعليه يكون المعنى من تصدى لمعادلة الحق وحربه مستخفاً به وبأهله - فقد هلك . ويأتي قول الإمام : من صارع الحق صرعه .

١٨٨ — مَنْ لَمْ يُنَجِّهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ .

● معنى هذه الحكمة واضح جداً ، وهو أن الصبر مر ، ما في ذلك ريب ، ولكن الجزع أدهى وأمر ، وهو شعار الضعاف والأطفال ، ويضيف الى بلاء الدنيا البلاء بالدين ، أما الصبر فهو شعار المتقين وأجره عند الله عظيم . وعلى رغم وضوح هذه الحكمة كما أشرنا فقد خفي معناها على ابن أبي الحديد ، وراح يقول : ان قلت أقول ، ويتكلف التأويل بلا سبب موجب ! ولا أدري

كيف ذهل هذا الأديب الكبير عن هذا المعنى الواضح البين؟ وجلّ من لا تأخذه
كبوّة ولا غفلة .

١٨٩ - وَأَعَجَبَاهُ أَتَكُونُ الْخِلَافَةَ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ . وَرَوِي لَهُ
شِعْرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكَتْ أُمُورُهُمْ
فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ
فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

● ينتقل المال من القريب الى قريبه بالوراثة .. وأيضاً قد يستفيد الانسان علماً
وديناً بالصحابة والرفاقة ، أما الوصاية والوكالة والنيابة والوزارة ، أما هذه وما
اليها فلا تكون إلا بالكفاءة والأهلية ، فكيف بالخلافة التي هي رئاسة عامة في
أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله الذي لا ينطق إلا عن الله وبوجهه ولسانه؟
والإمام يردّ بهذا على من احتج يوم السقيفة بأنه أولى بخلافة النبي (ص)
لصحبه وقربته ، وبعد أن تمت له البيعة احتج هو أو احتجوا له بالشورى ،
والإمام يطعن بهذه الشورى ويقول : أين هي والمشيرون غُيَّب عن بيعة السقيفة ،
وهم معظم الصحابة ، والحاضرون منهم عند البيعة اختلفوا فيما بينهم ، وبعضهم
شهرّ سيفه على من بايع أبا بكر ، كما جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة
ص ٩ طبعة سنة ١٩٥٧ . وكتب التاريخ تشهد على بيعة السقيفة وأهلها . وسبق
الكلام عن ذلك .

١٩٠ - إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَآيَا ، وَنَهَبُ

تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ . وَمَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقْتُ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصْتُ
وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ يَوْمًا مِنْ
عُمْرِهِ إِلَّا بِفِرَاقٍ آخَرَ مِنْ أَجْلِهِ . فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمُنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا
نُصَبُ الْخُتُوفِ فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا
مِنْ شَيْءٍ شَرَفًا إِلَّا أَسْرَعَا الْكُرَّةَ فِي هَذِمٍ مَا بَنَيْنَا وَتَفَرَّقَ مَا جَمَعَا .

● عاد الإمام الى حديث الدنيا والتحذير من أوبائها ، وكل الوعاظ يحذرون
منها ، والفرق ان تحذير أكثرهم أو الكثير منهم مجرد كلام للاستهلاك لا علاقة
له بقلوبهم ولا بأعمالهم تماماً كلسان الأحمق ، ومن أجل هذا تسمعه الآذان ولا
تخشع له القلوب ، أما تحذير الإمام فينبعث من واقعه وكيانه ومن لحمه ودمه ،
وينطلق الى القلوب ليهزها من الأعماق .

(انما المرء في الدنيا غرض تتفضل فيه الخ) .. الغرض : الهدف ، وتتفضل
ترمي ، والمعنى ان سهام الدنيا ، وهي الكوارث والحوادث ، تنهال على رأس
الانسان سهماً بعد سهم ، وصاعقة إثر صاعقة حتى عند طعامه وشرابه ، بل وفي
منامه يحلم بالكثير من المزعجات ، وقد تتحول الى واقع حياته ، فتفقد الهدوء
والراحة (ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى) كنعمة العزوبة والتحرر من
المسؤولية ، تذهب بها نعمة الزواج والمشاركة في الحياة، إن كان في هذه المشاركة
حياة أو شيء من نعمة الحياة . وتقدم مثله بالحرف في الخطبة ١٤٨ .

(ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر) المعنى واضح وتقدم أيضاً في
الخطبة ١٤٣ (فنحن أعوان المنون الخ) .. أي الموت ، ونعيته على أنفسنا بفناء
الأعمار مع الليالي والأيام (ولم يرفعا من شيء الخ) .. ضمير التثنية لليل والنهار ،
والمعنى ان متاع الدنيا قليل ، وانها قد تحلو وتبني القصور ، وتجمع الأموال ،
ولكن لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجعتها ، فسرعان ما تهلك وتُدمر .

١٩١ — يَا أَبْنِ آدَمَ مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوَّتِكَ فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ .

● لو ملكت الدنيا بكاملها لم يكن لك منها إلا ما أكلت وشربت ولبست ، وما عداه « ترانزيت » ، والإنسان مسؤول عن نفسه وأهله ، وعليه أن يوفر لهم الحاجات الأساسية ، ويترك لهم ما يكفون به وجوههم عن الناس ان استطاع ، وما زاد ففي سبيل الله مع العلم بأن كل نفقة على نفسه وأهله هي لله وفي سبيل الله ، ولا فرق إطلاقاً بينها وبين الصدقة على المحاويع من حيث الأجر والثواب . قال رسول الله (ص) : ان حامل النفقة الى عياله كحامل الصدقة الى المحاويع .

١٩٢ — إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًا وَإِدْبَارًا فَأَتْوَهَا مِنْ قَبْلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَكْرَهَ عَمِيَ .

● للإنسان أطوار وأدوار تختلف وتتباين تبعاً لظروفه وأفكاره وتصوراته ، فهو حيناً متفائل ، وأحياناً متشائم ، وتارة حائر بين اليأس والرجاء حتى كأن في داخله شيئاً يُقلبه ذات اليمين وذات الشمال !.. فإذا أردت أن يستجيب الإنسان لدعوتك فادخل الى نفسه من أبوابها وميولها ، ودع الاتجاه المعاكس ، وما تحفظه من الحكيم والنصائح ، فإن الرياح لا ترجع عن اتجاهها وترتد الى الوراء بمجرد الكلام .. وان استطعت أن تُكره أحداً بسبب الحياء أو بآخر فإنه لن يتفعل بشيء ، ويعمى عن كل شيء ، وإذا جذبته من إحساسه وشعوره انقاد أسيراً واستمع اليك مخلصاً ، وبلغت منه ما تريد .

وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « لا إكراه في الدين — ٢٥٦ البقرة » لأن الدين عقيدة ، لا تكون ويستحيل أن تكون بالإكراه ، وأي عمل يأتيه الإنسان مكرهاً أو كارهاً فما هو من الدين في شيء إلا اذا هو أكره نفسه عليه بحيث تبقى حريره في قبضته .

١٩٣ - مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ . أَحِينَ أَعْجَزَ عَنِ الْإِنْتِقَامِ
فَيُقَالُ لِي لَوْ صَبَرْتُ ، أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي لَوْ
عَفَوْتُ .

● الإسلام دين المحبة والإخاء والعفو والتسامح تماماً كما هو دين الحرية والمساواة
قال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله -
٤٠ الشورى » وهل يتغنى الإمام شيئاً من دنياه وراء أجر الله وثوابه ؟ وهل
اكتفى منها بطمره وقرصه ، وهو خليفة المسلمين إلا ابتغاء مرضاة الله ؟. واذن
فلا بدع اذا عفا الإمام عن أساء اليه ، وأوصى أهله بقاتله ابن ملجم أن يطبوا
طعامة ويلينوا فراشه ، وأن يعفوا لأن العفو أقرب للتقوى .

(متى أشفي غيظي الخ) .. من الشفاء يقال : تشفى من غيظه أي عوفي منه
وبرىء . والمعنى اذا حاولت القصاص من أساء إلي خاصة فلا تخلو واقعي من
أحد أمرين : إما أن أعجز ، وإما ان أقدر ، فإن عجزت عظم الخطب وتراكم
المصاب بفشلي أمام الناس ، ولومهم وقولهم : ماذا فعلت بنفسك ؟ أما كان
الأجدر أن تسكت وتسهر ما بك من عجز ؟ وان قدرت قالوا: كان العفو أجمل
بمقامك وأليق .

وبعد، فإن الإمام ما حمل ضعفاً ولا حقداً على مخلوق وان أساء اليه كي يفكر
في الانتقام ، وانما أراد بهذا الأسلوب الحكيم مجرد الترغيب في الصبر والعفو ،
وانهما يمحوان الكثير من السيئات ، ويزيدان في الحسنات ، وأن الانتقام إن هو
إلا إشباع شهوة عابرة ، ورجبة زائلة .

١٩٤ - (وَقَدْ مَرَّ بِقَدْرِ عَلَى مَزْبَلَةٍ) : هَذَا مَا بَخِلَ بِهِ الْبَاخِلُونَ
(وَرُوِيَ فِي خَيْرٍ آخَرَ أَنَّهُ قَالَ) : هَذَا مَا كُنْتُمْ تَتَنَافَسُونَ
فِيهِ بِالْأَمْسِ .

● المعنى واضح لا يحتاج الى تفسير ، ولكن قد يُظن ان هذا يؤيد قول من قال بأن الانسان لا يتحرك إلا بدافع اقتصادي وسبب مادي .. وليس من شك ان المال والاقتصاد يبعث الانسان على الحرص والبخل والجري وراء الأرباح ، وأيضاً يبعثه على العجب والكبرياء والتنافس والصراع وسفك الدماء ، ولكنه ليس السبب الوحيد والباعث الأول والأخير على الحركة والعمل ، فهناك دوافع كثيرة غير المادة والاقتصاد ، كالعقيدة الدينية والوطنية ، والحب المتبادل بين الآباء والأبناء ، وحب المجد والشهرة وغير ذلك .

وإلا فبأي شيء نفسر موقف هذا الانسان الذي فضل وأثر أن يعيش حرّاً مع الجوع والفقر على أن يعيش رقيقاً مع المال والترف ؟ . فنجد مئات السنين تزوج معاوية أعرابية من بنات الصحراء ، وأسكنها القصور الشاهقة في عاصمته ، فحنت الى خيمة الشعر وقالت :

وبيت تخفق الأرواح فيه أحب إليّ من قصر منيف

وأيضاً لماذا يشتري الانسان بأعلى ثمن لوحة فنية ويعلقها في غرفته ؟ ثم هل استهان من استهان من العلماء بأرواحهم دفاعاً عن آرائهم أو أموالهم ؟ وهل الباعث لشهداء العقيدة على الشهادة المال والاقتصاد أو الدين والمبدأ ؟ ولماذا يتزوج الانسان وينتج العيال ويتحمل المشاق ؟ هل يفعل ذلك لكسب المال أو لإنفاقه ؟ ولماذا يحرق البوذي نفسه في فيتنام طوعاً واختياراً ؟ هل أحرقها احتجاجاً على الظلم أو طمعاً بالمال ؟.. الى ما لا نهاية .

وبعد ، فإن الانسان مادة وروح ، ولكل عمله وآثاره ، والانسان الكامل من حفظ التوازن بين الاثنين .

١٩٥ — لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ .

● كل العقلاء يبذلون المال من أجل العلم ، واذن فمن خسر جزءاً من ماله ، وأخذ من هذه الخسارة درساً نافعاً ، واستفاد تجربة وبصيرة — فقد ربحت تجارته ، وهل العلم إلا تجربة الحياة ، وموعظة الزمن ، وعبرة الأيام ؟ .

١٩٦ - إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَأَتَبَغُوا لَهَا
طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ .

● المراد بالحكمة هنا كل حلال يُذهب التعب والملل عن قلبك وروحك فنياً
كان أم طبعياً .. وكل انسان في حاجة الى جديد ومتعة يشعر معها بنعمة الحياة.
والدنيا العريضة زاخرة بالطيبات التي أحلها الله لعباده ، فلماذا لا نعيشها ونمارسها
إن تهيأت لنا الأسباب ؟. ولو في وقت الضيق . وقبح الله القلب المغلق المتزمت .
وبعد، فإن علماء النفس في عصر العلم يداوون مرضاهم بهذا الدواء الذي وصفه
الإمام منذ عهد بعيد .

١٩٧ - (لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الْخَوَارِجِ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) قَالَ: كَلِمَةٌ حَقٌّ .
يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ .

● المراد بكلمة الحق « لا حكم إلا لله » وهي تعبير ثانٍ عن قوله تعالى : « إن
الحكم إلا لله - ٦٧ يوسف » ولكن الخوارج استدلوا بقول الله على تبرير معصية
الله الذي قال: « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم - ٥٩ النساء » والإمام
من أولي الأمر ، والخوارج مرقوا من الدين لأنهم عصوا الإمام وأفسدوا في
الأرض . وثبت عن الرسول بالتواتر انه وصف الخوارج بقوله : « يمرقون من
الدين كما يمرق السهم من الرمية » . وفي الخطبة ٤٠ ذكر الإمام قول الخوارج ،
وردّ عليه بمنطق الدين والعقل ، وشرحنا ذلك مفصلاً ، وتكلمنا عن الخوارج
بما فيه الكفاية (أنظر المجلد الأول ص ٢٥٢) .

١٩٨ - (فِي صِفَةِ الْغَوَّاءِ) : هُمُ الَّذِينَ إِذَا أَجْتَمَعُوا غَلَبُوا ،
وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرِفُوا (وَقِيلَ بَلْ مَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) : هُمُ

الَّذِينَ إِذَا أَجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا (فَقِيلَ قَدْ عَرَفْنَا
مَضَرَّةَ أَجْتِمَاعِهِمْ فَمَا مَنَفَعُهُ أَفْتَرَأَقِيهِمْ ؟ فَقَالَ) : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْإِمْنِ
إِلَى مِهْنَتِهِمْ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ الْبَنَاءِ إِلَى بِنَائِهِ ، وَالنَّسَاجِ
إِلَى مَنَسِجِهِ ، وَالْخَبَّازِ إِلَى خَبْزِهِ .

● في الرسالة ٥٢ تحدث الإمام عن الفئة الأكثر عدداً ، وأطلق عليهم كلمة
العامة تارة ، والطبقة السفلى أخرى ، وأوصى بهم الولاة والموظفين ، وقال من
جملة ما قال : « إن سخط الخاصة يُغْضِبُ مع رضا العامة .. وإنما عماد الدين
وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء - العامة من الأمة .. الله - الله في الطبقة السفلى
الذين لا حيلة لهم » . فالجواهر في نظر الإمام هم العنصر البشري الذي يتكون
منهم الوطن ويوجد ، وبهم يتمثل الدين ويبرز الى عالم الخارج مجسماً ملموساً له
أثره وأعماله ، وأيضاً هم العدد والقوة ضد أعداء الدين والوطن . ومن هنا وجبت
رعايتهم والعناية بهم ، وتقديم مصلحتهم على مصالح كل الفئات حتى رجال العلم
والدين .. وهذا غاية المديح .

هذا ما قاله الإمام عن الجماهير حين نظر اليهم من خلال مصلحة الدين والوطن ،
أما وصفه لهم هنسا بالضرر فهو باعتبار اجتماع طائفة منهم لسبب أو لآخر ،
واندفاعهم مع العاطفة بلا تدخل عقل وروية . وليس من شك انهم في هذه الحال
اللاشعورية يضرون ولا ينفعون ، ويتعصبون ولا ينصفون ، بخاصة إذا كان بينهم
أفراد من اللصوص السفلة والمجرمين القتلة .

(الغوغاء) وهم الناس المنحطون ، أو الخليط من هنا وهناك (اذا اجتمعوا
غلبوا) لأن الاجتماع قوة بنفسه ، وإذا سيطر عليه الحماس وعاطفة الجهل ازدادت
قوته أضعافاً . (وإذا تفرقوا لم يعرفوا) لخمول ذكركم ، وخفوت صوته .
والجملة الثانية فسرّها الإمام بأوضح بيان .

١٩٩- (وَأَتَىٰ بِيحَانٍ وَمَعَهُ غَوَاةٌ) فَقَالَ : لَا مَرَحِبًا بِوُجُوهٍ لَا تَرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوَءٍ .

● السوأة : الخلة أو الفعلة القبيحة ، ولا مرحبا نصب على المصدر . والسر في ان السواد يجتمعون عند الأسواء والمفاجآت هو حب الاطلاع فإنه غريزة في العالم والجاهل ، والعالم يُشبع غريزته هذه بالقراءة والمطالعة والتجربة والتفكير ، أما الجاهل فيشبعها بالنظر والتفرج على ما يصادفه من أحداث .

٢٠٠- إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .

● الجنة - بضم الجيم - الوقاية . والحديث عن الملائكة حديث عن الغيب ، وقد أثبت القرآن الكريم أن على عباد الله من الملائكة كراماً حافظين كاتبين ، كما في الآية ١١ من سورة الانفطار : « وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » وكما يكون العلم بالحس والعقل يكون بالوحي ، والشرط فيه أن لا يضادّ العقل فيما يخبر عنه ، لا أن يستقل العقل بإدراكه وإلا كان الوحي لغواً وعبثاً .. والعقل لا يستوعب كل شيء ، بل يعجز عن إدراك الكثير من الحقائق . والله سبحانه مصدر الوجود والعلم والحياة ، وقد أخبر عن الحافظين الكاتبين من ملائكته ، والعقل لا يأبى ولا يعترض ، فوجب التصديق .

٢٠١- (وَقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ نُبَايَعُكَ عَلَى أَنَا شُرَكَاءُكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ) فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنَّكُمَا شَرِيكَايَ فِي الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعَانَةِ ، وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالْأَوْدِ .

● الأود : الثقل . طلب طلحة والزبير من الإمام أن تقوم خلافة المسلمين على ثلاثة أقانيم : الإمام وهما !.. وطبيعي أن يرفض الإمام ، لأن ذلك بدعة في الإسلام ، وداعية للفساد في الأرض . وفي كتاب « الأحكام السلطانية » : « لا يجوز عقد الإمامة لثنين » وفي « أصول الكافي » : « لا يكون في الأرض إمامان إلا واحدهما صامت » . وقال لها الإمام : أستعين بكما على إحقاق الحق ، والعمل لمصلحة الإسلام والمسلمين ، وإن عجزت عن القيام بواجب الخلافة كتبنا لي رفقاً وعوناً ، فأبينا إلا السلطان . وتقدم ذلك مفصلاً في الخطبة ٢٠٣ .

٢٠٢ — أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِنَّ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ . وَبَادِرُوا الْمَوْتَ الَّذِي إِنَّ هَرَبْتُمْ أَذْرَكَكُمْ ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ نَسِيتُمْوهُ ذَكَرَكُمْ .

● (وان أضمرت علم) لأنه سمع علم (وبادروا الموت) استعدوا له بالتقوى والعمل الصالح (إن هربتم منه أدركم) وان كنتم في بروج مشيدة (وان نسيتموه ذكركم) لأنه لا ينسى أحداً .

٢٠٣ — لَا يُرْهِدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ مِنْهُ ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

● المراد بالكافر هنا ناكِر الجميل والمعروف الذي أسدي إليه ، وبالشاكر من يستحسن الحسن لذاته حتى ولو صدر من عدوه ، والمعنى: لصنع المعروف لأنه

معروف أو طلباً لمرضاة الله ، وان أبيت إلا أن تتقاضى عليه مدحاً وثناء فإنك واجد لساناً من الطيبين يشكرك ويذكرك حتى ولو كفر بنعمتك وفضلك مَنْ أنعمت عليه ونفصلت .

٢٠٤ — كُلُّ وَعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وَعَاءَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ .

● وعاء العلم : العقل ، وهو يقوى وتتسع آفاقه بالعلم ، وكلما اكتشف سرّاً بدت له من خلاله أسرار ، وهذه بدورها تتكشف عن حقائق وأسرار .. وهكذا دواليك الى ما لا نهاية . وعلينا أن لا ننسى ان العلم الذي ينتهي بنا الى الكشف والاختراع هو المقرون بالتجربة والعمل ، وليس « القول المؤلف من قضايا يلزمه لداته قون آخر » لأن القول لفظ وحروف ، والعلم عمل ، ولا علم بلا عمل أو ما يمهّد له ويفتح الأسماع والأبصار والأفئدة نحوه ، وسبحان الذي قال : « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون - ١٠٥ التوبة » . ولم يقل تكلموا فسيسمع الله كلامكم .

٢٠٥ — أَوَّلُ عَوَظِ الْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ .

● إذا تجرأ سفيه عليك ، وأعرضت عنه كان الناس أنصاراً وظهيراً لك عليه . وفي الحديث : من لا يصبر على سفهاء الخلق لا يصل الى رضا الخالق . وسبق الكلام عن الحلم في الحكمة ١١٢ . ويأتي أيضاً .

٢٠٦ — إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيمًا فَتَحَلَّمْ فَإِنَّهُ قَلٌّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

● التصنع هنا والتكلف حسن وممدوح . ومع التكرار تنشأ العادة وتنمو ، وهي طبيعة ثانية .

٢٠٧ — مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَيْحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَيْرَ ، وَمَنْ
خَافَ أَمِنَ ، وَمَنْ أَعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ، وَمَنْ
فَهِمَ عِلِمَ .

● من لا يثق بنفسه ولا يطلق لها العنان ، ويضع قاعدة لميولها ورغباتها حتى إذا
غفلت أو شذت لامها وأنبها ، من فعل هذا نجح وريح ، ما في ذلك ريب ،
ومن أطلق لها العنان فآله الى الوبال والحسران (ومن خاف أمن) من صدق
يقينه بالله خاف منه ، ومن خاف منه عمل بطاعته وطاعة رسوله : « ومن يطع
الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » — ٧١ الأحزاب .

(ومن اعتبر أبصر) من انتفع بالعبر والعظات أدرك العواقب (ومن أبصر
فهم الخ) .. من كان له وعي وفهم ، وسمع من الأستاذ وفكر فيما سمع وقرأ
استطاع أن يميز بين الخطأ والصواب ، وأن يؤيد ويفند على أساس من المنطق ،
وله كل الحق في أن يرفض ما لا يقتنع به حتى ولو كان بأسلوب أدبي أو
فلسفي ، أما من يحفظ الأرقام والمعادلات عن ظهر قلب بلا فهم وعلم فهو بالاسطوانة
أشبه . وقديماً قيل : العلم بلا تفكير أكثر خطورة من التفكير بلا علم .

٢٠٨ — لَتَغْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضُّرُوسِ عَلَى
وَلَدِهَا . وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
أَسْتَضِيعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » .

● تعطف : تميل وتلين ، والشُّمُوسُ والشماس : النُفُور والتمرد ، والضُّرُوسُ :
الناقة تعض حالبها .. يقول الإمام : تنكرت الدنيا لأهل البيت ، ولكنها ستقبل
عليهم ولو بعد حين .. وما أشار الإمام من قريب أو بعيد الى نوع هذا الإقبال :
هل هو الحكم والسلطان كما فهم شارحون ، أو شيء آخر كما فهمنا نحن ؟

ويتلخص ما فهمناه بأن دولة الأمويين والعباسيين ستنكل وتفعل فعلها بأهل البيت ، ثم تزول وتهدأ الحال ، وعندئذ يعلن الحب والولاء لأهل البيت ، وينتشر مع علومهم وفضائلهم في شرق الأرض وغربها .. وليس من شك ان هذه الرفعة والوجاهة في الحياة الدنيا هي من أفضل النعم وأكملها ، وقد مَنَّ بها سبحانه على سيد المرسلين بقوله : « ورفعنا لك ذكرك - ٤ الإنشراح » . وقال : جلت كلمته ، عن عيسى (ع) : « وجيهاً في الدنيا والآخرة - ٥ آل عمران » .

٢٠٩ — اتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ شِمَرَ تَجْرِيْدًا ، وَجَدَّ تَشْمِيْرًا ، وَكَمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ الْمَوْتِ فِي وَعَاقِبَةِ الْمَصْدَرِ وَمَغْبَةِ الْمَرْجِعِ :

● (من شمر) كناية عن الجد والإسراع الى مغفرة الله ورضوانه (تجريداً) أي تجردوا للحق وحده (وجد تشميراً) عطف تفسير (وكمش في مهل) بالغ في السير الى صالح الأعمال في مهلة العمر ومدته (وبادر عن وجل) ذهب الى ربه خائفاً من عذابه برغم جده واجتهاده في طلب مرضاته (ونظر في كرة الموتل) وهو المقر الأخير، أما الكرة فالذهاب الى هذا المقر ، والنظرة العمل له (وعاقبة المصدر) والمراد بالمصدر هنا العمل الصادر عن المتقي ، وعاقبته الأجر والثواب (ومغبة المرجع) وهو المقر الأخير ، ومغبته ما يناله جزاءً على عمله .

٢١٠ — الْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ . وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ . وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفْرِ . وَالسُّلُوْ عِوَضُكَ يَمْنٌ عَدَرَ . وَالْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ . وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ أَسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ . وَالصَّبْرُ يُنَاصِلُ الْحِدَاثَانَ . وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ . وَأَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى . وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ

أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ ، وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجَرِبَةِ . وَالْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ
مُسْتَفَادَةٌ . وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولًا .

● (الجود حارس الأعراض) من جاد بماله على الناس كفّ ألسنتهم عن ذمه ،
ويكفي أن لا يصدق وينطبق عليه ما قيل في ذم البخيل في كتاب الله تعالى ،
وعلى لسان المرسلين والناس من الأولين والآخرين (والحلم فدام السفيه) القدام
- بكسر الفاء - ما يُسد به الفم ، وَمَن حُلِمَ عن السفيه فقد لجم فاه عما هو
أدهى وأمرّ . وفي بعض النسخ العلم بدل الحلم ، وهو خطأ (والعفو زكاة الظفر) .
ومثله في الحكمة ١٠ « اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة
عليه » ومنذ قليل تكلمنا عن العفو في الحكمة ١٩٣ (والسلو عوضك ممن غدر)
تجاهل من خان أو غدر بك ، واجعل السلو عنه جزاء خيائته وغدره ، ولا تزعج
قلبك بالتفكير في أمره وشأنه .

(والاستشارة عين الهداية) لأنها مشاركة الرجال في عقولها ، كما قال في
الحكمة ١٦٠ (والصبر يناضل الحدثان) بكسر الحاء أي نواب الدهر ، ولا داء
لها إلا التجلد والتعقل ، أما الجزع فيزيدها أضعافاً ، وسبق الكلام عن ذلك في
شرح الحكمة ١٨٨ (وأشرف الغنى ترك المني) تقدم بالحرف الواحد في
الحكمة ٣٤ .

(وكم من عقلٍ أسير تحت هوى أمير) . أمير صفة لهوى . والمفروض
- بحسب الأصول - أن يكون العقل هو الحاكم الأسر ، والهوى هو المحكوم
الأسير ، ولكن الآية على العكس في أكثر الناس ، عقولهم أسرى لأهوائهم .
وأغرب ما قرأت في هذا الباب القصة التالية :

قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ترجمة القاضي أبي يوسف صاحب
أبي حنيفة : إن هارون الرشيد أحب جارية عيسى بن جعفر ، فسأله هبتها
له أو بيعها فأبى ، وقال : حلفت بالطلاق والعناق وصدقة جميع ما أملك ان
بعثها أو وهبتها ، فطلب الرشيد من أبي يوسف أن يوجد له حلاً شرعياً لهذه
المعضلة . فقال أبو يوسف لعيسى : هبه نصفها وبعه نصفها، ولا حث في ذلك ،
لأنك ما بعثها كلها ولا وهبتها كلها .

ففعل عيسى ، وحلت الجارية الى الرشيد ، وهو في مجلسه ، فقال الرشيد لأبي يوسف بقيت واحدة . قال : وما هي ؟ قال : هي جارية ولا بد أن تستبرئ بحبضة ، وإذا لم أبت معها ليلي هذا خرجت نفسي . قال أبو يوسف : أعتقها فتصبح حرة ، واعقد عليها بعد العتق فإن الحرة لا تستبرئ ، فأعتقها الرشيد ، وعقد له عليها أبو يوسف ، وقبض مئتي ألف .. كل ذلك حدث في ساعة واحدة ، وقبل أن يقوم الرشيد من مكانه ! .

وهكذا مشايخ الرياء وقلانس السوء يكيفون الدين طبقاً لأهواء من يدفع الثمن .

(ومن التوفيق حفظ التجربة) من توفيق الله وعنايته بالإنسان أن ينجح في تجاربه لاكتشاف الحقيقة التي ينتفع الناس بثمارها مدى الأجيال ، كالطبيب يكتشف عقاراً سحرياً للقضاء على جرثومة الداء وأسبابه ، والعالم يخترع آلة تقرب البعيد ، وتيسر العسير .. ولا أشك ان هؤلاء من أحباء الله وأهل جهاده .. كيف وقد أجزوا ألوف التجارب ، وبدلوا الكثير الكثير من أرواحهم وأجسامهم ليعطوا عباد الله وعياله ما ينتفعون به ويسعدون ؟ ونصّر الله سبحانه ونشر ديناً قال نبيه : خير الناس أنفع الناس للناس .

(والمودة قرابة مستفادة) القرابة مأخوذة من القرب ، وهذا القرب يكون طبيعياً كالنسب ، ومكتسباً كالصداقة ، وهي برغم ذلك أقوى من النسب والرحم ، وأية جدوى في قرابة من غير مودة ؟ وهل تحلو الحياة بلا صداقة ؟ وهل من شيء أجمل من الاخلاص والوفاء ، والهمس والافتتاح ؟ (ولا تأمنن ملولاً) لأن الملل آفة الحياة لا الصداقة فقط ، فالملل لا يستقر على حال من القلق ، يُشرق . يُغرب ، ويفعل ويترك ، ويقرب ويبعد بلا سبب موجب .

٢١١ - عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

● ألدّ أعدائك على الإطلاق هو الذي يحسدك على أي خير تصيبه ، ويسعى جاهداً ليحول بينك وبينه .. والعجب يشل العقل ، ويحول بينه وبين تهذيب النفس وهدايتها الى الخير والكمال ، ومن هنا كان شأنه كشأن الحاسد مع المحسود ..

وربما أخطأ سهم الحاسد ، أما سهم العجب فلا يخطيء العقل أبداً . وفي هذا التشبيه دقة وعمق ، ولا عجب .

٢١٢ — أَغْضِي عَلَى الْقَذَى وَالْأَلَمِ تَرْضَى أَبْداً .

● مصائب الدنيا بلا نهاية ، وسهامها متتابعة متوالية .. فإن استعظمت كل شيء من آلامها ، وأقمت العزاء ، ولبست الحداد لكل ألم ومصاب — قضيت العمر في حسرة وكآبة ، وعشت مدى الحياة قرين الهموم والأحزان . وإن تمايلت وتجاهلت وصبرت على ما لا بد منه ، تماماً كما لو كان الصبر سجية فيك — هان الأمر عليك ، وعشت مدى الحياة راضياً ساكناً .

٢١٣ — مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ .

● الشجرة الغضة اللينة تكثر أغصانها وأوراقها .. وهكذا من لان جانبه تكثر أصحابه والراغبون فيه . قال سبحانه : « ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك — ١٥٩ آل عمران » .

٢١٤ — الْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ .

● لو يهدم الرأي وكفى لهان الخطب بعض الشيء ، ولكن الخلاف يهدم كيان الأمة ، ويُطعم فيها كل راغب وغاصب ... مئة مليون عربي أو أكثر لا يغنون غناء عصفور ! . والسر خلاف الزعماء والقادة ، وسر خلافهم شهوة الحكم ، ولذة السلطان يشترونه من عدو الله والإنسانية بالعمالة والخيانة ... ولا بد للبليل أن ينقض ولا بد للشعب أن ينتصر .

٢١٥ — مَنْ قَالَ أَسْتَطَالَ .

● قال ابن أبي الحديد : « يجوز أن يريد من أثرى تسلط على الناس ، ويجوز أن يريد ارتفع بجوده » . والتفسير الأول يلتقي مع قول من قال : ان أصحاب الأموال يجعلون من الدولة خادماً أميناً لمصالحهم ، وإلا بدّلوا الأموال لحربها وزوالها . وقد تنبه لذلك الفقيه الشيرازي — توفي سنة ٩٧٣ هـ — حيث قال في ميزانه ، باب زكاة المعدن : « للإمام أن يضع على أصحاب المعدن ما يراه خوفاً أن يكثروا ما لهم فيطلبوا السلطة وينفقوا على العساكر ، وبذلك الفساد » .

٢١٦ — فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ .

● إذا أردت أن تعرف أي إنسان على حقيقته فانظر إليه في جميع أطواره وأدواره ، راقبه عند غضبه ورضاه ، وفقره وغناه ، وأيام الفتن والفوضى ، وموقفه من المستضعفين الذين لا عمّ لهم ولا خال إلا الحق والعدل .. وان كثيراً من الذين عُرِفوا بالصلاح أصبحوا لصوصاً مجرمين حيث سنحت القرص وأمنوا الضرر ، وبعض المعروفين بسوء الأخلاق صاروا قدوة الصالحين بعد أن تحسنت أوضاعهم وأمنوا من الفقر والجور .

٢١٧ — حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ .

● الحسود يكره النعمة على خلق الله ويحب زوالها عنهم ، ويشمت بالمصيبة ، ويلذع الهفوات ، ويختلق الزلات ، والصديق يحب لصديقه ما يحب لنفسه أو أكثر ، وإذن فلا سبيل للجمع بين الحسد والصداقة ، وتجتمع مع الغبطة . قال رسول الله (ص) : « المؤمن يغبط ولا يحسد ، والمنافق يحسد ولا يغبط » والغبطة أن لا تكره وجود النعمة على غيرك ، ولكن تشتهي مثلها لنفسك ، وقد تنافس صاحبها في الجود والعمل لتلحق

به ، والمنافسة في الخير خير ، قال سبحانه : « ختامه مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - ٢٦ المطففين » .

٢١٨ - أَثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ .

● الطمع داء لا دواء له ، ونهم لا يشبعه شيء حتى الكون بأرضه وسماؤه ، ولو ملكه الطامع لتمنى له مثيلاً ، وللمثيل أمثالاً ، كجهنم إذ تقول هل من مزيد . وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة ١٧٩ « الطمع رق مؤبد » لا يتحرر الطامع من أسره إلا بالموت .

٢١٩ - لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثَّقَةِ بِالظَّنِّ .

● إذا كنت على يقين من أمانة أمين ، ثم لاح لك ما يوجب الشك أو الظن بأمانته فليس من الإنصاف ولا العلم أن تنقض اليقين القوي وتزيله بمجرد الشك أو الظن ، بل بيقين مثله . واتفق العقل والشرع والفقهاء والعقلاء على أن الشيء إذا ثبت ثبوتاً يقينياً يبقى مستمراً حتى يثبت انقطاعه وزواله ثبوتاً يقينياً تماماً كوجوده . وأبلغ ما جاء في هذا الباب قول الإمام جعفر الصادق : لا يُنقض اليقين بالشك ، ولا يدخل الشك في اليقين ، ولا يخلط أحدهما بالآخر ، ولكن ينقض الشك باليقين ويتم على اليقين ، فيبنى عليه ، ولا يعتد بالشك في حال من الحالات .

٢٢٠ - بِشَسِّ الزَّادِ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ .

● كل الذنوب يُرجى أن يغفرها الله إلا الظلم والشرك حتى الشرك ، يُغفر بالتوبة ، أما الظلم فلا غفران له وإن تاب الظالم وندم إلا إذا رضي المظلوم وسامح .. ولفظاعة الظلم كان تركه عند الله أثر ليس لسواه من ترك أي محرم من المحرمات ،

فقد ثبت بالنص عن رسول الله (ص) : « إن من أصبح وهو لا يهتم بظلم أحد غفر الله له ما اجترم » . (أنظر شرح الحكمة ١٨٥) .

٢٢١ — مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ .

● للكريم حسنات ، منها التواضع لمن هو دونه ، والحلم عن السفه ، وأفضلها تجاهل عيوب الناس التي يجوز تجاهلها ، والترفع عن ذكرها ونشرها .

٢٢٢ — مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ تَوْبَهُ لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ .

● الحياء من فعل ما يشين — فضيلة تشفع عند الناس لبعض الرذائل ، أما الحياء من فعل ما يزين كالسؤال عن أمور الدين ، والعيش بكدّ اليمين — ، فهو مدموم ، وإن استحسّنه أهل الجهل ، وتقدم الكلام عن الحياء مرات ، منها في شرح الحكمة ٢٠ .

٢٢٣ — بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ ، وَبِالنَّصْفَةِ يَكْثُرُ الْمَوَاصِلُونَ ،
وَبِالْإِفْضَالِ تَعْظُمُ الْأَقْدَارُ ، وَبِالتَّوَاضُّعِ تَتِمُّ النُّعْمَةُ ،
وَبِالْحَيْثَالِ الْمُؤْنُ يَجِبُ السُّودُّ ، وَبِالسَّيْرِ الْعَادِلَةِ يُقَهَّرُ
الْمُنَاوِي ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِ .

● إذا جمعتك الصدف بمن تجهل حقيقته وكفاءته فلنك تحتاط وتحفظ في حديثك أمامه ما دام ساكناً خشية أن يكون من أهل الوعي والمعرفة فينتقد ويلاحظ .. حتى يتكلم فتعامله بما هو أهل . هذا مراد الإمام من الهيبة هنا ، وقد تكون الهيبة بالكلام ، كما لو كان المتكلم عالماً عاقلاً . ويأتي قول الإمام : تكلموا

تعرفوا (وبالنصفة يكثر المواصلون) النصفة أن لا تبخس الناس أشياءهم ، ولا تنسب جريمة لبريء ، وان توجب لكل إنسان ما أوجبه لك . ومن كان هذا شأنه كثر اخوانه .

(وبالأفضال تعظم الأقدار) ومثله من جاد ساد ، ولا ينحصر الجود والفضل بئذ المال ، فكل عون يخفف الهموم والأثقال عن الناس فهو فضل وإحسان (وبالتواضع تتم النعمة) المراد بالتواضع هنا الانقياد للحق والعمل به ، وهو أعلى أنواع الشكر لله ، ومن شكر زاده الله من فضله (وباحتمال المؤمن يجب السؤدد) من حل عن الناس ألقاهم حملوه على رؤوسهم ، ورأوه أهلاً للسيادة والقيادة أياً كان دينه ولونه ونسبه ، والذي لا ينتفع به الناس ينظرون اليه كأبي كائن لا ينتج ويشمر ، وإن ملأ الدنيا علماً وفهماً ، وتسم العروش والكراسي .. وإذا قابله بالاحترام فبدافع العادة أو الرياء طمعاً أو خوفاً ، لا بدافع الصدق والحب .

(وبالسيرة العادلة يقهر المناوىء) لا سلاح أقوى وأمضى في حرب العدو من حسن السيرة واكتساب الفضائل (وبالحلم عن السفية تكثر الانتصار عليه) تقدم شرحه منذ قليل في الحكمة ٢٠٥ « أول عوض الحليم من حلمه ان الناس أنصاره على الجاهل » أي السفية .

٢٢٤ — الْعَجَبُ لِغَفْلَةِ الْحُسَّادِ عَنْ سَلَامَةِ الْأَجْسَادِ .

● يتحاسد الناس على المال دون الصحة ، وليس هذا بعجيب وغريب ما دامت الصحة متوفرة للكثرة ، بل للأكثريّة على عكس المال ، وانما تعجب الإمام من أمر الصحيح السليم ، كيف يحسد الغني على نعمة المال ، وينسى نعمة الصحة عليه مع انها أتمن وأعز من المال ، وبه يضحى من أجلها ، والغني المريض يغبط الفقير على صحته ، ولو خيّر بين الصحة مع الفقر وبين الغنى مع المرض لآثر الصحة على الدنيا بكاملها .

٢٢٥ - الطَّامِعُ فِي وَثَاقِ الذَّلِّ .

● ومثله في الحكمة ١٧٩ « الطمع رق مؤبد » وسبق الشرح مفصلاً ، وأيضاً تكلمنا عن الطمع منذ قليل في الحكمة ٢١٨ .

٢٢٦ - الْإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ .

● الاسلام في اللغة الانقياد ، ومنه قوله تعالى : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً - ٨٣ آل عمران » . وأيضاً يطلق على الاخلاص كقوله عز من قائل : « أسلمت وجهي لله - ٢٠ آل عمران » . والاسلام في اصطلاح الفقهاء أي الذي تُتحقق معه الدماء، وتثبت معه المواريث والمناكحات وما إليها- هو شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله .

أما الاسلام واقعاً وعند الله يوم يقوم الحساب فهو الذي يكون معه هذا الايمان الذي هو (معرفة بالقلب) والمراد بالمعرفة هنا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع سواء أكان عن علم أم عن تقليد، لقوله تعالى: «انما المؤمنون الذين اذا ذُكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً - ٤ الأنفال » فالمطلوب من المؤمن الحق هو الخشوع لذكر الله ، والتوكل عليه ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكفى ، فإن كان هذا عن علم وبرهان فيها ونعمت وإلا تقبّل بسبحانه من المتقين لأن العلم وسيلة لا غاية .

(وإقرار باللسان) لا بد من إظهار الايمان بالقول تماماً كالعمل ، لأنه عبادة لله ، ولكي يعرف المؤمن ويُعامل بما له من الحق (وعمل بالأركان) أي لا بد أن يتجسم الايمان بالعمل المحسوس ، وكل عمل ثبت حكمه بضرورة الدين فهو ركن للإيمان كوجوب الجهاد والصوم والصلاة والحج والزكاة . وسبق الكلام عن الاسلام والايمان في العديد من المناسبات . (أنظر شرح الحكمة ٣٠) .

٢٢٧ — مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِينًا فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ اللَّهِ سَاحِطًا .
وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ . وَمَنْ
أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ . وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَهَاتَ
فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ يَمُنُّ كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا . وَمَنْ لَهَجَ قَلْبُهُ
بِحُبِّ الدُّنْيَا أَلْتَاطَ قَلْبُهُ مِنْهَا بِثَلَاثٍ : هُمْ لَا يُغْنِيهِ ، وَحِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ ،
وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ .

● (من أصبح على الدنيا الخ) .. أي على قواها، والمعنى ان من جعل الدنيا كل
همه واهتمامه فلا يسره شيء إلا ما يناله منها ، ولا يحزنه شيء إلا ما يفوته من
حطامها ، ومعنى هذا في واقعه انه لا يرضى عن الله إلا بأجر الدنيا يقبضه سلفاً—
فصدق عليه قوله تعالى : « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم
يسخطون — ٥٨ التوبة » (ومن أصبح يشكو الخ) .. من تحدث عن مصابه
لمجرد التنفيس عن قلبه وكفى فلا لثم عليه ، ومن تحدث عنه كناقم على ما حل
به فهو آثم لأنه يشكو ويتظلم منه تعالى علواً كبيراً . ويأتي قول الإمام : « من
شكا الحاجة الى المؤمن فكأنما شكا الى الله ، ومن شكاهما الى كافر فكأنما
شكا الله » .

(ومن قرأ القرآن فأتى فدخل النار الخ) .. فهو لا شك واحد من الدين
قرأوه للتسول به ، أو للطرب والتغني ، أو للهزء والسخرية ، لأن القرآن لغة
العقل يؤمن به وينقاد له ، ونداء القلب يخشع له ويطمئن ، ونجوى الضمير ينطق
عنه ويُعبر ، فن قرأه جاداً لا هازلاً ، ومتدبراً لا عابثاً أثر فيه أثره ، ودفع
به الى طاعة الله ومرضاته ، وابتعد به عن غضبه وعذابه .

(ومن لهج قلبه بحب الدنيا الخ) .. التاط : التصق ، ولا يغبه : لا يفارقه ،
من باب « زرغباً » والمعنى من جعل الدنيا كل همه واهتمامه تراكمت عليه مصائبها
ومشكلاتها ، وعاش في حزن دائم على ما فات ، وشغل شاغل في الحرص على

ما نال ، وأمل خادع كاذب دونه ألف حجاب . وبعد ، فإن لحديث الدنيا عند الإمام شجوناً وفنوناً .

٢٢٨ — كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكًا ، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيمًا .

● الغرض من الملك اطمئنان النفس ، وضمان القوت ، والغنى عن الآخرين : والقناعة تكفل هذا الغرض وتحققه ، وأيضاً تقود صاحبها الى الرضا بما أعطى الله والتوكل عليه في كل عمل وفيما لم يعط ، والصبر على ما حدث ويحدث من المفاجآت والمخبات ، أما حسن الخلق فهو نعيم في الدنيا لأنه كمال وجمال ، ونعيم في الآخرة لأنه الوسيلة لرضا الله وثوابه .

٢٢٩ — شَارِكُوا الَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فَإِنَّهُ أَخْلَقَ لِلْغِنَى وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحَظِّ عَلَيْهِ .

● ليس هذا أمراً شرعياً أو عقلياً يجب امتثاله واتباعه مثل « اتقوا الله » أو يستحب مثل « تصدقوا ولو بشق تمر » ولا هو حكاية وانعكاس عن الواقع مثل « لا تكن عبد غيرك وقد خلقتك الله حراً » .. كلا ، وإنما هو مجرد نصيحة لا مصدر لها سوى الظن مثل « الرفيق قبل الطريق » مخافة أن تضل عنه أو تفاجأ بما تكره ولا من يعين . والمراد بالخط التوفيق من الله سبحانه بتمهيد الطريق والهداية اليه بسبب أو بآخر .

وطريف قول بعض الشارحين : « نبّه الإمام في هذه الحكمة العالية الى أصل اقتصادي كبير قد جعلته الأمم الراقية والشعوب المتقدمة في هذا العصر المشرق بالعلم والازدهار — أساساً لحياتها وبناء مجتمعاتها » .

ومكان الإمام من العلم في غنى عن هذا التفلسف والتكلف الذي يشبه قول من قال : لقد سنّ الإسلام قانون البحار في الآية ١٢ من سورة فاطر : « وما

يستوي البحران هذا عذب فرات سائق شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون
لحمًا طرياً » .

٢٣٠ — « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » : الْعَدْلُ الْإِنْصَافُ ،
وَالْإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ .

● هذا تفسير لقوله تعالى: «ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى»-٩٠
النحل » . والعدل أن تنصف الناس من نفسك وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به،
والإحسان السخاء بما ينفع الناس مالا كان أم عملاً أم كتاباً وخطاباً .
وجاء في التفسير أن الصحابي الجليل عثمان بن مظعون قال : أسلمت أول
ما أسلمت استحياء من رسول الله (ص) وما قر الإسلام في قلبي حتى نزلت هذه
الآية فأمّنت بمحمد (ص) وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته ، فقال : يا آل قريش
اتبعوا محمداً ترشدوا ، فإنه لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق .

٢٣١ — مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطِ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ .

● المراد باليد القصيرة هنا عمل الإنسان وجهاده ، وليس المراد بعبثاته الصدقة
على المعوزين وكفى ، كما فهم الشريف الرضي ومن جاء بعده من الشارحين ،
بل المراد التضحية بالنفس والنفيس لنصرة الحق والعدل ، وإزهاق الجور والباطل ،
أما اليد الطويلة فهي كناية عن عطاء الله سبحانه الذي وصفه بقوله : « عطاء
غير مجذوذ - ١٠٨ هود » . أي غير مقطوع . وقد أوضح ، عظمت كلمته ،
نوع الأعمال التي يثيب العباد عليها بعطاء طويل غير مجذوذ ، أوضحه وبينه
بقوله : «وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون
يغفر الله لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار - ١٢ الصف » .

٢٣٢ — وَقَالَ لِأَبْنِهِ الْحَسَنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : لَا تَدْعُونَ إِلَى مُبَارَزَةٍ
وَأِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ فَإِنَّ الدَّاعِيَ بَاغٍ وَالْبَاغِي
مَضْرُوعٌ .

● هذا هو دين الإسلام ، وهذه شريعته : الحرب بغية وعدوان ، ومن أثارها
ومهد لها ولأسبابها فهو عدو الله والحياة ، وحبيب على الله والحق والخير .
ومن صارع الحق صرعه ولو بعد حين « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس
لا يعلمون — ٢١ يوسف » .

وقال ابن أبي الحديد : « ما سمعنا ان الإمام (ع) دعا الى مبارزة قط ،
ولأنما كان يدعى اليها باسمه ، أو توجه الدعوة على وجه العموم له ولغيره كقول
عمرو بن ود : هل من مبارز ؟ فبرز اليه الإمام وأرداه قتيلاً . ثم نقل ابن
أبي الحديد قصة مبارزة الإمام لابن ود عن مغازي الواقدي وسيرة ابن إسحق .
ونقل صاحب « فضائل الحمسة من الصحاح الستة » عن مستدرك الصحيحين للحاكم
النيسابوري ج ٣ ص ٣٢ طبعة سنة ١٣٢٤ هـ بجيدر آباد وعن تاريخ بغداد للخطيب
البغدادى ج ١٣ ص ١٩ طبعة سنة ١٣٤٩ هـ بمصر ، نقل أن رسول الله (ص)
قال : « ان مبارزة علي لعمر بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى
يوم القيامة » .

٢٣٣ — خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ : الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ
وَالْبُخْلُ فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا .
وَإِذَا كَانَتْ بِخَيْلَةٍ حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا . وَإِذَا كَانَتْ
جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَغْرِضُ لَهَا .

● أحسن ما في المرأة عفتها ، وتدبير منزلها ، ومشاركتها الرجل في آلامه ،

والتعاون معه على زمانه .. والزهو الذي يقبح في الرجال ويلزم هو ممدوح وحسن في النساء ، لأنه حصن لعفافها كما قال الإمام ، وبه أوصى القرآن الكريم في الآية ٣٢ من سورة الأحزاب « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » ومثله الجبن ، فإنه يردع الجبان والجبانة عما يجهلان من العواقب ، أما بخجل المرأة فهو كرم وسخاء على الزوج والأولاد . وكان أستاذنا طيب الله ثراه وأرضاه يقول : تستطيع المرأة الفقيرة التي لا تملك شيئاً من المال أن تعين الزوج بما لها .. قلنا له : كيف يا أستاذ ؟ وأننى لفاقد الشيء أن يعطيه ؟ قال : تصبر ولا تضايقه بكثرة الطلب ، وتحرص على القليل وتشح به إلا لضرورة . ومن كفاك فقد أغناك .

٢٣٤ — (وَقِيلَ لَهُ : صِفْ لَنَا الْعَاقِلَ) فَقَالَ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ (فَقِيلَ فَصِفْ لَنَا الْجَاهِلَ فَقَالَ) : قَدْ فَعَلْتُ (يَعْنِي أَنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لَا يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ فَكَأَنَّ تَرَكَ صِفَتِهِ صِفَةً لَهُ إِذْ كَانَ يَخْلَافُ وَصْفَ الْعَاقِلِ) .

● ان تحديد أحد الضدين اللذين لا ثالث لهما كالعالم والجهل والليل والنهار هو تحديد للآخر بالمفهوم لا بالمنطوق ، ويسميه علماء أصول الفقه بمفهوم المخالفة ، وعرفوه بدلالة اللفظ على مخالفة حكم المسكوت عنه لحكم المنطوق به مثل « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله - ١٧٣ البقرة » . فالمنطوق به هنا تحريم ما ذبح على غير اسم الله ، والمسكوت عنه تحليل ما ذبح على اسم الله ، ولكن دل عليه اللفظ مفهوماً لا منطوقاً ..

أما مفهوم الموافقة فهو دلالة اللفظ على موافقة الحكم المسكوت عنه لحكم المنطوق به بطريق أولى مثل « فلا تقل لها أف » فإنه يدل على تحريم الضرب بالمفهوم ، وهو موافق لحكم المنطوق، ومن هنا سمي هذا بمفهوم الموافقة، وذاك بمفهوم المخالفة.

٢٣٥ - وَاللّٰهُ لَدُنْيَاكُمْ هٰذِهِ اَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقٍ خَنْزِيرٍ فِي يَدٍ مَّجْذُومٍ .

د قيل في معنى العراق : انه عظم بلا لحم ، وقيل : هو الكرش .. ومن الذي يأكل كرش الخنزير أو عظمه من يد مشوهة بالجلذام ؟ وهل في الكون كله أبشع وأشنع من هذا الطعام واليد التي تحمله ؟.. هذه هي الدنيا في نظر علي قولاً وفعلاً ، وعاطفة وعقلاً ، وهذا هو واقعها ، وإن تحلت بالذهب ، ورفلت بالدبياج ، وتعطرت بالعنبر .. وإذا خُذتُ بها أنا وغيري من طلابها وكلاهما فهل يُخدع بها العقل السليم الذي خاطبته خالق الكون وخالقه : « ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أحب » وعلي هو الذي قال عنه من لا ينطق إلا بالوحي : « يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » . نقل هذا الحديث أصحاب الصحاح والسنن (أنظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ الباب ٩٦ من المقصد الثاني) .

٢٣٦ - إِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التَّجَارِ ، وَإِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ ، وَإِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ .

● لكل شيء داعية وسبب ، والسبب الذي يدفع الإنسان لعبادة الله لا بد أن يكون واحداً من ثلاثة : الأول الخوف من العقاب تماماً كالعبد الأسير ، ومع هذا يقبل الله من الخائف ويؤمنه ويزيده من فضله ، لأنه مقرر بالله ووحدانيته وبحسابه وعقابه ، وبرسوله وكتبه . السبب الثاني : الطمع بالأجر والثواب تماماً كالذي يعامل على أساس الربح ، وأيضاً هذا مقبول ومأجور للغاية نفسها .

والسبب الثالث : الشكر لله على أفضاله وإنعامه ، والتعظيم لكماله وتماحه بلا

قصده لدفع مضرة أو جلب مصلحة ، بل لله وحده لا شريك له ، وهذه هي العبادة الحقبة الخالصة التي تنطق وتدل على مدى علم العابد ويقينه بالله .

علي والمرأة:

٢٣٧ — الْمَرْأَةُ شَرُّ كُلِّ شَيْءٍ مَا فِيهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا .

● قال قائل: ان عائشة حاربت علياً ، لأنه أشار على رسول الله (ص) بتجاهلها واختيار غيرها في الإفك. .. وأيضاً قال هذا القائل : ان رأي علي في المرأة جاء من خلال بغضه لعائشة لأنها حاربتة ا. وذهل هذا القائل عن موقف الإمام مع معاوية حين سقاه الماء بعد أن منعه منه ، ومع ابن العاص الذي كشف عن سوائه ، وعن سائر مواقف التي تنطق بعصمة آرائه عن الأهواء والرغبات . وفي الخطبة ١٧٠ شبه اعتذار عن عائشة في خروجها حيث ألقى المسؤولية على طلحة وقال : « فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله (ص) كما تُجرّ الأمة عند شرائه .. وأبرزوا حبيس رسول الله (ص) لها ولغيرها » .

وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في شرح الخطبة ٧٨ ج ١ ص ٣٧٣ وأجبنا عن هذا القول بخمسة أجوبة ، منها ان ما قاله الإمام عن المرأة أخذه عن النبي بشهادة ما جاء في صحيح البخاري الجزء الأول ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ، ونعطف على ما تقدم ان ما قاله النبي وعلي عن المرأة قاله كثيرون من الأدباء والفلاسفة من قبل ومن بعد . فقد جاء في كتاب « كيف يحيا الإنسان » للفيلسوف الصيني « لين يوانج » ان الأديب الانكليزي « أوسكار وايلد » ظل يقول : « لا يستطيع الرجل أن يعيش مع المرأة كما لا يستطيع أن يعيش بدونها » . أليس هذا تعبير ثانٍ عن قول الإمام : « المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بد منها » ؟

وأيضاً نقل صاحب كتاب « كيف يحيا الإنسان » — قصة هندوكية — يرجع تاريخها الى أربعة آلاف عام ، تعكس رأي الإمام عن المرأة بكل وضوح، وهي: ان الله عندما خلق المرأة أخذ من الأزهار جمالها ، ومن الأمواج ضحكاتها ،

ومن قوس الفرح ألوانه ، ومن الطيور أغاريدها ، ومن النسيم قبلاته ، ومن الحمل وداعته ، ومن الثعلب مكره ، ومن زخاخ المطر ثقله ، ونسجها كلها في مخلوقة أنثى ، وقدمها الى آدم لتكون زوجة له .

وسرّ آدم بها ، وما عاشرها اياماً حتى جاء الى ربه وقال له : ابعد عني هذه المرأة ، فلاني لا أستطيع العيش معها ، فأخذها منه ، ولكن آدم أحس بعدها بالوحشة والغربة ، فعاد الى ربه وقال : اعطني حوائي فأنا لا أستطيع الحياة بدونها ، فأعادها اليه .. ولم تمض ايام حتى عاد بها آدم الى ربه وقال : عجزت عن حملها ولا حاجة لي بها ، خذها عني ، فأخذها عنه . ولكن عاد وطلبها بعد ايام ، فقال الله له : اقسم بأن لا تغير فكرك من جديد ، فأقسم ورضي نصيبه معها .

ومعنى هذه القصة بطولها ان المرأة شر لا بد منه منذ آدم والى يوم يبعثون .. وأيضاً معنى هذا ان رأي الإمام في المرأة واحد من مثات .

٢٣٨ — مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِي ضَيَّعَ الْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَأَشِيَّ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ .

● تأخير المطلوب عن وقته المعين بلا عذر — تقصير وإهمال . والمقصّر يستحق الذم والعقاب ، لأنه فوت وضيع عن عمد.. والقضاء بعد الوقت لا يرفع المسؤولية اذا كان الوقت شرطاً في الواجب كالصوم والصلاة ، ويرفعها أو يخفف من شأنها اذا كان الوقت ظرفاً للإهمال كالدين الى أجل . ومن وصايا ارسطو للاسكندر : اياك والتأخير لأمورك والتواني عنها وإلا تراكمت عليك ، ثم لا تجد وقتاً لمباشرتها .

(ومن أطاع الواشي ضيع الصديق) المفروض في الصديق ان يدفع عن صديقه التهم وإن جهل مصدرها ، وأن يتحمل الكثير من هفواته وزلاته ، فكيف يستمع للساعي بالنميمة والوشاية ؟ واذا استمع منه وأطاع فقد هدم الصداقة من

الأساس ، وعصى الله في قوله : « ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشاء بنميم
- ١٠ القلم » :

٢٣٩ — الْحَجَرُ الْغَصِيبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا .

● من بنى أو اقتنى أو أكل وشرب أو انتفع بأي شيء على حساب الآخرين -
فأله الخسران والوبال ولو بعد حين . وإن سألت سائل : وهذه ناطحات السحاب
بنيت من دماء الشعوب ، وهي راسخة كالجبال ؟

قلنا في جوابه : ان بناء الناطحات سيتركونها الى قبر مظلم عفن ، ويتركون
معها لخلفائهم عليها ما أصاب هتلر وموسوليني ، أو أية كارثة .. هذا ، الى
أن البناء الراسخ هو الضمير النظيف الذي يعيش بلا وخزات وأزمات .. وعلى
آية حال فنحن من المؤمنين بقوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون
وأملئ لهم ان كبدي متين - ١٨٣ الأعراف » .

٢٤٠ — يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ .

● ما زال الحديث عن حجر الغصب ، أو هما من باب واحد .. أبداً لا مفر
للظالم من أخذه بظلمه ، إما بيد المظلوم وغيره من الثائرين على الظلم وإما من
ظالم مثله ، وإما بيد الخالق ، وهي أشد بأساً ، وأشد تنكيلاً . وتقدم الكلام
عن ذلك مرات .

٢٤١ — أَتَقِ اللَّهَ بَعْضَ التَّقَى وَإِنْ قَلَّ ، وَأَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ
سِتْرًا وَإِنْ رَقَّ .

● لا تقطع الصلة بينك وبين الله كلية ، وتظهر له العقوق والجفاء .. واهجر ما

نُهاك عنه ، وان غلبتك الظروف أو النفس الأمّارة على بعض ما يكره سبحانه فاعلمها أنت على بعض ما يحب ، فربما شملك العفو وكنت من الذين « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم - ١٠٢ التوبة » .

ويصدق قول الإمام على عصرنا الذي كثرت فيه المغريات وإثارة الشهوات ، ومن كان فيه على شيء من التقى والإيمان فهو يكفيه وينجيه ان شاء الله . قال رسول الله (ص) يأتي على الناس زمان الصابرون على دينه مثل القابض بكفه على الجمر .. وفي حديث آخر : للعامل منهم بطاعة الله مثل أجر خمسين . فقال رجل من الصحابة : مثل أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : بل منكم .

٢٤٢ - إِذَا أَرَدَحَمَ الْجَوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ .

● إذا سئلت عن أمر ، وتصورت له العديد من الأجوبة - وقعت في حيرة خاصة إذا كان للمسؤول عنه جهتان : أحدهما للتحليل ، والثانية للتحريم . وأيضاً تخفى الحقيقة إذا كثّر المجيبون بأجوبة متضاربة .

٢٤٣ - إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا فَمَنْ أَدَاهُ زَادَهُ مِنْهَا ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْهُ خَاطَرَ يَزْوَإِلِ نِعْمَتِهِ .

● إن الله سبحانه يحب من عبده أن يُحدث له شكراً كلما أحدث له نعمة ، وقد كتب سبحانه على نفسه الزيادة لمن شكر ، ومن قصر عن شكر ما أُوتي فقد عرّضه للخطر .. ومعنى شكر النعمة أن لا يغتر بها المنعم عليه ويطغى ، وأن يُحسن الإنفاق منها على نفسه وأهله ، وإن بقيت بقية أغاث بها ملهواً ، ونفّس كربة عن بائس .

٢٤٤ - إِذَا كَثُرَتِ الْمَقْدِرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ .

● الشهوة : رغبة وأمنية ولهفة ، ومن البدهة ان الانسان يتلهف على ما يعجز عن تحصيله وتناوله ، أما القادر فيحقق ما يريد ساعة يشاء ، ولا موجب للتلهف والتأسف . ومن هذا الباب ما نراه حين ما يشاع ان سلعة من السلع كالسكر سيفقد من الأسواق ، فيقبل الناس على شرائه ، ويدخر منه القادر أضعاف ما يحتاج اليه لمجرد الوهم والخوف من العجز عن تحصيله ، وكان سائر الأيام لا يعبا به ويهتم ، لأنه في متناول يده متى أراد .

٢٤٥ - أَحْذَرُوا نِفَارَ النَّعْمِ فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ .

● الخطاب في احذروا للذين يملكون أسباب القوة والرخاء ، وكل ما يملكه الانسان معرض للزوال مادياً كان أم معنوياً ، وعلى من في يده شيء منه أن يكون على يقظة من ذلك ، ولا يفرط ويقصر في أداء ما عليه من حق لله وللناس اذا أراد الاستمرار لما في يده من نعم .. وفي قصة آدم وهبوطه من الجنة الى الأرض بعد أن أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، في هذه القصة أبلغ العظات والعبر : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » - ٧ . الكهف » . وترر الإمام هذا المعنى بشتى الأساليب عسى أن نتذكر أو نخشى .

٢٤٦ - الْكَرَمُ أُعْطِفُ مِنَ الرَّحْمِ .

● من قضى حوائج المحتاجين أسر قلوبهم ، وصاروا أطوع اليه من بنانه ، وقديماً قيل : الانسان عبد الإحسان ، أما من يشفق ويتألم وكفى فإنه يُعزي ولا يغني .. ويبادله صاحب الحاجة عاطفة بعاطفة ، وكلاماً بكلام ، ولا شيء وراء ذلك حتى ولو كان الشفوق قريباً أو صديقاً . وقال الشيخ محمد عبده في تعليقه على هذه الحكمة : هي من أعلى الكلام .

٢٤٧ - مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ .

● من ظن انك منحط في أخلاقك ومعاملاتك - فكذب ظنه بالأفعال لا بالأقوال ، وعندئذ يلوم نفسه ويعتذر اليك ، ان كان من الطيبين ، أما من يظن بك الخير وانك من أهل المروءات فصدق ظنه ، واحرص على ثقته كل الحرص ، أيضاً بالأفعال لا بالأقوال ، فإن الثقة ثروة وقوة للتنفيذ والتأثير العميق السريع . وتقدم مثله بالحرف الواحد في الرسالة ٣٠ .

٢٤٨ - أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ .

● المراد بالنفس هنا الرغبة والشهوة ، وهي أقوى من كل سلطان يسيطر على النفس ، وزمامها بيد الشيطان ، ولا يقوى على مخالفتها إلا قوي عالم بالعواقب ، وكلنا يعلم أن الأمور بعواقبها وخواتيمها ، ومعنى هذا أن العمل بالدين والعقل أفضل وأكمل من العمل بالشهوات والأهواء . ويلتقي تفسيرنا هذا مع تفسير الشارحين بأن أفضل الأعمال أحزمها أي أشقها .

٢٤٩ - عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَفْسُخُ الْعَزَائِمَ وَحَلُّ الْعُقُودِ .

● المراد بالعقود هنا النوايا ، وحلها فسخها ، وعليه يكون عطفها على فسخ العزائم من باب عطف التفسير ، ومثله نقض الهمم . وقال الشارحون : إن الانسان يعزم ويعقد قلبه على الشيء ، ثم ينحل العزم دون أن يحدث جديد ، ولا تفسير لهذا إلا ان العزم بيد الله تعالى . وظاهر قول الإمام لا يأبى هذا التفسير ، ولكنه لا يتفق مع ظاهر الآية ١١٥ من سورة طه : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » والآية ١٥٩ من سورة آل عمران : « فإذا عزمنا فتوكل على الله » والآية ٢٢٧ من سورة البقرة : « وإن عزموا الطلاق » .

وغير بعيد أن يكون مراد الإمام ان القلب بغرائزه ومشاعره دليل قاطع على قدرة الله وعظمته بخاصة إداره بعد إقباله ، وإقباله بعد إداره بلا سبب ظاهر.. وعلى أية حال فلان لله في كل شيء آية تدل على انه واحد .

٢٥٠- مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ ، وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ .

● ومثله في الخطبة ١٧٤ « إن الجنة حُفَّت بالمكاره، وإن النار حُفَّت بالشهوات ». ويأتي قول الإمام : « إن الحق ثقيل مريء - أي منيء - وإن الباطل خفيف وبيء - من الوباء .. وكل راحة وسراء لا بد لها من تعب وعناء، فكيف بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟ ».

٢٥١- فَرَضَ اللهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشُّرْكِ ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيحاً لِلرُّزْقِ ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ ، وَالْحَجَّ تَقَرُّبَةً لِلدِّينِ ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلشُّفَهَاءِ ، وَصَلَةَ الرَّحِمِ مَنَامَةً لِلْعَدَدِ ، وَالْقِصَاصَ حَقّاً لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَتُجَانِبَةَ السَّرِقَةِ إِيْجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرْكَ الزُّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرْكَ الدَّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَالشَّهَادَةَ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمَجَاحِدَاتِ ، وَتَرْكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً

لِلصِّدْقِ ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَافِ ، وَالْأَمَانَاتِ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ،
وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

● المراد بالامان هنا التوحيد المقابل للشرك بدلالة قول الإمام : « فرض الله
الامان تطهيراً للشرك » . وتسمى كلمة التوحيد بكلمة التنزيه والاخلاص والتجريد ،
لأنها تجرد الذات الإلهية القدسية عن المادة والمثيل ، وأيضاً تجرد البشرية عن
صفات الألوهية وعن حق السيطرة والاستعلاء ، وتبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم
امتيازاً على غيرهم ، وتضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات .
وسبق الكلام عن ذلك في العديد من المناسبات ، منها في شرح الخطبة ٢ ج ١
ص ٧٤ .

(والصلاة تنزيهاً عن الكبر) لأنها خضوع وخشوع وسجود وركوع (والزكاة
تسبيهاً للرزق) تماماً كالضمان الاجتماعي . وسبق الكلام عنها في شرح الخطبة ١٩٧
وعن الاسلام والمال في ج ٢ ص ٢٤٠ (والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق) حيث
لا رقيب على الصائم إلا الله ، ومن لا يخلص لخالقه لا يخلص لنفسه ولا لوطنه
وأمتة . وتقدم الكلام عن الصوم مرات ، منها في الحكمة ١٣٥ (والحج تقربة
للدين) أي لأهل الدين حيث يجتمعون في آن واحد ، ومكان واحد ، وفي زي
واحد ، وينشدون نشيداً واحداً . وتقدم الكلام عن الحج في الخطبة ١ والحكمة
١٣٥ وغيرها .

(والجهاد عز الإسلام) وبه نما وانتشر ، وأيضاً به تقدم المسلمون في كل
ميدان ، ولما تركوه ذلوا وتخلفوا .. والكلام في هذا الموضوع أصبح مكروراً
ومملولاً مع العلم بأننا تكلمنا عنه مرات ومرات (والأمر بالمعروف مصلحة للعوام)
لأنه يعلمهم آداب السلوك ، والحلال والحرام (والنهي عن المنكر ر دعاً للشفاء)
لأنه يجذّرهم من كآبة المنقلب وسوء المصير (وصلة الرحم مناة للعدد) أي من
يصل عشيرته يجتمعوا حوله ، وتكثر بهم أنصاره وأعوانه . ، وتقدم مع الشرح في
الخطبة ٢٢ قول الإمام : « من قبض يده عن عشيرته فلنما تُقبض منه عنهم
بد واحدة ، وتُقبض منهم عنه أيدي كثيرة » .

(والقصاص حقناً للدماء) كما في الآية ١٧٩ من سورة البقرة : « ولكم في القصاص حياة » . (وإقامة الحدود إعظماً للمحارم الخ) .. الإسلام نظام إصلاحي لنواحي الحياة ، والإصلاح يستدعي العقوبة للردع عن الجرائم والفواحش ، ومنها القذف والزنا والسرقة وقطع الطريق وشرب الخمر ، وهذه المحرمات هي التي أشار إليها الإمام بكلمة المحارم .. هذا ، الى ان الحمة تذهب بالعقل ، والسرقة خسة ودناءة ، وبالزنا تضيع الأنساب ، وباللواط تنقطع اللرية .

(والشهادة استظهاراً على المجاحدات) بعض الشارحين فسر الشهادة هنا بالوسيلة لإثبات الحق والحجة الدامغة لمن جحدته وأنكره ، أما الشيخ محمد عبده فقد فسر الشهادة بالاستشهاد والموت لنصرة الحق وقهر الباطل وأهله . وكل من التفسيرين صحيح في نفسه ، ودلالة الكلام لا تأباه (وترك الكذب تشريفاً للصدق) . الصدق فضيلة ، ما في ذلك ريب ، ولكن لا لذاته وبما هو ، بل لأن الحياة لا تقوم إلا به ، ولولاه لاختل نظامها ، ولذا يسوغ الكذب لردع الظالم عن الظلم ، ولا صلاح ذات البين ، ولتطمين المريض وتسكينه .

(والسلام أماناً من المخاوف) . وفسر الشارحون السلام هنا بالتحية وردها . وهذا التفسير بعيد عن دلالة اللفظ ، لأن كلمة المخاوف توحى بالحرب على مستوى أوسع منها بين اثنين . والحرب الحامية خراب ودمار ، وتقتيل وتشريد ، والحرب الباردة قلق وعناء ، وفقر وشقاء ، تحرم الشعوب من خيراتها وأقواتها ، وتبذرهما على القواعد العسكرية ، وأسلحة الموت والفناء .. والسلام أمان من هذه الويلات وغيرها ، وضمنان للحياة وتقدمها .

(والأمانات نظاماً للأمة) . الأمانة تماماً كالصدق لا يقوم للحياة نظام إلا بهما معاً ، وقد ساوى النبي (ص) بينهما بقوله : « لا تنظروا الى كثرة صلاتهم وصومهم .. وانظروا الى صدق الحديث وأداء الأمانة الى البر والفاجر فيما قل وجل » .

(والطاعة تعظيماً للإمامة) أي لأولي الأمر . الذين يعلمون ويعملون بكتاب الله وسنة نبيه . قال سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم — ٥٩ النساء » وطاعة الله هي العمل بكتابه ، وطاعة الرسول العمل بسنته ، وطاعة أولي الأمر تنحصر في تنفيذ أحكام الكتاب والسنة ، والدليل القاطع الواضح

على ان المراد بأولي الأمر في الآية الكريمة - خصوص العلماء العاملين بالكتاب والسنة ، الدليل على ذلك هو قوله تعالى : « ولو ردوه الى الرسول وأولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم - ٨٣ النساء » .

٢٥٢ - أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إِذَا أَرَدْتُمْ بِمِينَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِبًا عُوجِلَ الْعُقُوبَةُ ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ لِأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللَّهَ تَعَالَى .

● هذه اليمين تُعرف عند الفقهاء بيمين البراءة ، وقالوا : هي من أشد المحرمات والكبائر ، ولا تنعقد من الأساس ، وان من حلف بها يبرأ من الاسلام وإن كان صادقاً ، واستدلوا بروايات عن النبي وأهل بيته (ص) . وقال صاحب « الجواهر » في باب الايمان : « ولكن قد يستفاد الجواز من قول أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة : أحلفوا الظالم الخ .. وأيضاً روي ان الإمام جعفر الصادق (ع) أحلف بيمين البراءة من وشي به عند المنصور الا اني لم أجد من أفق بذلك من الفقهاء ، نعم في كتاب « الوسائل » باب جواز استحلاف الظالم بالبراءة ، وظاهره الفتوى به . والاحتياط يقتضي الترك إلا في مهدور الدم . وقد يريد الإمام بالظالم هنا من يجوز قتله لسبب أو لآخر ، وبهذا يمكن الجمع بين قوله والروايات التي حرمت يمين البراءة وتفسيرها بمن يحرم قتله .

٢٥٣ - يَا أَبْنَ آدَمَ كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي مَالِكَ وَأَعْمَلْ فِيهِ مَا تُؤْتِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ .

● اعتاد الناس أن يوصوا بشطر من أموالهم على أوجه البر والإحسان بعد الموت ..

ويقول الإمام لهؤلاء : لماذا بعد الموت ؟ سارعوا - ما دمتم في قيد الحياة - الى المعروف الذي أوكلتموه الى الآخرين بعد الموت ، وان خفتم الفقر والحاجة عند الشيخوخة فاقرأوا قوله تعالى : « الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » - ٢٦٨ البقرة .

٢٥٤ - الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ :

● الحدة حال تُثير الانسان عند غضبه ، وتخرجه عن طوره اللائق به، ولا يملك معها ديناً ولا عقلاً حتى يصبح بالمجنون أشبه .. فإن آب الى رشده بعد الحدة وندم فجنونه عارض وإلا فأصيل لازم لذاته وماهيته . وقال حكيم قديم : أكبر الخطأ أن لا تُصلح الخطأ .

٢٥٥ - صِحَّةُ الْجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ .

● الحسد داء العقل والدين والجسم ، ومن سلم منه سلمت صحته - على الأقل - وتقدم مع الشرح قول الإمام في الخطبة ٨٤ : « الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » وأيضاً يأكل الروح والجسم .

٢٥٦ - يَا كَمِيلُ مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرَوْحُوا فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ ، وَيُذِلُّوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْبًا سُرُورًا إِلَّا وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا ،

فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَلَمَاءُ فِي أَنْحِدَارِهِ حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ
كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةُ الْإِبْلِ .

● (ان يروحوا في كسب المكارم) يروحوا : من الرواح ، وهو السير بعد الظُّهر ، ويستعمل في مطلق الذهاب والمضي ، والمكارم : المحاسن والفضائل ، كالصدق والوفاء ، والحلم والسخاء ، والعيش بكسب اليمين ، والوقوف مع المستضعفين ، وما الى ذلك مما بُعث به نبي الرحمة (ص) الذي قال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال : امتحنوا أنفسكم بمكارم الأخلاق ، فإن كانت فيكم فاحمدوا الله وإلا فتكروا .

(ويدلجوا في حاجة من هو نائم الخ) .. يُدَلِّجُوا : من الإدلاج ، وهو السير في الليل ، والمعنى أن يسعوا في خدمة المحاويج حتى الذين لم يطلبوا منهم ذلك ، وفيه إيماء الى انه على كل قادر أن يكافح في سبيل المستضعفين ، وأن ينه البسطاء والغافلين الى أي خطر يهدد استقلالهم والاعتداء على حريتهم ومقدراتهم (فإذا نزلت به نائبة الخ) .. أي مصيبة ، والمعنى : من عمل لخدمة أخيه الانسان أثابه الله في الدنيا قبل الآخرة .

(كما تُطْرَدُ غَرِيبَةُ الْإِبْلِ) وهي الناقة تدخل مرعىً لغير صاحبها فيطردها منه . وعن أهل البيت (ع) : إن لله عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى لأخيه معروفاً ، أو نفّس عنه كربة ، أو قضى له حاجة .

٢٥٧ — إِذَا أُمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ .

● من افتقر وضائق عليه سبل الرزق فليصدق ولو بلقمة من قرصه على معدة خاوية ، فإن الصدقة مفتاح الرزق . وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة ٦ و ١٣٦ . وقال الشيخ محمد عبده : « ها هنا سر لا يُعلم » وقد يكون السر هو مجرد التوكل على الله والانتقطاع اليه بصدق وإخلاص ، وعدم اليأس من فضله ورحمته ، ومن توكل عليه كفاه .

٢٥٨ — الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ
وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ .

● التكبر رذيلة ، ولكنه على المتكبرين فضيلة ، لأنه نوع من تأديبهم وإشعارهم بأنهم أهل للازدراء والاحتقار .. وكذلك الغدر بمن غدر وفجر ونكث بالعهود والمواثيق ، وأوضح مثال للغدر والنكث ما فعله الانكليز في الحرب العامة الأولى ، أعطوا العهود للعرب أن يكونوا لهم عوناً في تحريرهم وجهادهم ضد الأتراك ، وفي نفس الوقت أعطوا فلسطين للصهاينة !.. وما من شك ان الغدر بهم وبكل مستعير ومتآمر وفاء وإباء .

٢٥٩ — كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسُّتْرِ
عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ . وَمَا أَبْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ
أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

● تقدم هذا بالحرف الواحد مع الشرح في الحكمة ١١٥ . وقال الشريف الرضي :
« قد مضى هذا الكلام إلا ان هاهنا زيادة مفيدة » ولا عين أو أثر لهذه الزيادة
المفيدة وغير المفيدة ، وهذا هو النص السابق بحروفه : « كم من مستدرج بالإحسان
إليه ، ومغرور بالسُّتر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحداً بمثل
الإملاء له » فأين الزيادة ؟ وجلّ من لا يلهيه شيء عن شيء .

٢٦٠ — أَوْهَا : فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَرْبَ يَعْسُوبِ الدِّينِ بِذَنبِهِ
فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَرْعُ الْخَرِيفِ .

● قال الشريف الرضي : نذكر هنا شيئاً من اختيار غريب كلام الإمام المحتاج

الى تفسير .. ثم ذكر تسع جُمْل من هذا الغريب، أولها: (فإذا كان ذلك الخ) ..
 يعسوب : السيد العظيم ، والقزح قطع من السحاب رقيقة ، وفي الغالب تكون
 خالية من الماء . ويومئذ الإمام بذلك الى ظهور المهدي المنتظر في آخر الزمان .

ثَانِيهَا : هَذَا الْخُطِيبُ الشَّحْشَحُ .

● الشحشح : الماهر في خطبته .

ثَالِثَهَا : إِنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحْمًا .

● القححم : المهالك . ويأتي مع الشرح في الحكمة ٢٩٨ (من بالغ الخصومة
 أثم الخ) .

رَابِعُهَا : إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحِقَاقِ فَأَلْعَصَبَةُ أُولَى .

● المراد بالنص البلوغ والإدراك ، وبالحقاق المخاصمة أي ان البنت متى بلغت
 وأدركت فلها كل الحق أن تخاصم وتدافع عن نفسها ، والمراد بالعصبة قرابة
 الأب ، والمعنى اذا بلغت البنت مبلغ الزواج فقراية الأب مع فقده أولى من الأم
 وغيرها .

وبحثنا هذه المسألة مطولاً في الجزء الخامس من «فقه الإمام جعفر الصادق» - باب
 الولاية ، وأثبتنا بالعقل والنص أنه لا ولاية لأحد في زواج البالغة الراشدة ، وان
 لها الاستقلال التام ، وأكثر العلماء والكبار على ذلك ، ومنهم صاحب المسالك
 والجواهر ، ومن جملة ما قاله في جواهره : « لا ينبغي لمن له أدنى ممارسة في
 الفقه وخطاباته التوقف في ذلك .. أجل ، يستحب للبنت أن تقدم اختيار وليها
 على اختيارها » . ونحن نفسر كلام الإمام هنا بالاستحباب .

خَامِسَهَا : إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو لَمْظَةً فِي الْقَلْبِ كُلَّمَا أَزْدَادَ
الْإِيمَانُ أَزْدَادَتِ اللَّمْظَةُ .

● لَمْظَةٌ — بضم اللام وسكون الظاء — مثل النكتة أو نحوها من البياض ، كما قال الشريف الرضي، ونصبت اللمظة نيابة عن المفعول المطلق أي يبدو بدو اللمظة، والمعنى ان الإيمان يبدأ ضعيفاً ثم يقوى . قال الملا صدرا : « يكون الإيمان ضعيفاً ثم يتدرج بمزاولة الأفكار والأعمال ، ويشتد شيئاً فشيئاً حتى يصير عياناً » أي كالعيان ، ومن هذا الباب: أعبد الله كأنك تراه .

سَادِسَهَا : إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ لَهُ الدِّينُ الظَّنُونُ يُجِبُ
عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لَمَّا مَضَى إِذَا قَبَضَهُ .

● الدِّينُ الظَّنُونُ : لا يدري صاحبه يحصل ويعود ، أم صار في خبر كان ؟ ولا تجب الزكاة إلا بشروط ، منها أن يكون المال ملكاً تاماً لصاحبه ، ومتمكناً من التصرف فيه الآن لا في المستقبل . والدين لا يدخل في ملك الدائن إلا بعد قبضه سواء أكان قادراً على تحصيله أم غير قادر تماماً كنفقة الزوجة لا تملكها إلا بالقبض ، وان كان لها كل الحق بالمطالبة . ومن البداهة أنه لا زكاة إلا في ملك . وفي رواية عن المعصوم : لا صدقة في الدين ، ولا على المال الغائب عنك حتى يقع في يدك .

وكلام الإمام لا صلة له بهذا الفرض، ويختص بالدين الميؤوس منه بحيث يكون حصوله وعودته زكاة من غير احتساب . وفي كتاب « الوسائل عن المعصوم » : ان الجائزة التي لها خطر فيها الخمس ، ومثلها الميراث من غير احتساب . وفيه إيماء الى ان أي شيء له خطر اكتسبه المرء من حيث لا يحتسب — فعليه أن يؤدي خمسة للمستحقين .

سَابِعَهَا : (أَنَّهُ شَيَّعَ جَيْشًا يُغْزِيهِ فَقَالَ : أَعْذِبُوا عَنِ
النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

● أَعْذِبُوا : أَعْرَضُوا ، والمعنى إذا كنتم في الجهاد فلا تفكروا أو تتحدثوا في
الجنس والنساء ، لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه .

ثَامِنَهَا : كَأَلْيَاسِرِ الْفَالِجِ يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ .

● الياسر الفالج هو الذي حالفه التوفيق في جميع أعماله ومواقفه أو أكثرها ،
والقداح - بكسر القاف - جمع القدح - بكسر القاف وسكون الدال - أي
السهم ، والمراد بالقداح سهام القمار ، والمعنى الموفق الميمون بعناية الله هو سعيد
في دنياه وآخرته . واقتبسنا هذا التفسير من كلام طويل لابن أبي الحديد . وما
هو بهذا الوضوح .

تَاسِعُهَا : كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ أَتَقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَمْ يَكُنْ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ .

● علي يلوذ بمحمد (ص) إذا حمي الوطيس ، وهو القائل : والله لو تظاهرت
العرب على قتالي لما وليت عنها .. واني لآنس بالموت من الطفل بثدي أمه ..
علي يتقي برسول الله إذا احمر البأس ، وهو الذي أطاح برؤوس الأبطال عن
أجسادها حتى استسلمت الجبابرة صاغرة ابتغاء السلامة والعافية !.. أجل ، وأي
عجب ! وهل في البشرية من حلق في آفاق الكمال ، وكان هدى للسايرين ، ومناراً
للعالمين - كمحمد بن عبدالله ؟.

وأيضاً قال علي أمير المؤمنين : « دخلت مرة على رسول الله ، فوالله ما

استطعت أن أكلمه من هيئته . وكل تلميذ تصح معرفته بعظمة استاذة بهابه
وينحشاه .. وحاول أعداء الدين أن يغمزوا بمقام محمد (ص) فأعطوا علياً من
الصفات بأسلوب أو بآخر - ما يساوي صفات محمد (ص) أو يزيد .. لا حياءً بعلي
وشيعته ، بل كيداً للإسلام ونبي الإسلام .. ونعوذ بالله من هذا الدس والتدجيل ،
والكفر والتضليل .

٢٦١ - وَاللَّهِ مَا تَكْفُونِي أَنْفُسُكُمْ فَكَيْفَ تَكْفُونِي غَيْرَكُمْ . إِنَّ
كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رِعَايَتِهَا ، وَإِنِّي الْيَوْمَ لَأَشْكُو
حَيْفَ رَعِيَّتِي ، كَأَنِّي الْمَقُودُ وَهُمْ الْقَادَةُ ، أَوْ الْمَوْزُوعُ وَهُمْ الْوَزَعَةُ
(فَلَمَّا قَالَ هَذَا الْقَوْلَ ، فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ قَدْ ذَكَرْنَا مُخْتَارَهُ فِي
بُجَلَةِ الْخُطَبِ ، تَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : إِنِّي
لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نُنْفِذَ لَهُ) .
قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَأَيْنَ تَقَعَانِ بِمَا أُرِيدُ .

● الوزعة - بفتح الواو والزاي - جمع الوزع أي الحاكم ، والموزوع : المحكوم ..
قال الشريف الرضي : « بلغ الإمام أن أصحاب معاوية أغاروا على الأنبار ،
فخرج بنفسه ماشياً حتى النخيلة ، فأدركه الناس وقالوا : يا أمير المؤمنين : نحن
نكفيك فقال : والله ما تكفوني أنفسكم الخ .. والأنبار بلدة على الفرات من
الجانب الشرقي ، وهيت من الجانب الغربي ، كما في مجمع البحرين للشيخ الطريحي .
وتقدم في الخطبة ٢٧ قول الإمام : « فهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار الخ » ..
ونقلنا في الشرح أن معاوية جهز سفيان بن عوف الغامدي وقال له : امض
حتى تغير على الأنبار والمدائن ، وتقتل من لقيت ، ونخرّب كل ما تمر به ،
وتنهّب الأموال (انظر ج ١ ص ١٨٨) .

(إن كانت الرعايا قبلي لتشكو الخ) .. تقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٩٥ ، وهذا نصه : « لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيي » .

٢٦٢ - (وَفِيلَ إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ حُوثٍ أَتَاهُ فَقَالَ : أَتَرَانِي أَظُنُّ أَصْحَابَ الْجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ) . فَقَالَ : يَا حَارِثُ إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِزْتَ . إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ . فَقَالَ الْحَارِثُ : فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَقَالَ : إِنَّ سَعِيدًا وَعَبْدَ اللَّهِ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ وَلَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ .

● (انك تنظر تحتك الخ) .. انك قاصر النظر لا ترى إلا موطيء قدميك (انك لم تعرف الحق) .. نظرت الى طلحة والزبير من خلال صحبتها لرسول الله (ص) والى عائشة من خلال حرمة رسول الله .. والحق لا يُعرف بالصحابة والقراية ، ولا بالألقاب والأنساب ، ولا بالزواج وغير الزواج ، وإنما يؤخذ من معدنه ومصدره ، من كتاب الله وسنة نبيه ، ومتى عرفت الحق من مصدره قست به المحقّين والمبطلين .

وأصحاب الجمل نكثوا البيعة، وشقوا عصا الطاعة ، وعاثوا في الأرض مفسدين وفرقوا المسلمين، وجيشوا الجيوش لإراقة الدماء البريئة ، وقال سبحانه : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله - ٩ - الحجرات » . وقال : « وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ - ١٩٣ - البقرة » .

هذا ، الى ان النبي (ص) وصف أهل الجمل بالناكثين ، وعائشة براكبة الجمل التي تنبجها كلاب حوآب ، ويُقتل حولها خلق كثير ، كما جاء في كتب الحديث (أنظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .
(لم ينصرا الحق الخ) .. تقدم مع الشرح في الحكمة ١٧ .

٢٦٣ — صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَّ أَكِبِ الْأَسَدِ يُغْبِطُ بِمَوْقِعِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِمَوْضِعِهِ .

● راکب الأسد تهابه الناس ، وتعجب من شجاعته ، وهو أشد منهم هبة ورعباً من غضب الأسد والفتك به على حين غفلة .. وبالأمس القريب قرأت في الصحف أن أسد السبرك قتل سائسه ومروضه بعد صحبة طويلة .. وكم من محسود على ما هو شاك منه تماماً كمن حسن منظره ، وساء مخبره .

وصاحب السلطان يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويبالغ الناس في طاعته وإظهار التقدير والاحترام له ، ويغبطونه على سلطانه وسيطرته ، وهو في خوف دائم على منصبه ، وشغل شاغل بأعدائه وأصدقائه المرائين ، وبالخطر من هول ما يدبرون ويكتمون .

٢٦٤ — أَحْسِنُوا فِي عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فِي عَقِبِكُمْ .

● أبداً لا يذهب العرف بين الله والناس .. ومن لا يرحم لا يرحم .. وكما تدين تدان .. هكذا قال الأنبياء والحكماء . وأيضاً قالوا : لا تشمت بأخيك فيعافيه الله ويبتليك .. ومن عذر ظالماً سلب الله عليه من يظلمه ، والله سبحانه أحسن الخالقين ، وأصدق القائلين : « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون — ١٢٩ الأنعام » . وأذن فلا بدع إذا خدمت الأجيال أولاد وأحفاد من خدمها . قال ابن أبي الحديد : أكثر ما في الحياة يقع على سبيل المكافأة ، فمن ظلم ظلم في ولده ، ومن هدم دار غيره هدمت داره .

٢٦٥ — إِنَّ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً ، وَإِذَا كَانَ

خَطَأً كَانَ دَاءً .

● يستمع الناس للحكماء والعلماء، ويتخذون من حكمهم وأقوالهم دستوراً لسلكهم ومعاملاتهم ، ودليلاً على الحق والعدل ، فإن كانت الحكمة حقاً وصواباً فهي لحياة الناس رحمة ونعيم ، وإن تلك جهلاً وضلالاً فهي نقمة وجحيم .. وكم من دماء أريقَت ، وحقوق هُدرت باسم الرشد والحكمة ، والأمن والصيانة .

٢٦٦ — (وَسَأَلَهُ رَجُلٌ أَنْ يُعَرِّفَهُ الْإِيمَانَ) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا :
كَانَ الْغَدُ فَأَتَيْتَنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ عَلَى أَسْمَاعِ النَّاسِ ، فَإِنْ نَسِيتَ مَقَالَتِي
حَفِظْتُهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَالشَّارِدَةِ يَنْقُفُهَا هَذَا وَيُخْطِئُهَا
هَذَا . (وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا أَجَابَهُ بِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَهُوَ
قَوْلُهُ الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ) .

● الشاردة : النافرة ، وينقُفها : يصيبها ضد يخطئها .. قال الشريف الرضي :
« ذكرنا ما أجاب به السائل فيما تقدم من هذا الباب ، وهو قول الإمام: الإيمان
على أربع شعب » في الحكمة ٣٠ وشرحناه مفصلاً .

٢٦٧ — يَا أَبْنَ آدَمَ لَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ
الَّذِي قَدْ أَتَاكَ ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مِنْ عُمْرِكَ يَأْتِ اللَّهُ فِيهِ
بِرِزْقِكَ .

● ليس هذا نهيًا عن العمل من أجل المستقبل ، كيف ؟ وهو القائل : « اعمل
لدنياك كأنك تعيش أبداً » ولولا العمل المتواصل لاستحالت الحياة ، وإنما أراد
الإمام أن لا نحزن ونذهب أنفسنا حشرات على شيء لم يأت أوانه ، ولعله لا يقع

إطلاقاً ، وأن لا نتعجل الهم والغم من أجله ، وأية جدوى من هم لا طائل تحته ؟ وربما أفسد علينا الحياة ، وضاعف الهموم على أنفسنا ، وشغلنا عن التفكير والعمل للواجبات والتحرر من المسؤوليات .

٢٦٨ — أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا .

● الهون : الرفق ، قال تعالى : «وعباد الرحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا — ٦٣ الفرقان » . والمعنى اعتدل في جميع أمورك حتى في الحب والبغض ، ولا تسرف أحببت أم أبغضت ، فربما دارت الأيام ، وصار الصديق عدواً ، والعدو صديقاً .. فإن حدث هذا كنت له على استعداد ، ولم تندم على ما قدمت يدك .

٢٦٩ — النَّاسُ لِلدُّنْيَا عَامِلَانِ : عَامِلٌ عَمِلَ لِلدُّنْيَا قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ يَخْشَى عَلَى مَنْ يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ وَيَأْمُنُهُ عَلَى نَفْسِهِ قَيْفِي عُمُرُهُ فِي مَنَفَعَةٍ غَيْرِهِ ، وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، فَأَحْرَزَ الْخِطْبَيْنِ مَعًا ، وَمَلَكَ الزَّادَيْنِ جَمِيعًا ، فَأَصْبَحَ وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ .

● ما من دين أو مذهب حث على العمل من أجل الحياة — كدين الاسلام : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى — ٣٩ النجم » .. « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون — ٣٥ يس » . فن عمل وأكل وأنفق بما عملت يده فقد عمل لدنياه وآخרתه ، وهو عند الله من المقربين ، ومن أكل من عمل الآخزين ،

أو عمل ولم يأكل ، بل ادخر للوارث فقد عمل للدنيا فقط ، وهو عند الله من الخاسرين دنيا وآخرة .

(يخشى على من يخلفه الفقر ، ويأمنه على نفسه الخ) .. الضمير المستتر في يخشى ويأمنه يعود الى من ادخر لغيره ، والهاء في يأمنه تعود الى الفقر ، والمعنى ان هذا الذي جمع وكنز قد تعب في طلب المال ، ولما حصل عليه حرم نفسه منه ، وتركه بكامله للوارث خوفاً عليه من الفقر ، واكتفى هو بفكرة الغنى فقط وانه يملك المال ، وبهذه الفكرة وحدها وهذا التصور كان في أمان من الفقر عند نفسه ، ومعنى هذا في حقيقته انه يحيا في عالم غير عالمه ، وانه يعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء .

(وعامل عمل في الدنيا لما بعدها) أي أكل وأنفق في سبيل الله مما عملت يداه (فجاءه الذي له من الدنيا) التي عمل فيها بيده له ولآخرفته (بغير عمل) للدنيا وحدها ، بل بعمل للدنيا والآخرة (فأحرز الحظين معاً) حظ الدنيا وحظ الآخرة ، وكلاهما مما عملت يداه (وملك الدارين جميعاً) عطف تفسير (لا يسأل الله حاجة فيمنعه) أي يمدّه بتوفيقه وعنايته ، لأنه من المتوكلين على الله : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه - ٣ الطلاق » .

٢٧٠ - وَرَوِيَ أَنَّهُ ذَكَرَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي أَيَّامِهِ حَلِيُّ الْكَعْبَةِ وَكَثْرَتُهُ ، فَقَالَ قَوْمٌ لَوْ أَخَذْتُهُ فَجَهَّزْتَهُ بِهِ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَعْظَمَ لِلْأَجْرِ ، وَمَا تَصْنَعُ الْكَعْبَةُ بِالْحَلِيِّ ؟ فَهَمَّ عُمَرُ بِذَلِكَ ، وَسَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ : أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ ، وَالْفِيءِ فَقَسَمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالْخُمْسُ فَوَضَعَهُ اللَّهُ حَيْثُ وَضَعَهُ ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللَّهُ حَيْثُ

جَعَلَهَا . وَكَانَ حَلِيَّ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ ، فَتَرَكَهُ اللَّهُ عَلَى حَالِهِ وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَانًا ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَانًا فَأَقْرَهُ حَيْثُ أَقْرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَوْلَاكَ لَأَفْتَضَحْنَا ، وَتَرَكَ الْحَلِيَّ بِجَالِهِ .

● الحلي : ما يتزين به ، ويتلخص دليل الإمام بأن مصدر الحلال والحرام هو كتاب الله وسنة نبيه ، والسنة ما ثبت عن رسول الله (ص) من قوله أو فعله أو تقريره أي إقراره لما رأى من أفعال الناس وعاداتهم ومعاملاتهم ، ورضاه به ، ولو بالسكوت وعدم النهي ، وحلي الكعبة كان في عهد رسول الله وبمرأى منه ، ولم ينه عنه أو يتصرف به ، فوجب إبقاء ما كان على ما كان .

وتسأل : هل تُلحق المساجد والعتبات المقدسة بحلي الكعبة المشرفة في الحكم ، فيحرم التصرف بكل ما هو زينة للمسجد وحرم المعصوم ؟ .

الجواب : إن كان في الزينة خير ومصلحة دينية فحكمها حكم حلي الكعبة ، لأنها في سبيل الله ، وإن كان وجودها وعدمها سواء ، كإيقاد الشموع في وضوح النهار أو مع ضوء الكهرباء ، كما يفعل العوام ولا رادع - فالأولى صرف ثمنها فيما يرضي الله والأنبياء وأوليائه الصالحين .

٢٧١ - (وَرَوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ) رُفِعَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ سَرَقَا مِنْ مَالِ اللَّهِ فَقَالَ : أَحَدُهُمَا عَبْدٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ ، وَالْآخَرُ مِنْ عُرُوضِ النَّاسِ . أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ . مَالُ اللَّهِ أَكْلَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ فَقَطَعَ يَدَهُ .

● (أحدهما عبد من مال الله) أي غير مملوك لأحد من الناس ، بل هو جزء

من بيت مال المسلمين (والآخر من عروض الناس) أي ملك لأحد الناس تماماً كمتاعه وسلعته ، والأول لا يُحد ، لأنه كما قال الإمام : (مال الله أكل بعضه بعضاً) أما الثاني فيُحد بالشروط التي ذكرها الفقهاء من وجود المال المسروق في حرز ، والسارق غير جائع ولا مضطر ، ولا هو شريك في المال أو شريك وأخذ أكثر من سهمه ، وأن يبلغ النصاب ، وهو ما يساوي ربع دينار .
ولا جدوى اليوم من هذا البحث والكلام حيث لا عبيد ولا إماء بالمعنى المعروف عند الفقهاء .. وأيضاً لا أحرار صدق عند اللقاء .

٢٧٢ — لَوْ قَدْ آسَتَوْتُ قَدَمَايَ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ .

● المداحض : المزاق ، والمراد بها هنا الفن التي أثارها الناكثون والقاسطون والمارقون ، والمعنى لو استقامت الأمور للإمام كما ينبغي لقلّب الأوضاع الفاسدة والتقاليد الممقوتة رأساً على عقب .. ويشبه هذا قول السيد المسيح : « جئت لألقي على الأرض ناراً حبداً لو تضطرم » . وسئل بوذا : لماذا نعيش ؟ فقال : ليس هذا سؤالاً ، وإنما السؤال : كيف يجب أن نعيش ؟.

أما الأشياء التي كان الإمام يغيرها لو ثبتت قدماء فهي ما أنكره وندد به فيما سبق من كلاله وما يأتي ، ومنها تجمع الثراء والترف في جانب ، والفاقة والبؤس في جانب آخر ، كما في الخطبة ١٢٧ : « اضرب بطرفك حيث شئت فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدّل نعمة الله كفوّاً » ومنها تعدد الفرق والانقسامات المذهبية بين المسلمين التي أشار إليها في الخطبة ١١١ بقوله : « إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر ، وسوء الضمائر » . ومنها تصدي الجهلة للفتيا والقضاء بين الناس كما في الخطبة ١٧ : « رجل قش جهلاً ... قد سماه الناس عالماً وليس به .. جلس للناس قاضياً » .. الى كثير وخطير .

٢٧٣ — اَعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ وَأَشَدَّتْ طَلِبَتُهُ وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا سَمِيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ

الْحَكِيمِ ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقَلَّةِ حِيلَتِهِ وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ
مَا سَمَّى لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ . وَالْعَارِفُ لِهَذَا الْعَامِلُ بِهِ أَعْظَمُ
النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ . وَالتَّارِكُ لَهُ الشَّاكُّ فِيهِ أَعْظَمُ النَّاسِ سُغْلًا فِي
مَضَرَّةٍ . وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرِجٌ بِالنِّعَمِ ، وَرُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ
بِالْبُلُوَى . فَزِدْ أَهْيَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ،
وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ .

● المراد بالذكر الحكيم القرآن ، اما المراد بالذي سمي فيه فهو « فمن يعمل
مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - ٨ الزلزلة » . و « ليجزي
الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى - ٣١ النجم » .. الى ما
في هذا المعنى من الآيات . ويتلخص المعنى بأن العبد مجزي بأعماله ، وقادم على
ما قدم ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، قوياً كان في الدنيا أم ضعيفاً ،
فلا القوة والثروة في الحياة الدنيا تقربه من الله زلفى ، وتنجيه من عذاب الجحيم
ان كان من الضالين ، ولا الضعف والفقر يحول بينه وبين جنة النعيم ان كان من
المهتدين .

(والعارف لهذا العامل به) هذا إشارة الى ما تقدم من ان اكرم الخلق عند
الله أتقاهم ، ومن عمل بموجب التقوى فهو في أمن وأمان ، وراحة ورضوان
(والتارك له الخ) .. في جهنم وبئس المصير (ورب منعم عليه مستدرج بالنعمى)
« فلا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة وتزهق أنفسهم
وهم كافرون - ٥٥ التوبة » . (ورب مصنوع له بالبلوى) قد تكون البلوى
ثواباً ورحمة ، كما قد تكون النعمى بلاءً وفتنة ، وتقدم مثله في الخطبة ١١٢ (فزد
أهيا المستمع من شكرك) لله بطاعته (وقصر من عجلتك) أي اصبر على مرارة
الحق والعمل به (وقف عند منتهى رزقك) الحلال الطيب ، ودع الحرام
الخبيث .

٢٧٤ - لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شُكًا إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا ،
وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا .

● لا تجعل جهلك علماً بادعاء ما ليس فيك والقول على الله بغير الحق .. وأيضاً لا تجعل علمك جهلاً بترك العمل ، ، فمن علم عمل ، ومن لم يعمل بعلمه فهو والجاهل سواء ، بل أضل سبيلاً ، ويأتي قول الإمام : العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل (ويقينكم شكاً) من كان على يقين من الحق ، ولم يعمل به ، وينتصر له ، ويقف مع أهله فهو تماماً كالشاك فيه والمتردد ، بل أسوأ وأضل (إذا علمتم فاعملوا) لتكونوا علماء بحق (وإذا تيقنتم فأقدموا) لتكونوا من المؤمنين المخلصين، ومن ترك العمل بعلمه ويقينه فقد ألغى عقله ودينه وضميره، وعاش مدة عمره في نفاق وخداع .

٢٧٥ - إِنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَرٍّ مُصْدِرٍ ، وَضَامِنٌ غَيْرٌ وَفِيٍّ ، وَرَبِّمَا شَرِيقَ شَارِبِ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ ، وَكَلِمًا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ . وَالْأَمَانِيُّ تُعْيِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ . وَالْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لَا يَأْتِيهِ .

● ورد الماء : ذهب إليه ، وصدر عنه : عاد ورجع .. والطامع يركض لاهثاً وراء أطماعه فيهلك ولا يعود ، لأنه طالب لا يقنع ، وآكل لا يشبع (وضامن غير وفي) الطمع يعد صاحبه ويمنيه الراحة والسعادة ، ولكنه مخادع كذاب (وربما شريك شارب الماء قبل ريه) نختق الماء أنفاسه ، وأودى بحياته مع العلم بأن الماء سبب الحياة ، وهكذا الطامع يهلك من حيث أراد النجاة . وسبق الكلام عن الطمع مرات ، منها في الحكمة ١٧٩ و ٢٢٥ .

(وكلما عظم قدر الشيء الخ) .. إذا نافست غيرك على منصب أو أي شيء،

وغلبك عليه — كان أسفلك وحزنك مساوياً لما فات في قدره وقيمته ، فإذا أردت الهدوء وراحة البال فلا تنافس أحداً إلا في عمل الخير (والأمانى تعمي أعين البصائر) لأنها تشغل عن النظر والتفكير في العواقب (والحظ يأتي من لا يأتيه) المراد بالحظ التوفيق من الواهب الحكيم ، وكل الناس يطلبون التوفيق من الله تعالى ، ولكن الله أعلم حيث يجعل عنايته .

٢٧٦ — اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تَحْسُنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُوفِ عَلَانِيَتِي وَتَقْبَحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي ، تُحَافِظًا عَلَى رِثَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي ، فَأُبْدِي لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي وَأُفْضِي إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي تَقَرُّبًا إِلَى عِبَادِكَ ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرَضَاتِكَ .

● يطلب الإمام التوفيق منه تعالى الى الصديق والإخلاص في دينه وخلقه، ويستعيد به من النفاق والرياء في أقواله وأفعاله ، وحدد الرياء بقبح السريرة وسوء المخبر، وحسن العلانية وجمال المنظر تقرباً الى الناس وتباعداً عن الله .. ولا أدري كيف يخادع الإنسان ويصانع من لا يغني عنه شيئاً ، ويذهل عن خالقه ومن بيده ملكوت كل شيء ، واليه المآل والمرجع ؟.

٢٧٧ — لَا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبْرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ تَكْشِيرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ مَا كَانَ كَذًّا وَكَذًّا .

● أمسينا منه أي أبقانا من الأحياء الى الآن ، والغبر — بكسر الغين وسكون الباء — الحقد ، وبضم الغين كما هنا البقية من الشيء ، والدهماء : السوءاء ،

وكثير وتكشر - كشف وتكشف ، وأغر : أبيض . والمفهوم من هذا القسم ان الإمام ينكر مقالاً بباطل سمعه من قائل .

٢٧٨ - قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ تَمْلُؤُ .

● انتهاز فرصة العمر ، واعمل في كل يوم ولو يسيراً ، فإن اليسير الدائم في الكثير من الأيام أنمي وأفضل من عمل كثير تأتي به في آن واحد أو آتئين ، ثم تملأ وتسامه ، ويذهب مع الريح .

٢٧٩ - إِذَا أَضُرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا .

تقدم مع الشرح في الحكمة ٣٩ .

٢٨٠ - مَنْ تَذَكَّرَ بَعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ .

● لا سفر أبعد من الموت ، ولا موقف أصعب من الوقوف لنقاش الحساب بين يدي الله ، ولا نجاة إلا بالاستعداد وكثرة الزاد . وتقدم قول الإمام في الحكمة ٧٧ : آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، وبعُد السفر .

٢٨١ - لَيْسَتْ الرُّؤْيَةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ فَقَدْ تَكْذِيبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنْ اسْتَنْصَحَهُ .

● للمعرفة عند الفلاسفة أكثر من مصدر ، ولها جند الله سبحانه ثلاثة مصادر ،

أشارت إليها الآية ٨ من سورة الحج : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . فالعلم إشارة إلى التجربة والحس ، والهدى إلى العقل والاستدلال بالفكر والتأمل ، والكتاب المنير هو الوحي من السماء . وليست الحواس أقوى هذه المصادر كما يظن ، لأن الإنسان لا يدرك بالبصر بلا بصيرة ، وأيضاً لا يُدرك الوحي بلا عقل ، لأن الوحي رسالة السماء ، وهي لا تدرك ولا تثبت إلا بالفكر والتأمل والتدبر ، أما العقل فيدرك أشياء كثيرة تخرج عن نطاق الوحي والحس ، ففصل العقل عنها واضح وبلا نزاع ، ولا يمكن فصلها عنه بحال ، وكو افتقر اليها في إدراكه ، كما افتقر اليه - لبقية المعرفة وأسبابها طبي الكتمان وفي عالم العدم، ومن هنا أناط الاسلام رسالته وصدقها وقوتها وتعميمها وانتشارها ودوامها ، أناط ذلك كله وربطه بالعقل : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها - ٢٤ محمد » . كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون - ٢٨ الروم » .. إلى كثير من آيات هذا الباب .

وفي الحديث : أصل ديني العقل .. لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله .. ولكل قوم داع ، وداعي المؤمنين والعابدين العقل .. أفضل الناس أعقل الناس .. إلى كثير من أحاديث هذا الباب . وهذا يفسر لنا ظهور من ظهر واشتهر من العلماء والفلاسفة والأطباء من بين المسلمين الذين هم المصدر الأول للحركة العلمية عند الغربيين .

وبعد ، فلا غنى لشيء عن العقل مادياً كان أم غير مادي ، ولولاه لانسد باب العلم إطلاقاً حتى في القضايا الطبيعية .. إن التجربة في هذه هي محك الصواب والخطأ ، ما في ذلك ريب ، ولكن بمعونة العقل، وبخاصة في معرفة الصلة والعلاقة بين الشيء الذي تجري عليه التجربة وغيره .

٢٨٢ - يَنْفَكُمُ وَيِّنَ الْمُؤِذَّةَ حِجَابٌ مِّنَ الْغُرَّةِ .

● المراد بالغرة هنا الغفلة والنسيان .. ونحن نؤمن بالله واليوم الآخر بلا شك وتردد .. ومع هذا ننسى الله ، ونذهل عن الآخرة وحسابها وعقابها ، وتغلبنا العاطفة على ما نظن ولا تغلبها على ما نستيقن ، كما قال الإمام في الحكمة ١٤٩ ،

وقد بين سبحانه السبب الموجب لذلك بقوله : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - ٢١ القيامة » وكلمة تحبون تومىء الى ان في طباعنا جواذب الى المتفعة العاجلة وإن صغرت دون الآجلة وإن عظمت .

٢٨٣ - جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ .

● الجاهل يزداد إثماً وضللاً كلما قال أو فعل بلا علم وهدى ، وتقدم مع الشرح في الخطبة ١٥٢ قوله : العامل بغير علم كالسائر على غير طريق .. وأيضاً يزداد سخفاً وجهلاً كلما تقدمت به السن لضعف الذاكرة والاستعداد للفهم والتعلم (وعالمكم مسوف) لأنه لا يعمل بعلمه ، ولا يجتهد في طلب المزيد من العلم « وقل ربي زدني علماً » .

٢٨٤ - قَطَعَ الْعِلْمُ عُذْرَ الْمُتَعَلِّلِينَ .

● أبداً لا عذر لعالم يتاجر بعلمه ودينه ، ويتقرب الى الطغاة على حساب أمته ووطنه . وفي الحديث : ان هذا العالم من قطاع الطريق .

٢٨٥ - كُلُّ مُعَاجِلٍ يَسْأَلُ الْإِنْظَارَ وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .

● كلٌّ بالرفع والتنوين مبتدأ ، ومعاجل بفتح الجيم اسم مفعول خبر كل ، ومثله كلٌّ مؤجل ، والمراد بالمعاجل الطاعن في السن ، لأنه مظنة التعجيل الى الموت ، ومع هذا يطلب البقاء ، والمراد بالمؤجل الشاب المعافى ، لأنه مظنة التأجيل الى عهد الشيخوخة ، وهذا يؤجل التوبة ويقول : في العمر فسحة ، وفي الوقت متسع ، وينسى ان الموت قد يأتيه بغتة ويقطع عليه الطريق ، كما ذهل الشيخ أنه يسرع

الى قبر مظلم عفن ..! والعاقلة الفطن يغتنم الفرصة فيما يبقى نفعه ، ويدوم أجره .
وسبحان من نطمع في عفوه .

٢٨٦ — مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ طَوَّبَى لَهُ إِلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ
يَوْمَ سُوءٍ .

● أجهل الناس من يظن دوام الحال، شدة كانت أم رخاء ، فإذا رأى نعمة على غيره قال : هنيئاً له ، وينسى وقوع ما يجوز وقوعه ، وأن هذه النعمة قد تكون فحاً وسبيلاً الى هلاك صاحبها . وتقدم معنا منذ قليل في الحكمة ٢٧٣ « ورب منعهم عليه مستدرج بالنعمة » . وضرب سبحانه مثلاً بقارون الذي قال الناس لما خرج عليهم في زينته : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون فخسف به وبماله الأرض . وقال آخر ملوك الأمويين : لما حلا لنا الدهر خلا منا « وعند صفو الليالي يحدث الكدر » .

٢٨٧ — (وَثُبِّلَ عَنِ الْقَدَرِ فَقَالَ) : طَرِيقُ مُظْلِمٍ فَلَا تَسْلُكُوهُ ،
وَبَحْرُ عَمِيقٍ فَلَا تَلْجُوهُ ، وَسِرُّ اللَّهِ فَلَا تَتَكَلَّفُوهُ .

● تكلم أئمتنا الأطهار وعلمائنا الكبار في القضاء والقدر ، وأطالوا ودفعوا كل ما قيل أو يمكن أن يقال حولها من شبهات ، أما نهى الإمام هنا فهو موجه لخصوص أهل الجاهل حتى ولو كان السائل من أعلم العلماء، فإن المقصود غيره وإلا فالعالم بحق هو الذي يكشف الظلمات ، ويخوض البحار ، ويعلم القضاء والقدر وغيرهما من الأسرار . وتقدم في الحكمة ٧٦ سؤال الشامي عن القدر وجواب الإمام بما أفنعه وأفنع السامعين ، وكلام الإمام ينسجم بعضه مع بعض تماماً كما ينسجم مع أفعاله .

٢٨٨ — إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَبْدًا حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ .

● ليس المراد بالحظر هنا التحريم ، لأن العلم مشاع لكل طالب وراغب ، ولا القهر والإجاء ، لأن الله أمر بالعلم دون استثناء ، وما هو بظلام للعبيد ، وإنما المراد الإشارة الى ان بعض الناس فيه نقص وعجز عن فهم العلم وهضمه مهما جاهد وكابد ، وكلمة الأردل تومىء الى ذلك ، كما ان بعض الناس له كل الاستعداد لأن يفهم ويتعمق ، بل يكتشف ويخترع .. وهذا واقع لا ريب فيه ، وقد شاهدناه أيام الدراسة في أكثر من واحد ، وعليه يكون قول الإمام انعكاساً عن الواقع .

٢٨٩ — كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صَغُرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلَا يَشْتَبِي مَا لَا يَجِدُ ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ ، وَكَانَ أَكْثَرَ ذَهْرِهِ صَامِتًا . فَإِنْ قَالَ بَذِ الْقَائِلِينَ ، وَتَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ . وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا . فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثٌ غَابٍ وَصِلٌ وَادٍ ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِيًا . وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ أَعْتِذَارَهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا عِنْدَ بُرْنِهِ . وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ . وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ . وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ . وَكَانَ إِذَا بَدَّاهُ أُمْرَانِ نَظَرَ إِلَيْهِمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَخَالَفَهُ . فَعَلَيْكُمْ

بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ فَالْزُمُومَهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَاعْمَلُوا
أَنْ أَخَذَ الْقَلِيلُ خَيْرٌ مِنْ تَرَكَ الْكَثِيرِ .

● لا ندري : هل أراد الإمام بالأخ شخصاً معيناً ، أو أراد الشخص المثالي الذي
يجب أن يُحتذى ؟. ولا شيء يُرجح أحد الاحتمالين سوى الحدس ، وهو لا يغني
عن الحق شيئاً ، وإن اعتمد عليه بعض الشارحين في ترجيح الثاني على الأول ..
وأياً كان فقد وصف الإمام هذا الشخص كمثل أعلى في دينه وخلقه ،
وعلمه وعقله ، وصره وزهده ، وجهاده وشجاعته . وختم الوصف بقوله :
فعليكم بهذه الخلائق الخ . وهي :

١ - (صَغَرَ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ) والإمام نفسه أوضح السبب الموجب لهذا التصغير
والتحقير في الخطبة ١٩١ بقوله : عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ صَغَرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ .
وفي الحكمة ١٢٨ : عَظُمَ الْخَالِقُ عِنْدَكَ يُصَغَّرُ الْمَخْلُوقُ فِي عَيْنِكَ .

٢ - (كَانَ خَارِجاً عَنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ) إلى سلطان دينه وعقله .. وسلطان
المعدة قاهر لا مفر منه ، ولا بد من الاستجابة له وإلا قضى على الحياة ، ومراد
الإمام أن هذا الأخ كان يستجيب لمعدته بمقدار الحاجة ، كما قال بعض الفلاسفة :
نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ، وَلَا نَعِيشُ لِنَأْكُلَ (فلا يشتهي ما لا يجد) لا يرد موجوداً ،
ولا يتكلف مفقوداً ، وإذا لم يجد شيئاً صبر (ولا يكثر إذا وجد) لقول الرسول
الأعظم (ص) : « مَا مَلَأَ آدَمِي مِنْ وَعَاءٍ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ .. أَكْثَرُ النَّاسِ شَبْعاً فِي
الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جَوْعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال الإمام الباقر : الإنسان أبعد الخلق من
الله إذا امتلأ بطنه .. هذا ، إلى المحافظة على الصحة والوقاية من الأمراض .

٣ - (وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً) عما لا يعنيه ولا فائدة فيه .. وكثيراً ما
يكون صمت العلماء للتفكير والتدبر ، قال الإمام الكاظم : دليل العقل التفكير ،
ودليل التفكير الصمت ، وقال الإمام أمير المؤمنين : كل سكوت ليس فيه فكرة
فهو سهو (فإن قال بذ القائلين) أي غلبهم وتفوق عليهم (ونقع غليل السائلين)
نقع : روى ، والغليل : شدة العطش ، والمعنى : أزال حيرتهم وهداهم سواء
السييل .

- ٤ - (كان ضعيفاً مستضعفاً) زاهداً متواضعاً ، يحسبه الجاهل من أهل القلة والدلة ، ولكنه (اذا جد الجدد فهو ليث غاب وصلّ واد) يحمي حوزته ، ويصون كرامته ، ويسخى بنفسه في سبيل الحق والانسانية . والصل : الحية .
- ٥ - (لا يدلي بحجته حتى يأتي قاضياً) كان على علمه وذكائه وبلاغته اذا انتقده ناقد ، وعلم انه لا يقتنع - تجاهله وسكت عنه إلا اذا وجد كفاءاً منصفاً يفهم عنه ما يريد ، فعندئذ يدلي بحجته البالغة الدامغة ، ليكون الكفاء حكماً بين الاثنين .
- ٦ - (لا يلوم أحداً الخ) .. ولا يعيبه بشيء حتى يستمع اليه ، ويحاكمه على أساس أقواله ، فإن كانت معقولة عذره وإلا نصحه وحذره ، ويأتي قول الإمام : لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوءاً ، وأنت تجد لها في الخير سيلاً .
- ٧ - (لا يشكو وجعاً إلا عند برئه) لأن الشكوى الى الناس لا تجر نفعاً ، ولا تدفع ضرراً ، بل تجلب سوءاً ، لأن المشكو اليه ان كان صديقاً حزن وتألم ، وان كان عدواً شمت وفرح .. ومتى برىء هذا العبد الصالح من مرضه تحدث عنه شكراً لله ، وحمداً لأفضاله وإنعامه .
- ٨ - (ويقول ما يفعل الخ) .. يربأ بنفسه عن الكذب ، ولا يعرضها للوم أو عتاب ، ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه .
- ٩ - (اذا غلب على الكلام الخ) .. لا يعد السكوت مغرمًا ، والكلام مغنماً ، كما هو شأن الذين يلدخون بألستهم ، ويتطاولون بمنطقهم .
- ١٠ - (اذا بدده أمران ينظر أيهما الخ) .. بدده : عرض له وفاجأه ، والمعنى انه يملك نفسه ولا تملكه ، واذا غالبته في شهواتها غلبها وسيطر عليها ، ومن لم يكن كذلك أخذ الشيطان بزمامه وقاده الى المهالك .

٢٩٠ - لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لَا يُغْضَى شُكْرًا لِنِعْمِهِ .

● يستقل العقل بوجوب طاعة الله سبحانه في أمره ونهيه شكراً على إنعامه ،

ودفعاً للضرر عن النفس بعصيانته ، ومعنى هذا ان طاعة الله حتم ، سواء تواعد سبحانه وهدد العاصي ، أم سكت عن تهديده ووعيده . وأيضاً معناه ان أمر الله بالطاعة هو بيان وتوكيد لحكم العقل لا اختراع وتأسيس .. بالإضافة الى ان الله لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، وان الخير يجب أن يفعل ويُتبع لأنه واجب ذاتاً لا شرعاً فقط ، وان الشر يجب أن يترك لذلك .

٢٩١ - (وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ عَزَى الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ ابْنِ لَهُ) :
يَا أَشْعَثُ إِنْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِكَ فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحْمُ . وَإِنْ
تَصْبِرُ فَقِي الله مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلْفٌ . يَا أَشْعَثُ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى
عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ . وَإِنْ جَزِعتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ
مَأْزُورٌ . إِبْنُكَ سَرَّكَ وَهُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ ، وَحَزَنَكَ وَهُوَ ثَوَابٌ
وَرَحْمَةٌ .

● (فقد استحققت منك ذلك للرحم) لأنها غريزة في الحيوان والانسان .. حتى رسول الله (ص) تندت عيناه بالدموع على ولده ابراهيم وقال : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب ، ولنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون . (وإن تصبر ففي الله الخ) .. أي في أجر الله وثوابه عوض لك عن فراق ولدك (إن صبرت جرى عليك القدر الخ) .. لا مفر من الموت صبرت أم جزعت ، والفرق أنك تُشكر وتُؤجر على الصبر ، وتُلام وتؤاخذ على الجزع .. ولا تزكو نفس حتى تتحمل المتاعب بصبر وثبات ، كما لا تصلح الأرض إلا بالتعب والحراث . (ابنك سرّك) كل والد يفرح ويُسّر بولده ، لأن حياته امتداد لحياته ، ولأن البنين زينة الحياة كما جاء في الآية ٤٦ من سورة الكهف ، وقد فرح رسول الله (ص) بولده ابراهيم ، وكان يذهب ليراه عند مرضعته ، وهي زوجة حداد ، ويقبله ويلعبه . وقال ابراهيم الخليل فرحاً شاكراً : « الحمد لله الذي وهب لي

على الكبر اسمعيل واسحق - ٣٩ ابراهيم . فالفرح بوجود العزيز حسن ،
أو لا بأس به ، والحزن على وفاته غير قبيح ما دام كل من الفرح والحزن في
جدود الله وحلاله .

(وهو بلاء وفتنة الخ) .. كان الولد من قبل بلاءً على والده في تكاليف
عيشه وحياته ، وبعض الأولاد اليوم كارثة على الوالد والمجتمع في تحرره من قيود الدين
والآداب .. فالبت ميني جوب وسفور ، والصبي خنفس وخنور ، والأب المسكين
بين طابقين من نار : نار الحب والعاطفة ، ونار الغيظ والحزن على ولده الذي
انتزعه الشيطان من يده ، ولا حيلة إلا الحسرات والزفرات .. وليس من شك
ان هذا الحزن والغيظ (ثواب ورحمة) كما قال الإمام ، ان كان لوجه الله والحق .

٢٩٢ - (وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ سَاعَةً دُفِنَ : إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ ، وَإِنْ
الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ ، وَإِنَّهُ
قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ .

● المراد بالجلال : الهين ، ويصح إطلاقه على العظيم . وليس من قصد الإمام أن
يقسم كلاً من الصبر والجزع الى جميل وغير جميل كما فهم الشارحون .. كلا ،
وانما قصد الإمام ان فقد الرسول (ص) أحدث فراغاً لا يسده شيء ، وان أهل
البيت من بعده تراكم عليهم هموم وأحزان لا يقوى عليها إلا من بلغ الغاية والنهاية
في صبره وإيمانه ورضاه بما يرضي الله .. وكل ما وقع وحدث لآل النبي (ص)
من بعده دليل صدق ، وشاهد عدل على ذلك .

٢٩٣ - لَا تَصْحَبِ الْهَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ وَيُوَدُّ أَنْ تَكُونَ
مِثْلَهُ .

● المائق : الأحق ، وهل يصحب الأحق أو الحاسد إلا أحق ؟ وما تصنع لو صحبت أحق أو حاسداً ، واصفر وجهه وغصّ بريقه حين يذكرك أمامه ذاكر نخر ، وييجلك مبجل لفضلك ؟ وقد شاهدت الكثير يمسكون عن مدح من هو أهل للتكريم والتقدير ، يمسكون لا لشيء إلا مخافة من حاسدي فضله ومكانته .

٢٩٤ — (وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَسَافَةٍ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ .

● المراد بمسيرة الشمس سيرها بحسب رؤية العين لا بحسب الواقع ، كما في الآية ٨٦ و ٩٠ من سورة الكهف : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس .. حتى اذا بلغ مطلع الشمس » . ولكن أحمد أمين العراقي قال في الجزء الثاني من « التكامل » : « ثبت ان الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي ٢٠/ كم في الثانية نحو نجمة تدعى النسر » . ونحن في هذا العلم رواة فقط .

٢٩٥ — أَصْدِقَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ ، فَأَصْدِقَاؤُكَ صَدِيقُكَ وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ . وَأَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ .

● صديق الصديق ليس صديقاً على سبيل الحتم والجزم ، ولا عدو العدو من الأصدقاء .. وهذا ثابت وواضح بالعيان ، يدركه كل انسان من نفسه ، ومن أصدقائه وأعدائه وإلا كان عدو صديقك لحسده له هو عدوك أيضاً مع الفرض انك لا تملك شيئاً تحسد عليه ! . واذن فلا بد من التوجيه والتأويل :

والذي تصورناه في التوجيه ، ونحن نشرح هذه الكلمة ، ان سبب التآخي والصدقة بين اثنين هو المشابهة والمشاركة في أي شيء ، وان سبب العداوة والتباعد

هو المعاكسة وعدم الانسجام ، كما قال الرسول الأعظم (ص) عن الأرواح :
 « ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ومعنى هذا ان أية صفة
 كانت السبب الموجب للصدقة بين اثنين - فهذا أيضاً صديقان لكل من كانت فيه
 الصفة من حيث يريدان أو لا يريدان - مثلاً - تصادق زيد وبكر لأنهما يدينان
 بمبادئ حزب معلوم ، فكل من ينتمي الى هذا الحزب فهو صديق لهما بطبيعة
 الحال ، وان لم يعرفا عنه شيئاً .. وأية صفة كانت السبب الموجب للتباعد بين
 اثنين ، لأن أحدهما يحبها والآخر يمتقتها - فكل من اتصف بهذه الصفة فهو
 صديق لمن أحبها ، وعدو لمن مقتها من حيث يريد أو لا يريد .

٢٩٦ - (وَقَالَ لِرَجُلٍ رَأَاهُ يَسْعَى عَلَى عَدُوٍّ لَهُ بِمَا فِيهِ إِضْرَارٌ
 بِنَفْسِهِ) إِنَّمَا أَنْتَ كَالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ .

● المراد بالردف هنا الرديف ، وهو الراكب خلف الراكب .. قد تستولي العقيدة
 الدينية على الإنسان فتدفعه الى التضحية بنفسه من أجلها والدود عنها .. وأيضاً قد
 يبلغ به الحقد على عدوه هذا المبلغ أو يزيد ، فيقتل عدوه ، ثم يتحرر عن تخطيط
 وتصميم . والساعي بعدوه الذي أشار اليه الإمام من هذا النوع ، وأسوأ منه من
 يلقي قنبلة على جمع غفير ، أو يغرق سفينة فيها عشرات الآدميين ، أو يدمر
 طائرة هو فيها لا لشيء إلا ليقتل عدوه الألد .

وفي سائر الأحوال فإن البادئ أظلم ، ولولا المسبب لم ينجح السبب ، وقال
 عظمت كلمته : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله - ١٠٨ -
 الانعام » .

٢٩٧ - مَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقْلَ الْأَعْتَبَارَ .

● الاعتبار أي المعتبرون . وكل الحياة - ما تقدم منها وما تأخر - عبر نافعة ،

وعظمت بالغة . ولا من يخشى ويعتبر . وسبق القول في ذلك ، وان السر في قلة الاعتبار أن الانسان في الأغلب يقاد بعاطفته لا بدينه وعقله .

٢٩٨ — مَنْ بَالَعَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ ، وَمَنْ قَصَرَ فِيهَا ظَلِمَ . وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَنْ خَاصَمَ .

● الخصومة : الجدل والنزاع ، والمبالغة فيها الحرص على الفوز بكل سبيل ، والتقصير فيها سكوت الإنسان عن حقه ، والمعنى من تجاوز في النزعات وقع في المحرمات ، ومن تركها مع الاعتداء عليه ذهب حقه نهياً ، وخير الأمور أعدلها وأوسطها (ولا يستطيع أن يتقي الله من خاصم) . هذا أشبه بالاستدراك لما تقدم ، وان على الإنسان أن يبتعد عن أسباب الخصومة مهما أمكن ، لأنها مزلة خطر ، تؤدي الى الأحقاد والضغائن ، ومتى غلت نار الحقد في الصدور فلا يحمدها دين ولا عقل ، ولا شيء إلا الثأر بكل ما يقدر عليه الحاقد حتى الإبادة .
وتجدر الإشارة إلى أن أي إنسان يتمنى موت منافسه على رئاسة دينية أو زمنية أو أي شيء آخر ، ان هذا الحقود لا يؤتمن على الدين ، ولا يجوز أخذه عنه ، ولا الصلاة خلفه ، لأن قلبه مأوى الشياطين .. والله سبحانه لا يضع دعوة الإسلام إلا في قلب رؤوف رحيم بجميع العالمين على السواء والمنافسين له والمتابعين .

٢٩٩ — مَا أَهْمَنِي ذَنْبٌ أُمِيتُ بَعْدَهُ حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ .

● ليس هذا إغراء في فعل الذنوب مع العزم على التوبة ، بل تحذيراً من المعصية خوفاً من مفاجأة الموت قبل التوبة وطلب المغفرة ، وحثاً للمذنبين على الإسراع إلى الإنابة قبل فوات الأوان (واسأل الله العافية) لأن ترك الذنب أهون من طلب العفو ، وقال من قال : « ما كان أغناها عن الحالين » .

٣٠٠— وَسُئِلَ (كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ) فَقَالَ :
كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ، فَقِيلَ كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .
فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .

● الله سبحانه على كل شيء قدير ، يرزق العباد في لحظة ، ويحاسبهم كذلك..
يدرك الأبصار ولا تدركه رازقاً ومحاسباً ، لأنه تعالى ليس مادة تُحس . وفي أسفار
الملا صدرا « في قدرة الله تعالى أن يكشف الخلائق في لحظة واحدة ، ويعلم جميع
أعمالهم وميزان حسناتهم وسيئاتهم . ويصح هذا تفسيراً للآية ٦٢ من سورة الانعام
« ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » والآية ٥٠ من سورة القمر « وما أمرنا
إلا واحدة كلمح بالبصر » .

٣٠١— رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ ، وَكِتَابُكَ أُبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ .

● ان فعل الإنسان وسلوكه أقوى في الدلالة على عقله ومشاعره من كلامه ،
ولرسال كتابه مع رسول يختاره يجمع بين دلالة الفعل بالاختيار ، وبين دلالة
القول وأسلوبه الذي يتم عن شخصية الكاتب . والملاحظ أن نقاد الأدب في هذا
العصر يحللون شخصية الكاتب في ضوء أسلوبه حيث لا يمكن ضبط الأسلوب بقواعد
محددة ، لأنه يختلف ويتعدد بتعدد طبيعة الكاتب وبديته .

٣٠٢— مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ بِأُحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنْ
الْمُعَافَى الَّذِي لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءُ .

● كل ما يجوز وقوعه من المخاطر يجب الحذر منه والاستعداد له ، والمعافى في
معرض السقم والبلاء ، فينبغي أن يحترز هو ، وندعو له نحن بدوام عافيته ،

ودفع الضرر عنه تماماً كما ندعو للمبتلى بالشفاء ، ومن هنا يعمل الأطباء من أجل الوقاية كما يعملون من أجل العلاج .. وعن المعصوم : « الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج عند البلاء .. ومن سره أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء » . وبعد ، فإن الغرض من ذلك أن لا نأمن المخبات والمفاجآت « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - ٩٩ الأعراف » .

٣٠٣ - النَّاسُ أَوْلَادُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ .

● يلتقي هذا مع النظرية القائلة : ان الإنسان ابن الظروف المحيطة به ، وان لها أعظم الأثر في تكوين مشاعره ، وانه لا يتغير إلا إذا تغيرت ظروفه الاقتصادية والاجتماعية .. حتى الجهاد تكيفه البيئة وتجعله ملائماً لطبيعتها ، ولا تنافر أبداً بين الدين وهذه النظرية ، لأن رسالة الأنبياء تحمل الدعوة الى تغيير الأوضاع والاصلاح من الجذور .

٣٠٤ - إِنَّ الْمُسْكِينَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللَّهَ ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللَّهَ .

● المراد بالمسكين صاحب الحاجة مهما كان نوعها ، والمراد برسول الله هنا أمره تعالى وطلبه ، والمعنى ان من ياتيه صاحب حاجة يقدر على قضائها وردها ولم يقضها - فقد رد أمر الله وعصاه .. وعن المعصوم : ان رسول الله (ص) أشد سروراً بقضاء حاجة المحتاج من صاحبها . وسبق الكلام عن ذلك في الرسالة ٥٠ والحكمة ١٠٠ .

٣٠٥ - مَا زَنَى غَيْرُ قَطْ .

● من وطأ فراش غيره وطأ الناس فراشه ، ومن زنى بنسائهم زنوا بنسائه .

قال ابن أبي الحديد : « ولو في عقب عقبه ، وقد جُرّب هذا فوجد حقاً » .
وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة ٢٥١ .

٣٠٦ — كَفَى بِالْأَجْلِ حَارِساً .

● « فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون — ٣٤ الأعراف » .
قال الشيخ محمد عبده في تفسير المنار : ليس هناك أسباب للموت غير الأجل
المقدر عند الله ، فإن الوباء يعم ، ومع ذلك يفتك بالشباب القوي ، ويترك الشيخ
الهزيل ، وكم من ضربة قتلت هذا دون ذاك ، ولو كانت هذه أسباباً مطردة
لظهر أثرها في الجميع دون استثناء .

٣٠٧ — يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الشَّكْلِ وَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرْبِ .

● الشكل : فقد الأولاد ، والحرب — بفتح الراء — سلب المال ، والأول بقضاء
الله وقدره ، والرضا به والصبر عليه عقل وإيمان ، والثاني ظلم واعتداء ، والسكوت
عنه ذل وهوان .

٣٠٨ — مَوَدَّةُ الْآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ ، وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أُخْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ .

● للصدقة بين الآباء أثرها في الأبناء ، وكذلك العداوة . وقلنا في شرح الحكمة ٢١٠ :
لا خير في قرابة لا مودة معها ، وقال أبو فراس :

هيئات لا قربت قربي ولا رحم يوماً إذا أقصت الأخلاق والشيم
كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم تكن بين نوح وابنه رحم

٣٠٩ — اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى
الْأَسْنَتِهِمْ .

● المراد بالظنون هنا الفراسة ، وهي ظن يوافق الصواب — في الغالب — وبها
يوصف الأذكىاء . قال الشاعر العربي :

الأملي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ولكن الإمام وصف بها المؤمنين تبعاً لرسول الله (ص) حيث قال : « اتقوا
فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » أي بنور الحق ، لأنه لا يتهم أحداً ويسيء
به الظن إلا بالقرائن القطعية التي لا يتطرق إليها شك على العكس من غيره الذي
يحكم باللمحة ، ويحزم بالظنة .

وبعض الفقهاء يعتمدون على الفراسة في إثبات الحق . وألف ابن القيم
كتاباً خاصاً في ذلك أسماه « الطرق الحكيمة أو الفراسة المرضية » ونقل عن
بعض الصحابة والعلماء القول بالاعتماد على الفراسة ١ . ولا أعرف أحداً من علماء
الإمامية أخذ بها في إثبات الحق لقوله تعالى : « إن الظن لا يغني عن الحق شيئاً
— ٣٦ يونس » فأى ظن لا يدل على اعتباره دليل قاطع من الشرع فهو والوهم سواء .
أما قول النبي وعلي عن فراسة المؤمن فهو بعيد عن موضوع إثبات الحق ، والمراد
به مجرد ثبوت الوصف للمؤمن وكفى .

٣١٠ — لَا يَصْدُقُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ
مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ .

● قال الشارحون : المراد بأوثق الوثوق بالرزق من الله . وقال الشيخ محمد
عبده : المراد به الوثوق بثواب الله على عمل الخيرات . ونحن مع هذا الشيخ
لقول الإمام : « لا يصدق إيمان » فإن التصديق بيوم الحساب والوثوق بالجزاء

فيه هو أصل الأصول في الإيمان ، وبدونه لا إيمان بحق ، وسبق منا القول :
ان الإيمان بالله وحده دون الإيمان باليوم الآخر — لا يجدي نفعاً .

٣١١ — وَقَالَ لَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ وَقَدْ كَانَ بَعَثَهُ إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ
لَمَّا جَاءَ إِلَى الْبَصْرَةِ يُذَكِّرُهُمَا شَيْئاً سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالْآلِهِ فِيمَا يُغْنِيهِمَا فَلَوَى عَنْ ذَلِكَ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : (إِنِّي أَنْسَيْتُ ذَلِكَ
الْأَمْرَ) . فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَضَرَبَكَ اللَّهُ بِهَا بَيضَاءَ لَامِعَةٍ لَا
تُؤَارِيهَا الْعِمَامَةُ (يَعْنِي الْبَرَصَ ، فَأَصَابَ أَنْسَا هَذَا الدَّاءَ فِيمَا بَعُدَ فِي
وَجْهِهِ فَكَانَ لَا يُرَى إِلَّا مُبَرَّقَعاً) .

• قال الشيخ محمد عبده : روي ان أنساً كان في حضرة النبي (ص) وهو يقول
لطلحة والزبير . «انكما تحاربان علياً ، وأنما له ظلمان » . ويتفق قول الشيخ محمد
عبده مع قول الشريف الرضي وميم . أما ابن أبي الحديد فقال :

« المشهور ان علياً عليه السلام ناشد الناس الله في الرحبة بالكوفة ، وقال :
نشدكم الله رجلاً سمع رسول الله (ص) يقول لي ، وهو منصرف من حجة
الوداع : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .
فقام رجال فشهدوا بذلك ، فقال علي لأنس بن مالك : لقد حضرته فما بالك ؟ .
فقال : يا أمير المؤمنين كبرت سني وصار ما أنساه أكثر مما أذكره . فقال الإمام :
إن كنت كاذباً ضربك الله بها بيضاء لا تؤارِيها العمامة . فما مات حتى أصابه
البرص .. وقد ذكر ابن قتيبة حديث البرص والدعوة التي دعا بها أمير المؤمنين
عليه السلام على أنس ، ذكر ذلك في كتاب « المعارف » باب « البرص » من
أعيان الرجال ، وابن قتيبة غير متهم في حق علي على المشهور من انحرافه عنه .
وسواء أكان السبب الموجب لدعوة الإمام على أنس هو حديث حرب الجمل

أم حديث من كنت مولاه - فإن الله سبحانه قد استجاب دعوته باتفاق الرواة، ومعنى هذا ان أحد الحديثين ثابت بشهادة الله وآيته الساطعة في جبهة انس بن مالك.. هذا، الى ان الحديثين ثابتان بالتواتر . (أنظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة، الفصل ٣٨ و ١٥٢ من المقصد الثاني) .

٣١٢ - إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًَ وَإِدْبَارًا فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ .

● المراد بالإقبال هنا حضور القلب ، وتصوُّر الموت وسكراته، والقبر ووحشته، وهول الموقف غداً وحسابه ، والخوف من الله وعظمته ، والهيبة من مخاطبته ، والمراد بالإدبار الدهول عن ذلك والانصراف الى دنيا شاغلة لاهية .

وفي المناجاة والعبادة نكهة وحلاوة لا يحسها أحد كائناً من كان إلا مع هذا الإقبال تماماً كالطعام الطيب لا تشعر بلذته إلا مع الهوى فيه . ويقول الإمام : اذا صادفتك ساعة رحمانية ، تصورت فيها مصيرك وآخرتك ، وخفت من عذاب الله ، ورجوت ثوابه - فاغتنم هذه الفرصة الذهبية ، وأكثر من ذكر الله ، وادعُ وناجِه ، واتلُ من آياته ، وصلِّ النوافل وعقب وسبح ، ولا تقتصر على الفريضة وحدها .. واذا كنت في مشغلة شاغلة عن الله وناره وجنته فلا تتعب نفسك بحركات جافة جامدة لا تدفع عنك ضرراً، ولا تجلب لك نفعاً .. ولكن إياك والتهاون في الفريضة مقبلاً كنت أم مدبراً ، لأن الله أمر بها بلا قيد الإقبال ، ولا بد من الطاعة على كل حال .

ويثفق هذا مع قول الفقهاء بأن العبادة على قسمين : عبادة تؤديها على شرطها، ولكن بلا إقبال ، وهذه صحيحة مجزية كافية ، ولكنها غير مقبولة أي تسقط عنك التكليف وتحررك من العقاب والمسؤولية ، ولكن لا تستحق الثواب عليها . وعبادة تجمع كل ما يعتبر فيها مع الإقبال التام ، وهذه صحيحة ومجزية . ومقبولة أيضاً أي تستحق عليها الأجر والثواب من الله تعالى .

٣١٣- فِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا
بَيْنَكُمْ .

● يرى القرآن صور الكائنات أمثالاً وأضداداً ، ويخبرنا عن الأمم الماضية ،
والقرون الحالية ، وعن مصيرنا وعاقبة أمرنا .. وأيضاً فيه تفصيل لأحكام ما
نحتاجه في سلوكنا وحياتنا . وسبق الكلام عن ذلك في العديد من الموارد ، منها
في الخطبة ١٨١ والرسالة ٤٦ .

٣١٤- رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ .

● المراد بالحجر هنا الشر بدليل قوله : (فإن الشر لا يدفعه إلا الشر) والمعنى
اقضوا على العنف بالعنف ، قال سبحانه : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ -
٣٩ الأنفال » . « ان لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير - ٧٣ الأنفال » .

٣١٥- قَالَ لِكَاتِبِهِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ : أَلِيقْ دَوَاتَكَ ، وَأَطِلْ جِلْفَةَ
قَلَمِكَ ، وَفَرِّجْ بَيْنَ الشُّطُورِ وَفَرِّمِ بَسِينَ الْخُرُوفِ فَإِنَّ
ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ .

د قال الشيخ القمي في كتاب « الكنى والألقاب » : كان أبو رافع مولى لرسول
الله (ص) فأعتقه وقال : إن لكل نبي أميناً ، وأبو رافع أميني . ولزم الإمام
بعد النبي (ص) وكان صاحب بيت ماله بالكوفة ، وله كتاب « السنن والأحكام
والقضايا » ، وهو أول من جمع الحديث ، وكان ابنه عبيد الله وعلي كاتبين
عند الإمام .

(ألق دواتك) أي أصلح مدادها . يقال : لاقَ الدواء يليقها اذا أصلح

مدادها ، كما في قواميس اللغة (واطل جلفة قلمك) الجلفة - بكسر الجيم -
 فتحة القلم التي بها يُستمد المداد (وفرج بين السطور) وسع بينها (وقرمط بين
 الحروف) ضيق بينها ، وصباحة الشيء جاله . وهكذا كان الإمام ، يتفقد العمال
 وعمال العمال ، ويراقب حركاتهم الكبيرة منها والصغيرة ، وينصح ويرشد .

٣١٦ — أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمَالُ يَعْسُوبُ الْفَجَّارِ قَالَ الرَّضِي (وَمَعْنَى
 ذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَّبِعُونَنِي وَالْفَجَّارَ يَتَّبِعُونَ أَمَالًا كَمَا تَتَّبِعُ
 النَّحْلُ يَعْسُوبَهَا وَهُوَ رَئِيسُهَا) .

● اليسوب : الرئيس الكبير ، والمراد بيعسوب الفجار هنا معاوية الذي اشترى
 بالمال دين الرجال وضمايرهم .
 وقيل صاحب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » في الجزء الثاني - عن
 ابن حجر في اصابته ج ٧ ص ١٦٧ طبعة سنة ١٨٥٣ بكلكتا و « الاستيعاب »
 لابن عبد البر ج ٢ ص ٦٥٧ طبعة سنة ١٣٣٦ هـ بحيدر آباد و « أسد الغابة »
 لابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٧ طبعة سنة ١٢٨٥ هـ بمصر ، نقل عنهم وعن غيرهم :
 ان رسول الله (ص) قال : « علي يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب المنافقين » .
 وقال ابن أبي الحديد : « هذه كلمة قالها رسول الله (ص) ومعناها ان المؤمنين
 يتبعون أثر علي حيث سلك ، ونحو ذلك قول النبي (ص) : أدِر الحق معه
 كيف دار » .

٣١٧ — (وَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْيَهُودِ : مَا دَفَنْتُمْ نَبِيِّكُمْ حَتَّى اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ)
 فَقَالَ لَهُ : إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ وَلَكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ
 أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ « أَتَجْعَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا
 لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » .

● لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله واحد ، وان محمداً عبده ورسوله ، وان الله يبعث من في القبور ، ولكن النبي (ص) كان يحدث ، فيسمعه من حضر ، وينتهي حديثه الى بعض من غاب دون بعض . فيقول هذا : ما بلغني ذلك ، ويقول ذاك : بلغني ، وإذن فالخلاف في النقل عن النبي لا في نبوته . وتقدم مع الشرح تقسيم الحديث في الخطبة ٢٠٨ .

أما اليهود فقد شاهدوا بأعينهم المعجزات الباهرة في انفلاق البحر بضربة من عصا موسى ، وكيف انشق فيه ١٢ طريقاً ييسر بعدد الأسباط ، وكيف انطبق على فرعون وجنوده .. وبرغم ذلك كله وقبل أن تجف أقدامهم كفروا بالله عن علم ، وطلبوا بكل وقاحة وصلافة من نبي الله بالذات أن يجعل لهم صنماً يعبدونه من دون الله .. وإذن فلا عجب إذا اعتدت اسرائيل واشتكت من الاعتداء ، وانتهكت قرارات «الأمم المتحدة» بحجة المحافظة على شعور الرأي العام ، وقتلت وهدمت وشردت بزعم الحرص على السلام ..

ولا أبقي الله عربياً واحداً يحيا على وجه الأرض هذه الحياة التي نحياها .. حتى أنا .

٣١٨- (وَقِيلَ لَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ غَلَبْتَ الْأَقْرَانَ ؟) فَقَالَ : مَا لَقِيتُ رَجُلًا إِلَّا أَعَانَنِي عَلَى نَفْسِهِ .

● الخوف يرافق الانسان ويلزمه منذ ولادته حتى يومه الأخير ، فهو يخاف من الموت ومن الفقر والمرض والفشل وغير ذلك ، ومتى سيطر على الإنسان الخوف من شيء أعماه عن غيره حتى لا يكاد يتصور معه شيئاً آخر .. وقد شاع وذاع عن الإمام أنه ما بارز بطلاً إلا وأرداه قتيلاً ، ومن هنا كان البطل إذا برز للإمام وجهاً لوجه أخذ الجزع بمجامع قلبه ، ولا شيء أقسى على الإنسان وأشد وطعاً من شعوره بأنه مقتول لا محالة، فكان هذا الشعور المدمر القاتل عوناً للإمام على خصمه .

٣١٩- وَقَالَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ
الْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنَقَصَةٌ لِلدِّينِ مَدْهَشَةٌ
لِلْعَقْلِ ، ذَاعِيَةٌ لِلْمَوْتِ .

● انظر شرح قوله : « الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة » الحكمة
٥٥ وقوله : « الفقر الموت الأكبر » الحكمة ١٦٢ .

٣٢٠- وَقَالَ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنْ مُعْضِلَةٍ : سَلْ تَفْقَهَا وَلَا تَسْأَلْ
تَعْتَتًا ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهُهُ بِالْعَالِمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ
الْمُتَعَسِّفَ شَبِيهُهُ بِالْجَاهِلِ الْمُتَعَتِّ .

● المعضلة : المشكلة ، وتفقها : تعلما ، وتعتتا : طلبا للغلبة وإظهار الخطأ ،
والمتعسف : الساعي على غير هدى . ويومئ هذا الجواب من الإمام إلى أن السائل
سأله ممتحنا لا مستفها ، وفرق كبير بين من يسأل ليعلم ويعمل ، وبين من يسأل
ليتعاضم بالصلف والوقاحة .. ذاك ينشد طريق الهدى والنجاة ، وهذا ينحرف عنه
إلى التيه والظلمات .

٣٢١- (وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَقَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ
فِي شَيْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ) : لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى ،
فَإِنْ عَصَيْتُكَ فَأُطْعِمِي .

كان ابن عباس قد أشار على الإمام بما يأتي فأجابه بأن لك الحرية التامة بكل

ما تشير ، ولي أن انظر وأرى، فإن اتفق الرأيان فذاك، وإلا فعليك الطاعة لإمامك .
قال العقاد في كتاب « عبقرية الإمام » : أشار ابن عباس وغيره على الإمام
أن يقر معاوية في الشام ، ويكتب لطلحة بولاية البصرة ، ولزبير بولاية الكوفة .
فقال الإمام : « لا أداهن في ديني ، ولا أعطي الدنية من أمري » . ثم أطل
العقاد في الجواب عن ذلك ، ويتلخص بأن الإمام كان قد أشار على عثمان أكثر
من مرة بعزل معاوية ، فكيف يناقض نفسه بنفسه ؟ وإذا ناقض رأيه الأول
وأقر معاوية فهل يسكت عنه الذين قتلوا عثمان من أجل معاوية وأمثاله ؟.

وإذا هو أعطى العراقيين : الكوفة والبصرة لطلحة والزبير — تملكوا الرقاب ،
واسملاً السفه بالمال ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا على الإمام وانقلبا عليه
أقوى مما كانا بغير ولاية .. فرأي الإمام الذي ارتضاه هو الأسلم والأصوب من
رأي مخالفه .

٣٢٢ — وَرَوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِمًا مِنْ صِفِّينَ
مَرَّ بِالشَّبَامِيِّينَ فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلِ صِفِّينَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ
حَرْبُ بْنُ شُرَحْبِيلَ الشَّبَامِيُّ وَكَانَ مِنْ وَجُوهِ قَوْمِهِ . فَقَالَ لَهُ :
تَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ ، أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّئِينِ (وَأَقْبَلَ
يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاكِبٌ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ) : أَرْجِعْ
فَإِنَّ مَشْيِي مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ .

● الشباميين : جمع شبامي ، والشبام — بكسر الشين — عود يوضع في فم الجدي
كيلا يرضع حليب أمه ، والشباميون : حي من العرب ، والمراد بالرئين هنا
الصوت .

والفقهاء يجيزون البكاء على الميت حتى ولو كان مع الصوت ، شريطة أن لا
يتنافى مع الرضا بقضاء الله ، بل قالوا : يستحب البكاء على الميت المؤمن ، وقد

بكى رسول الله (ص) على ولده ابراهيم وعلى بعض أصحابه . وأيضاً يجوز النوح على الميت نثراً وشعراً إذا لم يكن معه كذب .

أما نهى الإمام هنا فله أسبابه الخاصة كشماتة المنافقين ، أو تثبيط المجاهدين ، أو عدم الرضا بقضاء الله وقدره ، وما الى ذلك مما لا نعلم .. أما أمره شرحبيل بالرجوع فلأن الإمام كان يكره كل سبب من أسباب العزة إلا التقوى . ويأتي قوله : لا عز أعزُّ من التقوى .

٣٢٣- (وَقَالَ وَقَدْ مَرَّ بِقَتْلِ الْخَوَارِجِ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ) : بُؤْساً لَكُمْ ، لَقَدْ ضَرَكُم مِّنْ غَرَّتِكُمْ (فَقِيلَ لَهُ مَن غَرَّتُهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ) : الشَّيْطَانُ الْخَضِلُّ وَالْأَنْفُسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ غَرَّتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ وَفَسَحَتْ لَهُم بِالْمَعَاصِي ، وَوَعَدَتْهُمْ الْإِظْهَارَ فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ .

● البؤس : الفقر والشدة ضد النعمى ، والمراد بالشيطان والنفس الأمارة الأهواء التي أعمت الخوارج عن الله وعن أنفسهم .. ومع هذا كانوا لا يرون صالحاً على وجه الأرض غيرهم ، أما أمانيتهم التي أشار اليها الإمام فهي الحكم والسيطرة (ووعدهم الاظهار) عطف تفسير على غرتهم الأمانى وسبق الكلام عن الخوارج مرات (انظر ج ١ ص ٢٥١) .

٣٢٤- اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ .

● كل حاكم لا بد وان يعتمد في حكمه على أمرين : نص من الشارع ، وبينه من الخارج كوسيلة الى العلم بالمحق والمبطل ، والله سبحانه مصدر النص ، وهو

بكل شيء عليم سراً كان أم علانية ، وإذن فلا أمان من الحساب والعقاب لمن يعصي الله في الخفاء .

٣٢٥ — (وَقَالَ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ) : إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً .

● إذا كان موت الأبرار يُحزن المتقين فمن الطبيعي أن يسر المنافقين. وفي الرسالة ٣٤ أنفى الإمام على محمد بن أبي بكر لما بلغه قتله ، ووصفه بأنه كان ولداً ناصحاً ، وعاملاً كادحاً ، وسيفاً قاطعاً . وسبق الكلام عنه وعن مقتله في ج ٣ ص ٥٤٢ .

٣٢٦ — الْعُمُرُ الَّذِي أَعَذَرَ اللَّهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُونَ سَنَةً .

● أبداً لا عذر لمن يتجرأ على الحرام ومعصية الله ، لا بعد الستين ولا قبلها .. وما أراد الإمام بقوله هذا إلا توبيخ العاصي إذا بلغ الستين .. وأن تعلل قبلها بالهوى والشباب فهذا يتعلل بعد أن وهن العظم ، واشتعل الرأس شيباً ؟ قال رسول الله (ص) : ان الله تعالى ينظر في وجه الشيخ صباحاً ومساءً ويقول له : كبرت سنك ، ودق عظمك ، ورق جلدك ، وقرب أجلك ، وحان قدومك علي فاستعِ مني .

٣٢٧ — مَا ظَفِيرَ مَنْ ظَفِيرَ الْإِثْمِ بِهِ ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ .

● هذه الحكمة تحمل برهانها معها ، وتدل على ذاتها بذاتها .. إثم وظفر ! .
وشر ونصر ! « عمرك الله كيف يجتمعان ؟ » .

٣٢٨- إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ
فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتَّعَ بِهِ غَنِيٌّ وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ
عَنْ ذَلِكَ .

● وقف الاسلام في جانب الفقراء ضد الاستغلال والمستغلين، وأنصفهم من الأغنياء
والمترفين ، وجعل الفقير شريك الغني في أمواله : « وفي أموالهم حق للسائل
والمحروم - ١٩ الداريات » . وهذا الحق هو الذي عناه الإمام بقوله : (إن
الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء) .

وفي الحديث : « لو ان الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي فقير » وبه نجد
تفسير قول الإمام : (فما جاع فقير إلا بما متع به غني) والمعنى المحصل من
الآية الكريمة ، والحديث الشريف ، وقول الإمام - ان الغني الذي منع الحق عن
أهله هو الذي سلب لقمة الجائع ، وسرق ثوب العاري ، واغتصب مأوى من لا
مأوى له .. وأيضاً هو السبب الموجب لكل جريمة في شرق الأرض وغربها تحدث
بسبب البؤس والعوز .. ومن هنا كان عذاب الذين يكتزون الأموال أن تكوى
بها « جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فلدوقوا ما كنتم تكتزون
- ٣٥ التوبة » .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : « إن الله جعل للفقراء في أموال الأغنياء
ما يكفيهم ، ولولا ذلك لزادهم ، وانما يؤتون - أي الفقراء - من منع من
منعهم » وهم الأغنياء . وسبق الكلام عن ذلك مرات، منها في شرح الخطبة ١٢٧
والحكمة ١٦٢ .

وتجدر الإشارة الى ان الإمام قال هذا حيث لا رأس مال وشركاته الاحتكارية
تسيطر على شرايين الاقتصاد في شرق الأرض وغربها ، ولا دولة أو دول كبرى
تحميها وتنشئ لها قواعد عسكرية باسم دويلات أو حكومات تقوم على جماجم
الشعوب ، وتحرم البقية الباقية من أبسط حقوق آدميين .

٣٢٩ — اِلسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعُذْرِ اَعَزُّ مِنَ الصَّدَقِ بِهِ .

● ضمير « به » يعود الى العذر ، والمعنى تجنب فعل ما يوجب طلب المَعْدرة والتأسها حتى ولو كنت مخلصاً في طلبك ، لأنه يشكل اعترافاً لمجلك ونزقك والندامة على ما سبق ، وهذا ذل وهوان .

٣٣٠ — اَقْلُ مَا يَلُومُكُمْ لِلّٰهِ اَنْ لَا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ .

● القدرة على الفعل هبة ونعمة من الله سبحانه ، فإذا ما عصيت الله بها فقد استعنت على غضبه ومعصيته بنعمته وهبته .. وهذا منتهى الغدر واللوم . وأحسب ان المقصود بهذا الكلام قبل غيره — من يتصور نفسه بنعمة الله كبيراً جداً ، وباقي الناس كلهم تراب ، وأيضاً من يعتدي بقوته على حقوق الناس وحريتهم .. وكان الأولى بذلك أن يتواضع ، وبهذا المعتدي أن يخدم عباد الله وعباله شكراً على أفضاله وإنعامه

٣٣١ — اِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيْمَةً الْاَكْيَاسِ عِنْدَ تَقْرِيطِ الْعَجَزَةِ .

● المراد بالأكياس الذين يعرفون فوائد الفرصة ، ويفتزمون بها لعمل الخيرات ، أما العجزة فهم الذين يهملون ، ولا ينتهزون الفرصة حين تمر وتسنع ، والمعنى ان تقصير المقصرين في بعض الحالات ربح وغنيمة لأصحاب الهمم العالية ، ومثال ذلك أن يستعين بالمقصر ذو حاجة فيتناقل ويتقاعس ، فيبادر صاحب الهممة الى قضائها ، فيكون له الثناء والكرامة ، ولا شيء للمقصر إلا اللوم والندامة .

٣٣٢ — السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ .

● الألف واللام في السلطان للعموم ، ولذا صح الإخبار عنه بالجمع أي بالوزعة جمع الوازع ، وهو الزاجر الرادع ، والمعنى لا بد للمجتمع من سلطة عادلة أو جائزة وإلا احتل النظام وعمت الفوضى . وقال ميثم : « أراد الإمام السلطان العادل » . ولا يتفق هذا القول مع ما جاء في الخطبة ٤٠ : « لا بد للناس من أمير بر أو فاجر .. يقاتل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي » .

٣٣٣ — الْمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ . أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا ، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْسًا . يَكْرَهُ الرُّفْعَةَ ، وَيَشْنُو السَّمْعَةَ . طَوِيلُ غَمِّهِ . بَعِيدُ هَمِّهِ . كَثِيرُ صَمْتِهِ . مَشْغُولُ وَقْتِهِ . شَكُورٌ صَبُورٌ . مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ . ضَنِينٌ بِخَلْقَتِهِ سَهْلٌ الْخَلِيقَةِ لَيْنٌ الْعَرِيكَةِ . نَفْسُهُ أَضَلَبُ مِنَ الصُّلْدِ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ .

● تقدم الكلام عن المؤمن وصفاته في العديد من المناسبات ، منها في شرح الخطبة ١٩١ والحكمة ٢٨٨ ، ولذا نوجز في الشرح ما أمكن .

- ١ — (بشره في وجهه ، وحزنه في قلبه) يحمل نفسه على الصبر، ويروضها على احتمال المكاره ، ولا يشكو حاجته لغير الله .
- ٢ — (أوسع شيء صدرًا) يغفر عن ظلمه ، ويعطي من حرمه .
- ٣ — (وأذل شيء نفساً) للحق والمستضعفين .
- ٤ — (يكره الرفعة ، ويشنأ السمعة) لا يعتز إلا بالله والتقوى .
- ٥ — (طويل غمه) خوفاً من غضب الله .

- ٦ - (بعيد همه) يطلب الرفعة والعلو عند الله لا عند الناس .
- ٧ - (كثير صمته) دائم التفكير فيما عليه من واجبات ، والقيام بها على الوجه الأكمل .
- ٨ - (مشغول وقته) يعمل في الليل والنهار تماماً كما يعملان فيه .
- ٩ - (شكور صبور) شكور عند الرخاء ، صبور عند البلاء .
- ١٠ - (مغموه بفكرته) : من غمره الماء إذا غطاه ، كناية عن شغله فيما هو مسؤول عنه أمام الله والناس .
- ١١ - (ضنين بخلته) الضنين : البخيل ، والخللة : الحاجة ، أي لا يظهر فقره للناس .
- ١٢ - (سهل الخليقة ، لين العريكة) يألف ويؤلف ، والخليقة : الطبيعة ، ومثلها العريكة .
- ١٣ - (نفسه أصلب) في الحق (من الصلد) من الحجر الصلب ، وفي الخطبة ١٩١ : « ترى له قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين » .
- ١٤ - (وهو أذل من العبد) كناية عن خشوعه وتواضعه .

٣٣٤ - لَوْ رَأَى الْعَبْدُ الْأَجَلَ وَمَصِيرَهُ لَأَبْغَضَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ .

● السبب الأول للعمل في الحياة الدنيا ، والاغترار بها ، والتنافس عليها هو الأمل .. ومن البهامة لو ان الانسان يعلم متى يموت ، وماذا يحدث له بعد الموت - لانقطع منه الرجاء والأمل ، وبالتالي فلا علم ولا عمل ، ولا تجارة وشطارة ، ولا غرور وخداع .. فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

٣٣٥ - لِكُلِّ امْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ : الْوَارِثُ وَالْخَوَادِثُ .

● كل الناس يحبون المال والثراء ، وهم على علم اليقين بأن لهم فيه شريكين :

الوارث والحوادث، وأيضاً الإمام يعلم بأنهم على علم ويقين من ذلك، ولكنه أراد أن يلفت أنظارهم الى الشريك الثالث ، وهو السائل والمحروم .

٣٣٦ — الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ .

● الوتر : أحد أجزاء القوس ، ولا يصيب السهم بدونه ، ونسبة العمل الى استجابة الدعاء تماماً كنسبة الوتر الى السهم . قال سبحانه : « وإذا سألك عبادي غني فإني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي - ١٨٦ البقرة » . وسبق الكلام عن الدعاء مراراً ، منها في شرح الحكمة ١٣٤ .

٣٣٧ — أَلْعِلْمُ عِلْمَانِ : مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ .

● العلم نوعان : علم بالطبع والوجدان ، كعلم الانسان بأنه يفكر وانه موجود ، وعلم بالبحث والنظر ، كجميع العلوم بشتى أنواعها، ومن أجلها تأسست الجامعات والمختبرات . ويقول الإمام : إن البحث والنظر يذهب سدى إلا مع الغريزة المدركة وقوتها وسلامتها .. وهذا عين الصواب ، فكل العلماء والفلاسفة الكبار والمخترعين وأهل الفن الخالدين هم عباقرة متفوقون في القابلية والاستعداد ، وفي العقل والذكاء .

٣٣٨ — صَوَابُ الرَّأْيِ بِالنُّوْلِ يُقْبَلُ بِإِقْبَالِهَا وَيَذْهَبُ بِذَهَابِهَا .

● المراد بالدول هنا الأيام ، والمعنى ان الناس يكتشفون من غنى المرء إقبال الدنيا عليه ، ومن فقره إدبارها عنه ، ولو تأملوا قليلاً لاكتشفوا إقبال الدنيا عليه من صواب رأيه وبعد نظره، واكتشفوا إدبارها عنه من جهله وكثرة أخطائه،

لأن صواب الرأي وحسن التصرف بلا مال - خير من الحق وسوء التدبير مع الثراء والكثرة .

٣٣٩ - الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

● الفقر داعية للمقت ، كما قال الإمام لولده محمد بن الحنفية في الحكمة ٣١٨ ، والعفة داعية للحب . والحسنة يذهب السيئات - وعلى الأقل - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، أما الشكر والتواضع مع الغنى فخير على خير .

٣٤٠ - يَوْمُ الْعَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ عَلَى الْمَظْلُومِ .

● تقدم في الحكمة ٢٤٠ .

٣٤١ - الْغِنَى الْأَكْبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

● مالكٌ وللتعرض لأوساخ الناس ، وطلب الصدقات ؟ . ألسنت إنساناً ؟ . وكيف تصبر على الهوان ولا تصبر على العوز ؟ أقول : انا فقير ؟ اكتسب ولو ثمن الرغيف من أي عمل ، فالقناعة بقوت من لا يموت مع الكرامة والإباء خيرٌ ألف مرة من التذلل والتسول ، واليأس يغنيك عن المدلة والخسة والدناءة ، وهذا هو الغنى الأكبر بشهادة الإمام . وسبق الكلام عن ذلك في شرح الحكمة ٥٧ ويأتي قول الإمام مرة ثالثة أو أكثر : لا كنز أغنى من القناعة .

٣٤١ - الْأَقْوِيلُ مَحْفُوظَةٌ ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوءَةٌ وَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . وَالنَّاسُ مَنقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا

مَنْ عَصَمَ اللَّهُ . سَأَلْتُهُمْ مُتَعَتُّ ، وَجَبَّيْتُهُمْ مُتَكَلَّفٌ . يَكَادُ
أَفْضَلُهُمْ رَأْيَا يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَى وَالسُّخْطُ ،
وَيَكَادُ أَضْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَوُّهُ اللَّحْظَةُ وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ
الْوَاحِدَةُ .

● (الأقاويل محفوظة) : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - ١٨ ق »
يسجل للحساب والجزاء (والسرائر مبلوة) : « انه على رجعه لقادر يوم تبلى
السرائر - ٩ الطارق » حيث يتميز الحديث منها من الطيب (كل نفس بما
كسبت رهينة - ٣٨ المدثر) أي مرهونة بعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر
(والناس منقسمون) أصابهم النقص في العقل والدين (مدخولون) دخلت
فيهم العيوب والردائل (سألهم متعنت) لا يسأل طلباً للعمل ، بل للمصارعة
والملاكمة .

(مجيبهم متكلف) يدعي من العلم ما ليس فيه ، ويتعرض لما لا يعنيه (يكاد
أفضلهم رأياً يرد عن فضل الرضا والسخط) العالم فيهم منحرف عن قصد السبيل
يعطي لمن يرضى عنه حق الآخرين ، ويبخس حق من غضب عليه (ويكاد
أضلهم عوداً تنكؤه اللحظة ، وتستحيله الكلمة الواحدة) . نكأ القرحة : قشرها
قبل أن تبرأ ، والمراد هنا عدم الثبات والاستقرار ، وتستحيله الكلمة : تغيره من
حال الى حال ، والمعنى ان أحسن من فيهم يتقلب مع أهوائه ، أو خوفاً من الناس
أي لا صالح فيهم إطلاقاً .

٣٤٣ - مَعَاشِرَ النَّاسِ اتَّقُوا اللَّهَ فَكُمْ مِنْ مَّوْمِلٍ مَا لَا يَبْلُغُهُ ،
وَبَانٍ مَا لَا يَسْكُنُهُ ، وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ . وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ
جَمْعُهُ ، وَمِنْ حَقِّ مَنَعِهِ . أَصَابَهُ حَرَاماً ، وَأَحْتَمَلَ بِهِ آثَاماً ، فَنَاءَ

يُوزَرِهِ ، وَقَدِيمَ عَلَى رَبِّهِ آسِفًا لَاهِفًا قَدَهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ
هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

● كل ما جاء في هذه الحكمة تكرر مرات بلفظه أو بمعناه ، ويتلخص بأن
أكثر آمال الانسان في هذه الحياة أوهام وسراب ، وأيضاً هو يكافح ويبني ويجمع
من حل وحرام ، ثم يذهب الى ربه لا مال حمل ، ولا بناء نقل.. تاركاً كل
شيء ، فالمهنأ لغيره ، والعبء على ظهره (أنظر الخطبة ١٠٧ و ١١٢
والحكمة ١٩٠) .

٣٤٤ — مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي .

● أبداً لا فرق من حيث عدم المؤاخلة والعقاب بين من ترك القبيح والحرام
عجزاً عنه مع الرغبة فيه ، وبين من تركه تنزهاً عنه ، وهو قادر عليه . ولكن
لهذا ثواب الطاعة دون ذاك .

٣٤٥ — مَاءٌ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤَالُ فَإِنْظَرُ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ .

● المراد بماء الوجه هنا الكرامة ، أي احفظ عليك كرامتك بالكف عن السؤال
وطلب العون إلا من الله سبحانه .. فإن أحوجك الدهر الى مخلوق فاسأل أهل
المروءات والنجدة، وإياك وسؤال اللئيم فإنه لا يتعامل إلا على أساس الرغبة والرهبة.

٣٤٦ — الشَّائِءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الْإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنْ الْإِسْتِحْقَاقِ
عِيٌّ وَحَسَدٌ .

● المراد بالملق هنا الرياء ، والعي : العجز عن الكلام ، والمعنى لا تخرج في المديح عن حد الاعتدال ، لأنك إن أسرفت فيه فأنت مرء ، وإن قصرت فأنت عاجز عن الإفصاح ، أو ان الحسد قد أكل قلبك ، وأخرس نطقك .

٣٤٧ — أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا أَسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ .

● كلنا يذنب ويخطئ ، ومن ادعى غير ذلك فقد أقام الدليل من نفسه على ذنبه وخطئه ، ومن اقترف ذنباً وقال : هذا هيّن وبسيط فقد أضاف ذنباً الى ذنب . والمؤمن الحق يخاف من ذنبه ، ويطلب الصفح من ربه .

٣٤٨ — مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ أَشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ . وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ . وَمَنْ سَلَ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ . وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ . وَمَنْ أَقْتَحَمَ اللَّجَجَ غَرِقَ . وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ أَثِمَ . وَمَنْ كَثَرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ . وَمَنْ كَثَرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ . وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ . وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ . وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ . وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَاَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَاكَ الْأَحَقُّ بِعَيْنِهِ . وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فَيَا يَعْنِيهِ .

● من عرف نفسه وعيوبها ، وحاول التخلص منها — يستحيل في حقه أن يذكر عيوب غيره ، ويعيبره بما هو فيه ، ومن تنازل عن الطمع والشره فقد أراح نفسه

من الهموم والمتاعب ، ووقاها شر الرذائل والمآثم ، أما الظالم فله يوم ولو بعد حين ، ومن أثار الفتن والشغب والحروب — أحرقتة بنارها ، ومن وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن إلا نفسه .

(ومن كثر كلامه كثر خطؤه) . سبب الخطأ الحركة ، ومن لا يقول ولا يفعل لا يخطيء بطبيعة الحال ، ومعنى هذا ان كثرة الخطأ في الكلام تقاس بكثرة دوران اللسان وثرثرته ، وان كثرة الخطأ في الأفعال تقاس بكثرة الحركات والاندفاعات بلا وعي (ومن كثر خطؤه) اعتاد عليه ، وصار له طبيعة ثانية ، ومن كان كذلك (قلّ حياؤه) حيث لا ضمير يحاسبه على شيء (ومن قلّ حياؤه قل ورعه) لأن الحياء من الإيمان ، ولا إيمان لمن لا حياء له ، والعكس بالعكس (ومن قلّ ورعه مات قلبه). من لا يتورع عن شيء لا يشعر بالمسؤولية ، وهذا هو موت القلب بالذات .

وبعد ، فقد علمتنا التجربة ان الذين يتكلمون كثيراً لا يفعلون شيئاً ، وانه حيث يوجد الضعف والقراغ توجد الثروة والكلام الفارغ ، ومن أراد شاهداً على ذلك فليستمع الى قادة العرب وأقوالهم واذاعاتهم ، وما يقولون ويقررون في المؤتمرات والحفلات .

(ومن مات قلبه دخل النار) حيث لا وازع له ولا رادع عن الأسواء والأوباء (ومن نظر في عيوب الناس) .. من فعل ما ينكره على غيره فقد أقام الدليل من نفسه على انه مجرم .. وهذا هو الجنون بعينه (والقناعة مال لا ينفد) تقدم بالحرف الواحد في الحكمة ٥٧ وتكرر في الحكمة ٢٢٨ وغيرها (ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير) لأن ذكره يميت الشهوات ويحقّر الدنيا (ومن علم ان كلامه الخ) .. الكلام يدرك بحاسة السمع ، وكل ما يدرك بإحدى الحواس الخمس فهو مادة حتى النور ، واذن فلا فرق بين الكلام وبين سائر الأعمال من حيث نسبتها الى الفاعل ومن حيث الثواب والعقاب . وقال كاتب وعالم فرنسي : « إن أسلوب الانسان هو الانسان » . (إلا فيما يعنيه) أي ينفعه كما انه لا يعمل إلا ١٠ يعود عليه بالخير والصلاح . وكل ذلك تقدم أكثر من مرة .

٣٤٩ - لِلظَّالِمِ مِنْ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عِلَامَاتٍ : يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ
بِالْمَعْصِيَةِ ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّالِمَةَ .

● الظلم : وضع الشيء في غير موضعه مادياً كان أو معنوياً ، ولا يختص بالضرب والسلب ، ومن هنا صح إطلاق كلمة الظالم على من خالف واعتدى وافترى ، فمن عصى الخالق ، أو نسب إلى المخلوق قولاً أو فعلاً بغير علم ، أو حقد محترماً ، أو قسا على ضعيف فهو ظالم . والعادل الملتزم يحترم من فوقه ، ويرحم من دونه ، ويتعاون مع نظيره على الخير ، أما الظالم المستهتر فيحتقر من فوقه ، ويقسو على من دونه .. ولكنه يتعاون مع ظالم على شاكلته للقاسم المشترك بين الاثنين ، وهو الإثم والعدوان .

٣٥٠ - عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَّةِ تَكُونُ الْفُرْجَةُ . وَعِنْدَ تَضَاقُّي حَلْقِ
الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ .

● قال سبحانه : « فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا - هـ الانشراح » . وقال رسول الله (ص) : « أَصْبِقِ الْأَمْرَ أَدْنَاهُ إِلَى الْفَرْجِ » والغرض من هذه الاطلاقات أن لا نياس عند الشدة ، ونجتهد في السعي مع التوكل على الله والاعتصام به .. هذا ، إلى أن الفرج يأتي - في الغالب - بعد الشدة ، كما هو المشاهد ، ولذا قيل : ضيقني تنفجني .

٣٥١ - لَا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ ، فَإِنْ يَكُنْ
أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ .
وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فَمَا هُمْكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ .

● الاهتمام بالولد غريزة في الإنسان والحيوان على السواء .. حتى نوح نادى ربه حين خاف الفرق على ابنه وقال : « رب ان ابني من أهلي - ٤٥ هود » بل يحرم شرعاً التقصير في السعي من أجل الأهل والولد ، ولذا نهى الإمام عن كثرة الشغل لا عن أصله ، أما قوله : (فإن يكن أهلك الخ) .. فعناه اعمل ما يجب عليك للعيال والأطفال ، ودع الأمر فيما زاد على الواجب الى الحكيم المدبر .

٣٥٢ - أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ .

● لا واحد منا إلا وفيه عيب .. وان كان له شبه العذر في عيبه للآخرين بما ليس فيه فأبي عذر له في عيب ما فيه مثله أو أكثر؟ ولا أعرف أحداً أحق باللوم من هذا . وتقدم مراراً .

٣٥٣ - (وَهَذَا بِحَضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجُلًا بِغْلَامٍ وَلَدَ لَهُ لَيْثُنِيكَ الْفَارِسُ) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ قُلْ : شَكَرْتُ الْوَاهِبَ وَبُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ ، وَبَلَغَ أَشَدَّهُ ، وَرَزَقْتَ بِرَّهُ .

● بلغ أشده أي صار رجلاً ، ورزقت بره أي طاعته وحسن معاملته ، وهذا تعليم وإرشاد الى خلق الإسلام وآدابه ، وقال ابن أبي الحديد: هذه الكلمة كانت شعاراً في الجاهلية ، فنهى عنها الإمام .

٣٥٤ - (وَبَنَى رَجُلٌ مِنْ عُمَّالِهِ بِنَاءً فَخْمًا) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَطْلَعْتَ الْوَرِقَ رُوُوسَهَا إِنَّ الْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ الْغِنَى .

● الورق - بفتح الواو وكسر الراء - الفضة أو الدراهم ، والمراد بها هنا الغنى لقوله : (ان البناء يصف لك الغنى) بل أبلغ واصف ، وأقوى دليل عليه ، وكل من يرى بناء فخماً يقول : صاحبه من الأغنياء .. ويومئ قول الإمام الى ان غنى العامل كان على حساب المستضعفين .

٣٥٥ - وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ سُدَّ عَلَى رَجُلٍ بَابُ يَتِيهِ وَتُرِكَ فِيهِ مِنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ ؟ فَقَالَ : مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ .

● كل حي يحمل معه سبب موته أينما كان ويكون ، ولا يحمل الغذاء الذي فيه قوامه فكيف صح قياس ذلك على هذا؟. الجواب : يريد الإمام أن الأجل والموت يقع من حيث لا نعلم ، وكذلك الرزق قد يأتي من حيث لا نحتسب ، فإذا أراد الله بقاء المسجون في قيد الحياة - هيأ له أسباب الرزق من كل طريق ولو كان غير مألوف ولا معروف ، كتزول مائدة من السماء .. انه على كل شيء قدير : « قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب - ٣٧ آل عمران » .

٣٥٦ - (وَعَزَى قَوْمًا عَنْ مَيْتٍ مَاتَ لَهُمْ) فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأٌ وَلَا إِلَيْكُمْ أَنْتَهَى . وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ .

● المراد بالأمر هنا الموت ، والمعنى ليس الموت بالشئ الغريب الجديد ، فقد كان قبلكم ، ويبقى بعدكم ، وإذا لم يعد هذا الميت فأنتم عليه قادمون لا محالة .

٣٥٧ - أَيُّهَا النَّاسُ لِيَرَكُمُ اللَّهُ مِنَ النُّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنْ
النُّعْمَةِ فَرِيقِينَ ، إِنَّهُ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ
ذَلِكَ أَسْتِدْرَاجًا فَقَدْ أَمِنَ خُوفًا . وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ
يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ أَخْتِبَارًا فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولًا .

● وجلين وفريقين أي خائفين ، والمراد بالمأمول هنا الأجر والثواب ، والمعنى ان كنتم في نعمة فاحذروا أن تزول عنكم من حيث لا تعلمون ، وقولوا في أنفسكم: ربما كانت هذه النعمة عارية لمجرد الإملاء والإمهال ، ومن أمن المحبات فقد أمن الغوائل ، وأيضاً من كان في شدة ونكبة فعليه أن ينظر اليها كامتحان من الله : هل يصبر أو يكفر ؟ ومن كان كذلك التزم بحدود الله وقبوده ، ومن جهل أو تجاهل هذا الامتحان فلا يؤجر على بلاء ومصاب .

٣٥٨ - يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ اقْصِرُوا فَإِنَّ الْمَرْجَّ عَلَى الدُّنْيَا لَا يَرُوعُهُ
مِنْهَا إِلَّا صَرِيفُ أَنْيَابِ الْحِدَثَانِ . أَيُّهَا النَّاسُ تَوَلَّوْا مِنْ
أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا وَأَعْدِلُوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا .

● اقصروا : كفوا ، والمرج : المائل ، والحديثان - بكسر الحاء - المصائب ، والصريف : صوت الأسنان ، والضراوة : الاندفاع . والمعنى تحرروا من الأهواء ، ولا تثقوا بالدنيا : واحذروا كتابة المنقلب ، واملكوا أنفسكم ، واردعوها عن قبيح العادات والتقاليد .. وتكررت هذه الوصايا مرات . والمهم أن نعرف سبيل التوازن والاعتدال بين الهوى والمصلحة .. وعلى أية حال فإن للوعي أثره في حفظ التوازن ، والمقصود من الوصايا والمواعظ التوعية والتذكير .

٣٥٩ - لَا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا .

● لا تتهم أحداً بسوء ما دام لكل ظاهر باطن ، فإذا كان ظاهر الكلام أو الفعل حسناً أو لا قبح فيه فخذ به واعتمد عليه حتى يثبت العكس ، وإن كان سيئاً فاحجم ولا تأخذ بهذا الظاهر ، فربما كان الواقع على خلافه إلا إذا انكشف كالشمس ، ولا سبيل للتأويل . وتقدم الكلام عن ذلك في الحكمة ١١٣ .

٣٦٠ - إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانُهُ حَاجَةٌ فَأَبْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يُسَالَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الْآخَرَى .

● معنى صلاة الله على نبيه الكريم أن يرفعه الى الدرجة العليا فوق الأنبياء والملائكة ، ولا شك ان النبي (ص) في هذه الدرجة صلينا عليه أم لم نصلي ، والغرض من صلاتنا عليه ودعائنا له بعلو المنزلة عند الله هو مجرد الشكر لفضله علينا بالهداية ، ولتعظيم ذكره تماماً كما نعبد الله شكراً وتعظيماً ، وهو غني عن العالمين .

ويقول الإمام : صل على النبي ، ثم سل حاجتك من الله ، فإن الصلاة على نبيه محبوبه له تعالى : وأمرنا بها في الآية ٥٦ من سورة الأحزاب : « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا علوا عليه وسلموا تسليماً » . وهذه الصلاة خير وسيلة لقضاء الحاجات ، لأن الله - كما أشرنا - يحبها ، ومن أجلها يحب ما يتبعها ويقترن بها ، ولا معنى لحبه حاجتنا إلا قضاءها ولو بعد حين ، أو يعوضنا عنها ما هو خير وأبقى .

٣٦١ - مَنْ ضَنَّ بِعَرِضِهِ فَلْيَدْعِ الْمِرَاءَ .

● ضنّ : بجمل ، والعرض - بكسر العين وسكون الراء - ما يصونه الإنسان من نفسه ، يقال : هو قبي العريض أي لا شيء فيه يوجب الذم ، والمراد بالمرء هنا الخسومة والملاحاة ، والمعنى واضح : لا تخاصم الناس إن كنت حريصاً على حسن السمعة والسيرة ، فإن الخسومة تظهر العيوب . وتقدم الكلام عن الخسومة في الحكمة ٣ و ٢٩٧ .

٣٦٢ - مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجِلَةِ قَبْلَ الْإِمْكَانِ وَالْآثَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ .

● الخرق - بضم الخاء وسكون الراء - الحقم ، والمعنى : الأمور مرهونة بأوقاتها ، فمن تعجلها قبل الأوان ، أو توانى حين تسنح الفرصة فهو أحمق . وقال حكيم خبير : الإنسان الناجح هو الذي يعرف كيف ينتهز الفرصة حين تمر ، وإذا ذهبت فمن الصعب أن تعود .

٣٦٣ - لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ فِيهِ الْمَذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ .

● دُع ما لا تقدر عليه الى ما تقدر عليه ، ومن تكلف ما يعجز عنه فاته ما يقدر عليه ، وخسر الأمرين معاً .

٣٦٤ - الْفِكْرُ مِرَاةٌ صَافِيَةٌ وَالْإِعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ . وَكَفَى أَدْبَاً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهَتْهُ لِعَيْرِكَ .

● المراد بالفكر العقل السليم الذي ينتقل بالإنسان من معلوم الى مجهول ، من

شاهد الى غائب ، كالعالم بالتناسق والانسجام العجيب بين قوانين الكون ، فإنه ينقلنا الى العلم بوجود المكوّن، وتقدم في الحكمة ٢٨٠ لا يغش العقل من استنصحه، والمراد بالاعتبار الاتعاظ بحوادث الدهر ونكباته ، وكفالك تثقيفاً وتهذيباً لنفسك أن تترك ما تستقبحه من غيرك . وتقدم في الرسالة ٣٠ : « واستقبج من نفسك ما تستقبحه من غيرك » .

٣٦٥ — أَلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَمِلَ عَمِلَ . وَالْعِلْمُ يَنْتِفُ بِالْعَمَلِ
فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا أَرْتَحَلَ عَنْهُ .

● العلم تنوير الأرض بالكهرباء ، وطائرات وسفن فضاء ، وتحويل البحر الى عذب فرات ، والصحراء الى جنات ، وعمليات جراحية ، وعقول الكترونية ، وأنايب يتدفق منها نطق الشرق الى الغرب أبجراً ، وكل أسباب الحضارة وأدوات الإنتاج والراحة وما يهدي اليها هي علم ودين وأخلاق أيضاً .. هذا وكل ما يرضي الله سبحانه ويقربنا اليه هو علم عند الإمام أمير المؤمنين (ع) وهو الذي أراده وعناه بقوله : « العلم مقرون بالعمل الخ » .. وما اهتدت العقول الى هذه الحقيقة إلا بعد التقدم العلمي المذهل، وعلى أساسها تم تصحيح الكثير من الفلسفات والنظريات القديمة .

وقبل أن يموت الرياضي الكبير أينشتين أوصى بتشريح مخه ليعرف العالم كله : هل يختلف مخ العالم عن مخ الجاهل ، وبعد التشريح الدقيق تبين ان مخ الأحق تماماً كمخ العبقرى المبدع ، ومعنى هذا ان الفرق الأول والأخير بين الاثنين هو العمل وما يهدي اليه .

وتسأل : ولكن الله قال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
— ٩ الزمر » ولم يقل : الذين يعملون والذين لا يعملون ؟

الجواب ، وأيضاً قال سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء — ٢٨ فاطر » . والمراد بخشية الله هنا العمل بطاعته ، وعليه تكون هذه الآية بياناً وتفسيراً لآية الزمر ، وان المراد بالعلم فيها هو العمل بالذات.. هذا الى آيات كثيرة تدل بصراحة

ان الحساب والجزاء غداً على العمل لا على مجرد العلم ، منها « يوم تجند كل نفس ما عملت - ٣٠ آل عمران » . « وتوفى كل نفس ما عملت - ١١١ النحل » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « والذي بعثني بالحق نبياً لا ينبغي إلا عمل مع رحمة » أي مع مصلحة ومنفعة ، ويدلنا هذا على ان العلم بلا عمل لا يجدي شيئاً ، كما يدلنا أيضاً ان كل عمل فهو هباء إلا ما يخدم الحياة ، ويجعلها أكثر خصباً وعدلاً وأمناً .

فالعلم عند الله سبحانه هو العمل النافع ، وعنه أخذ الرسول (ص) وأخذ الإمام جميع معتقده وآرائه عن رسول الله .. حتى رأيه في المرأة ، وأثبتنا ذلك في شرح الخطبة ٧٨ فقرة « علي والمرأة » ، وفي شرح قوله : « المرأة شر كلها » في الحكمة ٢٣٧ .. وقد تبين معنا الآن ، ونحن نشرح قول الإمام : « العلم مقرون بالعمل الخ » .. ان مصدر هذا القول هو كتاب الله وسنة نبيه مع العلم بأنه يتفق تماماً مع قول سقراط : « من عرف الخير يتجه الى عمله حتماً ، ومن وقع في الشر فرده الى الجهل به » . فإن كان نهج البلاغة منحولاً — كما زعم المشككون — لأن بعض ما فيه يتفق مع الفلسفة اليونانية التي عرفها المسلمون في عصر متأخر عن عهد الإمام ، إن كان النهج منحولاً لهذا السبب فعلى من ارتاب فيه أن يرتاب أيضاً في كتاب الله وسنة نبيه ، لأن بعض ما فيها يتفق مع الفلسفة اليونانية ، ومن ذلك ان العلم بلا عمل ليس بشيء .

٣٦٦ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُؤَبَّرٌ فَتَجَنَّبُوا مَرَعَاهُ .
قُلْعَتَهَا أَحْطَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا ، وَبُلْغَتَهَا أَزْكَى مِنْ ثُرْوَتِهَا . حُكْمٌ عَلَى
مُكْثَرٍ بِهَا بِالْفَاقَةِ وَأَعْيَنَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ . وَمَنْ رَاقَهُ زِبْرُجَهَا
أَعْقَبَتْ نَازِرِيهِ كَمَهَا . وَمَنْ أَسْتَشْعَرَ الشَّغْفَ بِهَا مَلَأَتْ ضَمِيرُهُ أَشْجَانًا
لَهُنَّ رَقَصٌ عَلَى سُودَاءِ قَلْبِهِ هَمٌّ يَشْغَلُهُ وَهَمٌّ يَحْزُنُهُ ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ
بِكَظْمِهِ فَيُلْقَى بِالْقَضَاءِ ، مُنْقَطِعاً أَبْرَاهُ هِيناً عَلَى اللَّهِ فَنَاوُهُ وَعَلَى

الإخوانِ إلقاءه ، وإنما ينظرُ المؤمنُ إلى الدنيا بعَيْنِ الإعتبارِ .
ويقتاتُ منها ببطْنِ الاضطرابِ . ويسمعُ فيها بأذنِ المقتِ والإبغاضِ .
إن قيلَ أثرى قيلَ أكْدَى . وإن فُرحَ لَهُ بالبقاءِ حُزنَ لَهُ بالفناء .
هذا ولم يأتهم يومٌ فيه يُبلسون .

● الحطام : ما يتكسر من اليابس ، وموبىء : من الوباء أي المرض العام ،
والقلعة - بضم القاف - الرحلة ، يقال : هذا منزل قلعة أي هو للرجل لا
للبقاء ، وأحظى : أسعد ، والبلغة : الكفاف ، والمكثّر : الغني ، والفاقة :
الفقر ، وغني عنها استغنى عما زاد على الكفاف ، وراقه : أعجبه ، والزبرج :
الزينة ، والكمه : العمى منذ الولادة ، والمراد بالرقص هنا الحركة ، وسويداء
القلب حبه وقوامه ، والكظم : مخرج النفس ، والأبهران : عرقان متصلان
بالقلب ومنها تشعب كل الشرايين ، وإلقاءه : طرحه في القبر، وبطن الاضطراب:
يعطي البطن على قدر الضرورة ، وأثرى : استغنى ، وأكدى : بجّل في العطاء،
ويبلسون : يياسون .

عاد الإمام الى الدنيا وشرها وغدرها ، وإثمها وسمها ، وبتشها وفتكها ،
وهدف الإمام التأكيد على ان الدنيا لا تُطلب لذاتها ، بل كوسيلة الى الآخرة ،
وان الانسان خلق لهذا لا لتلك .. ولكن ما هو السبيل الذي يجعل الانسان ينظر
الى الدنيا كوسيلة لا غاية ؟. ولا جواب عند الإمام إلا الواقع فهو بطبعه يدعو
الانسان ويفرض عليه أن ينظر من خلاله الى كل شيء . واذا سأله مرة ثانية :
وأى شيء يُلزم الانسان بذلك ؟ كرر الجواب بحروفه حيث لا شيء عند الإمام
إلا الواقع ، ويطلب من الناس أن يكونوا على طرازه ، وهم يأبون إلا العيش
في عالم آخر ، ولا يستجيبون لدعوته ، ويصر هو عليها ، ولهذا الإصرار اغتالوه
غيطاً وحنقاً .

٣٦٧- إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ وَالْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نَقْمَتِهِ وَحَيَاشَةَ لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ .

● ذِيَادَةٌ : دفعاً ، وحياشة : جذباً . ان الله سبحانه وهب لعبده القدرة ، والعقل ، والارادة ، وأمره ونهاه ، ووعد به الجنة ان أطاع ، وتوعده بالنار ان عصى . والعبد بالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار ، والطمع في الجنة يجذبه الى الطاعة ، والخوف من النار يدفعه عن المعصية .

٣٦٨- (وَرَوِي أَنَّهُ قَلَّمَ أَعْتَدَلَ بِهِ الْمِنْبَرُ إِلَّا قَالَ أَمَامَ خُطْبَتِهِ) : أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ فَمَا خُلِقَ أَمْرُؤُ عَبَسًا فَيَلْهُو ، وَلَا تُرِكَ سُدَى فَيَلْغُو . وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلْفٍ مِنَ الْآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ . وَمَا الْمَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كَالْآخِرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الْآخِرَةِ بِأَدْنَى سَهْمَتِهِ .

● الله عز وجل عليم حكيم ، والحكيم منزّه عن اللغو والعبث .. وليس المهم ان يعرف الإنسان لماذا خُلِقَ ووُجِدَ ، ولكن المهم أن يعرف ما يجب عليه من العمل لحاضره ومستقبله ، ونعيم الدنيا مهما عظم فإنه ليس بشيء إذا قورن بأدنى شيء من نعيم الآخرة ، وأي إنسان يظفر بالقليل من خيرها فهو أغنى وأسعد ممن ملك الدنيا بكاملها وحُرِمَ من نعيم الآخرة ، ولكن الدنيا تتعجب للمغرور فيها بالعاجلة ، وتعميه عن مصيره وآخِرته .

٣٦٩ - لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ . وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى
وَلَا مَعْقِلَ أَحْصَنُ مِنَ الْوَرَعِ . وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ . وَلَا
كَتَزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ . وَلَا مَالَ أَذْهَبَ لِلْفَقَاةِ مِنَ الرِّضَى بِالثَّقَاتِ .
وَمَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدْ أَنْتَظَمَ الرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ
الدَّعَةِ . وَالرَّغْبَةَ مِفْتَاحُ النَّصَبِ وَمَطِيئَةُ التَّعَبِ . وَالْحِرْصُ وَالْكِبَرُ
وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ . وَالشَّرُّ جَامِعُ مَسَاوِي
الْعُيُوبِ .

● في الخطبة ١٥٠ حدد الإمام أمير المؤمنين الإسلام بأنه « اسم سلامة ، وجماع
كرامة » . والسلامة هي العيش بلا مشكلات ، والكرامة هي حصانة الحرية
وصيانتها من الاعتداء ، ولا شرف فوق ذلك .. وأيضاً لا عز ولا ذل إلا بعد
العرض على الله ، وهو سبحانه لا يتقبل إلا من المتقين ، ولا حصن من عذابه
إلا لأهل الورع عن حرامه ، ولا وسيلة للعفو عن الذنوب إلا التوبة .

(ولا كتز أغنى من القناعة) تقدم مع الشرح في الحكمة ٥٧ ، والجملته بعده
عطف تفسير .. والخفض من العيش هو الواسع الهنيء ، والدعة - بفتح الدال
مع التشديد - الراحة والاطمئنان ، والمراد بالرغبة هنا الطمع ، وعطف التعب
على النصب للبيان والتفسير .

(والحريص والكبر والحسد دواعٍ إلى التقحم في الذنوب) . الحريص يكثر
المال ولا ينفقه فيما يجديه ويجدي الناس ، والحاسد يفترى ويحقد على المحسود ،
والمتكبر يتعالى بغير الحق ، وكل أولاء رذائل وآثام . قال كونفوشيوس : لا تتصور
كبيراً حتى لا ترى الناس صغاراً . وبالتالي كل عيب ورذيلة تسمى شراً ، ولذا
كانت كلمة الشر جامعة لكل رذيلة ، مانعة لكل فضيلة . وكل ما في هذه الحكمة
تقدم مرات .

٣٧٠ — يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ
وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ . مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبَنَى خَرَابٌ
مِنَ الْهَدَى . سُكَّانُهَا وَعُمَارُهَا شَرُّ أَهْلِ الْأَرْضِ ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ
وَالْيَهُم تَأْوِي الْخَطِيئَةُ يَرُدُّونَ ، نَ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا . وَيَسْوَقُونَ مَنْ
تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى « فِي حَلَقْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ
فِتْنَةً ، أَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانًا ، وَقَدْ فَعَلَ . وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللَّهَ
عَشْرَةَ الْغَفْلَةِ .

● (لا يبقى فيهم من القرآن إلا رسمه) كالنلاوة والطباعة الجيدة ، أما سلامة
القلب وصلاح العمل فشيء آخر لا يهمل أبداً .. ولا تدعو اليه الحاجة ، وتقدم
مثله في الخطبة ١٤٥ (ومن الإسلام إلا اسمه) وهو الإقرار باللسان دون العمل
بالتعاليم والأركان كالجهاد من أجل الدين والوطن والحوية والكرامة ..

ان الإسلام عزة ومنعة ، قال سبحانه : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين —
٨ المنافقون » . فأى مجتمع يدعي الإسلام ، ثم يعيش في الوهن والتخلف والذل
والانحطاط فما هو من الإسلام في شيء . لقد كان المسلمون يبدلون المهج والأرواح
في سبيل دينهم وحریتهم ، ولا أعرف اليوم مجتمعا أو بلداً مسلماً يحمل هذه الروح
مع ان فيه الكثير من المساجد والمآذن والمراسم والعائم . وتقدم مثله في الخطبة ١٠١ .
(وعمارها شر أهل الأرض) لأنهم يسرون من ذل الى ذل، ومن ضعف الى ضعف
ولا يجاهدون في سبيل الحق وإعلاء كلمته ، فالزعماء يتناحرون على الكراسي ،
ويشترونها بدينهم وأمتهم . والعلماء منهم من يتلف على الرياسة . وآخر على
وظيفة القضاء والإفتاء . وثالث يتلقى الوحي من مكاتب الاستخبارات ، ويشترى
بعهد الله ثمناً قليلاً . ورابع لا يشعر بالمسؤولية تاركاً جماعة المسلمين جاهلة بأهم
أحكام الإسلام ، غافلة عما يراد بها ودينها ووطنها . وأتحدى أن يذكر اسم
عالم واحد في هذا العصر نهى طاغية عن منكر ، وجابهه بكلمة حق .

(منهم تخرج الفتنة ، واليهم تأوي الخطيئة) ضمير « منهم واليهم » يعود الى قادة السوء من رجال الدين والدنيا ، كما هو المفهوم من قرينة السياق وطبيعة الوضع والحال ، والمراد بالفتنة هنا ظهور الفساد والضلال في البر والبحر ، والمعنى ان قادة السوء هم سبب البلاء ، وأصل الداء (يردون من شد عنها فيها الخ) .. ينكثون بمن يأبى السير في ركبهم ، ويحملونه بشئ أساليب الضغط على أن يكون لهم من الأذئاب والأتباع .

(يقول الله سبحانه في حلفت الخ) .. المراد بالفتنة هنا العذاب ، والمعنى ان الله سبحانه كتب على نفسه أن يسوم قادة الضلال والفساد سوء العذاب ، ولا يحدون ولياً ولا نصيراً (وقد فعل) ذلك بالأمم الماضية ، وعلينا أن نتخذ منهم العبرة (ونحن نستقبل الله عثرة الغفلة) عن طاعته ، لأنها سبب الأسباب لسيطرة الهوى على العقل والقلب ، ولكل ضلال وانحطاط . وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ١٠١ و ١٤٥ وفي الحكمة ١٠١ .

٣٧١ — (وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ) يَا جَابِرُ قَوْمُ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ : عَالِمٌ مُسْتَعْمِلٌ عِلْمَهُ ، وَجَاهِلٌ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخُلُ بِمَعْرُوفِهِ ، وَفَقِيرٌ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ . فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ . يَا جَابِرُ مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ قَامَ لِلَّهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ .

● المراد بالدنيا الحياة الدنيا ، وهي لا تستقيم وتنتظم إلا بمنصرين :

١ — العلم الذي يهدي الى العمل بالحق والخير والعدل ، وبقي الحياة من الشرور والمشكلات ، وقوام العلم بجهود العالم والمتعلم ، ولا يتحقق الغرض المقصود منه

إلا إذا عمل العالم بموجب علمه ، ووضعته في مكانه اللائق .. وإذا اتخذ العالم من علمه أداة للصوعية ، والاعتداء والاستعلاء — عمت الفوضى وانتشر الفساد ، وتختلف الأمة ، واستنكف الجاهل أن يأخذ العلم من هذا الضال المضل.

٢ — المال الذي يخدم الحياة ، ويسد حوائج المحتاجين ، وتداوله الأيدي في الصالح العام ، أما المال الذي يمسك في البنوك والمصارف ، أو ينفق على الإسراف والتبذير ، أو أسلحة الحراب والدمار فهو شرٌّ ووبال على الإنسانية ومصيرها (وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه) حيث يدفعه العوز والحرمان الى ارتكاب الجرائم .. وما وجدت الشيوعية والاشتراكية تربية أخصب من بيئة البؤس والفقر ، ومن هنا يصح القول : ان المترفين الذين يسرفون أو يكتزون ولا يبذلون في سبيل الله والصالح العام ، ثم يحاربون الشيوعية والاشتراكية هم السبب لوجودها وانتشارها .

(من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه) . ان مسؤولية الانسان تقاس بطاقته ومقدرته ، فمسؤولية القادة غير مسؤولية الأتباع ، وواجب الأغنياء غير واجب الفقراء ، ووظيفة العلماء غير وظيفة الجهلاء .. فعلى القادة أن يعملوا جاهدين على تحقيق ما يتطلبه المستضعفون من حياة عادلة ، وعيشة راضية ، وعلى الأغنياء أن يبذلوا لخدمة الحياة وتقدمها ، وعلى العلماء أن ينكروا المنكر من أولاء وأولئك .

(فمن قام لله فيها الخ) .. إذا عمل الراعي بالعدل والمساواة أحبته الرعية ، وكانت أطوع له من بنائه ، ودافعت عنه وعن سلطانه دفاعها عن نفسها ومصالحها ، وبهذا يثبت حكمه ويستقر ، وإلا ثارت عليه واقتلعت من الجذور حين تسنح الفرصة .. وكذلك العالم يثق الناس به ، ويقدمون مقامه إذا فقههم بعلمه وإلا انصرفوا عنه ، ونعتوه بكل قبيح .

٣٧٢ — (وَرَوَى أَبُو جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى الْفَقِيهِ — وَكَانَ مِنْ خَرَجِ لِقَتَالِ الْحَجَّاجِ مَعَ أَبِي الْأَشْعَثِ — أَنَّهُ قَالَ فِيمَا كَانَ يَحُضُّ بِهِ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ : إِنِّي سَمِعْتُ عَلِيًّا

عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ) : أَثِيهَا الْمُؤْمِنُونَ إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُذْوَانَا يُعْمَلُ بِهِ وَمُنْكَرًا يُدْعَى إِلَيْهِ فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِيءٌ ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ . وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينَ .

● هل يوجد إنسان على وجه الأرض يرى ظلمًا وعدوانًا يُعمل به فيقره ولا يشعر بقبحه وشناعته ؟ وقد يبدو هذا السؤال غريباً للوهلة الأولى ، لأن المفروض وقوع الظلم والعدوان ، والوقوع بذاته دليل قاطع على الإمكان ، لأنه فرع عنه.. وغرضنا من هذا السؤال هو الإشارة إلى أن الإنسان بفطرته يستنكر الظلم ، فلإن اقترفه فبسبب خارج عن الذات ، وقول الإمام : (فقد سلم وبريء) معناه : من عجز عن دفع المنكر بيده ولسانه ، ولكن مَقَّتَهُ وأيقن بتحريمه فهو إنسان طيب ، ولا مبرر لمؤاخذته ، ويأتي البيان في الحكمة التالية ، لأنها أشبه بالشرح والتفصيل لهذه الحكمة ، ولذا قدمها الشريف الرضي بقوله : وفي كلام آخر له يجري هذا المعجى ، وهو التالي :

٣٧٣ - فَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِحِصَالِ الْخَيْرِ ، وَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِحَصَلَتَيْنِ مِنْ حِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضِيعٌ خَصْلَةً ، وَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ الَّذِي ضَيَعَ أَشْرَفَ الْحَصَلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ

بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ ، وَمَا أَعْمَالُ الْبَرِّ كُلِّهَا
وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا
كَتَفْتُسَةٍ فِي بَحْرِ لُجِّي ، وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ
لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ . وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ
كُلُّهُ كَلِمَةٌ عَدَلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ .

● من حضر وشاهد فعلاً تتفق العقول على قبحه وتحريمه ، لا بد أن يتخذ
لنفسه موقفاً منه سليماً أو إيجابياً ، والمراد بالموقف السلبي أن يتجاهل ما يرى ،
كأنه لم يكن شيء .، أو لا علاقة له بما كان من قريب أو بعيد .. وليس من
شك أن هذا مجرم خارج على الدين والعقل والعرف ، بل لا يستحق اسم الإنسان
بمعنى الكلمة ، وقد نعته الإمام في هذه الحكمة بميت الأحياء . وأكثرُ علماء هذا
العصر أو الكثير منهم يرون الباطل ولا يشعرون ، والسر ما أشار إليه الإمام من أنهم
موتى بين أحياء : « ما لجرح بميت لإيلام » .

وأسوأ من هذا وأعظم جرماً من يرضى بالمنكر ويشجعه ، لأن العامل بالظلم ،
والمعين عليه ، والراضي به - شركاء . أما إذا وقف منه موقف الغاضب المنكر
فينظر : هل أنكر بكل ما لديه من طاقة ، أو يبعضها . واليك التفصيل :

١ - (المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه ، فذلك المستكمل لخصال الخير)
أي أدّى ما عليه كاملاً وافياً ، وقام بالواجبات الثلاثة ، ولم يترك واحداً منها .
ولم يشر الإمام إلى دفع المنكر بالمال إذا دعت إليه الحاجة ، وكذلك فعل رسول
الله (ص) حين قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع
فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . والسبب الموجب لتترك
الإشارة إلى المال في باب الأمر بالمعروف هو أن بذل المال يدخل في باب الأخماس
والزكوات ، وأيضاً يذكر في آيات الجهاد وأحاديثه كقوله تعالى : « انفروا خفافاً
وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم - ٤١ التوبة » . وقول الرسول الأعظم (ص) :
« من جهز غازياً فقد غزا » فأغنى ذكره هناك عن ذكره في باب الأمر بالمعروف
والنهى عن المنكر .

٢ - (المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده الخ) .. قام هذا بواجبين من الثلاثة ، وعليها يُثاب ، وأهل الثالث وهو الإنكار باليد ، فيلام عليه ويؤاخذ ، حيث تركه مع القدرة عليه ، كما هو الغرض المفهوم من قول الإمام : « ومضيّع خصلة » لأن معنى مضيّع مقصّر لا قاصر ، وقادر لا عاجز .

٣ - (المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه الخ) .. أدّى واجباً واحداً ، وأهل اثنين .. وهذا هو الإيمان الضعيف ، أو الأضعف ، أو لا إيمان إطلاقاً بمعناه الصحيح ، وإنما هو خطرات وتصورات . وسبق ان نقلنا عن أصول «الكافي» قول الإمام جعفر الصادق : « الإيمان عملٌ كله ، ولا إيمان بلا عمل » . أي لا أجر وثواب على إيمان مجرد عن عمل محسوس ملموس .

(ومنهم تاركٌ لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده الخ) .. وأشرنا اليه في صدر هذا الكلام (وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله الخ) .. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جامع لخصال الخير بكاملها بما فيها خصلة الجهاد ، ومانع من خصال الشر بأسرها إذا توافرت في صاحبه الصفات التي ذكرها الإمام جعفر الصادق بقوله : « ان صاحب الأمر بالمعروف يحتاج الى ان يكون عالماً بالحلل والحرام ، فارغاً من خاصة نفسه بما يأمر به وينهى عنه ، ناصحاً للخلق ، رحيماً بهم ، رفيقاً لهم ، داعياً باللطف ، صابراً على ما يصيبه منهم وبسببهم ، لا يكافئهم على ما يؤذونه به ، بل ولا يشكو ذلك ، ولا يستعمل الحميّة ، ولا يفتاظ لنفسه ، مجرداً نيته لله وحده ، مستعيناً به ، مبتغياً لوجهه ، فإن خالفوه صبر ، وان وافقوه شكر ، مفوضاً أمره الى الله ، ناظراً الى عيبه » .

وليس من شك ان الأمر بالمعروف مع هذه الصفات يأتي بخير الثمار ، ولا يعادله شيء إلا (كلمة عدل عند إمام جائر) لأن قائلها ما أبقى عنراً لمخوف ومتهاون بصراحته وجهره بكلمة الحق مها كان ثمنها . وأبلغ ما قرأت عن هذه الجرأة والتضحية : ان الأديب العالم المعروف بابن السكيت كان يوماً في مجلس المتوكل المبعوض المعلن بالعداء للإمام أمير المؤمنين ، فقال لابن السكيت : هل ولداي : المعتز والمؤيد أحب إليك أم الحسن والحسين ، فقال له : ان قنبراً خادماً علي بن أبي طالب خير منك ومن ولديك .. فأمر المتوكل بسل لسانه من قفاه فسُل، ومات في ساعته ، وابن سكيت هذا هو القاتل :

يصاب الفتى من عشرة بلسانه وليس يصاب المرء من عشرة الرجل
فعرته في القول تودي برأسه وعثرته في الرجل تبرا على مهل

وهكذا تفعل العقيدة بصاحبها : لا يقف في وجهها حاجز اذا بلغت أشدها .
قال غوستاف لوبون : « هؤلاء قليلون ، ولو كثروا لقلبوا العالم » . وتكلمنا
حول الأمر بالمعروف في شرح الخطبة ١٥٤ .

٣٧٤ — أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ
ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفًا وَلَمْ يُنْكِرْ
مُنْكَرًا قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ .

● ينطبق هذا ويصح في حق العرب والمسلمين في عصرنا . انهم يُغْلَبُونَ على
أمرهم ، ولا يجدون حيلة ، ولا وسيلة للدفاع عن أنفسهم بالسلاح ، أو الاحتجاج
باللسان ووسائل الإعلان على المسيطرين والغالبين ، وبالتالي يتبخر الإيمان من القلوب ،
ويعيش الجميع في هاوية الوهن والهوان .

ولم يشر الإمام الى هوية الغالبين وتحديد شخصيتهم . وقال بعض الشارحين :
هم المستعمرون الأجانب .. والصحيح انهم قادة السوء الذين يسرون في ركاب
كل طامع وغاصب حرصاً على كرسي الحكم ولو بالاسم والرسم .. ومن البدهة
ان أية جماعة لا يمكن أن تخوض معركة من المعارك إلا بقيادة أمين مخلص ، ولا
سبيل الى الجهاد بالقلم واللسان ، لأن الطغاة هم المسيطرون على وسائل الدعاية
والإعلام ، ومتى ترك الجهاد يداً وبياناً لسبب أو لآخر يذهب على مدى الأيام
الإيمان من القلوب ، ولا يبقى لإنكار المنكر بشئ أنواعه أثر ولا عين .. تماماً كما
ينسى صاحب المهنة مهنته بالترك والهجران .

٣٧٥ — إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ .

● مريء : هنيء ، ووبيء : من الوباء ، وهو المرض العام .. وطريق الحق شائك جداً ، ما في ذلك ريب ، ولكنه ينتهي بسالكه الى الراحة والأمان ، وطريق الباطل وردٌ وريحان ، ولكنه يؤدي بصاحبه الى الهاوية . واليك هذه الشذرات التي التقطناها من كتاب « هذا مذهبي » لغاندي :

« طريق الحق يتطلب من التركيز أكثر مما يتطلبه السير على الجبل ، فأقل سهوة تهوي بالانسان الى الحضيض .. ولا أحد يستطيع أن يدرك الحق إلا بالكفاح الذي لا ينقطع .. إن سبيل الخير ينطوي على عذاب مستمر ، ويتطلب اضطراباً لا نهاية له .. إن الخير يسير بخطوات السلحفاة ، والذين يريدونه ليسوا على عجلة لأنهم يعرفون ان تطعيم الناس بالخير يتطلب وقتاً طويلاً » .

٣٧٦ — لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » ، وَلَا تَيَاسَنَّ لِشَرِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

● دوام الحال من المحال خيراً كان أم شراً . قال سبحانه : « وتلك الأيام نداولها بين الناس — ١٤٠ آل عمران » بالاضافة الى الآيتين الكريمتين اللتين استشهد بهما الإمام ، وعليه فمن كان في سعة ودعة فلا يأمن الدهر وضرباته ، والدولاب ودوراته ، ومن كان في ضيق وشدة فلا يئأس من الفرج والخلاص . وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، أنظر شرح الخطبة ١٣٠ فقرة « فلسفة الأمل » ، وشرح الخطبة ١٥٨ فقرة « الرجاء والخوف » .

٣٧٧ - الْبَخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُّ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ .

● البخيل في شقاء دائم ، يسعى لغيره ، ويلام على بخله ، ولا ينتفع هو ولا غيره بماله ، هذه حاله في الدنيا ، نوله في الآخرة عذاب الحريق ، ولا قبح وشر وسوء وراء هذا الخسران المبين . وتقدم الكلام عن البخل والبخيل في الخطب والرسائل والحكم .

حديث موضوعي عن الرزق :

٣٧٨ - الرِّزْقُ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ ، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ ، كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .
فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ لِمَا لَيْسَ لَكَ ؟ وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ . وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قَدَّرَ لَكَ .

● تكلمنا عن الرزق مرات في « التفسير الكاشف » تبعاً للآيات الكريمة، وأيضاً تحدثنا عنه مراراً فيما سبق من هذا الكتاب تبعاً لمقالة الإمام وإشارته.. وبيننا الكلام عنه هنا وهناك على ان الرزق يرتبط بالسعي عملاً بظاهر الآية ١٥ من سورة الملك : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وحين بلغت بالشرح الى قول الإمام : « الرزق رزقان : رزق

تطلبه ، ورزق يطلبك « أنعمت الفكر من جديد ، ولم أعطف على ما سبق ،
فاهتديت الطريق - بتوفيق الله وبركة الإمام - الى ما يلي :

لكل شيء داعية وسبب،رزقاً كان أم غير رزق، لأن الله سبحانه أبهى إلا أن
يربط الأشياء بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، والفرق بين الرزق وغيره يعود الى
أن غير الرزق قد يمكن ضبطه وتحديدته من خلال العلم بأسبابه:أما الرزق فلا يمكن
ضبطه وتحديدته بحال حتى من خلال العلم بأسبابه . هذا هو الفرق لا ما قاله
الشارحون : ان الرزق بيد الله وحده وبلا سبب وواسطة على الإطلاق .. كلا
وألف كلا .. أبداً لا رزق إلا بسبب مع توفيق الله وعنايته سوى انه لا يُقدر
بسببه ، أما غيره فيمكن تقديره بسببه الموجب له .

— مثلاً — أستطيع أن أحدد من طبيعة الموضوع ان الكتابة عنه سوف تستغرق
صفحة أو صفحتين ، وان لدي من المال ما يكفي لبناء غرفة أو غرفتين ، أما
الرزق فلا يمكن ضبطه وتحديدته حتى مع مباشرة أسبابه ، فالفلاح يزرع ، وينتظر
الحصاد ، والأمر بيد الله ، فقد تكون النتيجة الخصب أو الجذب ، والتاجر
يعرض السلعة في حانوته ، وقد تكسب أو تروج ، وأيضاً قد يرتفع ثمنها أو
ينخفض لسبب أو لآخر .. وكذلك الحلاق وصاحب « التكسي » وغيرهما من
أرباب الصناعة — تختلف أرزاقهم من يوم الى يوم.. حتى الموظف والعامل الدائم
مظنة الفصل والطرْد ، ولو بإفلاس رب العمل ، أو انهيار الدولة من الأساس ،
وأيضاً رزقهما مظنة الزيادة بارتفاع الأجور والرواتب ، أو ساعات إضافية ، وغير
ذلك مما لم يكن في الحسبان .. وأي خبير يستطيع أن يقدّر ويحدد أرباح المهربين
والمغامرين ؟.

وبهذا يتبين معنا التفسير الصحيح لقول الإمام: (الرزق رزقان : رزق تطلبه)
وهو الذي صممت عليه ، وسعيت اليه، وجعلته نُصب عينيك ، وبذلت في سبيله
كل جهد (ورزق يطلبك) وهو الذي لم يكن في الحسبان ، ولا مر بالخيال
والبال ، كالفلاح يفاجأ بالخصب ، والتاجر بارتفاع أثمان ما يملك من السلع ،
والوظيفة تطرق الباب بلا علم وسعي سابق . وكَم من وزير ومدير ومحافظ وسفير
قرأوا خبر توظيفهم في الصحف ، أو سمعوه من الاذاعة فجأة وحين اليأس
والقنوط .

(ولا تحمل هم سنتك الخ) .. لا تتعجل الهم والغم لرزق مقبل ، فإن يومك الآتي تماماً كيومك الماضي تجد فيه ما يكفيك ، أن بقيت مع الأحياء .. وإلا فما همك وشغلك بما ليس لك ، ولا أنت منه في شيء .

٣٧٩- رَبِّ مُسْتَقْبِلِ يَوْمٍ لَيْسَ بِمُسْتَذِيرِهِ ، وَمَغْبُوطٍ فِي أَوَّلِ لَيْلِهِ قَامَتْ بَوَاكِيهِ فِي آخِرِهِ .

● قد نشاهد حياً معافى عند طلوع الشمس نشوان من روعة الحياة وبهجتها ، وقبل المغيب ذهب به الموت الى حفرة ، فشُيِّع بالبكاء والعيول . فهل من يعتبر؟.

٣٨٠- الْكَلَامُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ ، فَأَخْزَنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرَقَكَ . فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً .

● لك أن تقول ما شئت قبل أن تتكلم ، فإذا تكلمت فعليك أن تنسجم مع أقوالك وإلا ناقضت نفسك ، وأقت الحجة منها عليك (فإخزن لسانك) إلا عما يجلب خيراً أو يدفع شراً (كما تخزن ذهبك وورقك) بكسر الراء أي نفودك ، والمعنى: لا فرق بين الكلام والنقود ، كل منها يجب أن يملأ فراغاً ويسد حاجة (فرب كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة) وهي كلمة الجهل والحمق والغضب والعجلة ، يطلقها المتسرع بلا تقدير وروية الى أين تنتهي ، وماذا تهدم وتدمر . وتقدم الكلام عن ذلك مرات . أنظر شرح الخطبة ٩٤ فقرة « السكوت » .

٣٨١- لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ ، بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ ، فَإِنَّ اللَّهَ

فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ فَرَائِضَ يَحْتَاجُ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ .

● العاقل - بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة - لا يقول ما يجهل وما لا يفعل ،
ويكتم علمه اذا لم يجد له موضعاً ، فإن صيانة العلم خير من وضعه في غير موضعه ..
وأيضاً العاقل لا يتحدث عن نفسه ، ولا يدخل في جدال بلا جدوى ، ويحاول
أن يكون أقل كلاماً ، وأكثر عملاً وفهماً .

(فإن الله فرض على جوارحك الخ) .. لكل عضو من أعضاء الانسان حد
لا يتعداه ، وعمل خاص يعود على العامل ومجتمعه بالنفع والصلاح ، فإذا أساء
وتجاوز الحد ، واستغل طاقته وأعضائه في الإيذاء والإضرار بالآخرين - كان
مسؤولاً أمام الله ، وحقت عليه كلمة العذاب ، قال سبحانه : «إن السمع والبصر
والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» - ٣٦ الإسراء . وقال : « ما يلفظ
من قول إلا لديه رقيب عتيد - ١٨ ق . »

٣٨٢- إْحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ اللَّهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ ،
فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، وَإِذَا قَوَّيْتَ فَأَقْوَى عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ،
وَإِذَا ضَعُفْتَ فَأَضْعَفَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ .

● حث الإمام على طاعة الله ، وحذر من معصيته ، ولا أعرف شيئاً يُطاع به
الله سبحانه في عصرنا أعظم من جهاد النبي وأهله ، ولا شيئاً يعصى الله به أشد
من الثاقل والتكاسل عن هذا الجهاد المقدس .. أبداً لا بر اليوم ولا إحسان ولا
خير عند الله يعادل جهاد أعدائه وأعداء أمة محمد (ص) الذين احتلوا جزءاً من
أرضنا ، ويخططون مع قادة الاستعمار الحديث لإذلالنا واستعبادنا نحن المسلمين ..
وهل للإسلام من عزة وكرامة إذا كان أهله أذلاء منكوبين ، وضعفاء محقرين ؟

٣٨٣ — الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ مَا تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ . وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ الْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غِبْنٌ . وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ عَجْزٌ .

● المراد بالركون هنا العمل للدنيا دون الآخرة ، وهذا عين الجهل ، لأنه عمل يزول ويفنى ، وإهمال لما يدوم ويبقى .. ومن أيقن بالربح وأحجم عنه فهو من الخاسرين .. ومن الجهل والحمق أن تثق بإخوان العلانية ، وأنت تجهل حقيقتهم . وكل ذلك تقدم مراراً .

٣٨٤ — مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا .

● كل الآثام والموبقات من الكفر والزندقة ، والظلم والغش ، والكذب والرياء ، والحسد والحقد والقجور والفساد ، كل أولاء وما إليها لا تكون ولن تكون إلا في الدنيا ، ولا مقر للشيطان وحزبه في غيرها ، وكفاها بذلك سوءاً وقبحاً . والمراد بتركها ترك المحرمات .

٣٨٥ — مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضُهُ .

● من جدّ واجتهد في طلب شيء ممكن الوقوع والحصول بالنسبة الى طالبه — فلا بد أن يناله كله أو بعضه ، ان استمر في جهاده وصَبَرَ صَبَرَ الأحرار على ما يعترضه من عقبات .

٣٨٦ — مَا خَيْرٌ بِخَيْرِ بَعْدَهُ النَّارُ . وَمَا شَرُّ بِشَرِّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ .
وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ
عَافِيَةٌ .

● هذا هو المقياس الوحيد للخير والشر عند الإمام ، فكل ما يؤدي الى جنّة الله ورضوانه فهو خير ، وكل ما يؤدي الى غضبه وعذابه فهو شر . وتقدم في الخطبة ١٨٨ قوله : « فإن الغاية القيامة » ويأتي قوله : « الغنى والفقر بعد العرض على الله » . ومن أجل هذا وحده طلق الدنيا ثلاثاً ، وأخرجها من قلبه ، ولو كان في قلبه شيء منها لتعتته أبناؤها بالمعلم الأول في السياسة .

٣٨٧ — أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ . وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ .
وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ . أَلَا وَإِنَّ مِنَ النَّعَمِ
سَعَةَ الْمَالِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةُ الْبَدَنِ ، وَأَفْضَلُ
مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ .

● الفاقة : الفقر ، وهو مرض ، بل الموت الأكبر كما قال الإمام في الحكمة ١٦٢ ، ومع هذا فإن مرض البدن أشد منه آلاماً وأوجاعاً .. وأيضاً يمنع عن الحركة والعمل بخلاف الفقر فإنه يبعث على الكفاح والنضال ، وربما كان خيراً في عاقبته ، فأكثر العباقرة من البائسين والمعدمين .. وكل إنسان يؤثر الصحة مع الفقر على الغنى مع المرض ، وأشد الأمراض على الإطلاق أمراض القلب ، وهي كثيرة ومتنوعة كأمراض البدن ، ومنها الضلال والنفاق ، والحقْد والكبرياء ، ولكن الناس لا يحسون بأدواء القلب ، لأنها مغلفة بالشهوات تماماً كالسم بالعسل . وبالقلب ينشط صلاح الجسد كما في الحديث الشريف : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلّحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » .

وتسأل : ان الكثير من مرضى القلوب كالمجرمين أبدانهم سليمة من الأمراض ،
فما هو المبرر لقول الرسول (ص) : إذا صلح القلب صلح الجسد ؟ .
الجواب : مراد الرسول (ص) بصلاح الجسد أن أعضائه لا تجترح المآثم
والمحرمات كالزنا والسرقة والقتل والضرب والكذب والغيبة ، وما الى ذلك مما تتبع
أسبابه من مرض القلب وشهواته ، ولذا قال الرسول (ص) : صلح الجسد ، ولم
يقل صح أو سلم .

وبعد أن أشار الإمام الى النعمة ومراتبها الثلاث قال : ان مراتب النعمة أيضاً
ثلاث : عليا، وهي التقوى، ودنيا وهي سعة الرزق، ووسطى وهي صحة الجسد على
العكس من النعمة بشئ أقسامها .

٣٨٨ — لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ : فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ،
وَسَاعَةٌ يَرْمِ مَعَاشَهُ ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا
فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمَلُ . وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا
فِي ثَلَاثٍ : مَرْمَةٍ لِمَعَاشٍ ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ ، أَوْ لَذَّةٍ
فِي غَيْرِ حَرَمٍ .

● لا شيء أعز من العمر ، ويحدد العمر بالوقت، والوقت بالساعات ، وإذن فلا
شيء أعز وأغلى من الساعات ، ومن هنا وجب تقنينها وتنظيمها ، وقسمها الإمام
على الوجه التالي :

١ — (ساعة يناجي ربه) ليس المراد بالمناجاة هنا الصلوات والدعوات، كما
قال الشارحون : بل المراد — على منطلق الإمام — أن يتخلى الإنسان عن أهوائه
وأوهامه ، ويواجه الحقيقة بجرأة وشجاعة ، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، كما
قال الإمام في الخطبة ٨٨ و ٢٢٠ فيذكرها بالله وأيامه ، وأنها قادمة عليه، ومائلة
بين يديه للحساب والجزاء ، وانه لا نجاة لها إلا بتقوى الله والعمل الذي يعود على
العامل وسواه بالخير والصلاح .

٢ - (ساعة يرمّ معاشه) يرمّ : يُصلح ، والمعنى على الإنسان أن يعمل لمطالب الحياة وحاجاتها بالوسائل المشروعة كي تستقيم وتستمر في طريقها القويم ، وقال العلماء: ان الانسان خليفة الله في أرضه لعمارتها وإصلاحها والعيش من خيراتها، قالوا هذا في تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة: « اني جاعل في الأرض خليفة » .

٣ - (ساعة يُخَلِّي بين الخ) .. هذه الساعة للتنفيس بالمتعة والراحة ، وهي استجمام للقلب ونشاط وقوة منعشة للساعة الأولى والثانية .. وأنا محروم من هذه الساعة ، ومالي اليها من سبيل ، ولكن طبيعة عملي ، وهو التأليف وبخاصة « التفسير الكاشف » و « في ظلال نهج البلاغة » - قد جمع بين الساعة الأولى والثانية ، وأدخل إحداها في الأخرى ، وإذا كان في الشاي والتدخين راحة وممتعة تداخلت الساعات الثلاث ، وأصبحت كالساعة الواحدة مناجاة وتأليفاً وترويحاً .

(وليس للعاقل أن يكون شاخصاً الخ) .. أي مشغولاً ومهتماً (إلا في ثلاث) وهي الساعات التي سبق ذكرها : السعي من أجل الحياة الدنيا ، والتزوّد للمعاد ، والترويح عن النفس في نطاق حلال الله وحرامه .

٣٨٩ - أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا يُبْصِرُكَ اللَّهُ عَوْرَاتِهَا ، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ .

● رغبة الانسان في الشيء تعميّه عن معائبه ، وزهده فيه يُكشّفه على حقيقته .. وأنت اذا زهدت في الدنيا عرفت أخبارها وأوضاعها ، ومصيرها وتحذيرها ، وإن صحبتها راغباً فيها جهلت حقيقتها وكان مالك الندم والخسران .

٣٩٠ - تَكَلَّمُوا تُعْرِفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَحْبُودٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

● (تكلموا تعرفوا) إن كنتم من أهل الفضل والمعرفة وإلا فالسكوت خير وأفضل ، وفي مستدرک نهج البلاغة ان الإمام قال : « تكلموا في العلم تُعرف

أقداركم » وواضح ان العالم ينبغي أن يتكلم اذا وجد الراغب الفاهم وإلا « من باع درأ على الفحام ضيعه » . وتقدم مع الشرح في الحكمة ١٤٧ : المرء منخبوه تحت لسانه .

٣٩١ — خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا آتَاكَ ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأُجِبْ فِي الطَّلَبِ .

● الحلال الطيب كثير في هذه الحياة، فعلى من ما تيسر فهو قسمتك ونصيبك ، وإن رغبت في المزيد فاسع إليه في حدود حلال الله وحرامه ، ولا تعتد إن الله لا يحب المعتدين .

٣٩٢ — رَبِّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ .

● « رَبِّ » كلمة خبيثة أثارت حرباً ، وأهلكت البلاد والعباد ، و« رَبِّ » كلمة طيبة ألانت القلوب ، ومهدت سبل الخير والسلام . قال سبحانه : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار — ٢٦ ابراهيم » .

٣٩٣ — كُلُّ مُقْتَصِرٍ عَلَيْهِ كَافٍ .

● من اقتصر على ما أصاب من سعيه ورضي به فقد كفاه . لأن معنى الكفاية اطمئنان النفس والرضا بال مكتوب، فلا تتشوق النفس الى سواه، وكل من وثق بالله، وأدرك الدنيا حقيقة، وأنه تاركها الى غيره لا محالة — يصل الى البلغة والكفاية. ومن دعاء نبي الرحمة (ص) : اللهم ارزقني كفافاً ، وارزق آل محمد كفافاً .

٣٩٤ — الْمَنِيَّةُ وَلَا الدِّينِيَّةُ . وَالتَّقَلُّ وَلَا التَّوَسُّلُ . وَمَنْ لَمْ يُعْطَ قَاعِداً لَمْ يُعْطَ قَائِماً . وَالْدَّهْرُ يَوْمَانِ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ .

● المنيّة : الموت ، والدنيّة: العار ، والمعنى: الموت أولى من ركوب العار ، والتقلل : الاكتفاء بالقليل ، والتوسل الى الناس التقرب اليهم بما يرضيهم والطلب منهم ، وليس من شك ان القليل مع العفة والكرامة خير من الكثير مع الدناءة والمذلة (ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً) المراد بالقاعد هنا هو الساعي والطالب برفق ، والمراد بالقائم الساعي والطالب بعنف ، والمعنى ارفق في السعي والطلب ، فإن لم تدرك حاجتك من هذه السبل فإنك لن تدركها من سبيل العنف .

(والدهر يومان) لوان : شدة ولين ، فإن اشتد وقسا فلا تموتن حزناً وأسفاً ، وإن هان ولان فلا تنتفخ كبراً وعجباً .. ونخذ من الضيق والشدة درساً وعظة تنتفع بها في حياتك ، وكن عند السعة والدعة شاكراً متواضعاً ، وحذراً من المخبات والمفاجآت .

٣٩٥ — مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ .

● الغوائل : جمع الغائل أو الغائلة أي الشر .. والمعنى ان الناس يريدون منك ما تريده منهم ، وهو كف الأذى عنهم ، والجري في المعاملات على أخلاقهم وعاداتهم ، ومن ألزم نفسه بذلك أمن شر الناس وغدرهم .. ومن البهامة أن الإمام يريد مداراة الناس وموافقتهم فيما يجيزه الشرع ولا يأباه العقل .

٣٩٦ — وَقَالَ لِبَعْضِ مُحَاطِيهِهِ (وَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ يُسْتَصْغَرُ مِثْلُهُ

عَنْ قَوْلٍ مِثْلِهَا : لَقَدْ طَرْتُ شَكِيرًا ، وَهَدَرْتُ سَقْبًا
وَالشَّكِيرُ هُنَا أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ قَبْلَ أَنْ
يَقْوَى وَيَسْتَخْصِفَ ، وَالسَّقْبُ الصَّغِيرُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلَا
يَهْدِرُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَفْجِلَ .

● كان هذا المتكلم من أهل الجهل ، ولكنه ظهر أمام سيد الكونين بعد رسول
الله (ص) بمظهر العلماء ، فأدبه الإمام بهذه الكلمة ، ولا أعرف جريمة تحمل معها
العقوبة عليها إلا جريمة الدعوى بغير الحق .. فلقد طلب هذا المدعي الاحترام
بالادعاء الكاذب ، فعوقب بالازدراء والاحتقار ، وأولُ من ادعى بالباطل لإبليس
فكان نصيبه اللعنة الى يوم الدين . وقال بعض الحكماء : « الادعاء رعونة لا
يحمل القلب إمساكها ، فيلقىها الى ألسنة الحمقى » .

٣٩٧ — مَنْ أَوْثَمًا إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْحِيلُ .

● أوثمًا : أشار ، ومتفاوت : متناقضات ، وفي تفسير هذه الحكمة أقوال
ذكرها ابن أبي الحديد ، وأرجحها ما ذهب اليه ميثم والشيخ محمد عبده ،
ويتلخص بأن من حاول التأليف بين المتناقضات كالجمع بين رضوان الله ومعصيته،
وبين الاعتداء على الآخرين والفوز بجهنم وثقتهم — فقد حاول المحال .

٣٩٨ — (وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)
فَقَالَ : إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَكْنَا ،
فَمَتَى مَا مَلَكْنَا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَفْنَا ، وَمَتَى أَخَذَهُ
مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَلَيْنَا .

● الحول : الحركة والتصرف . ولا حول الخ .. ثلاث كلمات تحمل أضخم المعاني ، وانه لا ملك إلا لله ، ولا عون إلا منه ، ولا حركة إلا بعنايته .. وعليه فإذا قال قائل : أنا أملك هذا ، أو فعلته ، أو أعطاني إياه فلان — كان قوله مجازاً لا حقيقة ، لأن الكون بما فيه ومن فيه لله وحده .. حتى أنفسنا هي في قبضته موتاً وحياة ونفعاً وضراً ، وإليه تعود .. فمن أعطى شيئاً فإنما يعطي من مال الله ، ومن منع فقد منع مال الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير اذك على كل شيء قدير — ٢٦ آل عمران » .

٣٩٩ — وَقَالَ لِعَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ (وَقَدْ سَمِعَهُ يُرَاجِعُ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ كَلَاماً) : دَعُهُ يَا عَمَارُ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَسَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ لِسَقَطَاتِهِ .

● لا يلتزم المغيرة بشيء من الدين إلا ما كان وسيلة لمآربه ، ومن أجل هذا يختلق لنفسه الشبهات عن عمد يتعلل بها لمرامه وآثامه . وقال ابن أبي الحديد ، وهو يشرح هذا الكلام عن ابن شعبة : إن جماعة من المسلمين قد فسقوا المغيرة ، لأنه مالاً الفاسقين ، وأعطى البطن والفرج ما سألا . ، وصرف الوقت في غير طاعة الله ، ولعن علياً على المنابر حتى مات .. وأيضاً نقل ابن أبي الحديد عن الأغاني لأبي الفرج : ان المغيرة ما أسلم إلا خوفاً من القتل ، فقد كان مع جماعة في سفر فسقاهم حتى عملت فيهم الكأس ، فقتلهم جميعاً طمعاً بأموالهم ، ثم ذهب الى المدينة فأسلم على يد النبي (ص) وكان النبي لا يرد على أحد لإسلامه ، فاعتصم المغيرة بالإسلام من القتل .

٤٠٠ — مَا أَحْسَنَ تَوَاضَعِ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ،
وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهَ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللَّهِ .

● التيه : التكبر ، وإذا كان التواضع فضيلة لأنه خضوع وانقياد للحق فالتكبر على الباطل والطغيان أيضاً فضيلة ، بحكم التلازم العقلي والواقعي .. هذا ، الى ان تكبر الفقراء على الأغنياء ينطوي على التوكل والقناعة والرضا بما يتر الله ، أما تواضع الأغنياء للفقراء فهو حسن ، ما في ذلك ريب ، لأن الغنى يبعث القسوة في القلوب ، كما يشهد البيان وقول الله ورسوله وأهل بيته ، فإذا شغل غني عن هذه القاعدة فعنى ذلك انه يسع الناس بأخلاقه ، وانه تغلب على هوى القلب وميوله .. ومع هذا فإن تيه الفقراء على الأغنياء أفضل وأكمل ، لما أشرنا اليه من ان هذا التيه يدل على الإباء والقناعة والتوكل على الله تعالى .

٤٠١ — مَا أَسْتَوْدَعَ اللَّهُ أَمْرًا عَقْلًا إِلَّا أَسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْمَ مَا .

● بالعقل نميز الخطأ عن الصواب ، والضار عن النافع ، والحق عن الباطل .. وإذا ظفر الهوى بالعقل حين القدرة على الملمات والطيبات — فإن العقل ينتصر ، لا محالة ، حين تبرز للعيان البلية النازلة العاجلة . وإذن فالعقل منجد ومنقذ في ساعة من الساعات ، وان اكتنفته الأهواء والشهوات في أكثر الأحيان .

٤٠٢ — مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَّعَهُ .

● ومثله في الحكمة ١٨٧ « من أبدى صفحته للحق هلك » . وفي الحكمة ٣٢٦ « ما ظفر من الظفر إلا ثم به ، والغالب بالشر مغلوب » دنيا وآخرة ، أما في الآخرة فواضح ، وأما في الدنيا فهو مغلوب أولاً بالحجة ، وثانياً انه ملعون على كل لسان حتى تقوم الساعة .. وشهد التاريخ مذلة الضعفاء المحقين ، وجبروت

الطغاة المبتطلين ، ولكن سرعان ما كشف التاريخ نفسه عن عورات هؤلاء، وأخذت الحقيقة مكانها .

هذا ، الى ان الباطل لا ينتصر إلا في بيئة الفساد والباطل ، وإلا في مجتمع كسول متخاذل ، ينأى على الضيم والعدوان ، ويرضخ للهون والهوان ، والشاهد العدل وضعُ العرب مع اسرائيل .. وبالمُناسبة قرأت اليوم ١٦-٤-١٩٧٣ مقالاً في بعض الصحف قال فيه كاتبه من جملة ما قال : « نحن العرب كقبائل الهنود الحمر في امريكا حيث استطاع غزاة اوروبا أن يكسبوا الى جانبهم بعض هؤلاء القبائل الأخرى من الهنود ، ثم قضى الغزاة على حلفائهم ، واستولوا على القارة الأمريكية كلها » .

٤٠٣ — الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَرِ .

● المراد بالمصحف هنا ما يرسم في القلب من صور الكائنات التي تدرك بالحس ، والمعنى ان القلب يستقي معلوماته من مصادر شتى ، منها العيان والمشاهدة . وكلمة مصحف تسمى الى أن رؤية العين حق . أنظر شرح قوله في الخطبة ١٣٩ : « والحق أن تقول : رأيت » .

٤٠٤ — التَّقَى رَيْنُسُ الْأَخْلَاقِ .

● قال ابن أبي الحديد ما معناه : « المراد بالأخلاق هنا الأخلاق الدينية الشرعية لا العقلية ، لأن معنى التقى طاعة الله في تكاليفه الشرعية .. وصفة الجود والشجاعة والحلم والعفة تكون في المتقين وفي الذين لا يؤمنون بشرع ولا دين » .

ويلاحظ بأن الدين يقدر الفضائل بشتى أنواعها ، وقد نص على الصدق والإيثار ، والصبر والجهد ، والنجدة والتعاون .. هذا ، الى ان كل ما يحكم به العقل يحكم به الشرع ، وإن حكم الشرع يُستكشف من حكم العقل ، ونجزم

بوجوده عن هذا الطريق ، وإن لم يثبت النص عن الشارع بالسماع منه مباشرة أو بواسطة النقل .

٤٠٥ — لَا تَجْعَلَنَّ ذَرْبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ ، وَبَلَاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ .

● ذرابة اللسان : فحشه وبداءته ، وتكون للفصاحة أيضاً ، والمعنى: أنت تتقلب بنعم الله تعالى ، فلا تتخذ منها ذريعة الى معصيته . وتقدم مع الشرح قوله في الحكمة ٣٢٩ : أقل ما يلزمكم لله أن لا تستعينوا بنعمه على معصيته .

٤٠٦ — كَفَاكَ أَدَبًا لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ .

● من انسجم مع نفسه ، وأنصف الناس منها فهو الأديب المهذب ، وليس من الآداب والأخلاق في شيء أن تطلب من غيرك ما تركته أنت عن تقصير وعمد. وتكرر هذا بأساليب شتى ، منها في الحكمة ٤٥٢ : أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله.

٤٠٧ — مَنْ صَبَرَ صَبَرَ الْأَحْرَارَ وَإِلَّا سَلَ سُلُوكِ الْأَعْمَارِ .

● الأعمار : جمع غمر ، وهو الجاهل ، والمعنى: كل من نزلت به نازلة فلا بد أن يسلوها وينصرف عنها مع مرور الزمن تماماً كما ينصرف الجاهل عن الشيء الذي يجهله ، وما دام هذا هو الواقع فعلام الجزع والهلوع ؟. أليس الأولى بمن نزلت به مصيبة أن يملك نفسه ويحملها على يقينه بأن الجزع لا يجدي نفعا ، ولا مصدر له إلا الوهم والخيال .

٤٠٨ — (وَقَالَ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مُعْزِيًّا) : إِنْ صَبَرْتَ صَبِرَ
الْأَكْرَمُ وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ .

● لا تختلف هذه الكلمة عن سابقتها في المعنى ، وتقدم في الحكمة ٢٩٠ قوله معزياً لهذا الأشعث الأغر : ان صبرت جرى عليك القدر ، وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر ، وأنت مأزور .

٤٠٩ — وَقَالَ فِي صِفَةِ الدُّنْيَا : تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ . إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَهَا
ثَوَابًا لِأَوْلِيَائِهِ وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ ، وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا
كَرَّكِبَ بَيْنَنَا هُمْ حَلُّوا إِذْ صَاحَ بِهِمْ سَائِقُهُمْ فَارْتَحَلُوا .

● تمر : من المرارة ، والمعنى الدنيا دار عمل وجهاد ، وامتحان بالبأساء والضراء.. بل وبالنعاء أيضاً ، وما هي للحساب والجزاء « ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم — ٣١ محمد » أي حتى تظهر الأفعال التي تميز العامل من العاقل عن العمل بتقصير منه وتهاون ، وأيضاً تميز الصابر عن الحق مهما كانت الظروف والصدمات ، تميزه عن الذي يعطف الحق على شهواته ، والدين على رغباته . ومن البدهية ان الجزاء لا يكون إلا بعد الامتحان والاختبار . وتقدم ذلك مراراً ، منها في الخطبة ٤٢ « اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » والخطبة ١٠٩ « غرارة ضرارة .. أكالة غوالة » أي الدنيا .

٤١٠ — وَقَالَ لِابْنِهِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا بُنَيَّ لَا تُخْلَفَنَّ وَرَاءَكَ
شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّكَ تُخْلَفُهُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ
بِطَاعَةَ اللَّهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ ، وَإِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ .

فَكُنْتُ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ هَذَيْنِ حَقِيقًا أَنْ تُؤْثِرَهُ
عَلَى نَفْسِكَ (وَيُرْوَى هَذَا الْكَلَامُ عَلَى وَجْهِ آخَرَ وَهُوَ) : أَمَّا بَعْدُ
فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدِكَ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَتْ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ وَهُوَ صَائِرٌ
إِلَى أَهْلِ بَعْدِكَ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا
جَمَعَتْهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ ، أَوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ
فَشَقِيَ بِمَا جَمَعَتْ لَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ هَذَيْنِ أَهْلًا أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ
وَلَا أَنْ تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ ، فَارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ اللَّهِ وَلِمَنْ بَقِيَ
رِزْقَ اللَّهِ .

● ينتقل المال من يد الى يد، نقداً كان أم غير نقد .. كان هذا القصر والحديقة
لزيد ، وهما الآن لعمرو ، وغداً لبكر .. وهكذا كل متاع وحطام تتداوله الأيدي
ثم تتركه الى غيرها ، وتنتقل الى غيرها ، ولا تأخذ معها شيئاً ، ويقول الإمام
لكل ذاهب تارك : أنت تكدح وتجمع لغيرك ، وهو بدوره يتصرف فيه كما
يشاء ، فإن أنفقه فيما يُرضي الله كان هو الراجح المشكور عند الله والناس على
شيء ما تعب فيه ولا أجهد نفسه ، وكنت أنت الخائب الخاسر ، لأنك زرعت
وغيرك حصد ، وبנית وسواك سكن .. وإن أنفقه فيما يفضب الله كنت المعين
له على الإثم والعدوان .

فأنت على كل حال في شقاء وعذاب ، سواء أسعد غيرك بما تركت أم شقي
به ، وكان الأليق بك والأجدر أن تنفق بيدك ما جمعت فيما يبقى لك خيره
وأجره ، وتدع غيرك الى رزق الله ورحمته . وتقدم هذا مرات ، منها في الخطبة
١٠٧ « فيكون المهناً لغيره والعبء على ظهره » وفي الحكمة ١٢٠ « عمل تذهب
لذته وتبقى نبعته » . وأيضاً يأتي .

٤١١ - وَقَالَ (لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ) : تِكَلَّتْكَ أُمُّكَ
أَتَدْرِي مَا أَلِاسْتِغْفَارُ ؟ أَلِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعَالِيَيْنِ . وَهُوَ أَسْمُ وَأَقْعُ
عَلَى سِتَّةٍ مَعَانٍ : أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى . وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ
الْعُودِ إِلَيْهِ أَبَدًا . وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى
تَلْقَى اللَّهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبَعَةٌ . وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ
فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ صَيِّغَتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا . وَالْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ
الَّذِي نَبَتَ عَلَى الشَّحْتِ فَتُذَيِّبُهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ
وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ . وَالسَّادِسُ أَنْ تُذَيِّقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا
أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ .

● معنى الاستغفار طلبُ المغفرة .. ولكل مذهب أن يسأل الله العفو والمغفرة بلا
قيد وشرط تماماً كما نقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله طائعين وعاصين لله
ورسوله ، بل لا مانع من العقل والشرع أن يغفر الله بعض الذنوب لسبب آخر
غير التوبة وطلب المغفرة ، لأن رحمته وسعت وتسع كل شيء ، ولأنه تعالى أمر
عباده بالعفو عن أساء اليهم بلا طلب من المسيء ، وأمر بالإحسان إلى المحايين
بلا سؤال من المحتاج .. وما أمرهم بذلك إلا لأنه أهل العفو والجود .
والمعاني الستة التي ذكرها الإمام هي شروط للمستغفر الذي يطمح إلى الدرجة
العليا عند الله بدليل قوله : (الاستغفار درجة العالين ، وهو اسم واقع على ستة
معانٍ) .

- ١ - (الندم على ما مضى) أي الشعور بالذنب ، والخوف من عاقبته وآثاره ،
وتأنيب النفس على فعله ، ويعبر عن هذا المعنى أدهاء العصر بنقد الذات .
- ٢ - (العزم على ترك العود إليه أبداً) . هذا هو العلاج الشافي والدواء
الكافي لاستئصال الداء من الجذور ، وبقية الشروط لدرجة العالين .

٣ - (أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم الخ) .. لأن على البد ما أخذت حتى تؤدي الشيء الذي أخذته إما بعينه ان كان لا يزال قائماً ، واما بمثله أو قيمته مع التلف ، ولا يسقط بمجرد العزم على ترك العودة كبعض الحقوق الإلهية .

٤ - (ان تعتمد الى كل فريضة عليك الخ) .. إذا فاتك شيء من العبادات الواجبة كالصلاة والصيام فعليك أن تقضيه كما فات ، سواء تبت من ذنوبك ، أم لم تبت ، والفرق أنك إذا قضيت بلا توبة تعاقب على تهاونك بتأخير الفريضة عن وقتها ، وأيضاً تعاقب على ترك التوبة ، أما إذا قضيت مع التوبة فلا حساب عليك ولا عقاب إطلاقاً .

٥ - (ان تعتمد الى اللحم الذي نبت على السحت الخ) .. وهو المال الحرام.. ومن أكل منه حتى اشتد العظم ونبت اللحم فينبغي له أن يخفف وزنه بطريق أو بآخر حتى لا يبقى سوى جلده وعظمه فقط ، أما من أكل لقمة واحدة من الحرام أو أكثر فيخفف وزنه بمقدار ما أكل من الحرام . وعن رسول الله (ص): « من أكل لقمة من حرام لا تقبل منه صلاة أربعين ليلة ، ولا تستجاب له دعوة أربعين صباحاً ، وكل لحم ينبت من حرام فيلى النار ، واللحمة الواحدة ينبت بها اللحم » .

وإذا كان لللقمة الواحدة من الحرام هذا الأثر البالغ فكيف بمن يسعى سعيه المحموم لينهب ويسيطر على أقوات العباد في شرق الأرض وغربها ، كما حوّل معظم الانتاج الى الصناعة العسكرية للغاية نفسها !!

٦ - (أن تذيب الجسم ألم الطاعة الخ) .. كفر عن سيئاتك بفعل الحسنات ، وعن تقصيرك بالجد والاجتهاد في خدمة الناس ، ومغالبة النفس وأهوائها الشيطانية.

٤١٢ - الحِلْمُ عَشِيرَةٌ .

● اذا حلمت عن السفه كثير أنصارك عليه ، كما قال الإمام في الحكمة ٢٢٣ .
والأنصار عشيرة ، بل لا خير في العشيرة اذا لم توازر وتناصر .

٤١٣ - مَسْكِينُ ابْنِ آدَمَ مَكْتُومُ الْأَجَلِ ، مَكْنُونُ الْعِلَالِ ،
مَحْفُوظُ الْعَمَلِ ، تَوَلَّيْتُ الْبَقَّةَ ، وَتَقَتَّلْتُ الشَّرْقَةَ ، وَتَنَتَّنْتُ
الْعَرَقَةَ .

● كل كائن ممكن فيه جانبان : سلب وإيجاب ، قوة وضعف ، وأشار الإمام
في حكمته هذه الى بعض جوانب الضعف في الانسان ، وهي :

- ١ - انه لا يدري في أي زمان أو مكان يموت .
 - ٢ - ان علله وأمراضه النفسية والجسمية لا يُحصى عديدها ، والكثير منها
مجهول السبب والدواء .
 - ٣ - انه مسؤول عن كل ما يفعل ومجازى عليه .
 - ٤ - إن أحقر مخلوق كالبقة تؤله وتمرضه ، وانه بالقياس اليها ضئيل من هذه
الجهة كما انها ضئيلة بالقياس الى عقله ومواهبه .
 - ٥ - إن الماء قد يخنق أنفاسه ، ويودي بحياته مع العلم بأن الماء سبب الحياة .
وتقدم مثله في الحكمة ٢٧٥ .
 - ٦ - انه اذا عرق أنثى . وهذا منتهى العجز والضعف .
- وغرض الإمام من هذا البيان ان الانسان قد يأخذه الغرور ويتعالى على غيره
من الكائنات لا لشيء إلا لأنه اخترق المجهول بعقله ، واخترع آلة توصله الى
القمر والمريخ ، وثانية أطلعت على أسرار الخلائق ، ورابعة ضبطت له الآلوف
في ثانية ، وتنبأت ببعض الأحداث .. الى ما لا نهاية .. قد يتعالى الانسان ويشمخ
ويرى نفسه أعظم من سائر المخلوقات لهذه الغاية ، فنبهه الإمام الى ان ما من
مخلوق حتى النملة والبقة إلا وفيه جهة إيجابية تجعله أشد وأقوى المخلوقات من هذه
الجهة . وقدماً قيل : « إن البعوضة تدمي مقلة الأسد » .
- والخلاصة ان الازدواجية بين الضعف والقوة تشمل جميع الكائنات دون استثناء
وهي القاسم المشترك بين الجميع .

٤١٤ - (وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ جَالِساً فِي أَصْحَابِهِ فَمَرَّتْ بِهِمْ أَمْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَهَا الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ) فَقَالَ : إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفَحُولِ طَوَامِحُ ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا ، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى أَمْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيَلَامِسْ أَهْلَهُ فَإِنَّمَا هِيَ أَمْرَأَةٌ كَأَمْرَأَةِ (فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ : قَاتَلَهُ اللَّهُ كَافِرًا مَا أَفْقَهُ ! فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ) فَقَالَ : رُوَيْدَا إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ .

● طوامح : جمع طامح ، وهبابها - بفتح الهاء - هيجانها ، والمعنى ان نظرة الرجل الى المرأة في بعض الأحيان قد تكون داعية الى شهوتها ، والشهوة طريق الفتنة . ولذا قال سبحانه لنبيه الكريم « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن - ٣١ النور » . واعتبر الإمام قول الخارجي سباً لا تكفيراً ، لقريته خاصة ظهرت له من ظروف المقام وملابساته . وعفا عنه لأن العفو أقرب للتقوى .

وبهذه المناسبة نشير الى أن العقاد في كتاب « العبقريات » قال عن ثقافة الإمام فيها قال : « الكلم الجوامع التي رويت عن الإمام هي طراز لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة ، وقد قال النبي (ص) : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل . وهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام في حكمته التي تقارن بحكم الأنبياء .. وتزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيباً من ذوق الجلال » .

٤١٥ - كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سَبِيلَ خَيْرِكَ مِنْ رُشْدِكَ .

● قد يملك الانسان عقلاً يخترع به أدق الآلات ، كسفينة الفضاء والعقل

الالكتروني ، ويتنبأ من القرائن الخفية بما سيقع من الأحداث ، ويكشف أسرار الطبيعة ويكيفها حسبما يشاء ، ولكن هذا وحده لا يجعل الانسان عاقلاً بالمعنى الصحيح إلا اذا استعمل عقله وعلمه فيما ينفع ولا يضر، أما اذا استغلتهما في الكذب والخداع ، والتخويف والصوصية ، أما هذا العقل وهذا العلم فهما شر ووبال ، وفساد وضلال .

٤١٦ - أَفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ ،
وَقَلِيلُهُ كَثِيرٌ ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنَّ أَحَدًا أَوْلَى
بِفَعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ وَاللَّهِ كَذَلِكَ . إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ
أَهْلًا فَمَا تَرَ كُتُمُوهُ مِنْهَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ .

● كل فعل ينتفع به فاعله ولا يضر أحداً - فهو خير ، وأفضل أفراداه ما ينفع الآخرين .. والفرق بين الحق والخير ان الخير إشباع للرغبة على أساس الحق والعدل ، أما الحق فقد يوافق الرغبة ، وقد يكون على ضدها . ولذا قيل : الحق مر وثقيل . واذا قُصد بالعمل النافع وجه الله سبحانه فهو خير على خير . ولما كان الخير عظيماً بطبعه كان قليله عظيماً وكثيراً . قال سبحانه : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - ٧ الزلزلة » . وتقدم قول الإمام في الحكمة ٩٣ : وكيف يقل ما يُتقبل ؟.

(ولا يقولن أحدكم الخ) .. أشار الإمام الى ما هو شائع بيننا من ان أحدنا قد يدعى لكشف ملمة أو قضاء حاجة ، فيجيب الداعي بأن فلاناً أولى مني بهذا الفعل . قال ابن أبي الحديد بلسان حال الإمام : « فيكون والله كذلك أي ان الله سبحانه يوفق فلاناً هذا الى الخير دون المدعو اليه » . وهكذا كل من يستكشف عن الخير والمعروف يسجل على نفسه انه ليس من الخير في شيء (إن للخير والشر أهلاً الخ) .. بادر الى عمل الخير تكن من أهله ، ودع الشر لمن غضب الله عليه ، وأعد له عذاب الحريق .

٤١٧ - مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلاَئِقَتَهُ . وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ
كَفَاهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ كَفَاهُ
اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

● الانفعالات النفسية تنعكس على الأقوال والأفعال ، بل وعلى الأجسام أيضاً ،
فن كان لثيماً حقوداً على الناس دل قوله وفعله على سوء قصده وخبث سريرته ،
ومن كان طيباً يحب الخير لعيال الله ظهر أثر ذلك على حركاته وتصرفاته . وتقدم
مع الشرح قوله في الخطبة ١٥٤ : « فبالإيمان يُستدل على الصالحات ، وبالصالحات
يُستدل على الإيمان » وفي الحكمة ٢٥ : « ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات
لسانه وصفحات وجهه » .

(ومن عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه) أي ان الدين لا يفقر الإنسان ، ولا
يعوقه عن العمل من أجل الرزق ، بل ان الله سبحانه يعين المؤمن ويوفقه في
عمله من أجل العيال والأطفال . وقلنا مراراً : ان كل عمل تدعو اليه الحاجة
كالمأكل والملبس والمسكن فهو لله ومن الدين في الصميم . ومن أحسن فيما بينه
وبين الله الخ بكف الأذى عن عبادته ، وبالعمل لمصلحتهم - أحبوه وأكبروه .

٤١٨ - الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ ، فَاسْتَرْ خَلَلَ
خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ .

● الحلم يستر بعض العيوب ، وجلّ من لا عيب فيه ، فإن لم تحلم لذات الحلم
وفضله فتحلّم لتستر بعض ما فيك من عيوب . وتقدم ذلك مراراً ، منها في
الحكمة ١٠٦ . والعقل أمضى سلاح تصد به عدوك ، والهوى من أعدائك الألداء ،
فتغلب على هواك بعقلك .

٤١٩ — إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَخْتَصِمُهُمُ اللَّهُ بِالنَّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيُقِرُّهَا فِي
أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا ، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَهَا
إِلَى غَيْرِهِمْ .

● قوله : (ان لله عباداً الخ) .. قضية جزئية لا تشمل كل من أنعم الله عليه ،
لأن الموضوع نكرة في إيجاب ، وعليه يكون المعنى ان حكمة الله سبحانه قضت
أن يتخذ من بعض عباده وسيلة للبذل في سبيل الخير ، فإن فعلوا أبقي النعمة
بأيديهم وإلا نقلها الى من هو أولى وأجدر . وتقدم مع الشرح قوله في الحكمة ١٢ :
« إذا وصلت اليكم النعم فلا تنفروا أقصاها بقله الشكر » . وقوله في الحكمة ٣٧١ :
« فمن قام لله بما يجب في نعمه عرضها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم فيها بما يجب
عرضها للزوال والفناء » .

٤٢٠ — لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصَلَتَيْنِ : الْعَافِيَةِ وَالْغِنَى ، يَبْنَا
تَرَاهُ مُعَافَى إِذْ سَقِمَ ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إِذْ أَفْتَقَرَ .

● لا تطيب الحياة الدنيا إلا بالمال والصحة ، وقد يظفر الانسان بهما معاً أو
بأحدهما ، ومن فقدهما بعد أن وجدهما وقع في غمّين ، وان فقد واحداً وقع في
غم واحد إلا اذا ارتقب وانتظر المفاجآت والمخبات فيهن عليه الخطب بعض
الشيء ، والدرس النافع من حدوث السقم بعد الصحة ، والفقر بعد الغنى — هو أن
لا نثق إلا بالله ، وأن نتوكل عليه وحده ، ونستغني به عن سواه .

٤٢١ — مَنْ شَكَا الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا شَكَاهَا إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
شَكَاهَا إِلَى كَافِرٍ فَكَأَنَّمَا شَكَاهَا إِلَى اللَّهِ .

• شكوى المؤمن الى مثله لا تستدعي السخط على قضاء الله وعدم الرضا بقدره ، لأن كلاً منهما مؤمن بذلك .. هذا الى ان المشكو اليه يخفف عن الشاكي ، ويأمره بالصبر ، ويشره بالأجر ، ويدعو له بالخير ، أما شكوى المؤمن الى كافر فهي تشبه الاعتراف ضمناً بكفر الكافر وتشجيعه ، وكأن المؤمن يقول للكافر : أرأيت ما صنع الله بي على ايماني به ؟ وأيضاً يشمت الكافر بالمؤمن ويقول له بلسان الحال أو المقال : أرأيت الى خطأك وضالك ؟ ومن هنا كانت الشكوى للكافر شكوى على الله .

٤٢٢ — وَقَالَ فِي بَعْضِ الْأَعْيَادِ : إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللَّهُ صِيَامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ ، وَكُلُّ يَوْمٍ لَا يُغْصَى اللَّهُ فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ .

هذا هو مبدأ الإمام ونهجه وقياسه : « ما خير بخير بعده النار ، وما شرّ بشرّ بعده الجنة » كما في الحكمة ٣٨٦ . « ولا خير في شيء من أزواد الدنيا إلا التقوى » كما في الخطبة ١٠٩ .. أبدأ لا فرحة ولا ثروة إلا الزحزحة عن النار .

٤٢٣ — إِنَّ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ وَدَخَلَ الْأَوَّلُ بِهِ النَّارَ .

• كان المسكين يأنس ويفرح بما أصاب من مال الحرام، ويحزن ويجزع اذا خاب سعيه له ، أو فقد شيئاً منه بعد نواله ، ثم ترك كل ما أصاب منه الى وارث صالح ، فأنفقه في وجهه .. ولما وقف الاثنان بين يدي الجبار للحساب والجزاء أثاب الوارث

بلا كد وتعب ، وعاقب المورث على كدحه وأتعبه .. والنتيجة ان حسرة هذا توازي فرحة ذلك .

٤٢٤- إِنْ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً ، وَأَخْيَبَهُمْ سَعِيًّا رَجُلٌ أُنْخِلَ
بَدَنُهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ ،
فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ وَقَدِمَ عَلَى الْآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ .

● كدح في طلب المال لغاية في نفسه ، وضحي من أجلها بدينه وآخرته، ولكن الأجل حال بينه وبينها ، فانتقل من حسرة الى ما هو أشد ، انتقل من عذاب الدنيا الى عذاب الآخرة ، من تبديد الجهود بلا جدوى الى بئس المصير.. وتصدق هذه الصورة على الكثير من الفئات ، يحتكر هذا التاجر ليكون في طليعة أغنياء العالم ، ويحون ذلك المرتزق ليصل الى الحكم والسلطة ، فيخطفه الموت بعد أن يدفع الثمن ، وقبل أن يقبض الثمن ! فهل من مدكر ؟ قتل الانسان ما أكفره !.

٤٢٥- الرِّزْقُ رِزْقَانِ : طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ
الْمَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا
حَتَّى يَسْتَوْفِيَ رِزْقَهُ مِنْهَا .

● (طالب) أي رزق من غير احتساب (ومطلوب) وهو الذي صممت عليه، وسعيت اليه (فمن طلب الدنيا) لا يلوي على شيء (طلبه الموت) وأدركه قبل أن يبلغ من الدنيا حاجته، (ومن طلب الآخرة الخ) .. وسعى لها سعيها نال منها ما أراد، ومن قبل أخذ من دنياه ما كفاه . وتقدم مع الشرح قوله في الخطبة ٩٧ : « وطالب للدنيا والموت يطلبه » وفي الحكمة ٣٧٨ : « الرزق رزقان الخ » ..

٤٢٦ — إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا ، وَاشْتَغَلُوا بِأَجْلِهَا إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا ، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمَيِّتَهُمْ ، وَتَرَكَوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّه سَيَتَرَكُهُمْ ، وَرَأَوْا اسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا اسْتِقْلَالًا . وَدَرَكَهُمْ لَهَا فَوْتًا . أَعْدَاءُ مَا سَلَّمَ النَّاسُ ، وَسَلَّمَ مَا عَادَى النَّاسُ . بِهِمْ عُلِمَ الْكِتَابُ وَبِهِ عَلِمُوا . وَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا . لَا يَرَوْنَ مَرْجُوءًا فَوْقَ مَا يَرُجُونَ ، وَلَا خَوْفًا فَوْقَ مَا يَخَافُونَ .

● تقدم الكلام عن الأولياء والأتقياء مكرراً في الخطب والرسائل والحكم السابقة، وعاد الإمام الى الحديث عنهم، كما هو دأب الدعاة الناصحين ، عسى أن يصادفوا أذنًا واعية بالتكرار والإعادة . وذكر الإمام من أوصافهم ما يلي :

١ — (هم الذين نظروا الى باطن الدنيا اذا نظر الناس الى ظاهرها) للدنيا ظاهر وباطن ، ظاهر خادع كاذب من نظر اليه وحده شغل به قلبه ، وانصرف عن آخرته ومصيره، ومن نظر الى باطنها وواقعها اتخذها وسيلة الى سعادته الأبدية تماماً كما فعل أولياء الله وأحبابه .

٢ — (واشتغلوا بأجلها الخ) .. الهاء في آجلها تعود لفظاً الى الدنيا، ومعنى الى الآخرة ، لأنها تأتي عقب الدنيا ، والمعنى ان الصلحاء لا يتنافسون على الدنيا ، ولا يشيرون من أجلها الحروب ، بل يعملون بالمثل السائر « دع مئة زهرة تفتتح » .

٣ — (أماتوا منها ما خشوا أن يميتهم) كالطمع والجشع ، والحقد والنفاق .

٤ — (تركوا منها ما علموا انه ستركهم) كل ما زاد عن حاجتك فأنت تاركه لغيرك لا محالة ، وهو أيضاً تاركك بطبيعة الحال ، لأنك لا تنفق منه شيئاً، وإذن فعلام تلهث في طلبه ؟ اللهم إلا إذا أردت به وجه الله وخدمة عياله وعباده ، ليكون لك ذخراً وأجرأ كريماً .

٥ (رأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ، ودركهم لها فوتاً) عابوا أن الإنسان — في الأغلب — كلما كثر ماله قلّ خيره ، وكلما أدرك شيئاً من دنياه فاته الكثير من دينه . وبكلمة كلما أسرف في الماديات ازداد بعداً عن الروحانيات .

٦ — (أعداء ما سالم الناس الخ) .. المترفون يعادون الحق ، لأنه حرب على أطماعهم ، والأولياء ينصرون الحق ، لأنه لا نصير لهم سواه . والمترفون ينصرون الباطل والضلال ، لأنه يُشبع أهواءهم ورغباتهم ، والأولياء حرب عليه وعليهم .

٧ — (بهم عُلّم الكتاب وبه علموا) استمدوا علمهم من كتاب الله ، وأذاعوه على الناس (وبهم قام الكتاب) أي أقاموا الدليل القاطع على صدقه وحجته (وبه قاموا) أي عملوا . وبالاختصار: إن العالم حقاً وواقعاً هو الذي تعلّم وعلم وعمل . وهذه هي نخلة المؤمن الولي ، والعالم النقي .

٨ — (لا يرون مرجواً الخ) .. لا يرجون شيئاً إلا الصفح والرحمة من الله ولا يخافون إلا من سخطه وعذابه . وتقدم في الحكمة ٨٠ : « لا يرجون أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه » . والخوف من الله رقيب الأعمال ، أما رجاء الرحمة من الله فنعم الشفيع إلى رضوانه ، والويل كل الويل لمن ظن بالله ظن السوء : « الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً — ٦ الفتح » .

٤٢٧ — أَذْكُرُوا أَنْقِطَاعَ اللَّذَاتِ وَبَقَاءَ التَّبِعَاتِ .

● تبعة الشيء عاقبته ، والمعنى ما تصنع بلدة تذهب بعد ثوانٍ ، ويبقى حسابها وعقابها ؟ . وواضح أن الأمور تقاس بآثارها وما يترتب عليها من خير أو شر .

٤٢٨ — وَقَالَ : أَخْبِرْ تَقْلِيهِ (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَرُوي هَذَا لِلرَّسُولِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وَمِمَّا يُقَوِّي أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ

المؤمنينَ مَا حَكَاهُ ثَعْلَبُ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ : قَالَ الْمَأْمُونُ :
لَوْلَا أَنَّنِي عَلِيًّا قَالَ « أَخْبِرْ ثَقْلَهُ » لَقُلْتُ : : أَقْلَهُ تَخْبِرُ) .

● اخبر - بضم الباء - فعل أمر من الاختبار ، وثقله - بفتح التاء وأسكون القاف - من القلي أو القلاء أي البغض والمقت ، فعل مضارع مجزوم بجواب الأمر ، وعلامة الجزم حذف حرف العلة من آخره ، والهاء للسكت . ومعنى قول المأمون ان حقيقة الشخص تعرفها من مبغضه وعدوه لا من محبه وصديقه ، لأن عين الرضا تريك السيء حسناً ! . ويلاحظ بأن عين البغض أيضاً تريك الحسن سيئاً . ولا تعرف حقيقة الشخص إلا بالتجربة المجردة عن الرضا والسخط .

٤٢٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ

الزِّيَادَةِ . وَلَا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ

الْإِجَابَةِ . وَلَا لِيَفْتَحَ لِعَبْدٍ بَابَ التَّوْبَةِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ

الْمَغْفِرَةِ .

● الشكر أن ترى ما بك من نعمة فمن الله ، وأن لا تعصيه في أمر ونهي ، وهذا الشكر سبب لزيادة النعمة ، لأن الذي وهبها كتب ذلك على نفسه حيث قال : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » - ٧ ابراهيم . وقوله تعالى الصدق ، ووعد الحق . والدعاء مع العمل بطاعة الله سبب للهداية الى طريق الفوز والنجاح . أما التوبة فهي أنجح الوسائل لعفو الله وكرمه . وتقدم الكلام عن ذلك كله مراراً .

٤٣٠ - (وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيُّمَا أَفْضَلُ الْعَدْلُ أَوِ الْجُودُ) فَقَالَ :

الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا .
وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ . فَالْعَدْلُ
أَشْرَفُهَا وَأَفْضَلُهَا .

● يفترق كل من العدل والجود عن الآخر في أمرين : الأول ان العدل ضد الانحراف والإجحاف، فأى شيء وضعته في مكانه المقرر له فقد عدلت وأنصفت ، فإذا انحرفت به عن موضعه فقد جُرت وأجحفت ، أما الجود فهو فضل وإحسان تماماً كالرحمة — مثلاً — إذا كان لك حق على آخر ، واستوفيته منه بلا زيادة فهذا عدل وإنصاف ، وإن ساحت وتنازلت بلا عوض فهو جود تُمدح عليه وتُشكر « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم — ١٥٨ البقرة » . وقول الإمام: (الجود يخرجها من جهتها) أي يتجاوز بالأشياء عن مواضعها الى جهة البر والإحسان ، لا الى جهة البغي والعدوان .

الثاني (العدل سائس عام) أي أساس ونظام للحياة بشئى جهاتها ، فالقوة بلا عدل هي استبداد ، والحرية بلا عدالة فوضى، والعلم بلا إنصاف ضلال وفساد، وبالتالي فلا حياة بلا عدل (والجود عارض خاص) لا يشمل جميع نواحي الحياة ، وهي تم وتستقيم بلا جود .

٤٣١ — النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

● تقدم بالحرف الواحد في الحكمة ١٧٨ . أنظر شرحها في الصفحة ٣٢٦ من هذا المجلد .

٤٣٢ — الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
« لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » ،

وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ
بِطَرَفَيْهِ .

● الزهد هو الرضا بالميسور ، ومعنى الكلمتين في الآية الكريمة واضح ، تقول الأولى : لا تحزنوا لمفقود ، وتقول الثانية : لا تفرحوا بموجود ، لأن الفائق لا يُتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالخبرة على حد تعبير حكيم قديم . وقال آخر : لا أقول لشيء كان : ليت لم يكن ، أو لشيء لم يكن : ليت كان . وتكرر فيما سبق حديث الزهد .

٤٣٣ — مَا أَنْفَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ .

● تقدم بالنص الحرفي في الخطبة ٢٣٩ . أنظر ج ٣ ص ٣٧٠ ويتلخص المعنى بأن للنوم منافع ، منها ان الانسان قد يعزم على الشيء فإذا نام تبخر العزم .

٤٣٤ — أَلْوَلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ .

● مضامير : جمع مضمار ، وهو المكان والزمان اللذان تُضَمَّرُ فيهما الخيل للسباق ، وبعد المضمار يُعرف الجواد من البرذون ، وكذلك تعرف الرجال بعد تولي الرئاسة والسلطان .. وكَم من وديع قبل أن يحكم أصبح وحشاً كاسراً حين الحكم .

٤٣٥ — لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ ، خَيْرُ أَلْيَالِدٍ مَا حَمَلَكَ .

● ليس المهم أن تعيش في هذا البلد دون ذاك ، فأى بلد تعيش فيه كإنسان ،

له حريته وكرامته لا كحيوان مسخر للطغاة والمستغلين فهو بالقياس اليك خير مقر ووطن . وبكلمة ، المهم كيف تعيش لا أين تعيش ؟ . وتقدم مع الشرح في الحكمة ٥٥ : الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة .

٤٣٦ - وَقَالَ (وَقَدْ جَاءَهُ نَعْيُ الْأَشْتَرِ رَحِمَهُ اللَّهُ) : مَا لِكَ وَمَا
مَا لِكَ ! لَوْ كَانَ جَبَلًا لَكَانَ فِنْدًا ، لَا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ
وَلَا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ . (وَالْفِنْدُ الْمُنْفَرِدُ مِنَ الْجِبَالِ) .

● الصلد : الصلب الأملس ، والحافر للدابة بمنزلة القدم للانسان ، ولا يرتقيه : لا يصعد عليه ، ولا يوفي عليه : لا يعلو عليه ، والمعنى ان الأشتر كان عظيم المنزلة في دينه وخلقه ، عالي الهمة في شجاعته ومروءته ، وفي جهاده وتضحيته.

٤٣٧ - قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ تَمْلُولٍ مِنْهُ .

● اقرأ : في كل يوم درساً واحداً بفهم وروية ، وواظب عليه سنوات تصبح عالماً متمكناً من العلم الذي درسته ، وإذا أثمرت من الدروس وطي الأوراق اختصاراً للوقت فإنك تمل ولا تهضم شيئاً مما قرأت ودرست ، وفي النهاية تتسم بسمات أهل العلم ، وما أنت منهم في شيء إلا الشكل . وتقدم مع الشرح في الحكمة ٢٧٧ قوله : « قليل تدوم عليه أرجى من كثير يملول منه » .

٤٣٨ - إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ ذَائِعَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتَهَا .

● إذا رأيت نفحة خير من إنسان فارتقب أمثالها ونظائرها ، لأن تلك النفحة

ثمرة من شجرة ، وفرع من أصل . وتقدم مع الشرح قوله في الخطبة ١٦ :
« حق وباطل ، ولكل أهل » وفي الحكمة ٤١٦ : « ان للخير والشر أهلاً » .

٤٣٩ — (وَقَالَ لِيُغَالِبَ بْنِ صَغَصَعَةَ أَبِي الْفَرَزْدَقِ فِي كَلَامٍ دَارَ
بَيْنَهُمَا) : مَا فَعَلْتَ لِإِبْلِكَ الْكَثِيرَةِ ؟ قَالَ ذَعَدَعْتُهَا الْحُقُوقُ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ذَلِكَ أَحْمَدُ سُبُلَهَا .

● ذعدعتها : فرقتها ، والمراد بالحقوق هنا الزكوات والصدقات ، وليس من
شك ان بذل المال في هذه السبيل أفضل وأجدى من أي سبيل آخر .

وقال ابن أبي الحديد : كان غالب هذا شيخاً كبيراً يملك الكثير من الإبل ،
فوفد على الإمام أيام خلافته ، ومعه ولده الفرزدق الشاعر الشهير ، وهو غلام
يومئذ ، فسأله الإمام عن إبله ، ثم عن الغلام ؟ قال : هو ابني ، وقد رويته
الشعر وكلام العرب . فقال له الإمام : لو أقرأته القرآن لكان خيراً له ، فكان
الفرزدق يروي ذلك ويقول : ما زالت كلمة الإمام في نفسي ، وقيدت رجلي
بقيده ما فككته حتى حفظت القرآن .

٤٤٠ — مَنْ أَتَجَرَ بِغَيْرِ فِقْهِ فَقَدْ أَرْتَطَمَ فِي الرِّبَا .

● ارتطم : وقع . والربا من كبائر المحرمات أخذاً وعطاءً ، ويكون في القرض
وغيره ، وله شروط ، وفروعه كثيرة ، يقع الالتباس فيها أو في الكثير منها ،
ولذا أمر الإمام أرباب التجارة أن يتفقهوا في مسائل البيع والدَّين كيلا يقعوا في
الحرام . واستقصى الفقهاء كل ما يتصل بالربا من قريب وبعيد . ومن أراد
التوسع في معرفة الربا وفروعه فعليه بملاحقات عروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي .

٤٤١ - مَنْ عَظَّمَ صِغَارَ الْمَصَائِبِ أَتَبَلَّاهُ اللَّهُ بِكِبَارِهَا .

● ملك عظيم زال ملكه ، ورأى نفسه في طرفة عين كأحد السوقة ، لا يملك شيئاً حتى مقدار موطيء قدمه .. فإذا يصنع ؟ هل يبكي وينوح ؟ ولنفترض انه بكى وشكى فهل يعود ما فات ؟ ومتى كان البكاء حلالاً المشاكل ؟ ان الهم والغم يشل العقل والجسم ، ويضعف المصاب ، ويحوّله الى كارثة مهلكة .. ان آخر قياصرة الصين كان أعظم ملك على وجه الأرض ، وما زال حياً يرزق ، وحين ذهب ملكه تناسى كل شيء ، وعمل في إحدى الحدائق بأجر زهيد، يسقي الزهور ، ويقتلع الأعشاب الطفيلية بيده ، وألف العديد من الكتب عن حياته كعبرة وعظة لكل من ينتفع بالعظات والعبر .

وهكذا كل عاقل ينسجم مع عالمه وواقعه وإلا انفصل عن هويته ، وعاش في عالم الأساطير والخرافات .

٤٤٢ - مَنْ كَرَّمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ .

● مقياس الكرامة عند الله والناس هو أن يملك الإنسان نفسه ، ويعمل بوحى من دينه وعقله ، ويصبر عند الملمات صبر الأحرار ، أما من أسلس قياده للشهوات فقد أهدر كرامته بنفسه . وقيل للحكيم: ما تشتهي ؟ قال : أشتهي أن لا أشتهي.

٤٤٣ - مَا مَزَحَ أَمْرُو مَزْحَةً إِلَّا مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةٌ .

● مجّ الشراب : رمى به من فقه ، ويقال : هذا كلام نمجه الأسماع أي تستكرهه .. والمزاح في حدود الله وحلاله جائز ، والحرام منه ما يؤدي الى الحرام . وكان رسول الله يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وفي بعض الروايات : ان اعرابياً كان يأتي لزيارته ، فراه يوماً في السوق ، فجاء من ورائه وغطى عينيه وقال له :

من أنا ؟ . وقال لعجوز : إن العجائز لا تدخل النار . ولما بكت قرأ قوله تعالى :
« إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً — ٣٧ الواقعة » .

٤٤٤ — زُهِدْكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ
فِيكَ ذُلٌّ نَفْسٍ .

● لا ترهد في راغب ، ولا ترغب في زاهد ، لأن معنى زهدك في راغب فيك
أنك تأبى وترفض قلباً مخلصاً لك ، وإخلاص القلوب قوة وثروة ينبغي العمل
من أجلها والتضحية في سبيلها ، ولذا قال الإمام في الحكمة ١١ : أعجز الناس
من أعجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .. أما
رغبتك فيمن زهد فيك فهو ان " وصغار .

٤٤٥ — أَلْغِنِي وَالْفَقْرُ بَعْدَ أَلْعَرَضِ عَلَى اللَّهِ .

● القوة والثروة والعزة كلها في مرضاة الله والقرب من رحمته ، والفقر والذل
والضعف كله في غضبه تعالى . هذا هو مقياس الفضل والحق والخير عند الإمام .
أنظر شرح الحكمة ٤٢٢ .

٤٤٦ — مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرَ ، أَوَّلُهُ نُطْقَةٌ ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ ، لَا
يَرْزُقُ نَفْسَهُ ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ .

● أشرنا فيما سبق الى انه ما من شيء إلا وفيه جانبان : سلب وإيجاب ، ضعف
وقوة ، وأشار الإمام في العديد من أقواله الى جانب الضعف في الانسان من بدايته

وفي أدوار حياته الى مصيره .. فأوله نطفة وعلقة ، وآخره عظام نخرة ، وجيفة قلدة ، وهو في ريعان شبابه وأوج قوته لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .. وغرض الإمام من ذلك أن يعرف الانسان حده ، ويقف عنده . ولا يرى نفسه كبيرا والخلاق صغارا .

٤٤٧ — (وَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ) فَقَالَ : إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلَبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَأَمْلَكَ الضِّلِيلُ (يُرِيدُ أَمْرًا الْقَيْسِ) .

● الحلبة : الدفعة من سباق الخيل ، والمراد بالقصة هنا ما تُنصب في السباق ، ويأخذها السابق كعلامة على انه الرابع الفائز .. وُسمي امرؤ القيس بالضليل ، لأنه كان إباحياً يستحل جميع المحرمات كأبي نواس .

ويقول الإمام : إن من شرط التفاضل بين شاعرين أن ينظما في موضوع واحد تماماً كفرسي الرهان يجريان في ميدان واحد ، أما إذا نظم أحدهما في معنى ، والثاني في معنى آخر ، فيصعب التفاضل بينهما .. وإذا لم ننظر الى هذا الشرط بعين الاعتبار فامرؤ القيس هو المقدم . هذا هو المعنى المفهوم من كلام الإمام .

وليس من شك ان الشرط الذي ذكره لا بد منه للتمييز بين شاعرين أو ناثرين فيما يعود الى الفكر والإبداع ، والإلهام والابتكار، أما التفاضل في الأسلوب والبيان فلا يفتقر الى هذا الشرط، لأن فن الأداء والتعبير يدل بنفسه على نفسه أينما كان .. بخلاف الفكر والعلم . وبمثال للتوضيح : لا يقال : هذا في الطب أعلم من ذاك في الهندسة ، ويقال : هذا أفصح بيانا وأحسن تعبيرا من ذاك حتى ولو كان أحدهما طبيباً والآخر مهندساً . وعليه يكون غرض الإمام التفاضل من حيث الفكر والإلهام لا من حيث التعبير والبيان .

٤٤٨ — أَلَا حُرٌّ يَدْعُ هَذِهِ اللَّامَظَةَ لِأَهْلِهَا ؟ إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ
ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا .

● اللامظة — بضم اللام — كما في مجمع البحرين للطريحي هي بقية الطعام في الفم ،
والمراد بها هنا الدنيا ، والمعنى لا تعملوا للدنيا وحدها ، وتهملوا العمل للجنة ،
واعملوا لها معاً ، ولا تتعرضوا بمعصية الله لغضبه ، واعتصموا بطاعته يدخلكم
جنتان تجري من تحتها الأنهار .

٤٤٩ — مَنِ هُوَ مَنْ لَا يَشْبَعَانِ : طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا .

● لذة العلم عند أهله تفوق لذة المال . وكان أحد العلماء يقول : أين الملوك
وأبناء مما نحن ؟ أما لو فطنوا لنا لقاتلونا على العلم بالسيوف .. واللذة توجب
العشق ، والعاشق لا يشبع ، وكلما استكثر ازداد تلهفاً . أما منهوم المال فقد
صوره الرسول الأعظم بأبلغ صورة ، وهي قوله : لو كان له جبلان من ذهب
لتمنى لهما ثالثاً .. وأيضاً لو ملك الثالث لتمنى الرابع .. لا تشبعه إلا حفرة في التراب
« أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر — ٢ التكاثر » .

٤٥٠ — الْإِيمَانُ أَنْ تُؤَثِّرَ الصَّدَقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ
يَنْفَعُكَ ، وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ ،
وَأَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ .

● الصدق حسن بالذات ، والكذب قبيح كذلك . ومع هذا قد يجب الكذب ،
ويحرم الصدق دفعاً للمفسدة وجلباً للمصلحة ، كما لو رأيت سفاكاً يعدو خلف

بريء ليغتاله ، وسألك السفاك : هل رأيت هذا الرجل ؟. وأيضاً يُقبل الكذب في فن الحرب ، ومن الطبيب ليطمئن المريض ، وعليه يكون مراد الإمام بالضرر هنا ما يمكن تحمله ولا يجوز دفعه وإزالته بإضرار الآخرين ، كالشهادة بالحق على الطغاة المبطلين وإن غضبوا وشتوا .

(وان لا يكون في حديثك فضل من عملك) المؤمن لا يتحدث عن نفسه ، وإن دعت الحاجة فلا يختلق ويتزبد حتى ولو كان في الزيادة منفعة له. وهذا أيضاً من الصدق وإيثاره على الكذب (وان تتقي الله في حديث غيرك) لا تذكره بما يؤذيه ، ولا تنسب إليه ما ليس فيه .

٤٥١ — يَغْلِبُ الْمَقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَةٌ فِي التَّذْيِيرِ
(وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِيمَا تَقَدَّمَ بِرِوَايَةِ تَخَالُفِ هَذِهِ
الْأَلْفَاظِ) .

يشير الشريف الرضي بهذا الى الحكمة ١٥ « تذل الأمور للمقادير حتى يكون الحُتف في التقدير » . أنظر شرحها في ص ٢٢٥ من هذا المجلد .

٤٥٢ — الْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ تَوَاقُفَانِ يُنْتَجِبُهُمَا عُلُوُّ أَهْمَةٍ .

● عالي الهمّة هو الذي يزهد في الحُفِير ، ويتطلع الى الخُطِير ، ويتحمل المشاق في سبيله ، ومن كان هذا شأنه يصبر على أذى الناس، ويسمعهم بأخلاقه ، ويعفو عند المقدرة .

٤٥٣ — الْغَيْبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ .

● الغيبة من المحرمات ، وقد نفّر منها سبحانه بقوله : « أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً — ١٢ الحجرات » . وقالوا في حد الغيبة المحرمة : أن تذكر انساناً بفعل الحرام الذي تستر به ولم يقم عليه حد . وفي رأينا يجوز ذكر الغائب بكل ما فعل من المحرمات التي نهى الله عنها ، وإن تستر ولم يجاهر ، شريطة أن يكون الذاكر متزهاً عما عاب به غيره ، وأن يكون غرضه بيان الحق لوجه الحق . وفي ذلك رواية عن الإمام جعفر الصادق في كتاب « مصباح الشريعة » . وقول الإمام : « جهد العاجز » يوصى الى ذلك ، وإن الذاكر قصد الانتقاص من الغائب ، والتشكيك به بكل سبيل ، ولما لم يجد إلا سبيل الغيبة التجأ إليها .

٤٥٤ — رَبُّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ .

● المراد بالمفتون هنا المغرور ، والمعنى من يهتم بثناء الناس ومدحهم فهو سخييف تافه لا يعتمد على جهده ، ولا يثق بكفاءته ، ويتوكل على السراب الخادع .

٤٥٥ — الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا .

● ومثله في الحكمة ١٣٢ « الدنيا دار ممر لا دار مقر » وفي الخطبة ١٥٥ « فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة » . (ولم تخلق لنفسها) ولو ان الدنيا خلقت لنفسها لكانت دار الخلود .

٤٥٦ — إِنَّ لِيْنِي أُمَّةً مُرُودًا يَجْرُونَ فِيهِ ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمْ الضَّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ .

● المروء : من أروء لإرواداً ورويداً أي تمهل ، والمراد بالمروء هنا المدة التي يكون فيها الأمويون يداً واحدة ، وكادتهم : مكرت بهم ، والضباع : جمع الضبع نوع من السباع الضعاف ، يقال : ضبّع الرجل أي جبن ، وربّما المراد بالضباع هنا أبو مسلم الخراساني وجيشه حيث كان في بداية أمره أضعف خلق الله ، والمعنى ان دولة الأمويين تبقى حتى يختلفوا فيما بينهم ، وعندئذ يسلبهم الملك والسلطان الذين كانوا أذلاء مستضعفين .

وقال المؤرخون : مات هشام بن عبد الملك ، والأمويون قلباً واحداً ، ودولتهم في أوج عظمتها ، وبعده تنازعوا على الملك ، وشهروا السيوف ، وقتلوا أنفسهم بأيديهم ، وكان الغالب ينتهب أموال المغلوب حتى أثاث البيت ، ويشرد ويسجن أهله وأولاده .. وبلغت بهم الحال ان الأحياء منهم كانوا ينبشون قبور موتاهم ويصلبونها على الأخشاب في الأماكن العامة ، كما فعلوا بجمعة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ولما رأى الناس منهم هذا وغير هذا ثاروا عليهم ، وقتلوه تحت كل حجر ومدر .

وفي الخطبة ٨٥ قال الإمام : ستقبل الدنيا على بني أمية ، ثم تدور عليهم فتطحنهم بكلكلها حتى لا ترى منهم باقية .

٤٥٧ — وَقَالَ (فِي مَذْحِ الْأَنْصَارِ) : هُمُ وَاللَّهُ رَبُّوا الْإِسْلَامَ كَمَا يُرَبِّي الْفُلُوعَ مَعَ غَنَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ السَّبَاطِ وَالسِّنَنِيهِمُ السَّلَاطِ .

● ربوا الإسلام : قوته التي بها أزهروا وأثمر : والفلو : المهر إذا بلغ سنة ، ومع غنائهم : مع استغنائهم أي أسلموا لوجه الله لا ييغون جزاءً ولا شكوراً ، والأيدي السباط : الأيدي الكريمة ، والألسنة السلاط : الألسنة الفصيحة .

كان الإسلام ضعيفاً في مكة المكرمة ، فوجد في الأنصار من أهل المدينة المنورة قوة رادعة ، وطريقاً جديداً لنشره وسلطانه . ومن هنا أتى الله عليهم ورسوله في العديد من آي الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول العظيم (ص) ، فمن الآيات :

« والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم - ٧٤
الانفال » . ومن الأحاديث: ان الأنصار أحب الناس إلي .. اللهم اغفر للأنصار
ولأبناء الأنصار .

٤٥٨ — الْعَيْنُ وَكَاءُ الْأَسِّ .

● هذه الكلمة وردت أيضاً في كلام النبي (ص) . والوكاء : رباط القربة ،
والأسس : مؤخر الإنسان ، والمراد بها هنا الوعاء ، والمعنى ان الأسس وعاء أو
كالوعاء تربطه العين كما يربط الوكاء القربة لحفظ ما فيها من الماء ونحوه ..
والغرض من هذه الإشارة التنبيه الى أن العين تحفظ الإنسان وتحرسه من بين يديه
ومن خلفه . هذا ما فهمناه من أقوال الشارحين والمعلقين وأهل اللغة في تفسير
هذه الكلمة .. وعسى أن يكون هو المراد .

٤٥٩ — وَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَأَسْتَقَامَ حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ .

● الجران : مقدم عنق البعير ، والباء زائدة ، يقال : ألقى البعير جرائه أي
برك واستراح ، والضمير في وليهم يعود للمسلمين ، والمراد بالوالي هنا رسول الله ،
كما في تعليق الشيخ محمد عبده ، والمعنى ان الإسلام تمكن في الأرض ، وأظهره
الله على الدين كله بفضل نبي الرحمة (ص) .

٤٦٠ — يَا أَيُّهَا النَّاسُ زَمَانٌ عَصُوضٌ يَعْصُ الْمُوسِرُ فِيهِ عَلَى مَا

فِي يَدَيْهِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ « وَلَا تَنْسَوُا
الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » تَنْهَدُ فِيهِ الْأَشْرَارُ وَتُسْتَذَلُّ الْأَخْيَارُ .

وَيَبَايِعَ الْمُضْطَرُّونَ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَلِهِ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّينَ .

● عضو : شديد ، ويعرض المورس : يقبض الغني يده ويمسك أمواله ، ولا
تنسوا الفضل : أحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وتنهض : ترتفع ، والبيع — بكسر
الباء وفتح الياء — جمع بيعه أيضاً بكسر الباء للهبة لا للمرة ، والمعنى يأتي زمان
على الناس قاسٍ وشديد ، يخل فيه الغني بماله ، والله يأمره بالعدل ، ويسود
فيه الباطل ، ويسيطر الأذئاب والذئاب ، يكلون بالأبرار والأحرار ، ويعم
الفساد والضلال ، وينقاد من ينقاد للحاكمين الباطل اضطراباً لا اختياراً، والإسلام
لا يقر معاملة المضطر أي المكره .

ولما فسرنا الاضطراب هنا بالإكراه ، لأن الفقهاء يصححون معاملة المضطر
دون المكره ، ويفلسفون ذلك بأن التجارة لا بد أن تكون عن تراض، والاضطراب
يجمع مع الرضا دون الإكراه كمن باع داره عن رضا وطيب نفس بدافع العلاج
وتكاليفه . وسبق الحديث عن آخر الزمان في الخطبة ١٠١ والحكمة ١٠١
و ٣٦٧ .

٤٦١ — يَهْلِكُ فِي رَجُلَانِ : مُحِبُّ مُفْرِطٍ وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ (وَهَذَا مِثْلُ
قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ) : هَلَكَ فِي رَجُلَانِ : مُحِبُّ خَالٍ ،
وَمُبْغِضٌ قَالَ .

● كل من الباهت والمفتري كذاب يرمي بالباطل ، ولكن الباهت صليق وقح ،
لأنه يرمي بالحضور ، والمفتري أعم يرمي بالحضور والغياب . وتقدم مثله مع
الشرح في الخطبة ١٢٥ . انظر ج ٢ ص ٢٤٦ والحكمة ١١٦ .

٤٦٢ — التَّوْحِيدُ أَنْ لَا تَتَوَهَّمَهُ ، وَالْعَدْلُ أَنْ لَا تَتِهَمَهُ .

● (لا تتوهمه) سبحانه وتعالى أي لا تتصوره في وهمك بشكل من الأشكال ، لأن التصور محدود ، والله لا يحده شيء ، ولا يحيط به شيء ، أزليٌّ أبدي لا أول له ولا آخر . والتفكير يجب أن يكون في خلقه تعالى وآياته تلا في حقيقته وذاته (لا تتهمه) بشيء يتنافى مع عظمته وحكمته «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه» فقنا عذاب النار — ١٩١ آل عمران . وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، منها في الخطبة الأولى والخطبة ١٨٥ وشرحها .

٤٦٣ — لَا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

● إذا كان الساکت عن الحق شيطاناً أخرس — كما قال رسول الله (ص) — فالقائل بالباطل شيطان ناطق . وتقدم الكلام عن ذلك مراراً ، منها في شرح الخطبة ٩٤ فقرة «السكوت» .

٤٦٤ — وَقَالَ (فِي دُعَاؤِ اسْتَسْقَى بِهِ) اللَّهُمَّ اسْقِنَا ذُلَّ السَّحَابِ دُونَ صَعَابِهَا .

● ذُلٌّ : جمع ذلول أي لين وسهل . قال سبحانه : « فاسلكي سبيل ربك ذللاً » — ٦٩ النحل . أي منقادة .. شبه الإمام السحاب الجذب الماحل بالبعير النفور المتمرد ، والسحاب المورق المثمر بالناقعة الطيعة الحلوب . وتقدم شرح خطبتي الاستسقاء ١١٣ و ١٤١ .

٤٦٥ — وَقِيلَ لَهُ (لَوْ غَيَّرْتَ شَيْئَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟) فَقَالَ :
الْخِصَابُ زِينَةٌ وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ .

● قال الشريف الرضي : يريد بالمصيبة وفاة رسول الله (ص) . وكان النبي (ص) يحب النظافة وحسن المظهر ، فيختضب ويتطيب ويستاك ويستعمل المشط والمرآة . وراه الإمام يوماً ، وقد خضب لحيته بالسواد ، فقال : ما أحسنَ هذا الخضب يا رسول الله ! . أفلا أخضب لحيتي اقتداء بك ؟ . فقال : لا ، دعها سيُبعث أشقى الأولين والآخرين شقيقُ عاقرِ ناقة صالح ، فيضربك على رأسك ضربة تُخضب منها لحيتك ، وأنت في السجود بين يدي الله . فقال الإمام : أفي سلامة من ديني يا رسول الله ؟ . قال : في سلامة من دينك .

٤٦٦ — أَلْقَنَاهُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

● تقدم بالحرف الواحد في الحكمة ٥٦ . أنظر شرحها في ص ٢٥١ من هذا المجلد .

٤٦٧ — وَقَالَ (لِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ ، وَقَدِ اسْتَخْلَفَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ عَلَى فَارِسَ وَأَعْمَالِهَا فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ كَانَ يَنْبَغُ نَهَاهُ فِيهِ عَنْ تَقَدُّمِ الْخَرَاجِ) : اسْتَغْمِلِ الْعَدْلَ وَأَحْذَرِ الْعُسْفَ وَالْحَيْفَ ، فَإِنَّ الْعُسْفَ يَعُودُ بِالْجَلَاءِ وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ .

● عطف الحيف على العسف من باب عطف التفسير ، والمراد بالجللاء هجرة أهل البلاد عنها فراراً من البغي والجور ، والمعنى لا تظلم أحداً من الرعية ، لأن الظلم يدعو المواطنين الى الثورة أو ترك البلاد ، وبالثورة تُسفك الدماء ، وبالهجرة تخرب البلاد .

٤٦٨ — أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا أَسْتَخَفَّ بِهِ صَاحِبُهُ .

● تقدم مع الشرح في الحكمة ٣٤٧ ، وهذا نصها بالحرف : « أشد الذنوب ما استهان به صاحبه »

٤٦٩ — مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا .

● العلم حسنٌ بذاته ، وطلبه راجح بحكم البديهة ، ولا يفتقر ذلك الى دليل من كتاب أو سنة .. وفي ذات يوم سألتني سائل : ما الدليل على جواز تعليم المرأة ؟ قلت له : ليس هذا سؤالاً . وإنما السؤال : هل هناك دليل على حرمة تعليمها ؟ لأن العلم بطبعه يحمل الدليل الكافي على رجحانه لكل إنسان ذكراً كان أم أنثى ، مؤمناً أم غير مؤمن ، بل هو لغير المؤمن ألزم وأرجح .

أما وجوب طلب العلم والإلزام به ، وهل هو فرض عين أو فرض كفاية ، أما هذا فيختلف بحسب الغاية المقصودة من طلبه ، فإن كانت الغاية إقامة ما لا بد منه لقوام الدين والحياة الدنيا — كان طلب العلم واجباً لتحقيق ذلك . وإذا كانت الغاية التحقق بفعل البعض دون الكل ، وفعل البعض ، وتحقيق المطلوب — كان الفرض كفايةً وإلا فهو فرض عين .. وقد يحرم طلب العلم إذا كانت الغاية منه التقتيل والتدمير ، والغش واللصوصية والعهر والفجور ، وما الى ذلك من المحرمات .

والإمام يتحدث هنا عن العلم الذي هو وسيلة لعمل الواجب ، ومن البداهة ان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وأيضاً من البداهة ان وجوب طلب العلم معناه التلازم والترابط بين وجوب التعلم والتعليم حيث لا تعليم بلا متعلم ، ولا تعلم بلا معلم ، فكل منهما جزء متمم للآخر .. ونختم الكلام هنا عن العلم بقول الإمام جعفر الصادق (ع) : « كن عالماً أو متعلماً أو محباً لها ، ولا تكن رابعاً فتهلك » أي جاهلاً مبغضاً للعلم وأهل العلم .

٤٧٠ — شَرُّ الْإِخْوَانِ مَنْ تُكَلِّفَ لَهُ .

● الأخ بحق هو الذي يخفف عن أخيه الموم والاثقال ، فإن زاده همأ على هم ، ونحلاً على حمل فهو من إخوان الزمان وأصدقاء المصلحة يُقْبَل عند الطمع، ويدبر عند اليأس .

٤٧١ — إِذَا أَحْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ .

● المراد بالاحتشام هنا الحذر والتحفظ وعدم الأئس والانطلاق . وهو دليل قاطع على عدم الثقة والتصافي .. ولو صحت النية وتوكدت الثقة والعلاقة لسقط التحفظ، وزالت الحدود والقيود .

كان الفراغ منه في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٣ نيسان سنة ١٩٧٣ م .

وأحمد الله الذي أكرمني بنعمة الصبر والجلد على ما كتبت ونشرت ، ووقائي من داء الكسل والملل ، وأذاقني حلاوة القراءة والكتابة ، ولم يشغلني عنها بشاغل مع أمان من الحاجة . وقد شكرته مخلصاً على ما ألفت قبل أن أكتب فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ، فزادني من إحسانه، وقادني بتوفيقه الى كتابة «فقه الإمام» من ألفه الى يائه عرضاً واستدلالاً .. وأيضاً شكرته على هذه النعمة الجليلة ، فتابع فيضه وفضله ، وهداني الى « التفسير الكاشف » .. وأيضاً حمدت وشكرت

فقبل سبحانه حمدي وشكري وزادني هذا الكتاب وفاءً لقوله : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » .

والآن أذكره وأشكره ، وأشهد على نفسي بالإهمال والتقصير .. قال الإمام زين العابدين (ع) : « اللهم ان أحداً لا يبلغ من شكرك غاية إلا حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً » وإذا وجب الشكر على الشكر للتوفيق اليه فكيف إذا كان مع هذا التوفيق فضل على فضل .. اللهم لا أستطيع شكرك بما أنت أهله .. فزدني من فضلك .. انك جواد كريم ، وصل على محمد وآله أشرف الخلق أجمعين من الأولين والآخرين .

الفهرست

الرسالة ٤٢

٥ الى مصقلة بن هبيرة

الرسالة ٤٣

٨ الى زياد ابن أبيه
١٠ العقاد ودهاة العرب

الرسالة ٤٤

١٢ الى عثمان بن حنيف الأنصاري
١٧ الشجرة البرية
٢٢ الإمام في جهاد دائم

الرسالة ٤٥

٢٤ الرفق بالرعية

الرسالة ٤٦

٢٦ حين ضربه ابن ملجم

الرسالة ٤٧

٣٠ أيضاً الى معاوية

الرسالة ٤٨

٣٣ الدنيا مشغلة

الرسالة ٤٩

٣٥ لا سرّ دونكم في الحرب

الرسالة ٥٠

٣٩ الى أصحاب الخراج

الرسالة ٥١

٤٣ أوقات الصلاة

الرسالة ٥٢

٤٥ عهد الأشر
٤٨ كل الناس من تراب
٥٠ المسلم والدول الإسلامية
٥٠ محبة الحاكم للرعية
٥٢ رضا الرعية
٥٤ الديمقراطية
٥٥ التسلط الطبقي
٥٥ الإسلام دين الجماهير
٥٧ كن مع الصادقين
٥٩ المشورة
٦١ الناس طبقات

٦٢	العرف والعادة
٦٣	مدارس العلماء
٦٣	تصنيف المجتمع
٦٥	الجنود حصون الرعية
٦٦	القوة والعدالة
٦٧	الضرائب
٧٠	قادة الجيش
٧٥	القضاة
٧٩	العمال
٨٠	الدولة والشخصية الاعتبارية
٨٢	الإمام ومطالب العمال
٨٥	الضرائب
٨٩	شروط الوزير
٩١	مقياس الحقيقة
٩٢	توزيع الأعمال
٩٣	الصناعة والتجارة بين القديم والجديد
٩٧	الطبقة السفلى
٩٨	فلسفة المساكين
١٠٣	حاجات الناس وفرائض الله
١٠٦	من أقسام الحق
١٠٨	بطانة الوالي وخواشيئه
١١١	الديمقراطية عند الإمام
١١٢	الشرط الأساسي في الصلح
١١٣	لا مجتمع بلا نظام
١١٣	إياك والدماء
١١٦	للحق سلاح لا تراه العيون

- ١١٨ من شروط القيادة
١٢٠ القدوة الصالحة

الرسالة ٥٣

- ١٢٣ الى طلحة والزبير

الرسالة ٥٤

- ١٢٧ أيضاً الى معاوية

الرسالة ٥٥

- ١٣١ الى شريح بن هاني

الرسالة ٥٦

- ١٣٣ الى أهل الكوفة

الرسالة ٥٧

- ١٣٥ الى أهل الأمصار

- ١٣٧ الإمام والقصاص من قتلة عثمان

الرسالة ٥٨

- ١٣٩ الى الأسود بن قطيبة

- ١٤٠ العدل والمساواة والعمل

الرسالة ٥٩

- ١٤٢ انجيش والمواطنون

الرسالة ٦٠

- ١٤٥ الى كميل بن زياد

الرسالة ٦١

- ١٤٧ الى أهل مصر
١٤٩ لولا عمر ما حكم أبو بكر

الرسالة ٦٢

- ١٥٤ الى أبي موسى الأشعري

الرسالة ٦٣

- ١٥٨ أيضاً الى معاوية

الرسالة ٦٤

- ١٦٤ أيضاً الى معاوية

الرسالة ٦٥

- ١٦٩ الى عبدالله بن عباس

الرسالة ٦٦

- ١٧١ الى قثم بن العباس
١٧٣ بيوت مكة وبيعها وابتجارها

الرسالة ٦٧

- ١٧٥ الى سلمان الفارسي

الرسالة ٦٨

- ١٧٨ الى الحارث الممداني
١٨١ الصاحب معتبر بصاحبه

١٨٢ مقياس العظمة عند الإمام
١٨٣ التعطيل يوم الجمعة

الرسالة ٦٩

١٨٥ الى سهيل بن حنيف

الرسالة ٧٠

١٨٨ الى المنذر بن الجارود

الرسالة ٧١

١٩١ أيضاً ابن عباس

الرسالة ٧٢

١٩٣ أيضاً معاوية

الرسالة ٧٣

١٩٥ بين ربيعة واليمن

الرسالة ٧٤

١٩٨ أيضاً الى معاوية

الرسالة ٧٥

٢٠٠ أيضاً لابن عباس

الرسالة ٧٦

٢٠١ أيضاً لابن عباس

الرسالة ٧٧

٢٠٣ الى أبي موسى الأشعري

الرسالة ٧٨

٢٠٧ الى امراء الجند

٢١٣ الكلمات القصار

٤٨٧ فهرست

مطبعة الجواهر
حارة حريك - لبنان

